

التَّائِيحُ الْإِسْلَامِيَّ

مَوَاقِفُ وَعِبَر

١٧

المَوَاقِفُ الْإِسْلَامِيَّةُ

دكتور

عبد العزيز بن عبد الله الحميدي

الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين

بجامعة أم القرى

دار النشر

للنشر والتوزيع

جدة

دار الدعوة

للطباعة والنشر والتوزيع

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

رقم الإيداع : ١٩٩٧/٥٦٣٢
الترقيم الدولي
8 - 151 - 253 - 977

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع

٢ شارع منشأ - محرم بك - الإسكندرية
ت : ٤٩٠١٩١٤ - فاكس : ٥٩٥١٦٩٥
مكتب توزيع القاهرة ت : ٣٨٣٢٧٤٧

دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع

حي السلامة - شارع عبد الرحمن السديري - مركز الزومان التجاري
ص.ب : ٤٢٣٤٠ - جدة : ٢١٥٤١ هاتف / فاكس : ٦٨٢٥٢٠٩
المملكة العربية السعودية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب الثاني

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله . .

وبعد : فأحمد الله تعالى على أن يسر لي إتمام هذه السلسلة التاريخية، التي اشتملت على السيرة النبوية، وعهد الخلفاء الراشدين، وعهد الأمويين والعباسيين والعثمانيين والدويلات المستقلة .

وهاأنذا أقدم المجموعة الأخيرة من هذه السلسلة، وهي تشتمل على أربعة كتب: الكتاب الأول في المواقف الأخلاقية، وهو ماتضمنه الجزء السابع عشر، والثاني في المواقف العلمية، وهو ماتضمنه الجزء الثامن عشر، والثالث في المواقف السلوكية، وهو ماتضمنه الجزء التاسع عشر، والرابع في المواقف التربوية، وهو ماتضمنه الجزء العشرون .

هذا وقد اعتمدت في إعداد هذه المجموعة على كتب مهمة في التاريخ والتراجم، أبرزها « حلية الأولياء وطبقات الأصفياء » للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، ومختصره « صفة الصفوة » للحافظ أبي الفرج جمال الدين ابن الجوزي، و « الطبقات الكبرى » للمؤرخ محمد بن سعد بن منيع الزهري، و « تاريخ بغداد » للحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، و « سير أعلام النبلاء » للحافظ شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، و « البداية والنهاية » للحافظ أبي الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، و « طبقات الحنابلة » للقاضي أبي الحسين محمد بن أبي يعلى وذيله للحافظ زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن أحمد « ابن رجب »

و«تاريخ دمشق» للحافظ أبي القاسم علي بن الحسن «ابن عساكر» .
وهؤلاء الأعلام كلهم من الحفاظ والعلماء الكبار في علم الرواية
الذي تقوم عليه مادة هذه المجموعة .

وهذه النصوص المختارة في مجالات الأخلاق والعلم والسلوك
والتربية هي مما لم يسبق له ذكر في الموضوعات التاريخية السابقة ،
فالأعلام الذين لم تذكر لهم أخبار في هذه المجالات يكون قد سبق
لهم أخبار - في الغالب - في الموضوعات التاريخية .

ولقد كان أصل هذه السلسلة برنامجاً إذاعياً بعنوان « مواقف
إسلامية » وقد تمت إذاعته من إذاعة القرآن الكريم بالمملكة العربية
السعودية ، ثم وسعته كثيراً بما يلائم كتاباً كبيراً قصد منه استيعاب
ما أمكن من مواقف المسلمين عبر تاريخهم المديد .

ولما كانت البرامج تُعرض على مراقبين لإقرار صلاحيتها أو عدم
ذلك فإن أحد المراقبين وهو سعادة الأستاذ هاشم محمد سعيد دفتردار
المدني قد نور الله تعالى بصيرته فقارن بين مضمون تلك المواقف
وواقع المسلمين المرّ فأرسل إليّ خطاب تأييد وتشجيع وذلك في السنة
الأولى لإذاعة ذلك البرنامج في عام ١٤٠٨ هـ وإنني إذ أثبت خطابه
في هذه المقدمة بنصه لإعتراري به فإنني أشكره على ما قدم من ذلك
وأدعو الله تعالى له بالتوفيق والسداد وجزيل الثواب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم رسل الله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سعادة الأستاذ الجليل الدكتور عبد العزيز الحميدي، الأستاذ في كلية الدعوة بمكة المكرمة حفظه الله .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد ،،،

فلإني أراقب الكلمات التي تذاغ في المملكة كأبي تُراب وكعَلَم الدين وسواهم ، وبما أنه تُعرض عليَّ كلماتكم الرائعة ذات الأسلوب السهل الممتنع والفن الدقيق والتنسيق الرائع ، والقدرة على اختيار الموضوعات ذات القيمة الأدبية والروحية والإنسانية والسلمية .

هذا الاختيار راعني وِيمُ الله ، وكم أعدت الكلمات وبكيت كثيراً لأني أحسُّ بعظمة الإسلام حين أسمعها ، وبِعظيم التضحيات من سلفنا الصالح رضوان الله عليهم الذين قَدَّمُوا لهذا الدين السماوي العظيم المنزل من رب العالمين ، والذي هو خاتم الأديان السماوية . قدموا له كل ما يملكون في أنفسهم من فكرٍ وعلمٍ وعاطفةٍ وإيمانٍ واستقامةٍ وتقوى ، وكل ما يملكون في أيديهم من ثراء ، لأنَّهم عرفوا أنَّ العزة هي عزة الله ، وأنَّ العلم هو علم الوحي والحق ، وقد ألهمكم الله أن تختاروا أعظم حوادث التاريخ التي أُقيمت لها دعوة الإسلام

في كل البلاد ولاريب أنكم مادمتم تواصلون الجهاد والسُّهْد والسَّهْر والنصب في بسط هذه الموضوعات القيِّمة في كتاباتكم فأنتم ستصلون إلى حكم قضاة الإسلام العادل ومسئولية الدم التي أباحها أعداء الله في هذا الزمان .

أجل يا أستاذ إنِّي أسمع كلماتكم بإصغاء وأود من صميم قلبي أن يسمعها كل شاب مسلم بل كل شاب إنساني ، لذلك لأقول يجب أن تجمع في كتاب باللغة العربية فقط ، بل تُجمع وتترجم إلى كل اللُّغات ، وقد أشرت إلى المشرفين على الإذاعة بهذا الموضوع وذكرت لهم تأثير أمثال هذه الكلمات حين تُتلى في الجامعات على الشبان بلغاتهم وفي النوادي .

لذلك أقدر جهادكم ونضالكم ، وأضرع إلى الله تعالى أن يُديم عليكم ذلك ، وأن ينفع به المسلمين وغير المسلمين في كل البلاد ، لأنني رأيت في أسفاري إلى أستراليا وأوروبا كثيراً من الشبان غير المسلمين حزاني لما يرون من هذه العدد الجهنمية ومن هذه الأحقاد التي تُذاع في كل مكان ، وهذا الاستهتار بحياة الجماعات والأفراد مما لم يسبق له مثيل في الأرض . ناهيك يا أستاذ وقد مرَّت الأمم بنكبات وبأحقاد ، وهي بعيدة عن وحي الله وعن هداه ولكن لم تمر في عصر من العصور على هذا الذي نُشاهده من الدمار ومن الخراب في الأوطان وهذه الأحقاد التي تُذاع وتُدس في كل مكان .

وكان الأجدر بهم وهم في عصر العلم ، ولاشيء في الوجود يوحد القلوب وينسّق الأعمال ويُطهِّر النِّيَّات ويبيد لوثة الغرائز

الوحشية وظلماتها من الأنفس مثل العلم، وأقصد بالعلم العلم
المشتمل على الإنسانية وروح الإيمان والخير والبركة والصعود الحضاري
الذي يكشف أسرار عوالم الوجود وعظمة الله سبحانه وتعالى،
ولأقصد بالعلم الذي ينضح بالإلحاد والفجور والنزوات الصاخبة
والبلايا والأحقاد .

لذلك أحب أمثال موضوعاتكم ، لو تهتم بها الكتبة لدينا، وفي
أوروبا وفي العالم الإسلامي لعلَّ الله ينقذ الإنسانية من بلايا عُدَدِهَا
التي بلغت المدى ولا يعلم إلاَّ الله ماتكون النهاية . . .

والنهاية لا تكون بخير إلى خير إلاَّ بالإيمان بالله جلَّ جلاله وبخاتم
الوحي الألهي وبأمثال كلمات الإسلام العليا التي يستنبطها أمثالكم من
تاريخ الإسلام في أدواره الذهبية وعلى كل حال فالمجال طويل، ولكن
أقول هذه الأبيات وإن شاء الله ستصدق عليكم . . .

رَأَيْتُكَ أَمْسَ خَيْرِ بَنِي لُؤَيٍّ وَأَنْتَ الْيَوْمَ خَيْرَ مَنْكَ أَمْسَ
وَأَنْتَ غَدًا تَزِيدُ الْخَيْرَ ضِعْفًا كَذَاكَ تَزِيدُ سَادَةَ عِبْدِ شَمْسَ

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،،

هاشم محمد سعيد دفتر دار المدني

مواقف وعبد

في

الحلم والعضو

مثل من حلم رسول الله ﷺ وعفوه :

سبق ذكر أمثلة مما كان يتصف به رسول الله ﷺ من الحلم والعفو، وأضيف في هذا الفصل مثالا من حلمه وعفوه كان سببا في دخول أحد أحبار اليهود في الإسلام، وذلك فيما أخرجه الحافظ أبو نعيم الأصبهاني بإسناده من خبر محمد بن حمزة بن يوسف بن عبدالله بن سلام عن أبيه عن جده قال قال عبد الله بن سلام رضي الله عنه : إن الله عز وجل لما أراد هُدى زيد بن سحنة^(١) قال زيد بن سحنة : إنه لم يبق من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في وجه محمد ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنين لم أخبرهما منه : يسبق حلمه جهله ، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلما، فكنت أتلف له لأن أخالطه فأعرف حلمه وجهله .

قال : فخرج رسول الله ﷺ يوما من الحجرات ومعه علي بن أبي طالب ، فاتاه رجل على راحلته كالبديوي، فقال: يا رسول الله إن قرية بني فلان قد أسلموا ودخلوا في الإسلام، فكنت حدثتهم أنهم إن أسلموا أتاهم الرزق رغدا، وقد أصابتهم سنة وشدة وقحوط من الغيث، وإني أخشى يا رسول الله أن يخرجوا من الإسلام طمعا كما دخلوا فيه طمعا، فإن رأيت أن ترسل إليهم بشيء تعينهم به .

قال : فنظر رسول الله ﷺ إلى رجل إلى جانبه أراه عليا فقال:

(١) هو أحد علماء اليهود ، واختلف في اسم أبيه فقيل سحنة بالنون وقيل سعية بالياء والأول أشهر .

مابقى منه شيء يارسول الله^(١)، قال زيد بن سعة : فدنوت إليه فقلت : يا محمد هل لك أن تبيعني تمرا معلوما من حائط بني فلان إلى أجل كذا وكذا ، فقال : لا يا يهودي ولكن أبيعك تمرا معلوما إلى أجل كذا وكذا ولا أسمى حائط بني فلان^(٢)، قال : فقلت : نعم فبايعني ، فأطلقت همياني فأعطيته ثمانين مثقالا من ذهب في تمر معلوم إلى أجل كذا وكذا ، فأعطى الرجل ، وقال : أعجل عليهم و أغنهم بها .

قال زيد بن سعة : فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة وخرج رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار ومعه أبو بكر وعمر وعثمان في نفر من أصحابه رضي الله عنهم ، فلما صلى على الجنازة ودنا من جدار ليجلس عليه أتته فأخذت بجوامع قميصه وردائه ، ونظرت إليه بوجه غليظ ، وقلت : ألا تقضيني يا محمد حقي فوالله ما علمتكم يا بني عبد المطلب إلا كمُطْل^(٣) ، ولقد كان لي بمخالطتكم علم .

قال : فنظر إليَّ عمر بن الخطاب وعيناه تدوران في وجهه كالفلك المستدير ، ثم رماني بطرفه وقال : يا عدو الله أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع وتفعل به ما أرى ! فوالذي بعثه بالحق لولا ما أحاذر فَوْتَه لضربت بسيفي رأسك ، ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر في سكون وتؤدة ، وتبسم ثم قال : أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا منك يا عمر ،

(١) يعني فهم علي أن رسول الله ﷺ يسأله عن مال معين .

(٢) يعني لأنه قد لا يثمر الحائط المذكور فلا يمكن الرفاء منه .

(٣) يعني لا تؤدون الحقوق .

أن تأمرني بحسن الأداء ، وتأمره بحسن التّباعَة (١) ، اذهب يا عمر فاقضه حقه ورده عشرين صاعا مكان مارُعته .

قال زيد : فذهب بي عمر ففضاني حقي وزادني عشرين صاعا من تمر ، فقلت : ماهذه الزيادة ؟ فقال : أمرني رسول الله ﷺ أن أريدك مكان مارُعتك ، فقلت : أتعرفني يا عمر ؟ قال : لا ، فقلت : أنا زيد بن سعة ، قال : الحَبْر ؟ قلت : الحبر ، قال : فما دعاك أن تقول لرسول الله ﷺ ماقلت وتفعل ما فعلت ؟! قال : يا عمر ، كل علامات النبوة قد عرفت في وجه رسول الله ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما منه : يسبق حلمه جهله ، ولايزيده شدة الجهل عليه إلا حلما ، فقد خبرتهما ، فأشهدك يا عمر أنني قد رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً ، وأشهدك أن شطر مالي - فإني أكثرها مالا - صدقةٌ على أمة محمد ﷺ ، فقال عمر : أو على بعضهم فإنك لاتسعهم كلّهم ، فقال : أو على بعضهم .

قال : فرجع عمر وزيد إلى رسول الله ﷺ فقال زيد : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، فأمن به وتابعه ، وشهد مع رسول الله ﷺ مشاهد كثيرة (٢) .

وأخرج هذا الخبر من هذا الطريق الإمام الطبراني وابن حبان والحاكم وأبو الشيخ ، كما ذكر الحافظ ابن حجر العسقلاني وذكر أن رجال الإسناد موثقون (٣) .

(١) أي طلب الحق .

(٢) دلائل النبوة لأبي نعيم / ٢٣ - ٢٤ .

(٣) الإصابة ١/ ٥٤٨ ، رقم ٢٩٠٤ .

فهذا الخبر يدل على اتصاف النبي ﷺ بالكمال في صفتي الحلم والعفو، فإنه قد واجه الإهانة القولية والفعلية من ذلك الرجل، فتحمل ولم يغضب، وإنما واجه هذا الموقف بالسكون والطمأنينة، وأنكر على عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما قام به من مخاطبة ذلك الرجل بالشدة والإرهاب، ووجهه إلى ما يتطلبه الموقف فيما لو تكرر ذلك المشهد، وهو أن يكون له جهد في امتصاص غضب أصحاب القضية، وذلك بتذكير كل طرف بواجبه، وهذا من تواضع النبي ﷺ، لأن ذلك الرجل قد جاء يتقاضى حقه قبل موعد حلول الدين، فليس النبي ﷺ بحاجة إلى أن يذكر بحسن القضاء، ولكنه ﷺ أتخف أمته بهذا التوجيه الحكيم لمن حضر مثل هذا المشهد حتى يمكن القضاء على الخلاف قبل أن يتحول إلى عدااء وخصام.

هذا وينبغي الإشادة بموقف عمر رضي الله عنه الذي جعل من نفسه حاميا لرسول الله ﷺ يرُدُّ عنه صولة السفهاء والجاهلين، فهيأ بذلك جواً من الهيبة يجعل الأعداء يحسبون حسابا كبيرا قبل أن يقدموا على مخاطبة النبي ﷺ.

ولقد أئمر توجيه النبي ﷺ في سلوك الصحابة رضي الله عنهم، فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يبدو حليما عفواً عن من جهل عليه، وذلك فيما أخرجه الإمام البخاري من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : قدم عيينة بن حصن بن حذيفة فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس، وكان من نفر الذين يدينهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولاً كانوا أو شبانا،

فقال عيينة لابن أخيه : يا ابن أخي لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لي عليه؛ قال ابن عباس : فاستأذن الحر بن قيس لعيينة ، فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال: هي يا ابن الخطاب (١) فوالله ماتعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل ، فغضب عمر حتى همَّ به ، فقال له الحر: ياأمير المؤمنين إن الله تعالى قال ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وإن هذا من الجاهلين، قال: والله ماجاوزها عمر حين تلاها عليه وكان وقفاً عند كتاب الله تعالى (٢) .

من مواقف أبي بكر وعمر رضي الله عنهما :

من مواقف أبي بكر وعمر رضي الله عنهما في الحلم والعفو ما ذكره السيوطي ونسبه إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم من خبر ميمون بن مهران : أن أعرابيا أتى أبا بكر فقال: قتلت صيدا وأنا محرم فما ترى عليّ من الجزاء ؟ فقال أبو بكر لأبيّ بن كعب - وهو جالس عنده - : ماترى فيها ؟ فقال الأعرابي : أتيتك وأنت خليفة رسول الله ﷺ أسألك فإذا أنت تسأل غيرك ، قال أبو بكر : فماتنكر؟ يقول الله تعالى ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ [المائدة: ٩٥] فشاورت صاحبي حتى إذا اتفقنا على أمر أمرناك به (٣) .

فهذا مثال لما كان يتصف به أبو بكر الصديق رضي الله عنه من الحلم والعفو حيث لم يؤاخذ ذلك الأعرابي الذي أنكر عليه بشيء من الجفاء .

(١) هي صيغة تنبيه أي تنبه .

(٢) صحيح البخاري ، التفسير ، حديث رقم ٤٦٤٢ (٣٠٤ / ٨) .

(٣) الدر المنثور ٣٢٩ / ٢ .

وفي هذا المعنى أخرج ابن جرير الطبري من خبر قبيصة بن جابر قال : خرجنا حجاجا ، فكنّا إذا صلينا الغداة ^(١) اقتدنا رواحلنا نتماشى نتحدث ، قال : فيينا نحن ذات غداة إذا سنع لنا ظبي أو برح ^(٢) فرماه رجل منا بحجر فما أخطأ خُشَاءَه ^(٣) ، فركب ردعه ميتا ^(٤) قال : فعظّمنا عليه ، فلما قدمنا مكة خرجت معه حتى أتينا عمر ، فقصّ عليه القصة ، قال : وإذا إلى جانبه رجل كأن وجهه قُلبُ فضة ^(٥) - يعني عبد الرحمن بن عوف - فالتفت إلى صاحبه فكلمه ، قال : ثم أقبل على الرجل قال : أعمداً قتلت أم خطأ ؟ قال الرجل : لقد تعمّدت رميه وما أردت قتله ، فقال عمر : ما أراك إلا أشركت بين العمد والخطأ ، اعمد إلى شاة فاذبحها وتصدق بلحمها ، وأسقِ إهابها ^(٦) .

قال : فقمنّا من عنده فقلت : أيها الرجل عَظّم شعائر الله فما درى أمير المؤمنين مايفتيك حتى سأل صاحبه ، اعمد إلى ناقتك فانحرها فلعل ذاك ^(٧) ، قال قبيصة : ولا أذكر الآية من سورة المائدة ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥] .

(١) يعني صلاة الفجر .

(٢) سرح أتى من اليسار وبرح أتى من اليمين .

(٣) الخشاء هو العظم الدقيق العاري من الشعر الناتئ خلف الأذن .

(٤) أي نحر لوجهه ميتا على دمه .

(٥) القلب بضم القاف وسكون اللام السوار ، أراد وصف وجهه بالبياض .

(٦) أي أعط جلدتها من يدبغه ويتخذها سقاء .

(٧) يعني يجرى عنك .

قال : فبلغ عمر مقالتي ، فلم يفجأنا منه إلا ومعه الدرة ^(١) قال :
فعلا صاحبي ضربا بالدرة ، وجعل يقول : أقتلت في الحرم وسفهت
الحكم ! قال : ثم أقبل علي فقلت : ياأمير المؤمنين لأحل لك اليوم
ما يحرم عليك مني !

قال : ياقيصة بن جابر إني أراك شاب السن فسيح الصدر ^(٢) بين
اللسان ، وإن الشاب يكون فيه تسعة أخلاق حسنة وخلق سيء ،
يفسد الخلق السيء الأخلاق الحسنة ، فإياك وعثرات الشباب ! ^(٣)

وهكذا أدركت الخشية أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه لما ذكره
قيصة بالحلل والحرام فأمسك عن ضربه وعفا عنه ، وقد أعجب
قيصة عمر بما رأى من قوة بدنه وشجاعته وفصاحته فوعظه بهذه
الموعظة التربوية التي فيها الثناء على قيصة بما فيه من فضائل وحثه
على اجتناب سقطات الشباب .

من مواقف عثمان رضي الله عنه :

من ذلك ما أخرجه ابن شبة النميري من خبر عمران بن عبد الله
ابن طلحة : أن عثمان بن عفان رضي الله عنه خرج لصلاة الغداة

(١) أي العصا .

(٢) أي واسع الصدر وذلك من دلائل القوة .

(٣) تفسير الطبري بتحقيق محمود محمد شاكر ٢٤/١١ ، والتعليقات مستفادة منه ، وقد
ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣٢٩/٢ ونسبه أيضا لابن المنذر وابن أبي حاتم
والطبراني والحاكم وذكر أن الحاكم صححه ، وذكر الحافظ ابن حجر أن سعيد بن
منصور وصله بسند صحيح - فتح الباري - ١٢ / ١٣٥ - .

فدخل من الباب الذي كان يدخل منه، فزحمه الباب فقال: انظروا، فنظروا فإذا رجل معه خنجر أو سيف، فقال له عثمان رضي الله عنه: ماهذا؟ قال: أردت أن أقتلك، قال: سبحان الله، ويحك علام تقتلني؟ قال: ظلمني عاملك باليمن، قال: أفلا رفعت ظلامتك إليّ فإن لم أنصفك - أو أعديك - على عاملي أردت ذلك مني؟ فقال لمن حوله: ماتقولون؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين، عدو أمكنك الله منه، فقال: عبدٌ همّ بذنب فكفّهُ الله عني، اتّني بمن يكفل بك: لا تدخل المدينة ماوليتُ أمر المسلمين، فأثاه برجل من قومه فكفل به، فخلّى عنه^(١).

فهذا تسامح كبير من أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، حيث عفا عمن أراد قتله، والعفو عند المقدرة صفة من صفات الكمال في الرجال، وهو دليل على التجرد من حظّ النفس، وتقلص الأنانية، وبروز خلق الإيثار، وضعف الارتباط بالدنيا، وقوة الارتباط بالآخرة.

وهذا الخلق إضافة إلى أنه عمل صالح يرفع من درجات صاحبه في الآخرة فإنه سياسة حكيمة في الدنيا، إذ أن هذا الرجل الذي أراد الاعتداء لو أنه قُتل أو عوقب عقوبة بليغة لربما أحدث فتنة بإيغار صدور أفراد قبيلته واستعدادهم للانتقام إذا سنحت لهم الفرصة، لكن العفو عنه يجعل أفراد قبيلته وأبناء بلده يعذّلونه ويعنفونه على ما حاول الإقدام عليه، وبذلك تنطفئ الفتنة قبل تصاعدها، ويكسب صاحب العفو قلوب الناس وولاءهم.

(١) تاريخ المدينة المنورة / ١٠٢٧ - ١٠٢٨ .

من مواقف أبي هريرة رضي الله عنه :

من ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير من رواية الإمام أحمد بإسناده :
أن أبا هريرة رضي الله عنه كانت لهم رنجية قد غمتهم بعملها ، فرفع
عليها يوما السوط ثم قال : لولا القصاص يوم القيامة لأغشينك به ،
ولكن سأبيعك ممن يوفيني ثمنك أحوج ما أكون إليه ، اذهبي فأنت حرة
لله عز وجل (١) .

وهكذا يوازن أبو هريرة رضي الله عنه بين قدرته على تلك
الخدمة وقدره الله تعالى عليه ، فيفضل اتقاء سخط الله سبحانه
وعذابه على تنفيذ مقتضى سخطه هو ، فيتورع عن عقوبة تلك الخدمة
ويحسن إليها بدلا من إساءتها بإعتاقها لوجه الله عز وجل ، وبهذا
يكون قد جمع بين عدد من الأعمال الصالحة . . خشية الله تعالى ،
والعفو عن المسيء ، والإحسان إليه ، وهذا يبين لنا عمق تصور
الصحابة رضي الله عنهم للحياة الآخرة واستحضارهم رقابة الله تعالى
وسعيهم الحثيث لبلوغ رضاه .

من مواقف معاوية رضي الله عنه :

وقال الحافظ ابن كثير : وقال العتبي : رأى معاوية ابنه يزيد
يضرب غلاما له فقال له : اعلم أن الله أقدر عليك منك عليه ، سواء
لك !! أن تضرب من لا يستطيع أن يمتنع منك ؟ والله لقد منعتني القدرة
من الانتقام من ذوي الإحن ، وإن أحسن من عفا لمن قدر (٢) .

(١) البداية والنهاية ١١٢/٨ .

(٢) البداية والنهاية ٢٢٧/٨ .

فهذا توجيه شديد من أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه لابنه يزيد نحو التخلق بهذا الخلق الكريم . . العفو عند المقدرة ، هذا الخلق الذي يعتبر من أهم عناصر السيادة وسياسة الأمة ، ولقد ذكره بقدره الله جل وعلا عليه ليحطّ من تعاضمه بنفسه وليخشى الله سبحانه فيمن هم تحت يده .

ومن ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير في بيان ما كان يتصف به أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما من الحلم ، حيث قال : وقال بعضهم : أسمع رجل معاوية كلاما سيئاً شديداً ، فقليل له : لو سطوت عليه ! فقال : إني لأستحيي من الله أن يضيق حلمي عن ذنب أحد من رعيتي ، وفي رواية قال له رجل : يا أمير المؤمنين مأحلمك !! فقال : إني لأستحيي أن يكون جرم أحد أعظم من حلمي .

وقال الأصمعي عن الثوري قال : قال معاوية : إني لأستحيي أن يكون ذنب أعظم من عفوي ، أو جهل أكبر من حلمي ، أو تكون عورة لأواربها بستري .

قال وقال : ما يسرني بذلّ الحلم عزّ النصر .

قال : وقال بعضهم : قال معاوية يابني أمية فارقوا قريشا بالحلم ، فوالله لقد كنت ألقى الرجل في الجاهلية فيوسعني شتما وأوسعته حلما ، فأرجع وهو لي صديق ، إن استنجدته أنجدني ، وأثور به فيثور معي ، وما وضع الحلم عن شريف شرفه ، ولا راده إلا كرما ، وقال : آفة الحلم الذل .

وقال : لا يبلغ الرجل مبلغ الرأي حتى يغلب حلمه جهله ،
وصبره شهوته ، ولا يبلغ الرجل ذلك إلا بقوة الحلم .
قال : وقال رجل لمعاوية : من أسود الناس ؟ فقال : أسخاهم نفسا
حين يسأل ، وأحسنهم في المجالس خلقا ، وأحلمهم حين يستجهل .
قال : وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى : كان معاوية يتمثل بهذه
الآبيات كثيرا :

فما قتل السفاهة مثل حلم يعود به على الجهل الحليم
فلا تسفه وإن ملئت غيظا على أحد فإن الفحش لؤم
ولا تقطع أخا لك عند ذنب فإن الذنب يغفره الكريم

وقال : كتب معاوية إلى نائبه زياد : إنه لا ينبغي أن يُساسَ الناس
سياسة واحدة باللين فيمرحوا ، ولا بالشدة فيُحْمَلَ الناس على
المهالك ، ولكن كن أنت للشدة والفظاظة والغلظة ، وأنا للين والألفة
والرحمة ، حتى إذا خاف خائف وجد بابا يدخل منه (١) .

فهذه الأقوال المروية عن أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه تبين
لنا شيئا مما اشتهر عنه من الاتصاف بخلق الحلم ، وقد كان هذا الخلق
همزة وصل بينه وبين من يعاملونه بشيء من الجفاء من أفراد رعيته ،
أو يصارحونه - بقوة - بما يرونه حقا وهو يخالفهم في ذلك .

وكان لتخلقه بخلق الحلم الذي لم يخالطه ضعف أثر في نجاحه
في تثبيت أركان دولته ، وذلك بمقدرته الفائقة على امتصاص غضب

(١) البداية والنهاية ٨/ ١٣٥ - ١٣٦ .

المخالفين ، وتحويلهم إلى الرضى والقناعة بسياسته ، وهكذا تأتي مكارم الأخلاق التي من أهمها الحلم والعفو والصبر والكرم لتكون من أهم عناصر السيادة .

وقد أبان في هذه الأقوال بأن الحلم يخالطه شيء من الذل ، كما أن النصر يخالطه شيء من العز ، ولكنه أبدى سروره بذلك الذل لما يترتب عليه من النتائج الحميدة التي منها اكتساب الأصدقاء والأنصار . وفي كتابه إلى زياد أمير العراق بيان لسياسته الجيدة التي تخيف المتهورين الميالين إلى إحداث الفوضى والإخلال بالأمن ، ولكنها في الوقت نفسه تبعث الأمل لدى من يراجعون أنفسهم ويريدون سلوك طريق الاستقامة والسلامة .

ولقد أثنى على أمير المؤمنين معاوية حكماء عصره وذكروا اتصافه بمكارم الأخلاق وخاصة خلق الحلم ، وفي ذلك يقول الحافظ ابن كثير : وقال عبد الملك بن مروان - يوما وذكر معاوية فقال - : مارأيت مثله في حلمه واحتماله وكرمه .

وقال قبيصة بن جابر : مارأيت أحد أعظم حلما ، ولا أكثر سؤدا ، ولا أبعد أناة ، ولا ألين مخرجا ، ولا أرحب بالمعروف من معاوية .

وقال عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما : لله در ابن هند ، إن كنا لنُفرقه^(١) وما الليث على برائه بأجراً منه فيتفارق لنا ، وإن كنا لنخدعه وما ابن ليلة من أهل الأرض بأدهى منه فيتخادع لنا ، والله لوددت أنا

(١) أي لنخيفه .

متعنا به مادام في هذا الجبل حجر - وأشار إلى أبي قبيس - (١) .

وفي قول ابن الزبير هذا وصف دقيق لمعاملة معاوية لقادة المسلمين وسادتهم، فهو جريء شجاع، ولكنه يظهر الخوف عمدا ليصل من ذلك إلى عدم إثارة المخالفين، لأن إظهار الشجاعة يثير عنصر التحدي لديهم، وهو أدهى أهل الأرض في زمانه، ولكنه يظهر الانخداع أمام محدثيه ليصل إلى تجفيف منابع نقيمتهم عليه، وهو في ذلك كله يخدم هدفا ساميا وهو تحقيق حياة الرخاء والأمن للأمة الإسلامية .

ولقد تمنى ابن الزبير أن يطول عمر معاوية لأنه يخشى من تغير الأحوال من بعده ، ولقد قال ذلك مع أنه من الطموحين للخلافة لأنه نظر إلى مصلحة الأمة التي تتحقق ببقاء معاوية خليفة على المسلمين .

ويصف حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما سياسة معاوية بكلام موجز ، لكنه يعني خلاصة تفكير عميق حيث يقول: قد علمت بمَ غلب معاوية الناس، كانوا إذا طاروا وقع ، وإذا وقع طاروا (٢) .

وهذا يعني أنه إذا رأى السيول الجارفة قد أقبلت لم يقاومها، وإنما يفسح لها حتى تمر ، ثم يحتوي الميدان وقد زال إقبال الناس الشديد فيتمكن مما يريد ، وقد عبر معاوية عن هذه السياسة بقوله المشهور: لو كان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت، إذا جذبوها أرختها، وإذا أرخواها جذبتها ، رضي الله عنه وعن الصحابة جميعا .

(١) البداية والنهاية ٨/ ١٣٥ - ١٣٦ .

(٢) البداية والنهاية ٨/ ١٣٦ .

ومن ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير في بيان ما كان يتصف به أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه من مكارم الأخلاق قال: وقال الشعبي والأصمعي عن أبيه قالا: جرى بين رجل يقال له أبو الجهم وبين معاوية كلام، فتكلم أبو الجهم بكلام فيه غمٌّ لمعاوية، فأطرق معاوية ثم رفع رأسه فقال: يا أبا الجهم إياك والسلطان فإنه يغضب غضب الصبيان ويأخذ أخذ الأسد، وإن قليله يغلب كثير الناس، ثم أمر معاوية لأبي الجهم بمال، فقال أبو الجهم في ذلك يمدح معاوية:

نمِلَ على جوانبه كأننا نمِلَ إذا نمِلَ على أبنينا
نُقلِّبه لنخبر حالتيه فنخبر منهما كرما ولينا^(١)

وهكذا كان لحلم معاوية رضي الله عنه وحسن خلقه ومبادلته الإساءة بالإحسان الأثر الكبير في نفس أبي الجهم فقال هذين البيتين في شكر معاوية وبيان اتصافه بالكرم والسماحة.

ولقد كان سلوك أمير المؤمنين معاوية تطبيقاً لقول الله تعالى ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٣٤) وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿[فصلت: ٣٤، ٣٥].

وقال الحافظ ابن كثير: وقال عمر بن يحيى بن سعيد الأموي عن جده قال: دخل معاوية على عمر وعليه حلة خضراء، فنظر إليها الصحابة، فلما رأى ذلك عمر وثب عليه بالدرّة فجعل يضربه بها،

(١) البداية والنهاية ٨/ ١٣٥.

وجعل معاوية يقول: يا أمير المؤمنين اللهَ اللهُ فيَّ، فرجع عمر إلى مجلسه فقال له القوم: لِمَ ضربته يا أمير المؤمنين وما في قومك مثله؟ فقال: والله ما رأيت إلا خيراً، وما بلغني إلا خير، ولو بلغني غير ذلك لكان مني إليه غير ما رأيتم، ولكن رأيتُه - وأشار بيده - فأحببت أن أضع منه ما شمتُ (١).

ففي هذا الخبر موقفان: الأول صرامة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه في حمل أمرائه على حياة التواضع والزهد، ولقد لاحظ شيئاً من الترفع في معاوية في ذلك اللباس الذي لبسه، فكان منه ذلك التأديب التربوي الذي أراد منه الحد من ذلك السلوك الذي لاحظته على معاوية رضي الله عنه.

وحينما عدله في ذلك من حوله، وذكروا فضل معاوية على قومه أبان لهم أنه لم يغضب عليه لنقص في سياسته وإدارته، وأنه لو كان منه شيء من ذلك لكان له معه تصرف آخر، ويقصد بذلك عزله عن الولاية، وفي ذلك دلالة على ظهور تفوق معاوية في أعمال الولاية في السلم والحرب.

والثاني: موقف لمعاوية في الحلم والصبر، حيث لم يبد منه أيُّ تسخُّط مما حدث، بل كان يستعطف أمير المؤمنين ليخفف من غضبه عليه، مع أن في ضربه أمام الناس إهانة كبيرة له، لكنه يدرك أن أمير المؤمنين يقصد من ذلك صيانة أخلاق الإسلام التي يجب أن تتمثل أولاً في الولاة ليقتردي بهم عامة الناس.

(١) البداية والنهاية ١٢٥/٨.

ونظراً لحلم معاوية الكبير مع ما يتصف به من الشجاعة والعزة فإن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أثنى عليه بقوله : دعوا فتى قريش وابن سيدها ، إنه لَمَنْ يضحك في الغضب ولا يُنال منه إلا على الرضا ، وَمَنْ لا يؤخذ مافوق رأسه إلا من تحت قدميه (١) .

فهذا قول دقيق من عمر في وصف معاوية ، فقد وصفه بالدرجة العالية من الحلم ، والعزة التي تجعله منيعاً لا ينال ماعنده على قهر منه ، وهذه الصفة هي التي جعلته يبقيه أميراً على الشام لخطورة ذلك الثغر .

من مواقف الأحنف بن قيس رحمه الله :

من ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير في ترجمته قال : ومن كلامه وقد سئل عن الحلم ماهو ؟ فقال : الذل مع الصبر ، وكان إذا تعجب الناس من حلمه يقول : والله إني لأجد ما يجدون ولكنني صبور ، وقال : وجدت الحلم أنصر لي من الرجال .

قال : وأغلظ له رجل في الكلام وقال : والله يا أحنف لئن قلت لي واحدة لتسمعنَّ بدلها عشراً ، فقال له : إنك إن قلت لي عشراً لاتسمع مني واحدة (٢) .

ففي هذين الخبرين يفسر الأحنف بن قيس التميمي الحلم بأنه الذل مع الصبر ، وهذا يعني أن الحلم يبدأ بالتهوين من شأن النفس وإذلالها ثم الصبر على الأذى ، وذلك بأن يُصدر العقل السليم أمراً

(١) البداية والنهاية ٨ / ١٢٤ .

(٢) البداية والنهاية ٨ / ٣٢٧ .

للنفس بكبح جماحها عن سلوك سبيل الانتصار إلى الإيثار ، والصبر على مايقصر المسامح من الأذى ، فالحلم يحتاج إلى قوة عظيمة في العقل لتحجيم النفس عن الاستسلام لعواطفها الجياشة والظهور أمام من صدر منه الأذى بعدم التأثير واحتواء الموقف ، فالحلم على هذا إهانة للنفس ، لكنه يورث عواقب حميدة من سمو العقل وعلو المنزلة ، والسلامة من الآثار السيئة للاستجابة للغضب .

ويبين الأحنف للناس أنه يجد مايجدون من التأثير بسماع ما يؤلم النفس لكنه يكبح جماح نفسه بالصبر .

ويبين أنه كسب بالحلم أنصاراً ممن يعادونه ، وأن الذي كسب نصرتهم بإعجابهم بحلمه أكثر من الذين كسب نصرتهم بمحبتهم إياه بالأسباب الأخرى .

وفي الخبر الأخير مثل من حلمه مع الرجل الذي أغلظ له ، فقد كان ذلك الرجل متوتراً ، وقد غاب عنه عقله السليم وحضرت نفسه الأمانة بالسوء ، أما الأحنف فإنه قد أمات نفسه الأمانة بالسوء وأحیی عقله السليم ، فكان جوابه لذلك الرجل استجابة لنداء عقله لاختصوا لعواطف نفسه .

وقد اشتهر الأحنف بالحلم حتى أصبح يضرب بحلمه المثل كما قال الشاعر أبو تمام في مدح الخليفة المعتصم العباسي :

إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس
والمراد بعمرو في هذا البيت عمرو بن معد يكرب الزبيدي وكان مشهوراً بالشجاعة ، والمراد بحاتم أبو عدي حاتم الطائي المشهور

بالسماحة والكرم ، والمراد بإياس القاضي إياس بن معاوية وكان مشهوراً بالذكاء .

ومن أخبار الأحنف بن قيس في الحلم والأناة ما ذكره المؤرخ أبو العباس أحمد بن محمد ابن خلكان في ترجمته قال : ثم إن عبيد الله [يعني ابن زياد أمير العراق] جمع أعيان العراق وفيهم الأحنف وتوجه بهم إلى الشام للسلام على معاوية ، فلما وصلوا دخل عبيدالله على معاوية وأعلمه بوصول رؤساء العراق ، فقال : أدخلهم عليَّ أولاً فأولَّ على قدر مراتبهم عندك ، فخرج إليهم وأدخلهم على الترتيب كما قال معاوية ، وآخر من دخل الأحنف ، فلما رآه معاوية - وكان يعرف منزلته وبيالغ في إكرامه لتقدمه وسيادته - قال : إليَّ ياأبا بحر ، فتقدم إليه فأجلسه معه على مرتبته ، وأقبل عليه يسأله عن حاله ويحدثه ، وأعرض عن بقية الجماعة .

قال : ثم إن أهل العراق أخذوا في الشكر من عبيد الله والثناء عليه ، والأحنف ساكت ، فقال له معاوية : لم لا تتكلم ياأبا بحر ؟ فقال : إن تكلمت خالفتهم ، فقال لهم معاوية : اشهدوا علي أنني قد عزلت عبيد الله عنكم ، قوموا انظروا في أمير أوليه عليكم وترجعون إليَّ بعد ثلاثة أيام .

قال : فلما خرجوا من عنده كان فيهم جماعة يطلبون الإمارة لأنفسهم ، وفيهم من عين غيره ، وسعوا في السرِّ مع خواص معاوية أن يفعل لهم ذلك ، ثم اجتمعوا بعد انقضاء الثلاثة كما قال معاوية ، والأحنف معهم ، ودخلوا عليه فأجلسهم على ترتيبهم في المجلس

الأول، وأخذ الأحنف إليه كما فعل أولاً وحادثه ساعة، ثم قال: مافعلتم فيما انفصلتم عليه ؟ فجعل كل واحد يذكر شخصا وطال حديثهم في ذلك وأفضى إلى منازعة وجدال، والأحنف ساكت، ولم يكن في الأيام الثلاثة تحدث مع أحد في شيء، فقال له معاوية: لم لا تتكلم يا أبا بحر ؟ فقال الأحنف: إن وليت أحداً من أهل بيتك لم تجد من يعدل عبيد الله ولا يسد مسدّه، وإن وليت من غيرهم فذلك إلى رأيك، ولم يكن في الحاضرين الذين بالغوا في المجلس الأول في الثناء على عبيد الله من ذكره في هذا المجلس ولا يسأل عوده إليهم.

قال : فلما سمع معاوية مقالة الأحنف قال للجماعة : اشهدوا علي أنني قد أعدت عبيد الله إلى ولايته ، فكل منهم ندم على عدم تعيينه ، وعلم معاوية أن شكرهم لعبيد الله لم يكن لرغبتهم فيه ، بل كما جرت العادة في حق المتولي .

قال : فلما فصل الجماعة من مجلس معاوية خلا بعبيد الله وقال له: كيف ضيعت مثل هذا الرجل- يعني الأحنف - فإنه عزلك وأعادك إلى الولاية وهو ساكت ، وهؤلاء الذين قدمتهم عليه واعتمدت عليهم لم ينفعوك ولأعرجوا عليك لما فوضت الأمر إليهم ، فمثل الأحنف من يتخذ الإنسان عوناً وذخراً .

قال : فلما عادوا إلى العراق أقبل عليه عبيد الله وجعله بطانته وصاحب سره (١) .

في هذا الخبر موقفان :

الأول لمعاوية رضي الله عنه حينما علم قدر الأحنف بن قيس

(١) وفیات الأعيان ٢/ ٥٠٣ - ٥٠٤ .

رحمه الله وأدرك رفعة منزلته ، فرفعه وأدناه منه وأظهر له كثيراً من الاهتمام والاحترام ، وهذا كما أنه يعتبر من تقدير أهل الفضل فهو يعتبر من السياسة الجيدة في احتواء أهل القوة والتأثير على الناس .

والثاني في بيان ماكان يتصف به الأحنف من الحلم والأناة وبُعد النظر ، فهو لم يُظهر أي شيء من الغضب حينما أبعده عبيد الله بن زياد وقرب من أهل العراق من هم أقل شأناً منه ، ومع أن عبيد الله قد تجاهله فإنه قد رشح عبيد الله لإمرة العراق لما يرى فيه من السداد ، وأنه الرجل الذي يمكن أن ترضى به الطوائف المتعددة ، وفي هذا تقديم للمصلحة العامة على المصلحة الخاصة .

وكان الأحنف قد ساد قومه بمكارم الأخلاق ، ومما روي في ذلك مذكره المؤرخ ابن خلكان في ترجمته من خبر معاوية بن هشام أنه قال لخالد بن صفوان: بِمَ بلغ فيكم الأحنف بن قيس مابلغ ؟ قال: إن شئت حدثتك ألفاً، وإن شئت حذفت الحديث لك حذفاً، قال: احذفه لي حذفاً ، قال: وإن شئت فثلاثاً ، وإن شئت فاثنتين وإن شئت فواحدة ، قال : ما الثلاث ؟ قال : كان لا يشره ولا يحسد ولا يمنع حقاً ، قال : فما الثنتان ؟ قال : كان موفقاً للخير معصوماً عن الشر ، قال : فما الواحدة ؟ قال : كان أشد الناس على نفسه سلطاناً (١) .

وهذه أخلاق كلها تؤهل للسيادة ، وخاصة ماذكر من امتلاكه نفسه ، وإن من أهم ماينزل من قدر الرجال فلتات ألسنتهم والهفوات في سلوكهم .

(١) وفيات الأعيان ٢/ ٥٠٠ .

من مواقف أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك رحمه الله :

ومن أخبار الولاة المتصفين بالحلم والأناة ما ذكره الحافظ ابن كثير عن أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك ، حيث قال فيه : وكان فيه حلم وأناة ، شتم مرة رجلا من الأشراف فقال أتشتمني وأنت خليفة الله في الأرض ؟ فاستحيى وقال : اقتصص مني بدلها - أو قال مثلها - فقال : إذا أكون سفيهاً مثلك ، قال : فخذ عوضاً ، قال : لا أفعل ، قال : فاتركها لله ، قال : هي لله ثم لك ، فقال هشام عند ذلك : والله لا أعود إلى مثلها (١) .

فهذا مثل في الحلم والوقار ، وإذا كان هشام بن عبد الملك قد رل لسانه بقول مالا يحمد فإنه قد أنصف من نفسه بالاعتذار من الخطأ ، وهذا دليل على تواضعه وعلو تفكيره حيث قدم رعاية مكارم الأخلاق على النظر إلى حظ نفسه ومجده الدنيوي .

من مواقف أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور رحمه الله :

من أخبار الحلم والعفو ما ذكر عن محمد بن رباح الجوهري قال : ذكر لأبي جعفر تدبير هشام بن عبد الملك في حرب كانت له ، فبعث إلى رجل كان معه ينزل الرصافة - رصافة هشام - يسأله عن ذلك الحرب ، فقدم عليه ، فقال : أنت صاحب هشام ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : فأخبرني كيف فعل في حرب دبرها في سنة كذا وكذا ؟ قال : إنه فعل فيها رحمه الله كذا وكذا ، ثم أتبع بأن قال : فعل كذا رضي الله عنه ، فأحفظ ذلك المنصور فقال : قم عليك غضب الله ! تطأ

(١) البداية والنهاية ٣٦٦/٩ .

بساطي وتترحم على عدوي ! فقام الشيخ وهو يقول : إن لعدوك قلادةً في عنقي ومنةً في رقبتني لا ينزعها عني إلا غاسلي .

فأمر المنصور برده وقال : اقعد ، هيه كيف قلت : فقلت إنه كفاني الطلب ، وصان وجهي عن السؤال ، فلم أقف على باب عربي ولا أعجمي منذ رأيتَه ، أفلا يجب علي أن أذكره بخير وأتبعه بثنائي ! فقال : بلى ، لله أم نهضت عنك وليلة أدتكَ ، أشهد أنك نهيضُ حرةً وغراس كريم .

ثم استمع منه ، وأمر له ببرّ ، فقال : يا أمير المؤمنين ما آخذه الحاجة وما هو إلا أنني أتشرف بحبائك وأتبجج بصلتك ، فأخذ الصلة وخرج ، فقال المنصور : عند مثل هذا تحسن الصنعة ويوضع المعروف ويُجَاد بالمصون ، وأين في عسكرنا مثله ! (١) .

ففي هذا الخبر موقفان : الأول موقف صاحب هشام الذي حفظ المعروف ولم ينس الجميل ، فأنى على صاحبه في بلاط حاكم قد عادى صاحبه وأزال دولته وكونه صرح بذلك الثناء وهو في ذلك المكان دليل على اتصافه بخلق الوفاء وخلق الشجاعة .

والموقف الثاني : موقف أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور الذي بهرته أخلاق ذلك الرجل فأنى عليه ذلك الثناء العاطر ، ولم تأخذه العزة بالإثم فيلجأ إلى قوته وهيمنته ويتنقم من ذلك الرجل ، بل غلب عقله الرشيد على عاطفته وازدآن بخلق الحلم والإنصاف فأنى على ذلك الرجل ووصله .

(١) تاريخ الطبري ٧٨ / ٨ - ٧٩ .

ومن مكارم الأخلاق في مجال الحلم والعفو عند المقدرة مذكره أبو جعفر الطبري من خبر داود بن رشيد عن أبيه أن المنصور خطب فقال : الحمد لله أحمده وأستعينه وأومن به وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . . فاعترضه معترض عن يمينه ، فقال : أيها الإنسان أذكرك من ذكرك به . . فقطع الخطبة ثم قال : سمعاً سمعاً لمن حفظ عن الله وذكر به ، وأعوذ بالله أن أكون جباراً عنيداً ، وأن تأخذني العزة بالإثم ، لقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين ، وأنت أيها القائل فو الله ما أردت بها وجه الله ، ولكنك حاولت أن يقال : قام فقال فعوقب فصبر ، وأهونُ بها إليك لو هممت ، فاهتبلها إذ غفرت ، وإياك وإياكم معشر الناس أختها ، فإن الحكمة علينا نزلت ، ومن عندنا فصلت فردوا الأمر إلى أهله تورده موارده ، وتصدروه مصادره ، ثم عاد في خطبته فكأنه يقرؤها من كفه ، فقال : وأشهد أن محمداً عبده ورسوله (١) .

فهذا الخبر يشتمل على مجموعة من الأخلاق تخلق بها أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور، حينما سمع كلام ذلك الرجل المعترض عليه في خطبته . . من الصبر على الأذى والحلم والعفو عند المقدرة، إلى جانب اتصافه بالفصاحة والمقدرة البيانية، وهذه من دلائل عظمتة ونبوغة، ولقد كانت هذه الأخلاق والصفات وغيرها من فضائله أثراً ظاهراً للتربية العلمية الدينية التي تلقاها على يد شيوخ العلم الربانيين المربين، فقد جالس العلماء طويلاً حتى أصبح معدوداً منهم لولا اشتغاله بسياسة أمور الأمة .

(١) تاريخ الطبري ٩٠ / ٨ .

ومن مواقف أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور في الحلم والعفو ما ذكره الإمام محمد بن جرير الطبري عن الفضل بن الربيع عن أبيه أنه قال: بينا أنا قائم بين يدي المنصور أو على رأسه إذا أتني بخارجي قد هزم له جيوشا، فأقامه ليضرب عنقه، ثم اقتحمته عينه فسب أمه وقال: مثلك يهزم الجيوش ! فقال له الخارجي: ويلك وسوءة لك ! بيني وبينك أمس السيف والقتل واليوم القذف والسب، وما كان يؤمنك أن أرد عليك وقد يئست من الحياة فلا تستقيها أبدا ! قال: فاستحيى منه المنصور وأطلقه، فما رأى له وجهاً حولاً^(١) .

فهذا رجل قد أعلن الحرب على دولة أبي جعفر المنصور ، وهذا يعني أنه يريد قتله وقتل رجال دولته وإزالة ملكه ، وكان جزاؤه أن قدمه المنصور للقتل لما ظفر به ، ولكن فلتة من لسان المنصور أنقذت ذلك الرجل ، فالرجل محارب ولا يعترض على الانتقام منه بالقتل ، لأنه لم يخرج إلا وقد وطن نفسه لذلك ، ولكنه لم يحتمل قذف وسب أمه ، لأن أمه لا علاقة لها بما حدث ، فسبها وقذفها من اتهام الأبرياء ، وقد ذكّر هذا الرجل الخارجي المنصور بأنه باستطاعته أن يرد عليه بسباب يعلق بأذهان الناس ، فيتمنى المنصور أنه سلم من إثارة ذلك الرجل ، ولن يفعل المنصور به أكثر من القتل ، ولن يمنعه من ذلك رجاء الحياة لأنه قد يئس منها ، وقد استحيى المنصور من ذلك الجواب الذي يدل على أدب رفيع من ذلك الخارجي ، حيث لم يأبه بالقتل وغضب من سماع قذف أمه ، وهذا يدل على نبل المنصور وحلمه ، حيث قدر هذا التفكير العالي من ذلك الرجل فعفا عنه وأطلقه .

(١) تاريخ الطبري ٦٨/٨ .

من مواقف الوزير يحيى بن هبيرة رحمه الله :

من الأخلاق العالية التي كان يتحلّى بها الوزير أبو المظفر يحيى ابن محمد بن هبيرة في الحلم والعفو عند المقدرة مارواه الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين البغدادي نقلاً عن ابن الجوزي قال : كنا نجلس إلى الوزير ابن هبيرة فيملي علينا كتابه « الإفصاح » فبينما نحن كذلك إذ قدم رجل ومعه رجل ادعى أنه قتل أخاه فقال له عون الدين : - يعني ابن هبيرة - أقتلته ؟ قال : نعم ، جرى بيني وبينه كلام فقتلته ، فقال الخصم : سلّمه إلينا حتى نقتله فقد أقر بالقتل ، فقال عون الدين : أطلقوه ولا تقتلوه ، قالوا : كيف ذلك وقد قتل أخانا ؟ قال : فتبيعونه ؟ فاشتراه منهم بست مائة دينار وسلم الذهب إليهم وذهبوا ، فقال للقاتل : اقعد عندنا لاتبرح ، قال : فجلس عندهم وأعطاه الوزير خمسين ديناراً ، فقلنا للوزير : لقد أحسنت إلى هذا وعملت معه أمراً عظيماً ، وبالغت في الإحسان إليه ، فقال الوزير : منكم أحد يعلم أن عيني اليمنى لا أبصر بها شيئاً ؟ فقلنا : معاذ الله ، فقال : بلى والله ، أتدرون ما سبب ذلك ؟ قلنا : لا ، قال : هذا الذي خلصته من القتل جاء إليّ وأنا في الدُّور ومعني كتاب من الفقه أقرأ فيه ومعه سلّة فاكهة ، فقال : احمل هذه السلّة ، قلت له : ما هذا شغلي فاطلب غيري ، فشاكلني ولكمني فقلع عيني ومضى ولم أره بعد ذلك إلى يومي هذا ، فذكرت ما صنع بي ، فأردت أن أقابل إساءته إليّ بالإحسان مع القدرة (١) .

(١) ذيل طبقات الحنابلة ٢٥٧/٣ .

فهذا مثل جليل في مكارم الأخلاق ، وذلك في العفو عند المقدرة ومبادلة الإساءة بالإحسان ، فلقد كان الوزير عون الدين ابن هبيرة قادراً على أن يعاقب ذلك الرجل بأن يقتص منه كما اعتدى عليه ثم يقيم عليه حد القتل الذي أقر به ، أو على الأقل أن يقيم عليه هذا الحد وهو يتشفى منه ، ولكنه لما رأى مجالا من مجالات الأخلاق العالية بادر إلى العفو عند المقدرة والإحسان إلى من أساء إليه ، وهكذا تسمو النفوس الطموحة إلى معالي الأمور ، وذلك بتحجيم هوى النفس والتخلص من رواسب حب الذات ، وذلك بشراء المعاني السامية والمثل العليا بعرض الدنيا الزائل .

* * *

مواقف وعبد

في

التواضع والرحمة

أمثلة من تواضع النبي ﷺ ورحمته :

مما روي عن رسول الله ﷺ في خلق التواضع - إضافة إلى ما مر معنا من ذلك في استعراض سيرته الشريفة - ما أخرجه الإمام الترمذي من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : « كان النبي ﷺ إذا استقبله الرجل فصافحه لا ينزع يده من يده حتى يكون الرجل هو الذي ينزع ، ولا يصرف وجهه عن وجهه حتى يكون الرجل هو يصرفه ، ولم يُرَ مقدماً ركبته بين يدي جليس له » (١) .

وهذه آداب إسلامية رفيعة مبعثها التواضع ، ويشملها خلق الإيثار ، فهي تقوم على اعتبار تقديم الغير على النفس في أمور الحياة ، سواء في ذلك الأمور المعنوية ، التي تقتضي إعزاز الآخرين والرفع من مكانتهم كما في هذا الحديث ، أو في الأمور المادية التي تقوم على التنازل عن الحقوق المالية لمصلحة الآخرين .

ومن الأمثلة التربوية العالية المبنية على الرحمة والتواضع ما أخرجه أحمد من حديث عبد الله بن شداد عن أبيه رضي الله عنه قال : خرج علينا رسول الله ﷺ في إحدى صلاتي العشي الظهر أو العصر وهو حامل الحسن أو الحسين ، فتقدم ﷺ فوضعه ثم كبر للصلاة ، فصلى فسجد بين ظهراني صلاته سجدة أطالها ، فقال : إني رفعت رأسي فإذا الصبي على ظهر رسول الله ﷺ وهو ساجد فرجعت في سجودي ، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة قال الناس : يا رسول الله إنك سجدت بين ظهراني صلاتك هذه سجدة قد أطلتها فظننا أنه

(١) سنن الترمذي رقم ٢٤٩٠ ، القيامة ب ٤٦ (٦٥٤ / ٤) .

قد حدث أمر أو أنه قد يُوحَى إليك ، قال : فكل ذلك لم يكن ، ولكن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته » (١) .

وأخرج الإمام البخاري من حديث أبي قتادة رضي الله عنه قال :
خرج علينا النبي ﷺ وأمامة بنت أبي العاص (٢) على عاتقه ، فصلى
فإذا ركع وضعها وإذا رفع رفعها (٣) .

وهذا منهج تربوي في غاية الرفعة والكمال ، فهو يعطي الصغار حقوقهم الكاملة في العناية والرعاية فينشئون بنفوس كبيرة وشخصيات قوية تستطيع بعد تهذيب التربية الدينية أن تتحمل المسئوليات الكبيرة ، ولكن هذه التربية العالية لا يقوى عليها إلا أصحاب النفوس الكبيرة الذين يتواضعون ويبدلون من وقتهم لإنشاء جيل يتحمل المسئولية في تبليغ هذا الدين وتطبيقه .

وهذا الخلق العالي يكون مبنياً على الرحمة ، وإنما يتصف بذلك من قوي إيمانهم وهذب الإسلام نفوسهم ، ولقد كان لرسول الله ﷺ من ذلك النصيب الأكمل ، فجاءت معاملته للصغار في غاية الكمال التربوي .

وإذا كانت هذه معاملته للأطفال وهو في صلاته وقد انشغل قلبه بما هو أعظم من ذلك ، فكيف تكون معاملته إياهم خارج الصلاة ؟
ومن ذلك ما أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

(١) مسند أحمد ٤٩٤/٣ .

(٢) يعني بنت زينب بنت النبي ﷺ .

(٣) صحيح البخاري ، رقم ٥٩٩٦ ، الأدب (١٠ / ٤٢٦) .

قال : قَبَّلَ رسول الله ﷺ الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالسًا ، فقال الأقرع : إن لي عشرة من الولد ما قبَّلت منهم أحدا ، فنظر إليه النبي ﷺ ثم قال : من لا يرحم لا يُرحم .

وأخرجنا من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا : أتقبَّلون صبيانكم؟ فقالوا: نعم، فقالوا : لكننا والله ما نقبِّل ، فقال رسول الله ﷺ : وأملك إن كان الله نزع منكم الرحمة ؟ (١) .

وأخرج الإمام مسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: مارأيت أحدا كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ ، قال: كان إبراهيم مسترضعاً له في عوالي المدينة، فكان ينطلق ونحن معه فيدخل البيت وإنه ليدخن - وكان ظئره قينا(٢) - فيأخذه فيقبِّله ثم يرجع(٣) .

فهذه أمثلة من رحمة النبي ﷺ بالصغار ، والأطفال بحاجة ماسة إلى رحمة الكبار لأنهم في حال ضعف ، وفي مرحلة الطفولة تتشكَّل بداية الأخلاق التي سيكون عليها الأطفال إذا كبروا ، فإذا كانوا يعاملون في صغرهم بالمودَّة والرحمة واللطف فإنهم ينشؤون على هذه الأخلاق الكريمة ، فيتعاملون بها إذا كبروا، ويعاملون بها صغارهم، وهكذا ينشأ شباب الأجيال في حال رشدٍهم على مانشؤوا

(١) صحيح البخاري رقم ٥٩٩٧ و ٥٩٩٨ ، الأدب (١٠ / ٤٢٦) ، صحيح مسلم رقم ٢٣١٨ و ٢٣١٧ ، الفضائل (ص ١٨٠٨) .

(٢) أي كان زوج مرضعة إبراهيم ولد رسول الله ﷺ صانعاً فكان في البيت دخان من النار التي يوقد بها على الحديد .

(٣) صحيح مسلم رقم ٢٣١٦ ، الفضائل (ص ١٨٠٨) .

عليه في حال طفولتهم، وتتم بذلك حلقات من التربية الإسلامية على مكارم الأخلاق.

ونجده عليه السلام يتواضع لمن يستخدمهم ويعاملهم بالعناية والرعاية كما يعامل أبناءه كما جاء فيما أخرجه الإمام أبو داود من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : « كان رسول الله عليه السلام من أحسن الناس خلقاً، فأرسلني يوماً لحاجة ، فقلت : والله لا أذهب، وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به نبي الله عليه السلام ، قال: فخرجت حتى أمر على صبيان وهم يلعبون في السوق فإذا النبي عليه السلام قابض بقفائي من ورائي، فنظرت إليه وهو يضحك، فقال : يا أنيس اذهب حيث أمرتك؟ قلت : نعم أنا أذهب يا رسول الله ، قال أنس : والله لقد خدمته سبع سنين - أو تسع سنين - ما علمت قال لشيء صنعت لم فعلت كذا وكذا ؟ ولا لشيء تركت هلا فعلت كذا وكذا » (١) .

وهل نجد مثلاً أعلى من هذا في معاملة الخدم !؟

إن هذه المعاملة الكريمة تُشعر الإنسان المستخدم بكرامته وإنسانيته ولا تلغي وجوده في المجتمع كإنسان يسهم في بناء المجتمع، والترقي به نحو الكمال، وهو حينما يخدم أهل النبل والفضل فإنما هو تلميذ في مدرسة تربية أخلاقية ، ومن المفترض أن يتخرج من هذه المدرسة وهو أعلى ما يكون في سمو الفكر ونبل الأخلاق .

ومن أمثلة تواضعه عليه السلام ما أخرجه البخاري من حديث مجاهد بن جبر أن أبا هريرة رضي الله عنه كان يقول « آله الذي لا إله إلا هو ،

(١) سنن أبي داود رقم ٤٧٧٣ ، الأدب باب ١ (١٣٢/٥) .

إن كنتُ لأعتمدُ بكبدي على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشد
 الحَجَرَ على بطني من الجوع. ولقد قعدت يوماً على طريقهم الذي
 يخرجون منه، فمرَّ أبو بكر فسأله عن آية من كتاب الله، ماسأله إلا
 ليشبعني، فمر ولم يفعل، ثم مرَّ بي عمر فسأله عن آية من كتاب
 الله، ماسأله إلا ليشبعني، فمر فلم يفعل، ثم مرَّ بي أبو القاسم عليه السلام
 فتبسم حين رأيته وعرف مافي نفسي ومافي وجهي، ثم قال يا أبا هرٍّ،
 قلتُ: لبيك رسول الله، قال: الحقُّ، ومضى، فتبعته، فدخل
 فاستأذن فأذن لي، فدخل فوجد لبناً في قدح فقال: من أين هذا
 اللبن؟ قالوا: أهدهُ لك فلان- أو فلانة - قال: أبا هرٍّ، قلت لبيك
 يا رسول الله، قال: الحق إلى أهل الصفة فادعهم لي. قال: وأهلُ
 الصفة أضياف الإسلام، لا يأوون على أهل ولا مال ولا على أحد، إذا
 أتتهُ صدقةٌ بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئاً، وإذا أتته هديةً أرسل
 إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها، فسأني ذلك، فقلت: وما هذا
 اللبن في أهل الصفة؟ كنتُ أحقُّ أن أصيب من هذا اللبن شربةً أتقوى
 بها، فإذا جاءوا أمرني فكنتُ أنا أعطيهم، وماعسى أن يبلغني من هذا
 اللبن، ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله عليه السلام بُدَّ، فأتيتهم
 فدعوتهم، فأقبلوا فاستأذنوا فأذن لهم، وأخذوا مجالسهم من البيت.
 قال: يا أبا هرٍّ، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: خذ فأعطهم،
 فأخذتُ القدح فجعلتُ أعطيه الرجل فيشربُ حتى يروى، ثم يردُّ
 عليَّ القدح فأعطيه الرجل فيشربُ حتى يروى، ثم يرد عليَّ القدح،
 فيشرب حتى يروى، ثم يرد عليَّ القدح، حتى انتهيت إلى النبي عليه السلام
 وقد روي القوم كلهم، فأخذ القدح فوضعه على يده، فنظر إليَّ فتبسم

فقال : أبا هر ، قلت لبيك يا رسول الله ، قال : بقيتُ أنا وأنت : قلتُ صدقت يا رسول الله ، قال : اقعد فاشرب ، فقعدتُ فشربت ، فقال : اشرب ، فشربت ، فما زال يقول : اشرب ، حتى قلتُ : لا والذي بعثك بالحق ، ما أجدُ له مَسْلَكًا . قال : فأرني ، فأعطيته القدح ، فحمد الله وسمى وشرب الفضلة » (١) .

فهذا مثل بليغ على تواضع رسول الله ﷺ حيث شرب آخر القوم ، وأهل الصفة كانوا كلهم من الفقراء ، وإن التواضع يكون جليلاً إذا صدر من الرجل الكبير لضعفاء الناس ومساكينهم ، وهكذا كان رسول الله ﷺ عظيم التواضع لجميع الناس على مختلف طبقاتهم .

ولقد امتد تواضعه ﷺ ليشمل البادية كما شمل الحاضرة ، ومن ذلك ما أخرجه الإمامان البزار والطبراني من حديث سالم بن أبي الجعد عن رجل من أشجع يقال له زاهر بن حرام رجل بدوي ، وكان لا يزال يأتي النبي ﷺ بطرفة أو هدية ، فرآه النبي ﷺ في سوق المدينة يبيع سلعة ، ولم يكن أتاه في ذلك الوقت ، فاحتضنه من وراء كتفه ، فالتفت فأبصر النبي ﷺ فقبل كفه ، فقال : من يشتري العبد؟ فقال : إذا تجدني يا رسول الله كاسدا ، قال : لكنك عند الله ربيع ، فقال ﷺ : لكل حاضر بادية ، وبادية آل محمد زاهر بن حرام » (٢) .

وهذا مثل عال للمزح التربوي ، الذي يهدف إلى رفع الكلفة ، وتوثيق الصلة ، فإن الإنسان إذا من الله عليه بالسمعة العالية ، والمكانة

(١) صحيح البخاري ، رقم ٦٤٥٢ ، الرقاق (١١/٢٨١) .

(٢) جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد ٥٦٥/٢ - ٥٦٦ ، رقم ٨٩٤٨ .

الرفيعة، تكون له في النفوس هبة قد تمنع من الاستفادة منه فيما إذا كان مسئولاً إدارياً، أو عالماً مريباً، وقد تمنعه من الاستفادة من الناس في فهم واقع المجتمع الذي تنبني عليه بعض الفتاوى والأحكام، فإذا جرى من المسئول أو العالم المربي نوع من هذا المزج الهادف فإنه يفتح مغاليق النفوس ويزيل الحرج من الصدور .

وهذا المزج التربوي إنما يكون مبنياً على الرغبة الصادقة في إصلاح المجتمع وتقويمه مع التخلق بخلق التواضع .

ونجد رسول الله ﷺ يجعل من نفسه مثلاً عالياً في التواضع لرعيته الذين ولاه الله أمرهم حيث يقول له عمه العباس رضي الله عنه : إني رأيتهم قد آذك وآذاك غبارهم ، فلو اتخذت عريشاً تكلمهم منه ، فقال : لأزال بين أظهرهم يطؤون عقبي وينازعونني ردائي حتى يكون الله هو الذي يريحني منهم » أخرجه الإمام الدارمي (١) .

وهي سنة يسنها رسول الله ﷺ للولاة والمرين من بعده حيث تواضع لأفراد أمته ، فعاش معهم كواحد منهم ولم يرض أن يتميز عليهم بشيء .

وإن التواضع لله أولاً ثم للمخلوقين دليل على سمو الفكر وكمال العقل ، ولذلك جاءت توجيهات النبي ﷺ بالتخلق بهذا الخلق الرفيع ، وذلك لأن الشريعة الإسلامية جاءت من عند الله تعالى لترفع من مستوى العقل البشري ولتميز أصحاب الأفكار السوية وتوجههم نحو الإصلاح والقيادة التربوية .

(١) سنن الدارمي رقم ٧٥ ، المقدمة باب ١٤ .

وتذكر عائشة رضي الله عنها وصفاً جامعاً لما يتصف به رسول الله ﷺ من السماحة والتواضع والإيثار حيث تقول : « ماخِرٌ رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما مالم يكن إثماً ، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه ، وما انتقم ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها » أخرجه الإمامان البخاري ومسلم (١) .

وهذا مثل رفيع من أمثلة التواضع والسماحة والتجرد من حظ النفس ، فإن النفوس مجبولة على الغيرة لحرماتها ، والعمل لجلب حظوظها ، ولكن كلما قوي الإيمان بالله تعالى تضاءلت الأنانية وقوي خلق الإيثار ، حتى إذا بلغ الإيمان كماله لم يعد في تفكير الإنسان نظر لحظ النفس وأصبح يعيش لإخوانه ومجتمعه الإسلامي ، ولقد بلغ رسول الله ﷺ أعلى درجات الإيمان ، فليس غريباً أن يكون أعلى نموذج في هذه الأرض لتمثيل مكارم الأخلاق .

ولم تقتصر رحمة النبي ﷺ على الإنسان بل تجاوزت ذلك إلى الحيوان ، فمن ذلك ما أخرجه الإمام أبو داود من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فأنطلق لحاجته ، فرأينا حُمرةً معها فرخان فأخذنا فرخيهما ، فجاءت الحُمرة فجعلت تُعرّش (٢) ، فجاء النبي ﷺ فقال : من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها .

(١) صحيح البخاري ، رقم ٣٥٦٠ ، المناقب (٦ / ٥٦٦) ، صحيح مسلم رقم ٢٣٢٧ ، الفضائل (ص ١٨١٣) .

(٢) يعني ترتفع وتظلل بجناحيها على من تحتها .

قال : ورأى قرية غل قد حرقناها ، فقال : من حرق هذه؟ قلنا: نحن ، قال : إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار (١) .

وأخرج أبو داود أيضًا من حديث عامر الرام أخى الخضر رضى الله عنه قال : إني لبيلادنا إذ رُفعت لنا رايات وألوية ، فقلت : ما هذا؟ قالوا : هذا لواء رسول الله ﷺ فأتيته وهو تحت شجرة قد بُسط له رداء وهو جالس عليه وقد اجتمع إليه أصحابه . . ثم ذكر خبرا إلى أن قال : فبينما نحن عنده إذ أقبل رجل عليه كساء وفي يده شيء قد التف عليه فقال: يا رسول الله إني لما رأيته أقبلت فمررت بغیضة شجر فسمعت فيها أصوات فراخ طائر فأخذتهن ، فوضعتهن في كسائي ، فجاءت أمهن فاستدارت على رأسي ، فكشفت لها عنهن فوقعت عليهن معهن ، فلففتهن بكسائي فهن أولاء معي ، فقال : ضعهن عنك ، فوضعهن وأبت أمهن إلا لزومهن ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : أتعجبون لرحم أم الفراخ فراخها ؟ قالوا : نعم يا رسول الله ، قال : فو الذي بعثني بالحق لله أرحم بعباده من أم الفراخ بفراخها ، ارجع بهن حتى تضعهن من حيث أخذتهن وأمهن معهن ، فرجع بهن (٢) .

وأخرج أبو داود أيضا من حديث عبد الله بن جعفر رضى الله عنهما قال : أردفني رسول الله ﷺ خلفه ذات يوم فأسرَّ إليَّ حديثا لا أحدث به أحدا من الناس ، وكان أحبَّ ما استتر به رسول الله ﷺ

(١) سنن أبي داود رقم ٥٢٦٨ ، كتاب الأدب (٤١٩/٥) .

(٢) سنن أبي داود رقم ٢٩٦٣ ، أول كتاب الجنائز (٢٧٣٤) .

لحاجته هدفاً أو حائش نخل ، قال : فدخل حائطاً لرجل من الأنصار فإذا جمل ، فلما رأى النبي ﷺ حنَّ وذرفت عيناه ، فأتاه النبي ﷺ فمسح ذِفْرَاهُ (١) فسكت ، فقال : من ربُّ هذا الجمل ؟ لمن هذا الجمل ؟ فجاء فتى من الأنصار فقال : لي يارسول الله ، قال : أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها ؟ فإنه شكى إلي أنك تجيعه وتدئبه (٢) (٣) .

وأخرجه الإمام أحمد وذكر نحوه (٤) .

وفي هذه الأخبار وغيرها تعليم من رسول الله ﷺ لأُمَّته بوجوب الرفق بالحيوان وعدم إيذائه ، ولزوم التيسير عليه في العمل وتوفير الغذاء الكافي له ، فليعلم الذين يظنون أن الدول الغربية هي أول من أنشأ جمعيات الرفق بالحيوان بأن الإسلام قد سبقهم بتوجيه جميع أفراد الأمة الإسلامية إلى الإحسان إلى جميع الأحياء ، وتوفير الحياة الملائمة لكل حي بلا ظلم ولا تقصير .

من مواقف أبي بكر وعمر رضي الله عنهما :

من ذلك ما أخرجه الإمام أحمد من حديث عائشة رضي الله عنها . . وذكرت خبر غزوة الأحزاب وبني قريظة وخبر استشهاد سعد ابن معاذ رضي الله عنه من أثر الجرح الذي أصابه . . إلى أن قالت :

(١) أي مؤخر رأسه .

(٢) يعني تتعبه في العمل .

(٣) سنن أبي داود رقم ٢٤٣٩ ، كتاب الجهاد (٣ / ٣٨٦) .

(٤) مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر ٣ / ١٧٥٥ رقم ١٧٥٤ .

فحضره رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر ، قالت : فو الذي نفس محمد بيده إني لأعرف بكاء عمر من بكاء أبي بكر وأنا في حجرتي ، وكانوا كما قال الله عز وجل ﴿ رحماء بينهم ﴾ (١) .

إننا لنجد في هذا الخبر صورة من تألف الأرواح بين الصحابة رضي الله عنهم ، وبروز مظاهر الرحمة والعطف في مجتمعهم .

وهو مظهر من مظاهر الحب في الله تعالى والإخاء الإيماني فإن سعد بن معاذ الأنصاري ليس بينه وبين أبي بكر وعمر قرابة ولانساب إلا نسب الإيمان الذي جمع بين القلوب المختلفة وكون منها مجتمعا قويا متماسكا ، رضي الله عن الصحابة أجمعين .

وهو أيضا مظهر من مظاهر الاعتراف بفضل ذلكم المؤمن المجاهد حيث تتسلسل أحداث جهاده على شريط الذاكرة فتعكس صورتها في تأثر ضاغط تشفُّ له النفوس وتتحدّر له الدموع .

من مواقف أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه :

ومن مواقف الرحمة والتواضع مارواه أبو عبيد بن سلام بإسناده قال: بينا عمر نصف النهار قائل في ظل شجرة ، وإذا أعرابية فتوسمت الناس ، فجاءته فقالت : إني امرأة مسكينة ولي بنون ، وإن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كان بعث محمد بن مسلمة ساعيا (٢) فلم يعطنا ، فلعلك - يرحمك الله - أن تشفع لنا إليه !

(١) مسند أحمد ٦/ ١٤٢ .

(٢) الساعي هو الذي يجبي الصدقة ويقسمها بين مستحقيها .

قال : فصاح بيرفأ^(١) : أن ادعُ لي محمد بن مسلمة ، فقالت : إنه ألحج لحاجتي أن تقوم معي إليه ، فقال : إنه سيفعل إن شاء الله ، فجاءه يرفأ فقال : أجب ، فجاء فقال : السلام عليكم يا أمير المؤمنين ، فاستحيت المرأة ، فقال عمر : والله ما آلو^(٢) أن أختار خياركم ، كيف أنت قائل إذا سألك الله عز وجل عن هذه !؟ فدمعت عينا محمد ، ثم قال عمر : إن الله قد بعث إلينا نبيه ﷺ فصدقناه واتبعناه ، فعمل بما أمره الله به ، فجعل الصدقة لأهلها من المساكين حتى قبضه الله على ذلك ، ثم استخلف الله أبابكر فعمل بسنته حتى قبضه الله ، ثم استخلفني فلم آل أن أختار خياركم ، إن بعثتك فأدِّ إليها صدقة العام وعام أول ، وما أدري لعلني لا أبعثك ، ثم دعا لها بجمل فأعطها دقيقا وريتا ، وقال : خذي هذا حتى تلحقينا بخيبر فإننا نريدها ، فأنته بخيبر فدعا لها بجملين آخرين وقال : خذي هذا فإن فيه بلاغا حتى يأتيكم محمد بن مسلمة ، فقد أمرته أن يعطيك حقل للعام وعام أول^(٣) .

فهذا مثل من رحمة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه وعطفه على الضعفاء ، حيث اهتم بأمر تلك المرأة المسكينة وعاتب من أجلها محمد بن مسلمة رضي الله عنه ، مع أنه لم يتعمد تركها ، ومثل من خشية الله تعالى يقدمه محمد بن مسلمة حينما ذكره أمير المؤمنين بالله تعالى فبكى من خشيته .

(١) يعني غلام عمر .

(٢) أي ما أقصر .

(٣) الأموال / ٥٩٩ .

فما أعظم ذلك المجتمع الذي يتأثر فيه أعلى مسئول فيه وأحد كبار رجال دولته من أجل امرأة مسكينة !!

ومن ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير من حديث الإمام الطبراني بإسناده عن سعيد بن المسيب قال : خرجت جارية لسعد [يعني ابن أبي وقاص رضي الله عنه] يقال لها : زبراء ، وعليها قميص جديد فكشفتها الريح ، فشد عليها عمر بالدرة ، وجاء سعد ليمنعه فتناوله عمر بالدرة ، فذهب سعد يدعو على عمر ، فناولوه الدرة وقال : اقتص مني فعفا عن عمر (١) .

فهذان مثلاً من مكارم الأخلاق يطبقهما عظيمان من عظماء الصحابة رضي الله عنهم ، فأمر المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه تناول سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه بالعصا في ساعة غضب بسبب تلك الجارية التي لم تلتزم بالاحتشام ، وسعد أقدم على الدعاء على عمر في ساعة غضب مما حدث ، لكن أمير المؤمنين ندم على ما كان منه نحوه فأعطاه العصا ليقتص منه ، حتى يخرج من دنياه ولم يحمل حقاً لمسلم ، فهل يفعل سعد ذلك ؟!

إنه لا يمكن أن يقدم على ضرب أمير المؤمنين ، ويكفيه نبلاً وتواضعاً من أمير المؤمنين أنه أعطاه العصا ليقتص منه ، فكان العفو من سعد ، واطمأنت نفس عمر حينما عفا أخوه سعد رضي الله عنهما .

ومن ذلك ما أخرجه المؤرخ أبو زيد عمر بن شبة من خبر زيد بن

(١) البداية والنهاية ٧٦/٨ .

أسلم عن أبيه : أن عمر رضي الله عنه استعمل مولى له يُدعى هنيئاً على الحمى ، وقال له : اضمم جناحك عن الناس ، واتق دعوة المظلوم فإن دعوة المظلوم مجابة ، وأدخل رب الصرمة والغنمة^(١) ، وإيائي ونعم ابن عوف ، وإيائي ونعم ابن عفان ، فإنهما إن تهلك ماشيتهما يرجعا إلى نخل وزرع ، وإن رب الغنمة ورب الصرمة إن تهلك ماشيته جاءني ببنيه فقال : يا أمير المؤمنين ، أفتركهم تأ لله لا أبالك^(٢) ، فالماء والكلاء أهون علي من الذهب والورق^(٣) ، وأيم الله إنهم ليرون أنني قد ظلمتهم ، وإنها لبلادهم قاتلوا عليها في الجاهلية وأسلموا عليها في الإسلام ، ووَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لولا المال الذي أحمل عليه في سبيل الله ما حميت عليهم من بلادهم شبرا^(٤) .

فهذا مثل من رحمة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بالفقراء الذين ليس لهم إلا مورد واحد في الرزق ، فإذا قُطع هذا المورد هلكوا ، وفي مقارنة عمر بين هؤلاء الضعفاء والأغنياء دلالة على اهتمامه بشأن الضعفاء وأنه يقدمهم على الأغنياء ، وإن كان هؤلاء من كبار أهل الحل والعقد كعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما .

وهذه النظرة العادلة من أسباب استقامة المجتمع وسلامته من الاضطراب والخلل ، لأن الفقراء ومتوسطي الحال هم القطاع الكبير

(١) الصرمة بالتصغير القطعة من الإبل ، والغنمة بالتصغير القطعة من الغنم .

(٢) كلمة مدح معناها لاكافي لك إلا نفسك .

(٣) يعني الفضة .

(٤) تاريخ المدينة المنورة / ٨٣٩ - ٨٤٠ .

في المجتمعات ، فإذا كان الوالي يهتم بشأنهم فإنه يضمن شمول حياة الأمن والرخاء في المجتمع ، أما الأغنياء فإنهم يستطيعون أن يُسيروا أمورهم بأموالهم التي تتعدد - عادة - مصادرها .

وهذه النظرة التربوية تعتبر امتداداً لمفعول الجهاد الدعوي ، حينما قضى المسلمون على الطبقة السائدة في العالم آنذاك ، حيث كان الضعفاء حاشية للأغنياء يُسخّرونهم لما يريدون ، وفي ذلك شلل للفكر الإنساني وقضاء على حياة الإبداع والنبوغ ، لأن فكر المجموعة من الناس يكون مرتبطاً بفكر رجل واحد ، والذي عمّق تلك الطبقة وحوّلها إلى نظام اجتماعي هو اهتمام المسؤولين بالأقوياء وإهمالهم الضعفاء .

ومن ذلك ما أخرجه المؤرخ أبو زيد عمر بن شبة من خبر فضيل ابن زيد الرقاشي قال : سَرَتْ سَرِيَّةٌ عَلَى عهد عمر رضي الله عنه على أرجلهم ، فأعيا رجل فأراد أن يقيموا عليه ، [فرفض أمير السرية] فنادى : ياعمراه ، فمضوا وتركوه ، فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه ، فكتب إلى أبي موسى [يعني الأشعري] رضي الله عنه : أن ابعث إليّ بالرجل ، فبعث به إليه فأخذ قناةً فجعل يضربه بها ويقول : يالبيكاه ، ويقول : يامهلك ، يقول لك الرجل انتظرنى فتذهب وتتركه فينادي : ياعمراه ؟ فجعل يعتذر إليه ، فقال : والله لأصلاح رجل من المسلمين أحب إلي من هلاك كذا وكذا من أهل الشرك ، وكتب إلى أبي موسى رضي الله عنه : انظر مُهْلِكًا فلا تستعمله ماكنتَ لنا على عمل (١) .

(١) تاريخ المدينة المنورة / ٨١٢ .

فهذا مثل من رحمة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بالمسلمين وشفقته عليهم ، وهذا الخبر وأمثاله يدلنا على أن ما اشتهر عنه من الشدة والقوة ليس صفة ملازمة له في كل أحواله ، بل كان شديداً في محل الشدة ولينا في محل اللين .

وقول عمر « لصلاح رجل من المسلمين أحب إليّ من هلاك كذا وكذا من أهل الشرك » مثال لعزة المسلم ومقدار قيمته في هذه الحياة . فأين الذين لا يزالون بأرواح المسلمين ولا يطالبون بدمائهم من هذا المثل الأعلى ؟!

ومن ذلك ما أخرجه المؤرخ أبو زيد عمر بن شبة من خبر زيد بن وهب قال: خرج جيش في زمن عمر رضي الله عنه نحو الجبل ، فاتتهوا إلى نهر ليس عليه جسر ، فقال أمير ذلك الجيش لرجل من أصحابه: انزل فابغنا مخاضة نجور فيها ، وذلك في يوم بارد شديد البرد ، فقال الرجل: إني أخاف إن دخلت الماء أن أموت ، فأكرهه ، فقال: ياعمراً ياعمراً ، ثم لم يلبث أن هلك ، فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه وهو في سوق المدينة فقال: يالبيكاه يالبيكاه ، وبعث إلى أمير ذلك الجيش فنزعه ، وقال له: لولا أن تكون سنة لأقذت منك ، لاتعمل لي على عمل أبدا (١) .

وهكذا تأثر أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه لموت ذلك الرجل ، حتى همّ بقتل ذلك الأمير به تعزيراً لولا أنه خشي أن يقتدي الولاة به في ذلك ، فاكتفى بعزل ذلك الأمير عن أي عمل في الدولة ، وهذا

(١) تاريخ المدينة المنورة / ٨١٢ .

مثل آخر يدل على اتصاف أمير المؤمنين عمر بالرحمة والشفقة بالأمة .
ومن ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر عبيد الله بن عمر
ابن حفص : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حمل قربة على
عنقه ، فقال له أصحابه : يا أمير المؤمنين ما حملك على هذا ؟ قال :
إن نفسي أعجبتني فأردت أن أذلها (١) .

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر أيضا من خبر عمر
المخزومي قال : نادى عمر بن الخطاب بالصلاة جامعة ، فلما اجتمع
الناس وكبروا صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله وصلى
على نبيه - عليه الصلاة والسلام - ثم قال : أيها الناس لقد رأيتموني أرمي
على خالات لي من بني مخزوم ، فيقبضن لي القبضة من التمر أو
الزبيب ، فأظل يومي ، وأي يوم ، ثم نزل ، فقال له عبد الرحمن ابن عوف
رضي الله عنه : يا أمير المؤمنين ما زدت على أن قميت نفسك - يعني
عبت ، فقال : ويحك يا ابن عوف ، إني خلوت فحدثتني نفسي قالت : أنت
أمير المؤمنين فمن ذا أفضل منك ؟ فأردت أن أعرفها نفسها (٢) .

فهذا السلوك قد جرى أيضا من صحابة آخرين ، وهذا شاهد
على أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يحاسبون أنفسهم حتى على
الخطرات ، وأنهم يحافظون على مستوى إيمانهم ، فيسعون إلى زيادته
بالطاعات ، ويحذون من نقصه بالمخالفات ، حتى لو كان ذلك من
هواجس النفس التي لم يترتب عليها عمل .

(١) تاريخ دمشق ٤٤ / ٣١٨ .

(٢) تاريخ دمشق ٤٤ / ٣١٤ - ٣١٥ .

إنهم أطباء القلوب الماهرون في علاج أمراضها ، ولما كان الإعجاب بالنفس من الأمراض الخطيرة فإن علاجه عندهم هو محاولة إذلال النفس أمام الناس ليكون المؤمن بريئاً حتى من الهواجس وإيحاءات الضمير .

فلله دَرُّهُم ما أدق ملاحظاتهم !!

وما أقدرهم على كبح جماح نفوسهم !!

وفي هذا المعنى أخرج الحافظ ابن عساكر أيضاً من خبر سعيد بن المسيب قال : حج عمر فلما كان بَصَجَنان قال : لا إله إلا الله العلي العظيم المعطي ما شاء لمن شاء ، كنت أرى إبل الخطاب بهذا الوادي في مدرعة صوف ، وكان فظاً ، يتعبني إذا عملت ، ويضربني إذا قصرت ، وقد أمسيت ليس بيني وبين الله أحد ، ثم تمثل :

[لا شيء مما ترى تبقى بشاشته] يبقى الإله ويودي المال والولد
لم تغن عن هرز يوماً خزائنه والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سليمان إذا تجري الرياح له والأنس والجن فيما بينهم بُرد
أين الملوك التي كانت نواهلها من كل أوب إليها راكب يفد
حوض هنالك مورود بلا كذب لابد من ورده يوماً كما وردوا^(١)

فهذا مثل من تواضع أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه وشكره لله تعالى ، حيث ذكر ماضيه يوم أن كان راعي إبل ثم أصبح راعي أعظم أمة على وجه الأرض ، وقد تمثل بهذه الأبيات الشعرية التي تذكر بعدم

(١) تاريخ دمشق ٣١٦/٤٤ .

الخلود لشيء في هذه الحياة الدنيا مهما بلغ من الرفعة والقوة، وإن في ذلك لعبرة وذكرى لصاحب العقل السليم، حتى لا يغتر بما لديه من جاه وقوة، فإن مصير ذلك إلى الزوال .

ومن ذلك ما أخرجه المؤرخ عمر بن شبة النميري من خبر نعيم بن هزال رضي الله عنه قال قال عمر رضي الله عنه : تجد الرجل يلبس الصوف لو ظلم ما انتصر وإن قلبه في ذلك لملوء كبراً وإعجاباً، وإنك لتجد الرجل يتجمل في ثيابه وفي كثير من أمره وإن في قلبه الخشوع والتواضع، وذلك أملك التواضع بالعبد (١).

ففي هذا الخبر بيان أهمية التواضع، وأن الحكم على الناس ينبغي أن يكون منطلقاً من أخلاقهم وأعمالهم، لا من مجرد مظاهر النسك والعبادة فيهم، فالعبادة إذا أثمرت التخلق بالغرور والإعجاب بالنفس والتكبر على الخلق ولم تثمر التخلق بالتواضع والاستقامة في السلوك فإنها عبادة ينقصها الخشوع وحضور القلب مع الله تعالى .

إن من أهم فوائد الشعائر التعبدية أنها تربي المسلم في الدنيا على استقامة السلوك والتخلق بمكارم الأخلاق، وتوصل في الآخرة إلى رضوان الله جل وعلا ورفعة الدرجات في الجنة، فإذا كانت تؤدي إلى مساوئ الأخلاق، من الغرور والكبر والإعجاب بالنفس فإن صاحبها قد خسر خسراناً مبيناً وظلم نفسه ظلماً كبيراً .

ومن أمثلة تواضع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وشكره لنعمة الله تعالى ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر قتادة

(١) تاريخ المدينة المنورة لابن شبة / ٨٥٦ .

السدوسي قال : كان عمر بن الخطاب يلبس وهو أمير المؤمنين جبة صوف مرقوعة، بعضها بأدم^(١)، ويطوف الأسواق على عاتقه الدرة^(٢) يؤدب الناس بها ، ويمر بالنكت^(٣) والنوى فيلتقطه، ويلقيه في منازل الناس ليتنفعوا بذلك^(٤) .

من مواقف عثمان رضي الله عنه :

ذكر الحافظ ابن عساكر من خبر عبد الله الرومي قال : كان عثمان بن عفان يأخذ وضوءه لنفسه إذا قام من الليل ، ف قيل له : لو أمرت الخادم فكفتك ! قال : لا ، الليل لهم يستريحون فيه^(٥) .

فهذا مثل من اتصاف أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه بالرحمة ، فهو مع كبر سنه وعلو منزلته الاجتماعية يخدم نفسه في الليل ولا يوقظ الخدم ، وإن وجود الخدم من تسخير الله تعالى للمخدومين ، وإن مما ينبغي للمسلم الذي سخر الله تعالى له من يخدمه أن يتذكر أن الخادم إنسان مثله له طاقة محدودة في العمل ، وله مشاعر وأحاسيس فينبغي له أن يراعي مشاعره ، وأن ييسر له الراحة الكاملة في النوم ، وأن لا يشق عليه بعمل .

من مواقف علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

من ذلك ما ذكر الحافظ ابن كثير من خبر صالح بن أبي الأسود

(١) أي مرقوعة بجلد .

(٢) بكسر الدال العضا .

(٣) بكسر النون الغزل المنقوض .

(٤) تاريخ دمشق ٤٤ / ٣٠٣ .

(٥) تاريخ دمشق ٣٩ / ٢٣٦ .

عمن حدثه أنه رأى علياً قد ركب حماراً ودلّى رجله إلى موضع واحد، ثم قال : أنا الذي أهنت الدنيا (١) .

وهكذا يشعر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالفرح لانتصاره على نفسه ، وظهوره بمظهر التواضع أمام الناس وهو خليفة المسلمين .

إن مناصب الدنيا خداعة غرارة ، وإن فتنة الجاه بها أعظم من فتنة المال ، فلطالما رأى الناس مسئولين كانوا متواضعين قبل أن يلوا ، فلما تولوا مناصب كبيرة بدأ التعاضم في نفوسهم شيئاً فشيئاً ، حتى يكون من الصعب في آخر الأمر مخاطبتهم واللقاء معهم ، لكن أولياء الله المتقين كلما ازدادوا رفعة في المناصب الدنيوية زادوا تواضعاً للناس ، وشعروا بالسرور وهم يقومون بمظاهر التواضع التي تنفي عنهم صفة التجبر والكبرياء .

ومن أخبار تواضعه رضي الله عنه ما روي عنه أنه اشترى تمرًا بدرهم فحمله في ملحفة ، فقالوا : نحمل عنك يا أمير المؤمنين ، قال : لا ، أبو العيال أحق أن يحمل (٢) .

فهذا مثل من تواضعه حيث حمل متاعه بنفسه مع كونه أمير المؤمنين ومع كبر سنه ، فلم يرَ في ذلك مسوغاً لقبول خدمة الناس له ، وهو بهذا يجعل من نفسه قدوة حسنة للمسلمين في التواضع ، فلو نازعت أحد الكبراء نفسه في تصور العيب من حمل المتاع فإنه

(١) البداية والنهاية ٥ / ٨ .

(٢) الزهد للإمام أحمد / ١٣٣ .

بتذكره لموقف أمير المؤمنين علي رضي الله عنه يزول ما في نفسه من ذلك ، ولو اعترض على أحد المتواضعين معترض فإن له من الاقتداء بأكبر أمير على وجه الأرض ما يرد هذا الاعتراض .
من مواقف أبي هريرة رضي الله عنه :

من ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير من خبر ثعلبة ابن أبي مالك أن أبا هريرة أقبل في السوق يحمل حزمة حطب وهو يومئذ خليفة مروان فقال : أوسع الطريق للأمير يا ابن أبي مالك ، قال فقلت : أصلحك الله تلقى هذا ، فقال : أوسع الطريق للأمير والحزمة عليه (١) .

فهذا مثل مما كان يقوم به الصحابة رضي الله عنهم من مظاهر التواضع ، إما للتهوين من شأن النفس إذا أرادت أن تطمح لشيء من الجاه والمنزلة في الدنيا ، أو من باب التعليم والقذوة الحسنة ليثبتوا للناس أن المناصب لا تغريهم ، ولا تحملهم على شيء من العجب والكبرياء .

وقد تكرر هذا المشهد من علي بن أبي طالب وسلمان وحذيفة بن اليمان رضي الله عنهم وكلهم كانوا - آنذاك - أمراء ، ولقد أثبتوا لمن عاصرهم من التابعين ولمن جاء بعدهم أنهم أعلى تفكيراً وأبعد طموحاً من أن تؤثر عليهم مناصب الدنيا ، لأنهم إنما أرادوا الآخرة ، ومن أراد الآخرة أهان من أجلها الدنيا .

من مواقف عبد الله بن سلام رضي الله عنه :

أخرج الإمام أحمد بن من خبر عبد الله بن حنظلة أن عبد الله ابن سلام رضي الله عنه مر في السوق وعليه حزمة من حطب ،

(١) البداية والنهاية ١١٤/٨ .

فقيل: أليس الله أعفأك من هذا ؟ قال : بلى ، ولكن أردت أن أدفع به الكبر ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر » (١) .

وهكذا يقوم عبد الله بن سلام رضي الله عنه بتطهير قلبه من مرض من أكبر أمراض القلوب ، حيث يقوم بإذلال نفسه بذلك السلوك الذي قام به حتى لا يتطرق إلى قلبه مثقال حبة خردل من كبر ، وكم هو شعور الفرح لديه وهو يمارس ذلك العمل الذي يحس معه بأنه قد نجح في كبح جماح النفس عن الشرف والجاه الرفيع !!
من مواقف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر حبيب بن أبي ثابت قال: خرج ابن مسعود ذات يوم فاتبعه ناس، فقال لهم : ألكم حاجة؟ قالوا: لا، ولكن أردنا أن نمشي معك، قال: ارجعوا فإنه ذلة للتابع وفتنة للمتبع (٢).

فهذا مثل على تواضع عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وتعليله المذكور فيه نوع من الفقه الدقيق لمداخل الضعف في النفوس ، وتغليب الجانب حفظ الدين وحمايته ، فكم من مخدوع بتبعية الناس له ووطئهم عقبه أضرب بآخرته ولم يخرج من الدنيا إلا بمقت الناس واحتقارهم ، وعلى فرض محبة الناس للمتبع فإن ذلك تربية لهم على الذلة والخنوع .

(١) الزهد / ١٨٢ .

(٢) صفوة الصفوة ٤٠٦/١ .

من مواقف المقداد بن عمرو رضي الله عنه :

من ذلك ما أخرجه الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من حديث عبد الرحمن بن نُفَيْر عن أبيه قال : جلسنا إلى المقداد بن الأسود (١) يوماً فمرَّ به رجل فقال : طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله ﷺ ، والله لو ددنا أنا رأينا ما رأيت وشهدنا ما شهدت ، فاستمعتُ فوجدتُ أعجب ما قال إلا خيراً ، ثم أقبل عليه فقال : ما يحمل أحدكم على أن يتمنى محضراً غيَّبه الله عز وجل عنه ، لا يدري لو شهدته كيف يكون فيه ، والله لقد حضر رسول الله ﷺ أقوامٌ كبَّهم الله عز وجل على مناخرهم في جهنم لم يجيئوه ولم يصدقوه ، أو لا تحمدون الله إذ أخرجكم الله عز وجل لاتعرفون إلا ربكم مصدقين بما جاء به نبيكم عليه الصلاة والسلام وقد كفيتم البلاء بغيركم ؟ والله لقد بُعث النبي ﷺ على أشد حال بُعث عليه نبي من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، في فترة وجاهلية ، ما يرون ديناً أفضل من عبادة الأوثان ، فجاء بفرقان فرق به بين الحق والباطل ، وفرق به بين الوالد وولده ، حتى إن الرجل ليرى والده أو ولده أو أخاه كافراً وقد فتح الله تعالى قفل قلبه للإيمان ليَعْلَم أنه قد هلك من دخل النار فلا تَقْرُ عينه وهو يعلم أن حميمه في النار ، وإنها لَلَّتِي قال الله عز وجل ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٤] (٢) .

(١) هو المقداد بن عمرو القضاعي ، ولكن غلب عليه الانتساب للأسود لأنه كان قد

حالف الأسود بن عبد يغوث الزهري القرشي فتبَّاه - المستدرك ٣/ ٣٤٨ - .

(٢) حلية الأولياء ١/ ١٧٥ - ١٧٦ ، وانظر صفة الصفوة ١/ ٤٢٤ .

فهذا مثل من أمثلة التواضع وعدم الغرور بالفضيلة التي لا يوصل إليها ، فقد أشاد ذلك الرجل بالمقداد لكونه رأى النبي ﷺ ، فلم يفتخر بالمقداد بدرجة الصحبة التي لا يستطيع التابعون ولا غيرهم أن يصلوا إليها ، وأنكر على ذلك التابعي تمنّيه لقاء النبي ﷺ لأن ذلك ليس في إمكانه ، ووجهه ومن حوله من التابعين إلى أن يحمدا الله تعالى على أنهم نشئوا في الإسلام ولم يتعرضوا للبلاء الذي تعرض له الصحابة ، وإن مقتضى حمد الله جل وعلا على الهداية أن يستقيم المسلم على تكاليف هذا الدين وأن يكثر من الأعمال الصالحة .

وإذا كان غير الصحابة لم يتمكنوا من لقاء النبي ﷺ في الدنيا فإن لصالحه أمته موعداً معه للقاء يوم القيامة ، فليفكر المسلم بذلك اللقاء المحقق وليُعدّ له عدته .

وهكذا نجد الصحابة رضي الله عنهم تربوين يدفعون الناس إلى العمل الذي ينفعهم في حياتهم الدنيا والأخرى ، ولا يتركونهم لأحلامهم التي لا شيء وراءها .

من مواقف حذيفة بن اليمان رضي الله عنه :

عن ابن سيرين رحمه الله قال : كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا بعث أميراً كتب إليهم : إني قد بعثت إليكم فلانا وأمرته بكذا وكذا فاسمعوا له وأطيعوا ، فلما بعث حذيفة رضي الله عنه إلى المدائن كتب إليهم : إني قد بعثت إليكم فلانا فأطيعوه ، فقالوا : هذا رجل له شأن ، فركبوا ليتلقوه ، فلقوه على بغل تحته إكاف وهو معترض عليه ، رجلاه من جانب واحد فلم يعرفوه فأجازوه - يعني

مَرُّوا به وخَلَّفوه - فلقِيهم الناس فقالوا : أين الأمير ؟ قالوا : هو الذي لقيتم ، قال : فركضوا في أثره فأدركوه وفي يده رغيف وفي الأخرى عَرَق - يعني قطعة لحم - وهو يأكل ، فسلموا عليه ، فنظر إلى عظيم منهم فناوله العَرَق والرغيف ، قال : فلما غفل ألقاه أو قال : أعطاه خادمه .

وفي رواية أخرى عن ابن سيرين : أن حذيفة كان راكبا على حمار له إكاف ، وبيده رغيف وعرق من لحم ، فقالوا : سلنا ماشئت ، فقال : أسألكم طعاما آكله وعلفا لحماري هذا مادمت فيكم .

فأقام ماشاء الله ، ثم كتب إليه عمر : أن أقدم ، فقدم فلما بلغ عمرَ قدومه كَمَنَ له في الطريق في مكان لا يراه ، فلما رآه على الحال التي خرج من عنده عليها أتاه فالتزمه وقال : أنت أخي وأنا أخوك^(١) .

وهكذا رأينا في هذه القصة السليمة بالعبر كيف أن وجوه أهل العراق قد خرجوا لاستقبال الأمير الذي توقعوا على الأقل أن يكون معه مرافقون وأن تكون له هيئة تميزه ولو بعض الشيء ، ولكنهم فوجئوا بمرور الأمير حذيفة وهو وحده راكبا حمارا بشكل متواضع فلم يعرفوه .

إنه تلميذ من تلاميذ المدرسة النبوية التي تربى أفرادها على السمو عن مظاهر الدنيا وزخارفها وإظهار عزة الإسلام أمام ضغوط مظاهر الجاهلية .

إن هذا المظهر المتواضع الذي ظهر به هذا الأمير أمام من يهتمون بالمظاهر الدنيوية يعتبر درسا بليغا لهم ولغيرهم .

(١) صفة الصفوة ١/ ٦١٢ .

وإنه لموقف كبير أن يقف هذا الصحابي الجليل وأمثاله لوضع معوقات قوية توقف انحدار الناس نحو المظاهر الدنيوية لأنه إذا كان الأمير يظهر بهذا المظهر البسيط فإن من تميل نفسه إلى المظاهر ممن هم أقل منه منزلة اجتماعية سيجد حرجا في الاستمرار في هذه المظاهر .
وحين قالوا له : « سلنا ماشئت » كان أمامه فرصة ذهبية للتكثُر من الدنيا والتمتع بطيباتها لو كان من أهلها ، ولكنه لم يطلب إلا طعاما له وعلفا لحماره ، وإن أقل أجير يكون عند صاحب عمل لا يرضى بأن يعمل بطعام بطنه فقط ، ولكنها النفوس العلية تأبى إلا السمو دائما نحو المكارم ، وتعمل جاهدة على رفع رصيدها الأخروي وإن أضرت بأجسامها في دار الفناء .

هذا وإن موقف عمر حين كَمَنَ لأخيه حذيفة رضي الله عنهما ليراه على الحال التي يصل عليها دليل على اهتمامه بالحفاظ على الرصيد الأخلاقي للأمة ، لأنه إذا استطاع أن يحافظ على تماسك هذا الرصيد عند الولاة فإن الأمة تبع لهم في ذلك .

وفي التزامه إياه وإعلان الأخوة بينهما مظهر خلاص من مظاهر الفرحة القلبية ، وسعادة الروح ، حينما يرى الأخ أخاه في الله على الوضع الديني الذي يرضي الله تعالى .

من مواقف سلمان الفارسي رضي الله عنه :

لقد كان لسلمان الفارسي رضي الله عنه مواقف عالية في التواضع ، فلقد كان متواضعا لله تعالى ولعباده المؤمنين ، ومن أمثلة تواضعه واهتمامه أنه لما كان واليا على المدائن كان إذا سجدت له

العجم طأطأ رأسه وقال : خشعت لله خشعت لله (١) .

وفي هذا تقرير للتوحيد بالقول والعمل وتعليم لأولئك الجاهلين بأمر الله تعالى وما يجب له من إفراده بالسجود .

ومن أمثلة تواضعه رضي الله عنه ما يرويه ثابت البناني قال : كان سلمان أميراً على المدائن ، فجاء رجل من أهل الشام ومعه حمل تبين وعلى سلمان « أُنْدَرَا وَرْدٌ » (٢) وعباءة ، فقال لسلمان : تعال احمل ، وهو لا يعرف سلمان ، فحمل سلمان ، فرآه الناس فعرفوه فقالوا : هذا الأمير ، فقال : لم أعرفك ، فقال له سلمان : لاحتى أبلغ منزلك ، وفي رواية أخرى : إني قد نويت فيه نية فلا أضعه حتى أبلغ بيتك (٣) .

في هذا الخبر نوع نادر المثال من التواضع من سلمان رضي الله عنه ، فهو أولاً وهو أمير على المدائن عاصمة مملكة الفرس يلبس لباس الفقراء حتى ظنه ذلك الرجل ممن يحملون الأمتعة للناس فحمله مامعه من التبن ، ثم بعد أن عرف ذلك الرجل أنه الأمير واعتذر منه أبى إلا أن يستمر حتى يوصله منزله لأنه نوى في ذلك عملاً صالحاً لله تعالى فكره أن يقطع ذلك العمل .

وما أبلغه من عمل يسهم فيه فاعله في تثبيت خلق التواضع في

المجتمع !

(١) سير أعلام النبلاء ٥٤٦/١ .

(٢) يعني نوعاً من اللباس يغطي الركبة .

(٣) صفة الصفوة ٥٤٢/١ .

وهكذا يصنع العظماء في إهانة أنفسهم من أجل إشاعة الأخلاق السامية وتربية المسلمين على الخشونة والزهد .

وإنه لا يقدر على هذا العمل إلا من عظمت الآخرة في عينه إلى الحد الذي أصبح لا ينظر معه إلى الجاه الدنيوي ولا إلى انتقاد الناس مادام واثقا من أنه يمثل الأخلاق العالية في أسمى صورها .

ويذكر الحسن البصري رحمه الله تواضع سلمان وهو أمير على المدائن فيقول : كان عطاء سلمان خمسة آلاف ، وكان على ثلاثين ألفا من الناس يخطب في عباءة يفرش نصفها ويلبس نصفها ، وكان إذا خرج عطاؤه أمضاه - يعني تصدق به - ويأكل من سفيف يده رضي الله عنه .

ويقول النعمان بن حميد : دخلت مع خالي على سلمان بالمدائن وهو يعمل الخوص ، فسمعتة يقول : أشتري خوصا بدرهم فأعمله فأبيعه بثلاثة دراهم ، فأعيد درهما فيه ، وأنفق درهما على عيالي ، وأتصدق بدرهم ، ولو أن عمر نهاني عنه ما انتهيت (١) .

يعني لو أن عمر رضي الله عنه أمره بترك هذا العمل اليدوي والإنفاق على عياله من العطاء لما فعل .

وإن هذا لنموذج فريد من العناصر الزكية التي خلصها الإسلام من جميع أنواع الغش فعادت جوهرًا نقيًا صافيًا من الكدر .

وإن المتأمل ليقف مندهشًا من هذه القوة الجبارة التي تحمل سلمان

(١) سير أعلام النبلاء ٥٤٧/١ .

وأمثاله على إنفاق عطائهم من بيت المال بالكامل ، والأكل من بعض عمل أيديهم وإنفاق بعضه الآخر .

إنهم لا يعملون حساباً للإصابة بالأمراض أو كساد الأسواق ونحو ذلك لأنهم قد اكتفوا باليسير من المعيشة وعودوا أنفسهم على ذلك وهذا النوع من المعيشة يمكن بتوفيق الله تأمينه بسهولة عند الاضطراب بخلاف من يتوسعون في النفقات ويألفون حياة الترف ، فمن الصعب عليهم النزول إلى العيش الضروري لأن نفوسهم تحتاج إلى فترة من الزمن حتى تألف على ذلك .

ومن مواقفه في الزهد والتواضع ما رواه أبو ظبيان عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال : نزلت بالصَّفاح في يوم شديد الحر ، فإذا رجل نائم في حر الشمس يستظل بشجرة ، معه شيء من الطعام ومزوده تحت رأسه ملتف بعباءة ، فأمرت أن يُظللَّ عليه ، ونزلنا فانتبه فإذا هو سلمان فقلت له : ظلَّلنا عليك وما عرفناك ، قال : يا جرير تواضع في الدنيا فإنه من تواضع يرفعه الله يوم القيامة ، ومن يتعظم في الدنيا يضعه الله يوم القيامة ، لو حرَّصت على أن تجد عوداً يابساً في الجنة لم تجده ، قلت : وكيف ؟ قال : أصول الشجر ذهب وفضة ، وأعلاها الثمار ، يا جرير تدري ما ظلمة النار ؟ قلت : لا ، قال ظلم الناس (١) .

وفي عمل جرير مع سلمان دليل على ما كان يتحلى به الصحابة رضي الله عنهم من حب فعل الخير والإحسان إلى الناس عرفوهم أو لم يعرفوهم ، لأنهم إنما يطلبون ثوابهم من الله تعالى ، حيث قام

(١) سير أعلام النبلاء ٥٤٨/١ .

جرير بالتظليل على ذلك الرجل النائم من الشمس وهو لا يعرفه ،
فأثخفه سلمان بهذه الموعظة البليغة في لزوم التواضع والزهد في الحياة
الدنيا ، واجتناب ظلم الناس .

وفي هذا الخبر توجيه من سلمان رضي الله عنه إلى التخلق بخلق
التواضع ، وقد رغب في ذلك بذكر ثمرته في الآخرة ، وإذا كان
الإنسان في الدنيا يتواضع لمديره في العمل من أجل أن يساعده في
رفع مستواه الوظيفي ، أفلا يتواضع المسلم لإخوانه من أجل الله
تعالى ليكسب رفعة في الدرجات يوم القيامة ؟!

وإذا كانت الدنيا تقوم على تبادل المنافع فلنفرض أن منفعة دنيوية
زالت من الإنسان فما الذي سيخسره مادام مستور الحال ولا يدري
مامقامه في هذه الحياة ؟

ولكن كم يخسر لو ضاعت منه منافع الآخرة حينما ترتفع
درجات الصالحين ويبقى هو في مؤخرة الناس ؟!

ثم تساءل سلمان عن الظلمات يوم القيامة فأجاب بأنها ظلم
الناس بينهم في الدنيا ، وإذا كان الأمر كذلك فما أقل متعة الظالم في
الدنيا وما أقصر مدتها !

ولكن ما أشد عذابها يوم القيامة ، وما أطول حزنها آنذاك !

ومن هذه الوصية نعلم قدر التوجيهات التربوية التي استفادها
الصحابه رضي الله عنهم من رسول الله ﷺ حيث أصبحوا ينطقون
بالحكمة المستقاة من السنة النبوية ، وذلك في مثل قوله ﷺ « الظلم
ظلمات يوم القيامة » .

ثم نجد سلمان رضي الله عنه بعد أن أعطى توجيهاته القيمة نحو تركيز الاهتمام بالحياة الآخرة يضرب مثالا على عظمة نعيم الجنة حيث بين فيه أن أصول شجر الجنة اللؤلؤ والذهب وأعلامها الثمر ، فكأنه يقول : هذا النعيم الخالد هو الذي يجب أن يتنافس فيه المتنافسون لا متاع الدنيا الزائل .

من مواقف عبد الله بن عمر رضي الله عنهما :

ومن أخبار عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في التواضع ما روي عن مجاهد رحمه الله قال : كنت أصحب ابن عمر رضي الله عنهما في السفر فإذا أردت أن أركب مسك ركابي ، فإذا ركبت سوى عليّ ثيابي ، فرآني مرة كرهت ذلك فيّ ، فقال : يامجاهد إنك لضيق الخلق ، وفي رواية قال : صحبت ابن عمر وأنا أريد أن أخدمه فكان يخدمني (١) .

فهذه أخلاق عالية من العالم الرباني عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، حيث يقوم بخدمة تلاميذه ، ولقد كانت هذه الأخلاق أصيلة فيه حيث كان يصر عليها ، ويغضب حينما تظهر الكراهية لذلك في وجوه تلاميذه .

ولقد كان أهم الدوافع لتخلق الصحابة وعامة الصالحين بتلك الأخلاق الكريمة اهتمامهم الكبير باكتساب الأعمال الصالحة ، فهم يتقربون إلى الله تعالى بالتواضع لمن هو دونهم ، وبهذه الأخلاق النبيلة ربوا مجتمعا صالحا خلفهم في وراثة هذا الدين وتبليغه لمن بعدهم .

(١) البداية والنهاية ٢٣٥ / ٩ .

من مواقف مطرف بن عبد الله رحمه الله :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر ثابت البناني أن مطرف ابن عبد الله بن الشَّخِير قال لابن أبي مسلم : مامدحني أحد قط إلا تصاغرت على نفسي (١) .

وهذا دليل على قوة إيمان مطرف بن عبد الله رحمه الله ، حيث غلب نفسه وحجمها ومنعها من أن تطمح نحو الجاه والشرف ، وهو مثل جيد في التواضع المبني على قطع موارد الكبرياء التي من أهمها الإعجاب بالنفس .

من مواقف محمد بن سيرين رحمه الله :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر هشام بن حسام قال : حدثني بعض آل سيرين قال : مارأيت محمد بن سيرين يكلم أمه قط إلا وهو يتضرع .

وأخرج أيضا من خبر ابن عون قال : دخل رجل على محمد وهو عند أمه ، فقال : ماشأن محمد أيشتك شيئا ؟ قالوا : لا ولكن هكذا يكون إذا كان عند أمه (٢) .

فهذا مثل من التواضع للوالدين ، وهو من أهم مجالات البر بهما ، ولقد بلغ ابن سيرين من إهانتته نفسه أمام أمه حدا أثر على قسمات وجهه حتى ظن من رآه أنه يشكو من ألم ، وهذا دليل على قوة إيمانه وشدة تمسكه بأحكام الإسلام وآدابه .

(١) حلية الأولياء ١٩٨/٢ .

(٢) حلية الأولياء ٢٧٣/٢ .

كما أن هذا الخبر وأمثاله دليل على عظمة الإسلام وقوة تأثيره على النفوس ، فهل كان أجداد ابن سيرين - وهم على مجوسيتهم - يعاملون أمهاتهم هذه المعاملة ؟!

إن الواقع التاريخي يشهد بأن هذا الرقي الأخلاقي لا يوجد إلا عند المسلمين ، وأن هذه القوة المؤثرة لا توجد في غير الإسلام .

من مواقف سليمان بن مهران رحمه الله :

من ذلك ما ذكره الإمام الذهبي عن الإمام سليمان بن مهران المشهور بالأعمش وقد ذكر حديث الرجل الذي ذكر عند النبي ﷺ أنه ما زال نائماً حتى أصبح ، ماقام إلى الصلاة فقال « بال الشيطان في أذنه » أخرجه الشيخان (١) .

فقال الأعمش : ما أرى عيني عمشت إلا من كثرة ما يبول الشيطان في أذني ، قال أبو خالد الراوي عن الأعمش : وما أظنه فعل هذا قط . قال الذهبي : يريد أن الأعمش كان صاحب ليل وتعب (٢) .

فهذا مثل من تواضع هذا الإمام الكبير ، وقد كان هو وأمثاله من الصالحين يهتمون بتحقيق النفس وإخفاء العمل الصالح قطعاً لموارد العجب والرياء ، وادخاراً لثواب العمل كاملاً في دار البقاء .

من مواقف سفيان الثوري ومالك بن أنس رحمهما الله :

قال الحافظ ابن كثير في ترجمة الإمام أبي عمرو عبد الرحمن

(١) صحيح البخاري ، التهجد رقم ١١٤٤ (٢٨/٣) ، صحيح مسلم ، باب المسافرين رقم ٢٠٥ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٣٢/٦ .

الأوزاعي : وقد حج مرة فدخل مكة وسفيان الثوري أخذ بزمَام
جمله ، ومالك بن أنس يسوق به ، والثوري يقول : افسحوا للشيخ
حتى أجلساه عند الكعبة ، وجلسا بين يديه يأخذان عنه (١)

فهذا مثل جيد لعلاقة المحبة والتواضع والاحترام بين العلماء ،
فالعلماء الثلاثة المذكورون كانوا متعاصرين ، وكل واحد منهم قد بلغ
حدًا عاليًا من الشهرة ، فمالك إمام أهل المدينة ، والثوري إمام أهل
الكوفة ، والأوزاعي إمام أهل الشام ، ومع تقاربهم في مستوى
الشهرة فإن الإمامين مالك والثوري قاما بهذه المقابلة الكريمة للإمام
الأوزاعي ، وهذا دليل على فضلهما وقوة إيمانهما ، حيث لم يَرَيَا في
ذلك غضاظة من شأنهما ولا حطًا من قدرهما ، بل بضد ذلك فإنهما
بهذا السلوك العالي قد خلدا هذا المثل ليكون فيه قدوة لمن بعدهما من
العلماء .

من مواقف عبد الله بن المبارك رحمه الله :

لقد كان للعلماء اهتمام بمعالجة أمراض القلوب التي تنتج عن عدم
التحلي بخلق التواضع ، وذلك كالكبر والعجب ، ومن الأقوال في
ذلك ما ذكره الإمام الذهبي من خبر أبي وهب المروزي قال : سألت
ابن المبارك : ما الكبر ؟ قال : أن تزدرى الناس ، فسألته عن العجب
قال : أن ترى أن عندك شيئًا ليس عند غيرك ، لا أعلم في المصلين
شيئًا شرا من العجب (٢) .

(١) البداية والنهاية ١٠ / ١١٩ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٨ / ٢٦٠ .

وقوله « أن تزدرى الناس » مأخوذ من قول رسول الله ﷺ «ولكن الكبر من بطر الحق وغمط الناس» (١) ، وقد ذكر ابن المبارك الشق الثاني من أنواع الكبر وهو ازدراء الناس واحتقارهم ، ولعله اقتصر على ذلك لأنه مراد السائل ، أما الشق الأول فهو بطر الحق وذلك بأن يترفع عن قبول الحق .

والكبر بنوعيه من الأخلاق الهدامة ، فهو يعطل المواهب ، ويقلل من الإنتاج الفكري، ويبعث على الظلم وهظم الحقوق بالنسبة للمتكبر، وعلى الغل والحقْد بالنسبة لمن يعاملهم المتكبر ، إلى غير ذلك من المفاصد الكثيرة المترتبة على الكبر .

أما العجب فهو قاصمة الظهر ، لأن المرء إذا أعجب بنفسه أصيب بالغرور ، وذلك يترتب عليه ضرر في الآخرة والدنيا، فأما ضرره في الآخرة فمنه الآثام المترتبة على الكبر من احتقار الناس والبحث عن عيوبهم وغير ذلك ، وأما ضرره في الدنيا فإنه يُضعف من الإنتاج والتطلع نحو الكمال ، لأن المعجب بنفسه يرى أنه قد بلغ درجات عالية من الكمال فلا يشعر بالنقص والحاجة إلى العمل ، وهو من أضر المهلكات على طلاب العلم لأن من أعجب بنفسه احتقر من حوله، وربما احتقر أساتذته ، فيمنعه ذلك من الاستفادة منهم، وربما حمله الغرور على عدم الاجتهاد في التحصيل والمذاكرة فيصاب بالإخفاق في الاختبار أو عدم التسديد في الكتابة فتكثر أخطاؤه .

(١) سنن أبي داود ، رقم ٤٠٩٢ ، اللباس (٤/ ٣٥٢) ، سنن الترمذي رقم ١٩٩٩ ، البر (٣٦٠/٤) .

من مواقف أمير المؤمنين المأمون رحمه الله :

من أخباره في الحلم والعفو مذكره الحافظ ابن كثير في ترجمته ، قال : وركب يوما في حُرَّاقَة (١) فسمع ملاحا يقول لأصحابه : ترون هذا المأمون يَنْبُلُ في عيني وقد قتل أخاه الأمين - يقول ذلك وهو لا يشعر بمكان المأمون - فجعل المأمون يبتسم ويقول : كيف ترون الحيلة حتى أنْبُلَ في عين هذا الرجل الجليل القدر ؟ (٢) .

فهذا مثل جيد في تقدير الولاة لمكارم الأخلاق ، والحفاظ على السمعة الحسنة على طريق الفِعال الحميدة ومحبة القلوب .

من مواقف يزيد بن هارون رحمه الله :

من ذلك مذكره المروزي قال : قال لي أبو عبد الله - يعني الإمام أحمد بن حنبل - كنا عند يزيد بن هارون فوهم في شيء فكلمته ، فأخرج كتابه فوجده كما قلت ، فغيره ، فكان إذا جلس يقول : يا ابن حنبل ادن ، يا ابن حنبل ادن ههنا (٣) .

فهذا مثل من تواضع الحافظ يزيد بن هارون حيث أصلح الخطأ في كتابه على ما ذكر له الإمام أحمد، وصار يثني عليه ويقربه من مجلسه .

وذكر الإمام الذهبي من خبر جعفر بن ميمون بن الأصبع قال : سمعت أبي يقول : كنا عند يزيد بن هارون وكان عنده المعيطي وأبو

(١) نوع من السفن .

(٢) البداية والنهاية ١٠ / ٢٩٠ .

(٣) سير أعلام النبلاء ١١ / ١٩٤ .

خيثمة وأحمد ، وكانت في يزيد - رحمه الله - مداعبة ، فذاكره المعيطي بشيء فقال له يزيد : فَقَدْتُكَ ، فتحنح أحمد ، فالتفت إليه فقال : من ذا ؟ قالوا : أحمد بن حنبل ، فقال : ألا أعلمتموني أنه هاهنا ؟ (١) .

وهذا مثل آخر في التواضع يقدمه الإمام يزيد بن هارون لأحد تلاميذه وهو الإمام أحمد بن حنبل ، والتواضع من الكبير دليل على كمال العقل وعلو القدر .

موقف لإسماعيل بن عليّ رحمه الله :

ذكر الإمام الذهبي من رواية الأثرم قال : أخبرني عبد الله بن المبارك ، شيخ سمع قديما (٢) قال : كنا عند ابن عليّ ، فضحك بعضنا وثمّ أحمد ، قال : فأثينا إسماعيل - يعني ابن عليّ - بعد فوجدناه غضبان ، فقال : تضحكون وعندي أحمد بن حنبل (٣) .

فهذا مثل على تواضع الإمام ابن عليّ حيث غضب لضحكهم من أجل ابن حنبل ولم يغضب من أجل نفسه .

وهذا والذي قبله مثلان لما كان يتمتع به الإمام أحمد من هبة وإكبار في النفوس ، وحينما يفرض الرجل العظيم هيئته على الناس مع اتصافه بالتواضع الجسم ، فإن هذا هو مجال الرفة الحقيقية والشرف الكبير ، أما حينما تكون الهيبة من الرجل لاتصافه بالكبر

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ١٩٤ .

(٢) ليس هذا هو ابن المبارك الإمام المشهور .

(٣) سير أعلام النبلاء ١١/ ١٩٤ .

والصلف فإنها هيبة مصطنعة مُقَنَّعة بستر رقيق ، وما أسرع ماتزول ويعقبها المقت والسخرية حينما تنحط مكانة ذلك الرجل ، وتزول أسباب تسلطه وكبريائه .

موقف لقتيبة بن سعيد رحمه الله :

من أمثلة تواضع العلماء ما ذكره محمد بن يوسف قال : كنا عند أبي رجاء - هو قتيبة - فسئل عن طلاق السكران ، فقال : هذا أحمد ابن حنبل وابن المديني وابن راهويه قد ساقهم الله إليك ، وأشار إلى محمد بن إسماعيل - يعني البخاري وكان مذهب محمد أنه إذا كان مغلوب العقل حتى لا يذكر ما يحدث في سكره أنه لا يجوز عليه من أمره شيء (١) .

فهذا مثل من تواضع أهل العلم بعضهم لبعض ، حيث رد أبو رجاء قتيبة بن سعيد الثقفي الفتيا إلى أبي عبد الله البخاري مع أنه في طبقة تلاميذه ، وأثنى عليه بأنه قد جُمع فيه علم العلماء الكبار من أمثال أحمد بن حنبل وعلي بن المديني وإسحاق بن راهويه .

موقف لأحمد بن حنبل رحمه الله :

ذكر الحافظ الذهبي من خبر صالح بن الإمام أحمد قال : كان أحمد إذا رأيته تعلم أنه لا يظهر النسك ، رأيته عليه نعلا لا يشبه نعال القراء له رأس كبير معقد وشراكه مسبل ، ورأيته عليه إزاراً وجبة برد مخططة ، أي لم يكن بزي القراء (٢) .

(١) سير أعلام النبلاء ٤١٨/١٢ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٠٧/١١ .

فهذا تواضع من الإمام أحمد رحمه الله تعالى ، حيث ترك اللباس الخاص بالعلماء مع ما يترتب على هذا اللباس من احترام الناس ، وهذا مدخل من مداخل العجب والخيلاء ، فاجتنب ذلك اللباس تواضعا وتحريا لدينه .

من مواقف إسحاق بن راهويه وإسماعيل بن أبي أويس رحمهما الله :

من ذلك ما رواه حاشد بن عبد الله قال : كنا عند إسحاق - يعني ابن راهويه - وعَمْرُو بن زُرارة ثم ، وهو يستملي على البخاري ، وأصحاب الحديث يكتبون عنه ، وإسحاق يقول : هو أبصر مني ، وكان محمد - يعني البخاري - يومئذ شابا (١) .

وكذلك ما ذكره محمد بن أبي حاتم أن الإمام أبا عبد الله البخاري قال : قال لي إسماعيل بن أبي أويس : انظر في كتبي وما أملكه لك وأنا شاكر لك ما دمت حيا (٢) .

فهذان مثالان على تواضع العلماء ورغبتهم الأكيدة في خدمة السنة النبوية وتنقيتها من الشوائب وإن ترتب على ذلك تخطئتهم ، وفي هذين الخبرين بيان تفوق الإمام البخاري في العلم وثقة العلماء الكبيرة فيه ، والجهد العظيم الذي بذله في تمحيص السنة النبوية وتخليصها مما خالطها من الكدر ، رحمه الله تعالى .

من مواقف أبي عبد الله البخاري رحمه الله :

من ذلك ما رواه كاتب الإمام البخاري محمد بن أبي حاتم قال :

(١) سير أعلام النبلاء ٤٢٩/١٢ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٤٢٩/١٢ .

وكنا بفربر وكان أبو عبد الله يبنى رباطا مما يلي بخارى فاجتمع بشر كثير يعينونه على ذلك ، وكان ينقل اللبن ، فكنت أقول له : إنك تكفى يا أبا عبد الله ، فيقول : هذا الذي ينفعنا ، ثم أخذ ينقل الزنبرات (١) معه ، وكان ذبح لهم بقرة ، فلما أدركت القدور دعا الناس إلى الطعام وكان بها مائة نفس أو أكثر ولم يكن علم أنه يجتمع ما اجتمع ، وكنا أخرجنا معه من فربر خبزاً بثلاثة دراهم أو أقل فألقيناها بأيديهم فأكل جميع من حضر وفضلت أرغفة صالحة ، وكان الخبز إذ ذاك خمسة أمناء (٢) بدرهم (٣) .

فهذا مثل من تواضع الإمام البخاري وتقديره للعمل الصالح ، فهو يشارك في بناء الرباط الخيري مع وجود ذلك العدد الكبير من الناس الذين يكفونه المهمة ، لأنه يفهمها على أنه عمل صالح وهو من أول من ينافسون على الخيرات .

من مواقف ابن هبيرة رحمه الله :

من الذين اشتهروا بالتواضع وحسن الأدب الوزير العالم العادل أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة الشيباني ، ذكر الإمام الذهبي أنه تعلم العلوم الدينية والعربية حتى برع فيها ، وأصابه الفقر فعمل في مجال الكتابة وبرع فيها ، وأن أمير المؤمنين المقتفي لأمر الله عينه وزيراً له ، ثم صار وزيراً لابنه المستنجد .

(١) جمع زنبر وهو الزنبيل ، فارسية معربة .

(٢) جمع مَن وهو زنة رطلين .

(٣) سير أعلام النبلاء ٢ / ٤٥٠ .

قال : وكان دينا خيراً متعبدا عاقلاً وقوراً متواضعاً ، جَزَلَ
الرأي، باراً بالعلماء، مكباً مع أعباء الوزارة على العلم وتدوينه، كبير
الشأن حسنة الزمان .

وقال : قال ابن الجوزي : كان يتحدث بنعم الله ، ويذكر في
منصبه شدة فقره القديم، وقال: نزلت يوماً إلى دجلة وليس معي رغيف
أعبر به، وكان يُكثر مجالسة العلماء والفقراء ويبذل لهم الأموال،
فكانت السنة تدور وعليه ديون وقال: ما وجبت عليّ زكاة قط .

وكان إذا استفاد شيئاً من العلم قال : أفادنيه فلان، وقد أفدته
معنى حديث ، فكان يقول : أفادنيه ابن الجوزي فكنت استحيي،
وجعل لي مجلساً في داره كل جمعة ، ويأذن للعامة في الحضور،
وكان بعض الفقراء يقرأ عنده كثيراً فأعجبه وقال لزوجته : أريد أن
أزوجه بابنتي فغضبت الأم .

وكان يُقرأ عنده الحديث كل يوم بعد العصر فحضر فقيه مالكي
فذكرت مسألة فخالف فيها الجمع وأصرّ ، فقال الوزير : أحمار أنت!
أما ترى الكل يخالفونك ؟! فلما كان من الغد قال للجماعة : إنه
جرى مني بالأمس في حق هذا الرجل ما لا يليق، فليقل لي كما
قلت له فما أنا إلا كأحدكم ، فضجّ المجلس بالبكاء، واعتذر الفقيه،
قال: أنا أولى بالاعتذار ، وجعل يقول : القصاص القصاص، فلم
يزل حتى قال يوسف الدمشقي : إذ أبى القصاص فالفداء ، فقال
الوزير : له حكمه ، فقال الفقيه : نِعْمَ عليّ كثيرة فأبيّ حكم بقي

لي ؟ قال : لأبْدَّ ، قال : عليّ دينٌ مئة دينار ، فأعطاه مئتي دينار ، وقال : مئة لإبراء ذمته ، ومئة لإبراء ذنبي (١) .

وبعد فإن هذا العالم الجليل الذي بلغ منزلة كبرى من المسؤولية في دولة الإسلام يُعتبر مثلاً من العلماء العاملين ، فقد نجح نجاحاً كبيراً في سياسة الدولة ، حيث طبق حصيلة علمه الواسع النافع في إدارة الأمور ومعاملة الراعي والرعية ، كما نجح في العلم ، وذلك بمدرسة العلماء والعناية بهم ، وتأليف المؤلفات النافعة التي أهمها كتابه النافع « الإفصاح عن معاني الصحاح » وقد شرح فيه صحيحي الإمامين البخاري ومسلم في عشرة مجلدات .

وفي الخبر المذكور مواقف لهذا الوزير الجليل فمنها كرمه الفياض الذي أذهب ماله حتى أصبح لآمال له تجب فيه الزكاة ، وسبب تراكم الديون عليه مع كثرة دخله المالي لعلو منصبه .

ومنها تواضعه الجَمِّ وذلك في مثل ماجرى منه حينما نسب الفضل لأهله واعترف للعلماء بما استفاده منهم من العلم ، وكذلك حينما أراد أن يزوج طالب العلم الفقير من ابنته ، وقد سار في ذلك على منهج الإسلام في اعتبار الكفاءة الدينية ، ولم يعتبر الفوارق الاجتماعية المعروفة .

كما يظهر تواضعه حينما اعتذر لذلك الفقيه من كلمته التي بدرت منه نحوه ، وألحَّ عليه في أخذ القصاص منه ، إلى أن أنقذ الموقف أحد العلماء باقتراح أخذ الفداء ، فأعطى ذلك الفقيه ضعفاً ما طلب ،

(١) سير أعلام النبلاء ٤٢٦/٢٠ - ٤٢٩ .

وهذا يدل على ورعه العظيم حيث شغلت باله تلك الكلمة ، وخاف من مغبتها في الآخرة فأراد أن يصفى حسابها في الدنيا .
وهذه المواقف تدل على قوة إيمانه ورسوخ يقينه ، لأن هذا السلوك العالي من آثار ذلك .

ومن مواقف ابن هبيرة في التواضع والوفاء ماذكر الحافظ ابن رجب من خبر أبي بكر التيمي قال : ولقد كنا يوماً بالمجلس على العادة لسماع الحديث إذ دخل حاجبه أبو الفضائل بن تركمان فسار الوزير بشيء لم يسمعه أحد فقال له الوزير : أدخل الرجل ، فأبطأ عليه فقال الوزير : أين الرجل ؟ فأبطأ فقال : أين الرجل ؟ فقال الحاجب إن معه شملة صوف مكورة وقد قلت له : اتركها مع أحد الغلمان خارجاً عن الستر وادخل ، قال : لا أدخل إلا وهي معي ، فقال له الوزير : دعه يدخل وهي معه ، فخرج وعاد وإذا معه شيخ طوال من أهل السواد ^(١) وعليه فوطة قطن وثوب خام ، وفي رجله جمعمان ، فسلم وقال للوزير : ياسيدي إن أم فلان - يعني أم ولده - لما علمت أنني متوجه إليك قالت : بالله سلم لي على الشيخ يحيى عني ، وادفع إليه هذه الشملة فقد خبزتها على اسمه ، فتبسم الوزير إليه وأقبل عليه ، وقال : الهدية لمن حضر ، وأمر بحلّها ، فحلّت الشملة بين يديه ، وإذا فيها خبز شعير مشطور بكامخ أكشوت ، فأخذ الوزير منه رغيفين وقال : هذا نصيبي ، وفرّق الباقي على من حضر من صدور الدولة والسادة الأجلة ، وسأله عن حوائجه جميعها ،

(١) أي من ريف العراق .

وتقدم بقضائها على المكان، ثم التفت إلى الجماعة وقال : هذا شيخ
قد تقدمتُ صحبتي له قديما ، واختبرته في زرع بيننا فوجدته أميناً ،
ولم يظهر منه - أي الوزير - تأفف بمقال الشيخ ولا تكبر عليه ولا
إعراض عنه ، بل أحسن لقاءه وقضى حوائجه وأجزل عطاءه .

ثم حكى أنه كان بينه وبين هذا الشيخ زرع ، وأنهم خشوا عليه
من جيش عظيم نزل عندهم ، فقرؤوا على جوانبه القرآن فسَلِمَ ولم
يُرْعَ منه سنبلة واحدة (١) .

فهذا مثل من اتصاف الوزير ابن هبيرة بخلق التواضع والوفاء ،
حيث لم يتكبر على ذلك الرجل الفقير ، ولم ينس ما بينه وبينه من
معاملة قديمة يوم أن كان ابن هبيرة مثل ذلك الرجل في الفقر والعمل .

* * *

(١) طبقات الحنابلة ٣/ ٢٦٢ .

مواقف وعبد

في

الصبر على المكاره

نماذج من صبر الصحابة رضي الله عنهم على الفقر :

لقد كان المهاجرون وهم في مكة قبل الإسلام في رغد من العيش ، فلما جاء الإسلام وعاداه أكثر كبراء مكة ضيقوا على بعض المسلمين في معيشتهم كما سبق بيان ذلك ، ثم لما هاجروا تركوا جميع أموالهم للمشركين وواجهوا حياة الفقر في المدينة ، وقد كانت لهم مواقف في الصبر تعتبر نموذجاً يحتذى لمن بعدهم .

ومما يصور بعض ماواجهوه من ذلك ما أخرجه ابن إسحاق رحمه الله من طريق صالح بن كيسان عن سعد بن مالك رضي الله عنه قال : كنا قبل الهجرة يصيبنا ظلف العيش وشدته فلا نصبر عليه ، فما هو إلا أن هاجرنا فأصابنا الجوع والشدّة فاستضلّعنا بهما وقويناهما ، فأما مصعب بن عمير فإنه كان أترف غلام بمكة بين أبويه فيما بيننا ، فلما أصابه ما أصابنا لم يقو على ذلك ، فلقد رأيته وإن جلده ليتطير عنه تطاير جلد الحية ، ولقد رأيته يُنقطع به فما يستطيع أن يمشي ، فنعرض له القسيّ ثم نحمله على عواتقنا ، ولقد رأيته مرة قمت أبول من الليل فسمعت تحت بولي شيئاً يجافيه ، فلمست بيدي فإذا قطعة من جلد بعير ، فأخذتها فغسلتها حتى أنعمتها ثم أحرقتها بالنار ، ثم رضضتها فشقت منها ثلاث شقات فاقتويت بها ثلاثاً^(١) .

وهذا تصوير واضح لما كان يعاني منه المسلمون في أول الإسلام من شدة العيش وخشونة الحياة ، وقوله « كنا قبل الهجرة يصيبنا ظلف العيش وشدته فلا نصبر عليه » المراد بالصبر هنا الإلّف والاعتیاد

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ١٤٨ .

ومرونة الأجسام على حياة الفقر والشدة وليس المراد انتفاء الصبر النفسي فإن الصحابة رضي الله عنهم لقوة إيمانهم كانوا في قمة الصابرين ، يدل على ذلك قوله « فما هو إلا أن هاجرنا فأصابنا الجوع والشدة فاستضلعنا بهما وقوينا عليهما » يعني فالصبر النفسي موجود قبل ذلك ، ولكن حياة الاعتياد والانسجام كانت أظهر في المدينة ، وظل عدم الإلف والانسجام واضحاً في حياة مصعب بن عمير حتى بعد الهجرة ، وذلك لتميزه بنوع من حياة الترف والنعيم قبل الإسلام ، وبالرغم مما عرض له من هذا التحول المفاجئ في حياته ومقامت به أمه وقومه من التضيق عليه فإنه ظل صابراً محتسباً .

ولقد كان النبي ﷺ يتأثر لمرآه وهو يقارن حاله تلك بحاله الأولى ، كما أخرج الإمام الترمذي وحسنه من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : إنا لجلوس مع رسول الله ﷺ في المسجد إذ طلع علينا مصعب بن عمير ماعليه إلا بردة له مرقوعة بفروا يعني بجلد [فلما رآه رسول الله ﷺ بكى للذي كان فيه من النعمة والذي هو فيه اليسر] ، ثم قال رسول الله ﷺ : كيف بكم إذا غدا أحدكم في حلة وراح في حلة ، وَوُضِعَتْ بين يديه صحيفة ورفعت أخرى ، وسترتم بيوتكم كما تُستر الكعبة ؟ قالوا : يا رسول الله نحن يومئذ خير منا اليوم ، نتفرغ للعبادة وَنُكْفَى المؤنة ، فقال رسول الله ﷺ : لا أنتم اليوم خير منكم يومئذ » (١) .

وبهذا نبههم النبي ﷺ إلى أن الاستقامة على الدين لا تكون مع

(١) سنن الترمذي ، كتاب صفة القيامة رقم ٢٤٧٦ (٤ / ٦٤٧) .

حياة الترف والإسراف ، لأن هذا النوع من الحياة يُورث القلوب قساوة وجفاء . وقلَّ من يشكر عند الرخاء فيبقى على مستواه من الإيمان في حال الشدة والرخاء .

ولقد كان لتوجيهات النبي ﷺ أثر واضح في حياة الصحابة رضي الله عنهم ، فقد فهموا أن الابتلاء مع الصبر والاحتساب كفارة للخطايا ، وفي ذلك يقول ﷺ « ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقي الله وماعليه خطيئة » أخرجه الإمام مالك والترمذي بإسناد حسن (١) .

وفهموا أن الصبر على البلاء رفع للدرجات يوم القيامة وأن ابتلاء المؤمن من محبة الله تعالى له ، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله تعالى إذا أحب قوما ابتلاهم فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط » أخرجه الإمام الترمذي بإسناد حسن (٢) .

وأخذوا العبرة من ابتلاء الأنبياء عليهم السلام واقتدوا بهم في الصبر والاحتساب ، يقول رسول الله ﷺ « أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، يُبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلبًا اشتد بلاؤه ، وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وماعليه خطيئة » أخرجه الإمام الترمذي وقال : حسن صحيح (٣) .

(١) موطأ مالك ٢٣٦/١ ، سنن الترمذي رقم ٢٤٠١ ، في كتاب الزهد .

(٢) سنن الترمذي ، كتاب الزهد رقم ٢٣٩٨ .

(٣) سنن الترمذي ، الزهد ، باب ٤٥ (٧٨/٧) .

ومما يصور ماكان فيه المسلمون في العهد النبوي من شدة العيش
ما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت لعروة بن الزبير :
ابْنَ أَخْتِي إِنْ كُنَّا لَنَنْتَظِرُ الْهَلَالَ ثَلَاثَةَ أَهْلَةٍ فِي شَهْرَيْنِ وَمَا أُوقِدَتْ فِي
أَبْيَاتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَارٌ ، فَقُلْتُ : مَا كَانَ يُعِيشُكُمْ ؟ قَالَتْ :
الْأَسْوَدَانِ ، التَّمَرُ وَالْمَاءُ ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ جِيرَانٌ مِنَ
الْأَنْصَارِ كَانَ لَهُمْ مَنَائِحٌ ، وَكَانُوا يَمْنَحُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَبْيَاتِهِمْ
فَيَسْقِينَاهُ « (١) .

ويصور ذلك ما جاء في قول أبي هريرة رضي الله عنه : لقد
رَأَيْتُنِي وَإِنِّي لَأَخِرُّ فِيمَا بَيْنَ مَنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى حِجْرَةِ عَائِشَةَ
مَغْشِيَا عَلَيَّ ، فَيَجِيءُ الْجَائِي فَيَضَعُ رِجْلَهُ عَلَى عُنْقِي وَيُرِي أَنِّي مَجْنُونٌ
وَمَابِي مِنْ جُنُونٍ وَمَابِي إِلَّا الْجُوعُ « (٢) .

هذا أبو هريرة الذي كان مثلاً من أمثلة المهاجرين الذين كانوا في
يسار من العيش في بلادهم ، فهاجروا بدينهم وصبروا على ما نالهم
من البلاء ، ومن هؤلاء علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، وقد
ذكر صورة مما ناله من شدة العيش والجوع حيث يقول : -خرجت في
يوم شات من بيت رسول الله ﷺ ، وقد أخذت إهاباً معطوناً (٣)
فجويت وسطه (٤) فأدخلته في عنقي وشدت وسطي فحزمت به بخص
النخل وإني لشديد الجوع ، ولو كان في بيت رسول الله ﷺ طعام

(١) صحيح البخاري رقم ٦٤٥٩ ، كتاب الرقاق (٢٨٣/١١) .

(٢) صحيح البخاري رقم ٧٣٢٤ ، كتاب الاعتصام (٣٠٣/١٣) .

(٣) يعني جلداً من ثمن الرائحة .

(٤) أي خرقة فجعلته جيباً .

لطعمت منه، فخرجت ألتمس شيئاً ، فمررت بيهودي في مال له وهو يسقي ببكرة له، فاطلعت عليه من ثلثة في الحائط، فقال : مالك يا أعرابي، هل لك في دلو بتمرة ؟ فقلت : نعم، فافتح الباب حتى أدخل، ففتح فدخلت فأعطاني دلو، فكلما نزع دلو أعطاني تمرة ، حتى إذا امتلأت كفي أرسلت دلوه وقلت : حسبي فأكلتها، ثم جرعت من الماء فشربت ، ثم جئت المسجد فوجدت النبي ﷺ فيه « أخرجه الإمام الترمذي وقال : حسن غريب (١) .

ولقد كان لهؤلاء الصحابة رضي الله عنهم أسوة حسنة برسول الله ﷺ الذي يقول « لقد أخفتُ في الله وما يخاف أحد ولقد أوذيت في الله وما يؤذي أحد، ولقد أتت علي ثلاثون من بين يوم وليلة ومالي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال » أخرجه الترمذي وابن ماجه وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح (٢) .

وإن هذه النماذج لتدلنا على مبلغ ما كان يعاني منه المسلمون من شدة العيش في ذلك العهد ، ولقد قابلوا ذلك بالرضى والتسليم والصبر الجميل ، ولم يرو التاريخ أن أحداً من المهاجرين الصادقين ترك المدينة ورجع إلى بلده من أجل ضعف احتمالهم وقلة صبره ، وهذا دليل ظاهر على قوة إيمانهم ومبلغ تضحياتهم .

وهؤلاء الصابرون على البلاء حينما تحوَّلت حالهم إلى الرخاء لم يتكبروا ولم يبطروا بل كانوا من الشاكرين للنعماء ، فكانوا بحق

(١) تحفة الأحوذى بشرح الترمذي، رقم ٢٥٩١ كتابة صفة القيامة (٧/ ١٧١) .

(٢) تحفة الأحوذى ، رقم ٢٥٩٠ (٧/ ١٧٠) ، سنن ابن ماجه رقم ١٥١ ، المقدمة (١/ ٥٤) .

مؤمنين متصفين بقول رسول الله ﷺ : « عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » أخرجه الإمام مسلم^(١).

ومما يصور ماكان يعاني منه الصحابة رضي الله عنهم من الشدة وماعلمهم النبي ﷺ من الصبر والزهد ماأخرجه الإمام البخاري من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه « أن فاطمة عليها السلام شكت ما تلقى من أثر الرّحى ، فأُتي النبي ﷺ بسبي ، فانطلقت فلم تجده ، فوجدت عائشة فأخبرتها ، فلما جاء النبي ﷺ أخبرته عائشة بمجيء فاطمة ، فجاء النبي ﷺ إلينا وقد أخذنا مضاجعنا ، فذهبت لأقوم فقال : على مكانكما ، فقعد بيننا حتى وجدتُ بردَ قدميه على صدري ، وقال : ألا أعلمكما خيراً مما سألتما ؟ إذا أخذتما مضاجعكما تكبران أربعاً وثلاثين ، وتسبحان ثلاثاً وثلاثين ، وتحمدان ثلاثاً وثلاثين ، فهو خير لكما من خادم »^(٢).

وهكذا كانت هذه الأسرة الكريمة تعيش في شظف من العيش ، فعلي رضي الله عنه كان لا بد له من أجل الحصول على الطعام من أن يؤجر نفسه في إخراج الماء من الآبار ، وكان لا بد لفاطمة رضي الله عنها من أن تطحن بالرحى .

وكانا صابرين على هذه الحياة الشاقة ، ولكن حينما آنسأ باباً من

(١) صحيح مسلم ، الزهد ، رقم ٢٩٩٩ ، (ص ٢٢٩٥) .

(٢) صحيح البخاري ، رقم ٣٧٠٥ ، فضائل الصحابة (٧١ / ٧) .

أبواب الفرج طلبا من النبي ﷺ خادما ، ولكن النبي ﷺ الذي يدرك من أحوال أصحابه مالا يدركان قد أدرك بأن هناك من هم أشد منهما فقرا وأحوج منهما إلى المعونة ، وهم أهل الصفة الذين لا مال لهم ولا أهل ، فقرر أن يبيع ذلك السبي وأن يرد قيمته على أولئك الفقراء كي ينقذ حياتهم من المسغبة (١)، وهذه نظرة عالية من رسول الله ﷺ إلى المستضعفين من أصحابه، ودرس بليغ لمن ولاه الله تعالى أمر الأمة أن لا يحايي أقاربه على حساب من هم أشد حاجة وأبلغ استحقاقا .

وفي هذا الخبر درس آخر في غاية الأهمية حيث جاء النبي ﷺ إلى ابن عمه علي وابنته فاطمة رضي الله عنهما فزودهما بما هو خير لهما مما سألاه، فقد زودهما بذكر الله تعالى الذي هو زاد القلوب وحياتها .

وقد يتعجب الإنسان كيف يطلبان خادما فيرشدتهما النبي ﷺ إلى ذكر الله تعالى ، ولكن حينما يعرف المتأمل ما لذكر الله جل وعلا من أثر عظيم في تقوية النفوس فإنه يزول ذلك العجب ، فإن القلوب إذا عُمِرَتْ بذكر الله سبحانه هانت عليها المصائب ، وسَمَتْ في أفكارها المطالب ، وأصبح أصحابها يستعذبون الشدائد في سبيل الله تعالى ، ويرون أنها أبواب خير لرفع رصيدهم من الحسنات ، وخفض رصيدهم من السيئات .

موقف لأبي طلحة وأم سليم رضي الله عنهما (٢) :

أخرج الإمام مسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال :

(١) جاء ذلك في رواية ذكرها ابن الجوزي - صفة الصفوة ٢ / ١٠ - .

(٢) أبو طلحة هو زيد بن سهل النجاري الأنصاري .

مات ابن لأبي طلحة من أم سليم . فقالت لأهلها : لاتحدثوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا أحدثه . قال فجاء فقربت إليه عشاءً . فأكل وشرب . فقال ثم تصنعت له أحسن ماكان تصنع قبل ذلك . فوقع بها . فلما رأت أنه قد شبع وأصاب منها ، قالت : ياأبا طلحة ! أرأيت لو أن قوما أعاروا عاريتهم أهل بيت ، فطلبوا عاريتهم ، ألهم أن يمنعوهم ؟ قال : لا . قالت : فاحتسب ابنك . قال فغضب وقال : تركتني حتى تلطخت ثم أخبرتني بابني ! فانطلق حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره بماكان . فقال رسول الله ﷺ « بارك الله لكما في غابر ليلتكما » قال فحملت . قال فكان رسول الله ﷺ في سفر وهي معه . وكان رسول الله ﷺ إذا أتى المدينة من سفر ، لايطرقها طروقاً^(١) . فدنوا من المدينة فضربها المخاض^(٢) . فاحتبس عليها أبو طلحة . وانطلق رسول الله ﷺ . قال يقول أبو طلحة : إنك لتعلم ، يارب ! إنه يعجبني أن أخرج مع رسولك إذا خرج ، وأدخل معه إذا دخل . وقد احتبست بما ترى . قال تقول أم سليم : ياأبا طلحة ! ماأجد الذي كنت أجد^(٣) . انطلق . فانطلقنا . قال وضربها المخاض حين قدما . فولدت غلاما . فقالت لي أمي : ياأنس لايرضعه أحد حتى تغدو به على رسول الله ﷺ . فلما أصبح احتملته . فانطلقت به إلى رسول الله ﷺ . قال فصادفته ومعه ميسم^(٤) فلما رأي قال

(١) أي لايدخلها في الليل .

(٢) هو الطلق ووجع الولادة .

(٣) تريد أن الطلق المجلى عنها ، وتأخرت الولادة .

(٤) هو الآلة التي يكوى بها الحيوان . من الوسم . وهو العلامة .

«لعلَّ أم سليم ولدت ؟ » قلتُ : نعم . فوضع الميسمَ . قال وجئتُ به فوضعتُه في حجره . ودعا رسول الله ﷺ بعجوة من عجوة المدينة ، فلاكها في فيه حتى ذابت ، ثم قذفها في في الصبي ، فجعل الصبي يتلمظها ، قال رسول الله ﷺ : انظروا إلى حب الأنصار التمر ، قال : فمسح على وجهه وسماه عبد الله (١) .

وأخرجه الإمام البخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه بأخصر من هذا وجاء في آخره « قال سفيان : فقال رجل من الأنصار : فرأيت لهما تسعة أولاد كلهم قد قرأ القرآن (٢) .

وقال الحافظ ابن حجر : سفيان هو ابن عيينة ، وقوله « فقال رجل من الأنصار » هو عباية بن رفاعة ، واستشهد برواية عن عدد من الأئمة من حديث عباية قال « فلقد رأيت لذلك الغلام سبعة بنين كلهم قد ختم القرآن » قال : وأفادت هذه الرواية أن في رواية سفيان تجوزاً في قوله « لهما » لأن ظاهره أنه من ولدهما بغير واسطة ، وإنما المراد من أولاد ولدهما المدعو له بالبركة وهو عبد الله بن أبي طلحة ، قال : ووقع في رواية سفيان « تسعة » وفي هذه « سبعة » فلعل في أحدهما تصحيحاً ، أو المراد بالسبعة من ختم القرآن كله وبالتسعة من قرأ معظمه (٣) .

وهكذا كان أبو طلحة وأم سليم رضي الله عنهما مثلاً عالياً في

(١) صحيح مسلم ، رقم ٢١٤٤ ، فضائل الصحابة (ص ١٩٠٩) .

(٢) صحيح البخاري ، رقم ١٣٠١ ، الجنايز (١٦٩/٣) .

(٣) فتح الباري ١٧١/٣ .

الصبر على البلاء، فلقد كانا يحبان ابنهما حباً شديدا فأراد الله عز وجل أن يتليهما بفقد هذا الولد حتى ينالا أجر الصابرين، ولقد ظهر في هذا المثل العالي نموذج من البشر يقدم محبة الله جل وعلا على محبة أحب شيء إليهم .

ولقد كانت أم سليم امرأة عظيمة ، حيث صبرت هذا الصبر القوي ، وظهرت أمام زوجها وكأنها تخلو من أي مصيبة ، إن هذه المرأة التقية الصابرة كانت تتمتع بإيمان راسخ قد خالط شغاف قلبها فاستطاعت أن تكتم مشاعر الحزن على ابنها رغبة فيما عند الله تعالى من الأجر .

وكان للتوجيهات الإسلامية أثر كبير في نفس تلك المرأة المؤمنة، فقامت بدور فعال في تهدئة زوجها حتى نام ليلته في راحة وطمأنينة، وكانت ترجو من الله عز وجل أن يكافئها على صبرها بولد صالح يعوضها عن ابنها الذي فقدته .

وظفر هذان الزوجان الكريمان بدعوة مباركة من رسول الله ﷺ ، وقد استجاب الله تعالى لهذه الدعوة فحملت أم سليم وظهرت تباشير إجابة الدعوة بما شعرت به من خفة الحمل وعدم التعرض لما كانت تتعرض له من آلام ، ثم ظهرت بركة هذه الدعوة بما أنعم الله تعالى به على ولدهما من البنين الذين حفظوا القرآن الكريم .

من مواقف سلمان الفارسي رضي الله عنه :

ومن أمثلة الصبر على الشدائد ما جاء في خبر إسلام سلمان الفارسي رضي الله عنه ، وقد أخرج الإمام أحمد بن حنبل هذا الخبر

من رواية محمود بن لبيد عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : حدثني سلمان الفارسي حديثه من فيه قال كنت رجلا فارسيا من أهل أصبهان من أهل قرية منها يقال لها جَيّ وكان أبي دهقان قريته وكنت أحب خلق الله إليه فلم يزل به حبه إياي حتى حبسني في بيته أي ملازم النار كما تحبس الجارية ، وأجهدت في المجوسية حتى كنت قاطن النار الذي يوقدها لا يتركها تخبو ساعة ، قال : وكانت لأبي ضيعة عظيمة ، قال : فشغل في بنان له يوما فقال لي : يا بني إني قد شغلت في بنان هذا اليوم عن ضيعتي فاذهب فاطلّعها وأمرني فيها ببعض ما يريد ، فخرجت أريد ضيعته فمررت بكنيسة من كنائس النصارى فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون وكنت لأدري ما أمر الناس لحبس أبي إياي في بيته ، فلما مررت بهم وسمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر ما يصنعون ، قال : فلما رأيتهم أعجبني صلاتهم ورغبت في أمرهم وقلت : هذا والله خير من الدين الذي نحن عليه فوالله ما تركتهم حتى غربت الشمس وتركت ضيعة أبي ولم آتها ، فقلت لهم : أين أصل هذا الدين ؟ قالوا : بالشام .

قال : ثم رجعت إلى أبي وقد بعث في طلبي وشغلته عن عمله كله قال : فلما جئته قال : أي بني أين كنت ألم أكن عهدت إليك ما عهدت ؟ قال قلت : يا أبت مررت بناس يصلون في كنيسة لهم فأعجبني ما رأييت من دينهم فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس ، قال : أي بني ليس في ذلك الدين خير ، دينك ودين آبائك خير منه قال قلت : كلا والله إنه خير من ديننا قال : فخافني فجعل في رجلي قيذا ثم حبسني في بيته .

قال : وبعثتُ إلى النصارى فقلت لهم: إذا قدم عليكم ركب من الشام تجار من النصارى فاخبروني بهم قال: فقدم عليهم ركب من الشام تجار من النصارى ، قال: فأخبروني بهم قال فقلت لهم: إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فأذنوني بهم ، قال: فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم أخبروني بهم فألقيت الحديد من رجلي ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام، فلما قدمتها قلت: من أفضل أهل هذا الدين؟ قالوا: الأسقف في الكنيسة، قال: فجيئته فقلت: إني قد رغبت في هذا الدين وأحببت أن أكون معك أخدمك في كنيستك وأتعلم منك وأصلي معك، قال: فادخل فدخلت معه قال: فكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها فإذا جمعوا إليه منها أشياء اكتنزه لنفسه ولم يعطه المساكين حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق^(١)، قال: وأبغضته بغضا شديدا لما رأيته يصنع، ثم مات فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه فقلت لهم: إنَّ هذا كان رجل سوء يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها فإذا جيئتموه بها اكتنزها لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئا، قالوا: وما علمك بذلك؟ قال قلت: أنا أدلكم على كنزهم قالوا فدلنا عليه، قال: فأريتهم موضعه قال: فاستخرجوا منه سبع قلال مملوءة ذهبا وورقا، قال: فلما رأوها قالوا: والله لاندفنه أبدا فصلبوه ثم رجموه بالحجارة ثم جاؤوا برجل آخر فجعلوه بمكانه .

قال يقول سلمان فمارأيت رجلا لا يصلي الخمس أرى أنه أفضل

(١) الورق بكسر الراء الفضة .

منه ولا أزهّد في الدنيا ولا أرغب في الآخرة ولا أدأب ليلاً ونهاراً منه^(١). قال: فأحبيته حبا لم أحبه من قبله وأقمت معه زمناً ثم حضرته الوفاة فقلت له يا فلان إني كنت معك وأحبيتك حبا لم أحبه من قبلك وقد حضرك ماترى من أمر الله فإلى من توصي بي وماتأمرني؟ قال أي بني والله ما أعلم أحدا اليوم على ما كنت عليه لقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجلاً بالموصل وهو فلان فهو على ما كنت عليه فالحق به .

قال : فلما مات وغيبٌ لحقت بصاحب الموصل فقلت له : يا فلان إن فلانا أوصاني عند موته أن ألحق بك وأخبرني أنك على أمره، قال فقال لي: أقم عندي فأقمت عنده فوجدته خير رجل على أمر صاحبه فلم يلبث أن مات فلما حضرته الوفاة قلت له: يا فلان إن فلاناً أوصى بي إليك وأمرني باللحوق بك وقد حضرك من الله عز وجل ماترى فإلى من توصي بي وماتأمرني؟ قال: أي بني والله ما أعلم رجلاً على مثل ما كنا عليه إلا رجلاً بنصيبين وهو فلان فالحق به .

قال : فلما مات وغيبٌ لحقت بصاحب نصيبين فجنّته فأخبرته بخبري وماتأمرني به صاحبي، قال: فأقم عندي فأقمت عنده فوجدته على أمر صاحبيه فأقمت مع خير رجل فو الله ما لبثت أن نزل به الموت، فلما حضر قلت له: يا فلان إن فلاناً كان أوصى بي إلى فلان ثم أوصى بي فلان إليك فإلى من توصي بي وماتأمرني؟ قال: أي بني والله ما نعلم أحداً بقي على أمرنا آمرك أن تأتيه إلا رجلاً بعمورية فإنه

(١) قوله س لا يصلي الخمس « أي ليس من المسلمين .

بمثل مانحن عليه فإن أحببت فأته قال : فإنه على أمرنا .

قال : فلما مات وغُيِّب لحقت بصاحب عمورية وأخبرته خبري فقال : أقم عندي فأقمت مع رجل على هدي أصحابه وأمرهم ، قال : واكتسبت حتى كان لي بقرات وغنَّيمة ، قال : ثم نزل به أمر الله فلما حُضِرَ قلت له : يا فلان إني كنت مع فلان فأوصى بي فلان إلى فلان وأوصى بي فلان إلى فلان ثم أوصى بي فلان إليك فألى من توصي بي وما تأمرني ؟ قال : أي بني والله ما أعلمه أصبح على ما كنا عليه أحد من الناس آمرك أن تأتيه ولكنه قد أظلك زمان نبي هو مبعوث بدين إبراهيم يخرج بأرض العرب مهاجرا إلى أرض بين حرتين بينهما نخل به علامات لاتخفى ، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة بين كتفيه خاتم النبوة فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل .

قال : ثم مات وغُيِّب فمكثت بعمورية ماشاء الله أن أمكث ، ثم مر بي نفر من كلب تجارا فقلت لهم تحملوني إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتي هذه وغنيمتي هذه ؟ قالوا : نعم فأعطيتهموها وحملوني حتى إذا قدموا بي وادي القرى ظلموني فباعوني من رجل من يهود عبدا فكنت عنده ورأيت النخل ورجوت أن تكون البلد الذي وصف لي صاحبي ، ولم يخف لي في نفسي ، فبينما أنا عنده قدم عليه ابن عم له من المدينة من بني قريظة فابتاعني منه فاحتملني إلى المدينة فو الله ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبي ، فأقمت بها وبعث الله رسوله ﷺ فأقام بمكة فأقام لأسمع له بذكر مع ماأنا فيه من شغل الرق ، ثم هاجر إلى المدينة فو الله إني لفى رأس عذق

لسيدي أعمل فيه بعض العمل وسيدي جالس إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه فقال : يا فلان قاتل الله بني قيلة و الله إنهم الآن لمجتمعون بقباء على رجل قدم عليهم من مكة اليوم يزعمون أنه نبي ، قال : فلما سمعتها أخذتني العرواء ^(١) حتى ظننت سأسقط على سيدي ، قال : ونزلت عن النخلة فجعلت أقول لابن عمه ذلك ماذا تقول ماذا تقول ؟ قال : فغضب سيدي فلكنني لكمة شديدة ثم قال : مالك ولهذا أقبل على عملك ، قال قلت : لاشيء إنما أردت أن استثبت عما قال .

وقد كان عندي شيء قد جمعته فلما أمسيت أخذته ثم ذهبت به إلى رسول الله ﷺ وهو بقباء فدخلت عليه فقلت له : إني قد بلغني أنك رجل صالح ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة وهذا شيء كان عندي للصدقة فرأيتكم أحق به من غيركم ، قال : فقربته إليه فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : كلوا وأمسك يده فلم يأكل ، قال فقلت في نفسي : هذه واحدة .

ثم انصرفت عنه فجمعت شيئاً وتحول رسول الله ﷺ إلى المدينة ثم جئت به فقلت : إني رأيتك لاتأكل الصدقة وهذه هدية أكرمتك بها قال : فأكل رسول الله ﷺ وأمر أصحابه فأكلوا معه ، قال فقلت في نفسي : هاتان اثنتان .

قال : ثم جئت رسول الله ﷺ وهو ببقيع الغرقد، وقد تبع جنازة من أصحابه عليه شملتان له وهو جالس في أصحابه فسلمت عليه ،

(١) أي الرعدة الشديدة .

ثم استدرت أنظر إلى ظهره هل أرى الخاتم الذي وصف لي صاحبي فلما رأي رسول الله ﷺ استدبرته عرف أنني أستثبت في شيء وصف لي ، قال : فألقى رداءه عن ظهره فنظرت إلى الخاتم فعرفته فانكبت عليه أقبله وأبكي ، فقال لي رسول الله ﷺ : تحول فتحوّلت فقصصت عليه حديثي كما حدثتك يا ابن عباس ، قال : فأعجب رسول الله ﷺ أن يسمع ذلك أصحابه .

ثم شغل سلمان الرق حتى فاته مع رسول الله ﷺ بدر وأحد ، قال ثم قال لي رسول الله ﷺ : كاتب ياسلمان فكاتب صاحبي على ثلاثمائة نخلة أحييها له بالفقير^(١) وبأربعين أوقية ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه أعينوا أحاكم فأعانوني بالنخل ، الرجل بثلاثين ودية^(٢) والرجل بعشرين والرجل بخمس عشرة والرجل بعشر ، يعين الرجل بقدر ماعنده حتى اجتمعت لي ثلاثمائة ودية ، قال لي رسول الله : اذهب ياسلمان ففقر لها^(٣) فإذا فرغت فائتني فأكون أنا أضعها بيدي ، ففقرت لها وأعانني أصحابي حتى إذا فرغت منها جئته فأخبرته ، فخرج رسول الله ﷺ معي إليها فجعلنا نقرب له الودي ويضعه رسول الله ﷺ بيده فو الذي نفس سلمان بيده مامات منها ودية واحدة ، فأديت النخل وبقي عليّ المال فأتي رسول الله ﷺ بمثل بيضة الدجاجة من ذهب من بعض المغازي ، فقال : ما فعل الفارسي المكاتب؟ قال : فدعيت له فقال : خذ هذه فأد بها ماعليك ياسلمان ،

(١) الفقير الحفرة التي تحفر للنخلة كي تغرس فيها .

(٢) الودية الفسيلة .

(٣) أي احفر لها في الأرض .

فقلت : وأين تقع هذه يارسول الله مما عليّ ؟ قال : خذها فإن الله عز وجل سيؤدّي بها عنك ، قال : فأخذتها فوزنت لهم منها والذي نفس سلمان بيده أربعين أوقية ، فأوفيتهم حقهم وعتقت وشهدت مع رسول الله ﷺ الخندق ثم لم يفتني معه مشهد (١) .

وهذه القصة تبين لنا ماكان يتصف به سلمان رضي الله عنه من الصبر الطويل على المشاقّ الجمة والصعاب المتواصلة من أجل الوصول إلى الدين الحق ، وإن في قصته لعبرة لأولي الألباب الذين ينظرون بعين الاعتبار لمستقبلهم الآخروي فيسخرّون له حياتهم الدنيا ، فقد صبر على حبس أبيه وقيده أولاً ، ثم صبر على السفر والتنقل من عابد إلى عابد حتى دلّه العابد الأخير على الطريق الثابت الذي لايزول بزوال عبّاده وعلمائه .

فلما عرف أن الطريق المستقيم في أن يبحث عن هذا النبي المنتظر فيؤمن به ويتبعه ، ضحى بماله وراحته من أجل الوصول إليه ، وتحمل الرقّ صابراً محتسباً مادام أنه سيبلغه إلى هدفه المنشود .

ونجد في هذه القصة عناية الله تعالى بسلمان حيث قاده توفيق الله تعالى من مرحلة إلى أخرى حتى بلغ أرض الهجرة النبوية ، فاطمأن بها منتظراً قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) مسند أحمد ٤٤١/٥ - ٤٤٤ .

وذكره الحافظ الهيثمي وقال : رواه أحمد كله والطبراني في الكبير بنحوه بأسانيد ، وإسناد الرواية الأولى عند أحمد والطبراني رجالها رجال الصحيح غير محمد بن إسحاق وقد صرح بالسماع ، والرواية الثانية انفرد بها أحمد ورجالها رجال الصحيح غير عمرو بن أبي قرة وهو ثقة - مجمع الزوائد ٣٣٦/٩ - .

ومن خلال هذا الخبر يتبين لنا شيء من علامات النبي ﷺ المذكورة في الكتب السابقة وهي أنه يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، وأن بين كتفيه خاتم النبوة ، وأنه يبعث في مكة ويهاجر إلى المدينة ، وأن أهل الكتاب كانوا يعرفون زمن بعثته على التقريب لما جاء في الخبر من قول الراهب لسلمان «قد أظلك زمان نبي هو مبعوث بدين إبراهيم» .

وقد كان ذلك كافيا لدفع اليهود والنصارى إلى أن يكونوا أول من يؤمن به ، ولكنهم مع ذلك عادوه اتباعا للهوى وقتلوه ، إلا القليل ممن دخل في الإسلام منهم كسلمان الفارسي وعبد الله بن سلام رضي الله عنهما .

من مواقف عبد الله بن حذافة السهمي رضي الله عنه :

من ذلك ما ذكر الإمام الذهبي من طريق ضرار بن عمرو عن أبي رافع قال : وجه عمر جيشاً إلى الروم فأسروا عبد الله بن حذافة فذهبوا به إلى ملكهم ، فقالوا : إن هذا من أصحاب محمد ، فقال : هل لك في أن تتنصر وأعطيك نصف ملكي ؟ قال : لو أعطيتني جميع ماتمك وجميع ملك العرب مارجعت عن دين محمد طرفة عين ، قال : إذا أقتلك ، قال : أنت وذاك ، فأمر به فصُلب ، وقال للرماة : ارموه قريبا من بدنه ، وهو يعرض عليه ويأبى ، فأنزله ودعا بقدر فصُبَّ فيها ماء حتى احترقت ، ودعا بأسيرين من المسلمين ، فأمر بأحدهما فألقى فيها وهو يعرض عليه النصرانية وهو يأبى ، ثم بكى فقيل للملك : إنه بكى ، فظن أنه قد جزع ، فقال : ردوه ، ما أبكاك ؟ قال قلت : هي نفس واحدة تُلقى الساعة فتذهب ، فكنت اشتهي أن

يكون بعدد شعري أنفس تُلَقَى في النار في الله ، فقال له الطاغية : هل لك أن تقبل رأسي وأخلي عنك ؟ فقال له عبد الله : وعن جميع الأسارى ؟ قال : نعم ، فقبل رأسه .

وقدم بالأسارى على عمر ، فأخبره خبره ، فقال عمر: حق على كل مسلم أن يقبل رأس ابن حذافة ، وأنا أبدأ فقبل رأسه .

وفي رواية أخرى ذكرها الذهبي من طريق الوليد بن مسلم قال حدثنا أبو عمرو ومالك بن أنس: أن أهل قيسارية أسروا ابن حذافة فأمر به ملكهم، فجُربَ بأشياء صبر عليها، ثم جعلوا له في بيت معه الخمر ولحم الخنزير ثلاثاً لا يأكل، فاطَّلَعُوا عليه فقالوا للملك: قد اثنى عنقه فإن أخرجه وإلامات، فأخرجه وقال: مامنعك أن تأكل وتشرب ؟ قال: أما إن الضرورة كانت قد أحلتها، ولكن كرهت أن أشميتك بالإسلام (١) .

وذكر هذا الخبر الحافظ ابن حجر في الإصابة من طريق ضرار بن عمرو عن أبي رافع ونسبه للبيهقي ثم قال : وأخرج ابن عساكر لهذه القصة شاهداً من حديث ابن عباس موصولا (٢) .

ونجد في هذا الخبر حرص ملك الروم على أسر رجل من أصحاب النبي ﷺ ليتوصل بطريق الترغيب أو التهيب إلى تحويله عن دين الإسلام ، ولو حصل له ذلك لكان نصراً له يعوض به بعض خسارة الروم الكبرى في حروبهم مع المسلمين ، ولكن دافعا لرفع معنوية جيش الروم المنهارة .

(١) سير أعلام النبلاء ١٤/٢ .

(٢) الإصابة ٢/٢٨٨ رقم ٤٦٢٢ .

وهكذا نجد أعداء الإسلام من قديم الزمن يرون أن ظفرهم بتحويل المسلمين عن دينهم يعتبر أعظم انتصار لهم .

ولئن فشلوا في حصولهم على ذلك في عهد الصحابة رضي الله عنهم فلقد نجحوا بعد ذلك كثيراً في هذا المجال .

فلما ظفر الروم بعبد الله بن حذافة جاؤوا يبشرون ملكهم بهذا الظفر على أساس أن ذلك أول مراحل الانتصار .

وبدأ ملك الروم مع ابن حذافة في مرحلة الفتنة بالترغيب فقال له : هل لك في أن تنصر وأعطيك نصف ملكي ؟

وهذا عرض سخّي كبير تُصغي إليه النفوس المجبولة على حب المال والجاه ، وقد صدر من رجل يملك التصرف ، وتحت يده ممالك النصف الغربي من الأرض إلى رجل لا يملك من الدنيا إلا ما يبلغه إلى الآخرة ، فماذا كان جواب ابن حذافة ؟

لقد كان جواب الرجل الواثق بدينه الذي يؤمن بأن ماعند الله تعالى خير وأبقى حيث قال : لو اعطيتني جميع ما تملك وجميع ملك العرب مارجعت عن دين محمد طرفة عين .

وهذا دليل على ما كان يتصف به الصحابة رضي الله عنهم من قوة الإيمان والثبات عند الشدائد ، وهذا الموقف وأمثاله يصور لنا أنهم كانوا يعتبرون الدين أغلى جوهر يملكونه ، فهم لا يفرطون فيه ولا يبيعونه بأي ثمن .

وإنها لمساومة خاسرة يقوم بها ملك الروم لينزع بها كرامة المسلم وبهائه في هذه الحياة الدنيا مقابل عَرْضٍ زائل ، وهذا العَرْضُ وإن كان

في نظر أبناء الدنيا سخيا فإنه في نظر أبناء الخلود شيء تافه حقير .
ولقد وُقِّ ابن حذافة حينما أجابه بتحقيق دنياه التي يعتز بها ببيان
أن ملك الدنيا لا يعادل الانخلاع من هذا الدين العظيم طرفة عين .
ويخرج ابن حذافة من فتنة الترغيب كالذهب الخالص ، ويدخل
في فتنة الترهيب حيث يقول له ملك الروم : إَذَا أَقْتَلَكَ ، قال : أنت
وذاك ، فأمر به فصُلِبَ ، وقال للرماة : ارموه قريبا من بدنه ، وهو
يعرض عليه ويأبى .

إنه يبيع نفسه رخيصة في سبيل الإبقاء على هذا الدين العظيم .
إن الإنسان حينما ينخلع من دين الإسلام يكون كائناً حياً لا قيمة
له في الحياة ، لأنه يكون قد فقد كرامته الإنسانية ، وإنما تكون
الكرامة بهذا الجوهر النفيس الذي به يصل إلى الهدف الأعلى الذي
خُلِقَ من أجله ، وهو ابتغاء رضوان الله تعالى والسعادة في دار
الخلود .

ويعن ملك الروم في تخويفه حيث يُلقِي في القِدر الذي يغلي
رجلا من المسلمين فإذا هو عظام تلوح كما جاء في بعض الروايات ،
ولكن ابن حذافة يعن في تبكيت ملك الروم والتأكيد على احتقار هذه
الدنيا التي من أجلها يتنافس التائهون عن الهداية ، ولقد تشكَّل هذا
المعنى السامي بصورة قطرات من الدمع تَهْمِي من عيني ذلك الرجل
العظيم .

ويظن ملك الروم وقومه - لفرط تعلقهم بالدنيا ومتاعها - أن
تلك الدموع تحكي نوعاً من الانجذاب نحو حب البقاء الذي سيكون

ثمنا لخلع ذلك الجوهر السامي، وإذا بهم يفاجؤون بما يذهلهم ويذلهم .
إن ابن حذافة يبكي لأنه لا يملك إلا نفساً واحدة يحوز بها أجر
الشهيد عند الله تعالى ، ومن أجل مارسخ في قلبه من تصور ما أعده
الله تعالى للشهداء فإنه يبكي على كونه لا يملك أنفساً بعدد شعره لينال
الشهادة بهذا العدد الكبير .

وهنا شعر ملك الروم بتحطُّم معنويته وكبريائه وقلة شأنه أمام هذا
العملاق الضخم ، فأراد أن يسترد شيئاً من ذلك المجد الوهمي المحطَّم
فقال لابن حذافة : هل لك أن تقبِّل رأسي وأحلِّي عنك ؟
وما أن لامس مسامع ابن حذافة نبأ الفكاك من الأسر حتى تذكر
إخوانه من أسارى المسلمين حالاً فقال : وعن جميع الأسارى ؟ قال :
نعم ، فقبِّل رأسه .

إنه من جيل عظيم قد بلغ آفاق السمو الأخلاقي فهو لا يعيش
لنفسه ، وإنما يعيش لإخوانه ، فلذلك تذكرهم وشرط فك أسره معهم .

ولكن هل هذه القبلية تحمل معنى التعظيم والإجلال ؟

لا ، إنها جاءت عقب ذلك الانتصار العظيم . . انتصار المبادئ
الإلهية السامية التي يمثلها أركى العناصر البشرية على المبادئ الأرضية
الواهية التي يمثلها التائهون الغاوون .

إنها قبلية تحمل معنى مداراة أهل الباطل لاستخلاص حق المسلمين
منهم من غير مdahنة تتضمن التفريط فيما يجب لله تعالى .

ولقد أكبر عمر رضي الله عنه هذا السلوك الرفيع من ابن حذافة

فقال هذه المقالة العظيمة « حق على كل مسلم أن يقبّل رأس ابن حذافة وأنا أبدأه » فقبّل رأسه .

وهي إشادة عظيمة من رجل كبير القدر في نفوس المسلمين لعمل جليل يستحق كل عناية واهتمام .

وما حدث من أمير المؤمنين عمر يعتبر إقراراً منه ومن علماء الصحابة رضي الله عنهم بما جرى من ابن حذافة من مداراة عظيم الروم أخيراً لاستنفاذ عدد من أسرى المسلمين .

وهو موقف لا يحمل أي معنى للذلة بعدما سبقه من المظاهر العالية للتمسك بالإسلام وإظهار عزته وجلاله .

ونخلص إلى المشهد الآخر الذي صورته لنا إضافة الرواية الثانية حيث صبر ابن حذافة على الجوع والعطش ثلاثة أيام ولم يد يدعه إلى ما حرمه الله تعالى عليه ، رغم علمه بأن ذلك مباح للمضطر ، كراهة أن يُدخل السرور على ملك الروم فيؤدي ذلك إلى شماتته بالإسلام .

ونصل من ذلك إلى استهانة أولئك الأفاذاذ بأجسامهم في مقابل الحفاظ على المعاني النبيلة التي خلدها في أذهانهم الإسلام .

من مواقف عروة بن الزبير رحمه الله :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر هشام بن عروة بن الزبير قال: خرج أبي إلى الوليد بن عبد الملك فوقع في رجله الأكلة ، فقال له الوليد : يا أبا عبد الله أرى لك قطعها ، قال : فقطع وإنه لصائم فما تضرّ وجهه .

قال : ودخل ابن له أكبر ولده إصطبل الدواب فرفسته دابة

فقتلته ، فما سَمِعَ من أبي في ذلك شيء حتى قدم المدينة ، فقال :
اللهم إنه كان لي أطراف أربعة فأخذت واحدا وأبقيت لي ثلاثة فلك
الحمد ، وكان لي بنون أربعة فأخذت واحدا وأبقيت لي ثلاثة فلك
الحمد ، وإيم الله لئن أخذت لقد أبقيت ، ولئن أبليت طالما عافيت .

وأخرجه أيضا من عدة طرق ، وقد جاء في إحداها أنه تمثل
بأبيات معن بن أوس :

لعمرك ما أهويت يوما لربية ولا حملتني نحو فاحشة رجلي
ولا قادني سمعي ولا بصري لها ولا دلّني رأيي عليها ولا عقلي
وأعلم أن لم تُصِبنِ مصيبة من الدهر إلا قد أصابت فتى قبلي (١)

وأخرج الحافظ ابن عساكر هذا الخبر من عدة طرق وجاء في رواية
له : أنه لما وقعت الأكلة في رجله قيل له : ألا ندعو لك طيبا؟ قال :
إن شئتم ، فجاء الطبيب فقال : أسقيك شرابا يزول فيه عقلك ، فقال
امض لشأنك ما ظننت أن خلقتا يشرب شرابا يزول فيه عقله حتى
لا يعرف ربه .

وذكر في رواية أنه أبى أن يشرب المخدر وأن الطبيب قطع رجله
من نصف ساقه ، فما زاد على أن يقول : حسّ ، حسّ (٢) ، فقال الوليد :
مارأيت شيئا أصبر من هذا (٣) .

فهذا مثل جليل في الإيمان القوي الذي تمثل في الصبر على المكاره

(١) حلية الأولياء ١٧٨/٢ - ١٧٩ .

(٢) كلمة حسّ تعبير عن الإحساس بالألم .

(٣) تاريخ دمشق ٢٦١/٤٠ - ٢٦٢ .

والرضى بقضاء الله تعالى وقدره، والمستوى العالي من الذكر القلبي وحضور القلب مع الله تعالى، حيث لم يقبل أن يفقد عقله حتى عند الضرورة وفي ذلك الوقت القليل، وذلك كله ناتج من العلم الراسخ بقضاء الله تعالى وقدره وما أعده لعباده الصابرين من الثواب الجزيل .

من مواقف إبراهيم بن إسحاق الحربي رحمه الله :

من ذلك ما أخرجه الخطيب البغدادي من حديث أبي الحسين بن سمعون قال قال أحمد بن بن سلمان القطيعي : ضقت إضاقه فمضيت إلى إبراهيم الحربي لأبثه ما أنا فيه ، فقال لي : لَا يَضِقُ صدرك فإن الله من وراء المعونة ، وإنني ضِقتُ مرة حتى انتهى أمري في الإضاقه إلى أن عدم عيالي قوتهم ، فقالت لي الزوجة : هب أني وإياك نصبر ، فكيف نصنع بهاتين الصبيتين ؟ فهات شيئا من كتبك حتى نبيعه أو نرهنه ، فَضِنْتُ بذلك وقلت : اقترضي لهما شيئا وأنظريني بقية اليوم والليلة ، وكان لي بيت في دهليز داري فيه كتيبي ، فكنت أجلس فيه للنسخ وللنظر ، فلما كان في تلك الليلة إذا داق يدق الباب فقلت : من هذا ؟ فقال : رجل من الجيران ، فقلت : ادخل ، فقال : أطفئ السراج حتى أدخل ، فكببت على السراج شيئا وقلت : ادخل ، فدخل وترك إلى جانبي شيئا وانصرف ، فكشفت عن السراج ونظرت فإذا منديل له قيمة وفيه أنواع من الطعام ، وكاغد^(١) فيه خمس مئة درهم ، فدعوت الزوجة وقلت : أنبهي الصبيان حتى يأكلوا ، ولما كان من الغد قضينا دينا كان علينا من تلك الدراهم ، وكان وقت

(١) الكاغد هو الورق .

مجيء الحاج من خراسان ، فجلست على بابي من غد تلك الليلة ، وإذا جمال يقود جملين عليهما حملان ورقا ، فحط الجملين وقال : هذان الحملان أنفذهما لك رجل من أهل خراسان ، فقلت : من هو ؟ فقال : قد استحلقتني أن لا أقول من هو (١) .

ففي هذا الخبر مثل عال في الصبر على البلاء والرضى بمُرّ القضاء وقوة الرجاء ، وماذاك إلا نتيجة للتربية القويمة التي كان يتلقاها أهل العلم منذ المراحل الأولى للطلب ، والنية الخالصة التي كانت ترافق طلبهم للعلم ، حيث كانوا يطلبونه للعمل به لا لمجرد التزود منه ، وقد كان الإمام أبو إسحاق إبراهيم الحربي من الأئمة في هذا الشأن .

كما أن فيه مثالا من عناية الله تعالى بأوليائه المؤمنين ، وذلك بتسخير عبادته لقضاء حوائجهم ، فحينما أدلهمت الخطوب بهذا الإمام ، وكان المخرج منها منحصرا ببيع شيء من كتبه أو رهنها لم تطب نفسه بذلك ، وعلم الله جل وعلا بإخلاصه وصدق توجهه فيسر أمره وأزال عسره .

من مواقف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

قال الحافظ أبو الفرج عبد الرحمن بن رجب رحمه الله تعالى : قال شيخنا أبو عبد الله ابن القيم : سمعت شيخنا شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه ، ونور ضريحه ، يقول : إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة . قال : وقال لي مرة : ما يصنع أعدائي بي ؟ أنا جنتي وبستاني في صدري ، أين رحت فهي معي ،

(١) تاريخ بغداد ٦/ ٣١ - ٣٢ .

لاتفارقني، أنا حبسي خلوة. وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة .
وكان في حبسه في القلعة يقول: لو بذلت ملء هذه القلعة ذهباً
ماعدل عندي شكر هذه النعمة- أو قال: ماجزيتهم على ماتسبوا لي
فيه من الخير- ونحو هذا .

وقال مرة : المحبوس من حبس قلبه عن ربه ، والمأسور من أسره
هواه .

قال شيخنا : وعلم الله مارأيت أحداً أطيب عيشاً منه قط ، مع
ماكان فيه من الحبس والتهديد والإرجاف ، وهو مع ذلك أطيب الناس
عيشاً ، وأشرحهم صدراً ، وأقواهم قلباً ، وأسهرهم نفساً ، تلوح نضرة
النعيم على وجهه وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت بنا الظنون ،
وضاقت بنا الأرض: أتيناها، فماهو إلا أن نراه ، ونسمع كلامه ، فيذهب
عنا ذلك كله ، وينقلب انشراحاً وقوة و يقينا وطمأنينة . فسبحان من أشهد
عباده جنته قبل لقاءه ، وفتح لهم أبوابها في دار العمل ، فأتاهم من
رَوْحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها ، والمسابقة إليها ^(١) .

فهذا الكلام المروي عن شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن
عبد السلام ابن تيمية الذي يتحدث به عن نفسه والذي يصفه به تلميذه
شمس الدين أبو عبد الله ابن القيم فيه وصف بليغ لما كان يتصف به
ابن تيمية من الإيمان الراسخ واليقين الصادق ، والصبر على المكاره
والرضا بقضاء الله وقدره ، والزهد في الدنيا ، فهو لايبالي بما يدبره له
أعداؤه ، فالسجن الذي يخشاه الناس عادة هو عنده خلوة بربه ، فهو

(١) ذيل طبقات الحنابلة ٤/ ٤٠٢ - ٤٠٣ .

فرصة كبيرة لعبادة الله جل وعلا، حيث العزلة وفراغ الفكر، أما القتل الذي يفزع الناس منه فهو عنده شهادة، ولطالما تمنى الصالحون الاستشهاد في سبيل الله تعالى، وأما نفيه من بلده فهو عنده سياحة، والسياحة مرغوب فيها عند الناس عادة لما فيها من الترويح عن النفس واكتساب المعرفة والخبرات المتعددة .

وبهذا فإن الأعداء لن يصلوا منه إلى شيء يسوءه لأنهم لن يستطيعوا تغيير القناعات العلمية والإيمانية التي قد اقتنع بها، فليس لهم حيلة للإساءة إليه في فكره ووجدانه، وإنما كل ما يستطيعون أن يصلوا إليه هو الإساءة إليه في جسمه، وهذا لا يعتبر مشكلة أمام أهل الإيمان الراسخ واليقين الصادق، لأن قوة استحضرهم لعظمة الله تعالى وخشيتهم منه ورجاءهم لثوابه تزيل كل الآثار التي تخلفها أنواع الأذى الجسماني، بحيث تظل في دائرة الأمور المادية ولا تصل إلى التأثير الروحاني، بل إن الأمر بضد ذلك لدى أقوياء الإيمان، حيث تسعد نفوسهم بما يصل إليهم من الأذى لشعورهم اليقيني بأن ذلك سيكون سببا في بلوغ رضوان الله تعالى والدرجات العليا في الجنة .

* * *

مواقف وعبد

في

مجال الكرم

حيث إن المال هو عصب الحياة وقوامها ، وقد جبلت النفوس على حبه والتمسك به ، فإن بذله في سبيل الله تعالى دليل على قوة الدافع الذي دفع إلى مقاومة رغبات النفوس وأهوائها . . ألا وهو الإيمان بالله تعالى والرغبة فيما عنده من الجزاء .

مثل من كرم رسول الله ﷺ :

حيث إن رسول الله ﷺ هو إمام الأمة في مكارم الأخلاق فسنذكر مثالا لكرمه العظيم الذي كان من أهم عوامل استجابة الناس لدعوته، وذلك ما أخرجه الإمام مسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «ماسئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئا إلا أعطاه، قال: فجاءه رجل فأعطاه غنما بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: يا قوم أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء لا يخشى الفاقة -يعني الفقر - .

وفي رواية له قال أنس : إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها » (١).

وهكذا رأينا نتائج هذا الكرم العظيم حيث أسلم ذلك الرجل وذهب يدعو قومه إلى الإسلام، وقد مرت بنا أمثلة كثيرة من كرم رسول الله ﷺ .

إن السخاء بالدنيا مظهر من مظاهر التحرر من الشهوات التي يتنافس الناس فيها ، وحينما يكون الإنسان كذلك فإنه يكون متميزاً

(١) صحيح مسلم ، الفضائل رقم ٢٣١٢ (ص ١٨٠٦) .

وعظيما عند الناس ، لأنه استطاع أن يخرج من إसार العاطفة والهوى ، وبالتالي فإن النفوس تتشوق إلى معرفة المبدأ العظيم الذي كان وراء هذا السلوك العالي ، ثم تسارع إلى الإيمان به .

وإذا كان بعض الناس ينقاد إلى الإسلام من أجل الدنيا في مثل هذه الحال فإنه لا يلبث إلا قليلا في الغالب حتى تزول الغشاوة عن عقله فيفهم حقيقة دعوة الإسلام ، إذا فكر بعقله السليم المتجرد من اتباع الهوى والخضوع للضغوط الخارجية ، فيدرك عظمة الإسلام ويدخل في صف أهل الإيمان كما جاء في قول أنس « فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها » .

إن أصحاب المبادئ الأرضية يستطيعون أن يجذبوا الناس بأموالهم ، وقد فعلوا ذلك على مدار التاريخ ، ولكن الناس يظلون مرتبطين بأموالهم ، وقلما يقتنعون بشيء مما يدعونهم إليه ، حتى إذا انقطع المورد المالي والآمال الدنيوية المرتقبة عادوا أعداء ألداء لمن كان استغفلهم فحاول إلقاءهم في المهالك مستغلا بذلك حاجتهم الدنيوية ، أما دعاة الإسلام فإنما يتألفون الناس بالدنيا حتى تزول الغشاوة عن عقولهم فإذا أدركوا عظمة الإسلام آمنوا به حقا وبذلوا من أموالهم أضعاف ما بذل الدعاة في تأليفهم .

ومن هنا ندرك الفرق الكبير بين السلوكين : سلوك دعاة الإسلام وهم يبذلون من أموالهم لتأليف الناس وهدايتهم إلى الحق ، وسلوك أعداء الإسلام وهم يبذلون من أموالهم لتضليل الناس عن الحق ، وهدايتهم إلى الباطل ، فكلهم دعاة ، وكلهم يستخدمون هذه الوسيلة ، ولكن شتان بين هدف هؤلاء وهدف هؤلاء .

من أخبار طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه :

لقد كان للصحابه رضي الله عنهم مواقف خالدة في البذل والعطاء وكرم النفوس والسخاء تدل على قوة إيمانهم بالله جل وعلا وتمثل الحياة الآخرة بوضوح في تفكيرهم وسلوكهم، وقد مرت بنا أمثلة لكرم بعضهم ، وسأذكر بعض ما لم يتقدم ذكره في العرض التاريخي، ومن ذلك ما ذكره الإمام الذهبي من طريق موسى بن طلحة عن أبيه طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه أنه أتاه مال من حضرموت سبعمائة ألف، فبات ليلته يتململ، فقالت له زوجته: مالك؟ قال: تفكرت منذ الليلة، فقلت، ما ظنُّ رجل بربه يبيت وهذا المال في بيته؟ قالت: فأين أنت من بعض أخلائك؟ فإذا أصبحت فادع بجفان وقصّاع فقسّمه، فقال لها: رحمك الله، إنك موفقة بنت موفق، وهي أم كلثوم بنت الصديق، فلما أصبح دعا بجفان فقسّمها بين المهاجرين والأنصار، فبعث إلى علي منها بجفنة، فقالت له زوجته-يعني زوجة طلحة-: أبا محمد! أما كان لنا في هذا المال من نصيب؟ قال: فأين كنت منذ اليوم؟ فشأنك بما بقي، قالت: فكانت صرة فيها نحو ألف درهم^(١).
الله أكبر ! ما أعظم هذا التفكير، وما أبلغ هذه المشورة، وما أصدق هذا السلوك !!

إذا كان أهل الدنيا يتململون ويأخذ بهم التفكير المضني في كيفية تصريف المال في وجوه التجارة، لتتضخم الثروة وتحصل السعادة الوهمية بتزايد المال فإن طلحة بن عبيد الله الذي سماه النبي ﷺ

(١) سير أعلام النبلاء ١ / ٣٠ .

طلحة الفياض لجوده يتململ من تكاثر المال عنده خشية أن يحاسب عنه يوم القيامة ، مع أنه لورعه وتقواه لا يكتسب إلا من حلال .

ونجد زوجته التقية البارة بنت الصديق رضي الله عنه تخرجه من حيرته وتعلمه بمشورة الخير والبر ، فتذكره بأحبابه الذين هم بحاجة إلى هذا المال ، ولقد أيقظت في نفسه دوافع الخير التي يملك منها رصيда كبيراً فأثنى عليها وعلى أبيها بالتوفيق، وسارع إلى تطبيق مشورتها المباركة .

وهكذا تكون الزوجة الصالحة أكبر عون لزوجها على فعل الخير، لأن المألوف من حياة الناس أن تحاول الزوجة منع زوجها من الإنفاق في سبيل الله تعالى ، لتتوسع هي وذوؤها بذلك المال، فإذا وجدت الزوجة الصالحة التي تكسر هذا المألوف وتشير على زوجها بالإنفاق فإنها في غاية التوفيق والرشاد .

وإن الذي ينفق في يوم واحد سبعمائة ألف لا يُنتظر منه بإذن الله تعالى أن يكتسب ماله من طريق فيه شبهة، فضلاً عن أن يكتسبه من طريق حرام .

ونجد طلحة رضي الله عنه يخلد لنا مثلاً عالياً من أمثلة السخاء المبني على صلة الرحم، فقد جاء إليه أعرابي يسأله فتقرب إليه برّحم، فقال طلحة : إن هذه لرحم ماسألني بها أحد قبلك، إن لي أرضاً قد أعطاني بها عثمان ثلاثمائة ألف فاقبضها، وإن شئت بعتها من عثمان ودفعت إليك الثمن ، فقال : الثمن ، فأعطاه (١) .

(١) سير أعلام النبلاء ٣١ / ١ .

ومافعله طلحة في هذا الخبر لون من ألوان الكرم الرفيع ، وإنما يدل إنفاق هذا المبلغ الكبير على براءة قلبه تماما من الشح والبخل والتعلق بالدنيا ، وأنه كان يرى المال وسيلة إلى العمل الصالح ، وإشاعة المعاني السامية ، فهو رجل متجرد لعبادة الله تعالى ، ومن أجل ذلك استعبد المال ، ولم يستعبده المال .

من أخبار عثمان بن عفان رضي الله عنه :

أما عثمان بن عفان رضي الله عنه فأمثلة كرمه كثيرة مر ذكر شيء منها ومن أمثلة كرمه ما روي عن بشر بن بشير الأسلمي عن أبيه قال : لما قدم المهاجرون المدينة استنكروا الماء ، وكانت لرجل من بني غفار عين يقال لها رومة ، وكان يبيع منها القربة بمُدٍّ فقال رسول الله ﷺ : « تبيعها بعين في الجنة ، فقال : ليس لي يارسول الله عين غيرها ، لا أستطيع ذلك ، فبلغ ذلك عثمان فاشتراها بخمسة وثلاثين ألف درهم ، ثم أتى النبي ﷺ فقال : أتجعل لي مثل الذي جعلت له عينا في الجنة إن اشتريتها ؟ قال : نعم ، قال : قد اشتريتها وجعلتها للمسلمين (١) .

وهكذا نجد تنافس أفراد ذلك الجيل الراشد على فعل الخير والرغبة فيما عند الله تعالى من الثواب .

ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد بن حنبل من خبر عطاء بن فروخ مولى القرشيين : أن عثمان رضي الله عنه اشترى من رجل أرضا فأبطأ عليه ، فلقيه فقال : مامنعك من قبض مالك ؟ قال : إنك

(١) تاريخ الإسلام للذهبي (عهد الراشدين / ٤٧١) .

غبتني فما ألقى من الناس أحدا إلا وهو يلومني، فقال: أوذلك يمنعك؟ قال: نعم، قال: فاختر بين أرضك ومالك، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «أدخل الله الجنة رجلا كان سهلا مشتريا وبائعا، وقاضيا ومقتضيا» (١).

فهذا مثل رفيع في السماحة في البيع والشراء، وهو يدل على ما جبل عليه عثمان رضي الله عنه من الكرم وعدم التعلق بالدنيا، فهو يستعبد الدنيا لخدمة مكارم الأخلاق التي من أهمها الإيثار، ولا تستعبده الدنيا فتجعل منه أنانيا يؤثر مصالحه الخاصة وإن أضر بالناس.

من أخبار علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

من ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير من خبر الأصمغ بن نباتة: أن رجلا جاء علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين إن لي إليك حاجة فرفعتها إلى الله تعالى قبل أن أرفعها إليك، فإن قضيتها حمدت الله وشكرتك، وإن لم تقضها حمدت الله وعذرتك، فقال علي: اكتب حاجتك على الأرض فإني أكره أن أرى ذل السؤال في وجهك، فكتب: إني محتاج، فقال علي: علي بحلة، فأتي بها، فأخذها الرجل فلبسها، ثم أنشأ يقول:

كسوتني حلة تبلى محاسنها فسوف أكسوك من حسن الثنا حُللاً
إن نلت حسن ثنائي نلت مكرمة ولست أبغي بما قد قلته بدلا
إن الثناء ليحيي ذكر صاحبه كالغيث يحيي نداء السهل والجبال

(١) مسند أحمد ٤١١/١ رقم ٤١٠ .

لاتزهد الدهر في خير تواقعه فكل عبد سيُجزى بالذي عملا
فقال علي : عليّ بالدنانير فأُتيَ بمائة دينار فدفعها إليه ، فقال
الأصبغ : ياأمير المؤمنين ، حلة ومائة دينار! قال : نعم ، سمعت
رسول الله ﷺ يقول : أنزلوا الناس منازلهم ، وهذه منزلة هذا الرجل
عندي (١) .

فهذا موقف جليل لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله
عنه في الوقوف عند حاجات المحتاجين والاهتمام بأمورهم ورعاية
مشاعرهم ، وإن أروع ما في هذا الخبر قوله « اكتب حاجتك على
الأرض فإنني أكره أن أرى ذل السؤال في وجهك » ، فكم يعاني
المحتاجون من الذل بين يدي من يعرضون عليهم حوائجهم ، وقد
يتلعثمون فلا يستطيعون النطق ، وتختلف مواقف المسؤولين تجاه مشاهد
الذل في وجوه السائلين ، فبعضهم يطرب لرؤيتها وتتعاظم لديه نفسه
حينما يرى الناس يذلون بين يديه ، وبعضهم يتألمون لرؤية هذه المشاهد
ويودون معرفة حاجة السائل دون أن يتعرض للمذلة ، فهؤلاء قد زكت
نفوسهم وخلصت نياتهم ، وآثروا رفع معنويات إخوانهم المحتاجين
على التمتع برؤية انكسار نفوسهم وجرح مشاعرهم ، فهؤلاء مربون
قبل أن يكونوا منفيين ، ومصلحون قبل أن يكونوا باذلين .

ولقد كانت مشاعر ذلك الرجل المحتاج عظيمة حينما واجهه أمير
المؤمنين علي بهذه المعاملة السامية ، ولقد صاغ هذه المشاعر بالأبيات
المذكورة .

(١) البداية والنهاية ٩ / ٨ .

ولقد زاده أمير المؤمنين مبلغا من المال حينما عرف من تلك الأبيات منزلته الاجتماعية، واستشهد بالحديث المذكور على سلوكه هذا، لأن ما يكون عظيما عند إنسان قد يكون شيئا معتادا عند إنسان آخر .

من أخبار أبي طلحة رضي الله عنه :

من ذلك ماجاء في خبر أبي طلحة زيد بن سهل رضي الله عنه الذي أخرجه الشيخان وغيرهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كان أبو طلحة أكثر الأنصار مالا بالمدينة من نخل، وكان أحب أمواله إليه « بيرحاء » وكانت مستقبلة المسجد، فكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، قال أنس : فلما نزلت هذه الآية ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٩٢] قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إن الله تبارك وتعالى يقول ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ وإن أحب مالي إلي بيرحاء وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله ، فقال رسول الله ﷺ : بخ (١) ، ذلك مال رابح ذلك مال رابح ، وقد سمعت ماقلت ، وإنني أرى أن تجعلها في الأقربين ، فقال أبو طلحة : أفعل يا رسول الله ، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه (٢) .

(١) بخ ، كلمة تقال عند المدح والرضى بالشيء - النهاية في غريب الحديث - .

(٢) صحيح البخاري كتاب الزكاة رقم ١٤٦١ (٣ / ٣٢٥) .

صحيح مسلم كتاب الزكاة رقم ٩٩٨ .

وفي هذا الحديث نجد مثالا واضحا لانتصار المؤمن الحق على رغبات نفسه وميلها نحو الدنيا، فحينما يصل إلى مسامع المسلم أن فعل الخير الذي ينال به رضى الله تعالى والسعادة الآخروية لا يكون إلا بالتنازل عن محبوبه من ماله لله تعالى ، فإنه قد يسمو حالاً إلى العلو فيتنازل عن ذلك ، وقد لا يفكر في ذلك لغلبة الدنيا عليه ، وقد يقع في شيء من الصراع النفسي نحو الصعود في درجات الإيمان أو البقاء على المستوى الذي وصل إليه ، فإن حاله التوفيق قطع ذلك الصراع بالسمو نحو الآفاق العالية ، فتنازل عما يحب في الدنيا من أجل أن ينال ما يحب في الآخرة .

ومن أخبار أبي طلحة رضي الله عنه في الكرم والإيثار ما أخرجه الإمام البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله أصابني الجهد ، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً ، فقال النبي ﷺ : ألا رجل يضيف هذا الليلة رحمه الله ! فقام رجل من الأنصار فقال : أنا يا رسول الله ، فذهب إلى أهله فقال لامراته : هذا ضيف رسول الله ﷺ لا تدخرينه شيئاً ، فقالت : والله ما عندي إلا قوت الصبية ، قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهن ، وتعالى فأطفئ السراج ، ونطوي بطوننا الليلة ، ففعلت ، ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ فقال: لقد عجب الله عز وجل - أو ضحك - من فلان وفلانة ، وأنزل الله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي

صُدُّوهُمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ
وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ [الحشر: ٩] (١) .

وقد جاء في رواية للإمام مسلم أن هذا الرجل هو أبو طلحة رضي الله عنه (٢) .

إن خلق الإيثار مبني على الكرم وسخاء النفوس ، وإن الوصول إلى التخلق بهذا الخلق الكريم قد يحتاج إلى جهاد نفسي لمقاومة نزعات النفس المتعلقة بحب إمساك المال .

ولكن حينما يؤمن الإنسان بالله جل وعلا إيمانا حقا فإن جواذب الإيمان القوي ترفعه من الالتفات إلى الدنيا على أنها مقصد وغاية ، وتقصره على اعتبار أنها بُلْغَةٌ ووسيلة .

ولكنه في سبيل الوصول إلى هذا المستوى قد يحتاج إلى قدر كبير من جهاد النفس حتى يترك ما يحب في العاجل من أجل ما ينتظر من المحبوب في الآجل ، ثم لا يلبث كثيرا حتى يتقوى إيمانه فيوجد في نفسه من المتعة واللذة في إنفاق المال أضعاف ما يجد من ذلك في إمساكه ، ثم نجده يشعر بالراحة والطمأنينة حينما يحس بأنه فرج بماله عن معسر أو أنقذ أسرة منكوبة .

من أخبار عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه :

أما أخبار عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه في البذل والسخاء

(١) صحيح البخاري ، التفسير ، رقم ٤٨٨٩ (٨ / ٦٣١) .

(٢) صحيح مسلم ، الأشربة ، رقم ٢٠٥٤ (ص ١٦٢٥) .

فإنها كثيرة نُمِّثُ لها بما أخرجها ابن المبارك عن الزهري قال: تصدق ابن عوف على عهد رسول الله ﷺ بشرط ماله أربعة آلاف، ثم تصدق بأربعين ألف دينار، وحمل على خمسمائة فرس في سبيل الله، ثم حمل على خمسمائة راحلة في سبيل الله وكان عامة ماله من التجارة (١).

من أخبار الزبير بن العوام رضي الله عنه :

أما الزبير بن العوام رضي الله عنه فقد رُوي عن عروة بن الزبير أنه قال: أوصى إلى الزبير سبعة من الصحابة منهم عثمان وابن مسعود وعبد الرحمن، فكان ينفق على الورثة من ماله ويحفظ أموالهم (٢).

وهذا مثل رفيع من أمثلة الكرم والوفاء، وهو يجسّم المعاني السامية في النفس حتى تبقى هي الماثلة في الضمير الحي، وتبعاً لذلك يُسخر هذا الضمير الحي كل ما يملك من أجل سيادة هذه المعاني.

وقد تجود النفس مرة ومرة ثم يعترضها شيء من الفتور، فأما أن يتكفّل مثل هذا الشهم السخي بالنفقة على ورثة عدد من الصحابة ويحفظ لهم أموالهم فهو نموذج فريد في عالم الواقع، ومؤشر مهم من مؤشرات الرقي الأخلاقي لدى الصحابة رضي الله عنهم.

من أخبار عمرو بن العاص رضي الله عنه :

من ذلك ما روي عن علقمة بن رمثة أن رسول الله ﷺ بعث

(١) سير أعلام النبلاء ٨١/١ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٥٥/١ .

عمرو بن العاص إلى البحرين، فخرج رسول الله ﷺ في سرية وخرجنا معه، فنعس وقال: يرحم الله عمراً، فتذكرنا كل من اسمه عمرو.

قال: فنعس رسول الله ﷺ ثم قال: «رحم الله عمراً» ثم نعس الثالثة فاستيقظ فقال: «رحم الله عمراً» قلنا يارسول الله من عمرو هذا؟ قال: عمرو بن العاص، قلنا: وما شأنه؟ قال: كنت إذا نذبت الناس إلى الصدقة جاء فأجزل منها، فأقول: عمرو أنى لك هذا؟ فقال: من عند الله، قال: وصدق عمرو إن عند الله خيراً كثيراً (١).

وهكذا فاز عمرو بن العاص بدعاء النبي ﷺ لكونه من المسارعين إلى الإنفاق في سبيل الله تعالى.

والإنفاق إذا كان كذلك فهو دليل على قوة إيمان صاحبه حيث سخت نفسه بالمال الذي هو من أعز المحبوبات لدى الإنسان من أجل الله تعالى والدار الآخرة، فهو دليل على أنه يفضل الأجر الأخروي على الاحتفاظ بالمال، ومن ثم استحق رحمة الله عز وجل.

من أخبار عائشة رضي الله عنها:

من ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير من خبر هشام بن عروة عن أبيه قال: بعث معاوية إلى أم المؤمنين عائشة بمائة ألف ففرقتها من يومها، فلم يبق منها درهم، فقالت لها خادمتها: هلا أبقيت لنا درهما نشترى به لحماً تفطري عليه! فقالت: لو ذكرتيني لفعلت (٢).

(١) سير أعلام النبلاء ٦٥/٣.

(٢) البداية والنهاية ١٣٦/٨ - ١٣٧.

فهذا من لطائف أخبار الكرم، فعائشة رضي الله عنها حينما ورد عليها ذلك المال لم يكن عندها شيء، ومع ذلك تصدقت به كله، فقد تصدقت بكل ماتملك من النقود، وقد ذكرت حاجات المحتاجين ونسيت حاجة بيتها، وهذا يدل على تخلقها بخلق الإيثار وبراءتها من الأناية والأثرة، والذي يدفع لذلك السلوك القويم هو تضاد النظر إلى الدنيا وضخامة النظر إلى الآخرة .

إن الكرم خلق إسلامي رفيع، يدل على كثافة النظرة الروحانية، وضآلة النظرة المادية عند من تخلق بهذا الخلق السامي، فالكرماء هم عشاق المثل العليا، وإن أعلى المثل وأسمى القيم الطموح إلى نعيم الآخرة، ولقد كان هذا الهدف السامي دافعا قويا لأصحاب المعادن الزكية نحو الترفع عن قيود المادة، وتسخير المال للفعال الحميدة، وإشاعة الأخلاق الكريمة .

من أخبار أبي هريرة رضي الله عنه :

من ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير من خبر أبي الزعيزعة كاتب مروان قال: بعث مروان إلى أبي هريرة بمائة دينار، فلما كان الغد بعث إليه : إني غلطت ولم أردك بها وإنما أردت غيرك، فقال أبو هريرة : قد أخرجتها فإذا خرج عطائي فخذها منه - وكان قد تصدق بها - وإنما أراد مروان اختباره (١) .

وهكذا نجح أبو هريرة رضي الله عنه عبد الرحمن بن صخر الدوسي في الاختبار، وما كان بحاجة إلى ذلك فإنه صحابي جليل وإن

(١) البداية والنهاية ٨ / ١١٤ .

رصيدہ السابق من الإحسان والكرم يكفي في معرفة حاله ، وهل كان ينبغي لأحد تلاميذ النبي ﷺ الملازمين له أن يكون إلا زاهداً في الدنيا سباقاً إلى الخيرات ؟!

من أخبار عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما :

كان عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه من المنفقين في سبيل الله تعالى ، ومن أمثلة ذلك ما روي عن سليمان بن الربيع قال : انطلقت في رهط من نساء أهل البصرة إلى مكة ، فقلنا : لو نظرنا رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ ، فدللنا على عبد الله بن عمرو ، فأتينا منزله ، فإذا قريب من ثلاثمائة راحلة ، فقلنا : على كل هؤلاء حج عبد الله بن عمرو ؟ قالوا : نعم ، هو ومواليه وأحباؤه ، قال : فانطلقنا إلى البيت فإذا نحن برجل أبيض الرأس والحية ، بين بردين قطريين ، عليه عمامة وليس عليه قميص^(١) .

فهذا دليل على كرم عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، وحبّه لفعل الخير ، حيث قام بنفقة هذا العدد الكبير من الحجاج .

والنفقة في هذا المجال لها مزية خاصة ، وهي أنها تسهيل لأمر الحج ، الذي هو الركن الخامس من أركان الإسلام ، فقد يوجد من لا يستطيع الحج لفقره ، فالذي يتحمل نفقات حج هؤلاء له أجر الصدقة ، وأجر تيسير هذه العبادة العظيمة .

وفي الخبر دلالة على اهتمام طلاب العلم بزيارة العلماء والتعرف عليهم ، وهذا المقصد من أهم فوائد الحج حيث يتم اللقاء والتعارف بين أهل العلم من سائر بلاد المسلمين .

(١) سير أعلام النبلاء ٩٣/٣ .

من أخبار عبد الله بن عمر رضي الله عنهما :

من أخبار اتصاف عبد الله بن عمر رضي الله عنهما بالكرم والإنفاق في سبيل الله تعالى ماروي عن عبد الله بن دينار قال : خرجت مع ابن عمر إلى مكة ، فعرسنا فانحدر علينا راعٍ من جبل ، فقال له ابن عمر : أراعٍ ؟ قال : نعم ، قال : بعني شاة من الغنم ، قال : إني مملوك ، قال : قل لسيدك أكلها الذئب ، قال فأين الله عز وجل ؟ قال ابن عمر : فأين الله !! ثم بكى ، ثم اشتراه بعد ، فأعتقه .

وفي رواية ابن أبي رواد عن نافع « فأعتقه واشترى له الغنم » (١) .

فهذا الخبر يدلنا أولاً على اهتمام عبد الله بن عمر بمعرفة أهل التقوى فقد قام باختبار ذلك الراعي ليعرف مدى ورعه وتقواه حيث طلب منه بيع تلك الشاة وأن يقول لسيده إن الذئب قد أكلها ، فلما عرف ورعه وتقواه اشتراه من سيده واشترى معه الغنم ثم أعتقه ووهب له تلك الغنم .

وهذا مثال لكرم ابن عمر وبذله في سبيل الله تعالى حيث نال ذلك المملوك الراعي حرّيته على يديه وأصبح له من تلك الغنم مال يعيش عليه .

من أخبار الحسن بن علي رضي الله عنهما :

من ذلك ماروي عن القاسم بن الفضل الحُدّاني قال : حدثنا أبوهارون قال : انطلقنا حجاجاً فدخلنا المدينة ، فدخلنا على الحسن -

(١) سير أعلام النبلاء ٢١٦/٣ .

يعني ابن علي رضي الله عنهما - فحدثناه بمسيرنا وحالنا، فلما خرجنا بعث إلى كل رجل منا بأربعمائة، فرجعنا فأخبرناه بيسارنا، فقال: لا تردوا عليّ معروفي، فلو كنت على غير هذه الحال كان هذا لكم يسيرا، أما إني مزودكم: إن الله تعالى يباهي ملائكته بعباده يوم عرفة (١).

فهذا الصحابي الجليل قد أعطى أولئك الحجاج ذلك المال مع ظهور يسارهم، فكيف الحال لو كانوا محتاجين، وحينما أظهروا له عدم حاجتهم لم يقبل منهم رد ذلك المال، وهذا دليل على قوة الدافع في نفسه نحو السخاء والجود.

ولم ينس أن يزودهم بما هو خير من ذلك حيث ذكّرهم بفضل يوم عرفة الذي يباهي الله تعالى به ملائكته عليهم السلام.

ومن ذلك مارواه عبد الله بن عبيد بن عمير قال قال ابن عباس عن الحسن بن علي: ولقد قاسم الله ماله ثلاث مرات، حتى إنه يعطي الخف ويمسك النعل (٢).

وهذا مثال عزيز في الكرم، حيث قسم الحسن بن علي رضي الله عنهما ماله قسمين ثلاث مرات، فكان يتصدق بنصفه ماله، ولقد كان دقيقاً في محاسبته نفسه وكأنه كان يؤدي واجبا من الواجبات، حيث كان يعطي الخف ويمسك النعل مع أن أحدهما لا يغني عن الآخر، وإنه

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ٢٦١ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٣/ ٢٦٠ .

في عمله هذا قد جعل من نفسه قدوة للمسلمين في أعمال الخير والإحسان .

من أخبار حارثة بن النعمان الأنصاري رضي الله عنه :

أخرج محمد بن سعد من خبر محمد بن عثمان عن أبيه : أن حارثة بن النعمان كان قد كُفَّ بصره فجعل خيطا في مصلاه إلى باب حجرته ووضع عنده مكتلا فيه تمر وغير ذلك ، فكان إذا سلم المسكين أخذ من ذلك التمر ثم أخذ على الخيط حتى يأخذ إلى باب الحجرة فيناوله المسكين ، فكان أهله يقولون : نحن نكفيك ، فيقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن منأولة المسكين تقي ميتة السوء » (١) .

فهذا الصحابي الجليل كان عظيم الاهتمام بالصدقة ومراعاة المساكين ، حيث كان يناولهم الصدقة بنفسه ، وفي ذلك مافيه من النشوة والفرح في رؤية علامات السرور والغبطة على وجوه الفقراء ، فلما كف بصره لم يجعل ذلك عائقا عن القيام بهذه المهمة الجليلة مكثفيا بسماع أصوات المساكين بالدعاء له الذي يرجو من ورائه الخاتمة السعيدة في الدنيا والظفر برضوان الله تعالى والسعادة في الجنة .

من أخبار معاذ بن الحارث رضي الله عنهما (٢) :

قال أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله تعالى : وعن عبد الرحمن

(١) طبقات ابن سعد ٤٨٨/٣ ، وذكر الحافظ ابن حجر أن هذا الخبر رواه الطبراني والحسن بن سفيان - الإصابة ٢٩٨/١ رقم ١٥٣٢ .

(٢) هو معاذ بن الحارث بن رفاعة بن الحارث الأنصاري شهد أبوه بيعتي العقبة وبدرا ، واشتهر معاذ بنسبته إلى أمه عفراء .

ابن أبي ليلى قال: كان ابن عفراء لا يدع شيئا إلا تصدق به، لما وُلد له استشفعت إليه امرأته بأخواله، فكلموه وقالوا له: إنك قد أعلت فلو جمعت لولدك، قال: أبت نفسي إلا أن أستتر بكل شيء أجده من النار.

فلما مات ترك أرضا إلى جنب أرض رجل، قال عبد الرحمن - وعليه مائة صفراء مائساوي ثلاثة دراهم - : مايسرني الأرض بملاءتي هذه، فامتنع ولي الصبيان ، فاحتاج إليها جار الأرض فباعها بثلاثمائة ألف (١) .

فهذا معاذ بن الحارث رضي الله عنهما يتصدق بكل ماوقع تحت يده ماعدا القوت الضروري، وهذا من أعلى أنواع الكرم، وقد كان الدافع له إلى هذا الكرم النادر طلب مغفرة الذنوب والعق من النار.

وهكذا يُخرج الإسلام رجالا يعيشون لمجتمعهم قبل أن يعيشوا لأنفسهم ، لأنهم يعتقدون أن بذل المعروف والإحسان للمسلمين يرفع من رصيدهم الأخروي، وهم إنما يعملون للآخرة، فإذا كان المال مطية للوصول إلى السعادة الأخروية فما أهون بذله على نفس المؤمن التقي!! وما أسعد المجتمعات البشرية بالمؤمنين السابقين بالخيرات!!

ولما كان معاذ بن عفراء قد وكل أمر أولاده إلى الله عز وجل ولم يمسك ماله من أجلهم فإن الله تعالى قد عوضهم من بعده بارتفاع قيمة تلك الأرض التي لم تكن تساوي في حياته إلا القليل .

(١) صفة الصفوة ١/ ٤٧٢ .

من أخبار سعد بن عبادَة وابنه قيس رضي الله عنهما :

ومن الأجواد الكبار من الصحابة رضي الله عنهم سعد بن عبادَة
الأنصاري وابنه قيس رضي الله عنهما .

فأما سعد فأخبار كرمه كثيرة ، ومنها أنه لما قدم النبي ﷺ المدينة
كان يبعث إليه كل يوم جفنة من ثريد اللحم أو ثريد بلبن أو غيره ،
فكانت جفنة سعد تدور مع رسول الله ﷺ في بيوت أزواجه (١) .
وكان يرجع كل ليلة إلى أهله بثمانين من أهل الصفة يعشيهم (٢) .

وكان مناديه ينادي على حصنه : من أراد الشحم واللحم فليأت
أُطَمَ دُكَيْمَ بن حارثة (٣) .

أما قيس بن سعد فقد رُوي له أخبار رائعة في الجود، من ذلك
أن امرأة أتت إليه فقالت : أشكو إليك قلة الجرذان ، فقال : ما أحسن
هذه الكناية (٤) ثم قال : املؤوا بيتها خبزا ولحما وسمنا وتمرا .

ومن ذلك ما روي عن هشام بن عروة بن الزبير عن أبيه قال : باع
قيس بن سعد مالا من معاوية بتسعين ألفا ، فأمر من نادى في المدينة :
من أراد القرض فليأت ، فأقرض أربعين ألفا ، وأجاز الباقي ، وكتب على
من أقرضه ، فمرض مرضا قلَّ عواده ، فقال لزوجته قُرَيْبَةَ أخت
الصدیق : لِمَ قلَّ عَوَّادي ؟ قالت : للدين ، فأرسل إلى كل رجل

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ٢٧١ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١/ ٢٧٦ .

(٣) سير أعلام النبلاء ١/ ٢٧٩ ، والأُطَمَ الحصن .

(٤) يعني حيث كنَّت عن انعدام الطعام في بيتها بقلة الجرذان فيه .

بصكه ، وقال : اللهم ارزقني مالا وفعالا ، فإنه لاتصلح الفعال إلا بالمال (١) .

ففي هذين الخبرين مثل من كرم قيس رضي الله عنه وحبه لقضاء حوائج المسلمين ، كما أن في الخبر الأخير مثلاً على حبه لبقاء صلة الأخوة والمودة بينه وبين إخوانه المسلمين ، فلما أنكر قلة عواده لما مرض فزع من ذلك خشية أن يكون قد وقع منه مايخل بهذه الأخوة ، ولكن زوجته المؤمنة الواعية أخت أبي بكر الصديق رضي الله عنه نبهته إلى سبب ذلك ، حيث يجد المقترضون صعوبة في مواجهة مقرضهم حتى يسددوا ديونهم ، فلما تنبه لذلك ، أعفاهم جميعاً من تلك الديون ، ليقتضي على سبب حال بينه وبين زيارة إخوانه إياه .

من أخبار عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما :

ومن الكرماء المشهورين بالجود والإنفاق عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهما ، ومن أخباره في الكرم ما روي عن العمري أن ابن جعفر أسلف الزبير ألف ألف ، فلما توفي الزبير قال ابن الزبير لابن جعفر : إني وجدت في كتب الزبير أن له عليك ألف ألف ، قال : هو صادق ، ثم لقيه بعد ، فقال يا أبا جعفر وهمتُ ، المال لك عليه ، فقال : فهو له ، قال : لا أريد ذلك (٢) .

وهذا مثال للسخاء النادر ، فحينما أخبر ابن الزبير عبد الله بن جعفر بأن عليه للزبير ألف ألف صدقه مع أنه يعلم أن الأمر خلافُ

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ١٠٦ - ١٠٧ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٣/ ٤٦٠ .

ذلك، ثم حينما صحَّح له ابن الزبير الأمر وأخبره بأنها له على الزبير
تنازل عنها .

إن النفوس قد تسخو بالشيء المعتاد الذي لا يلفت النظر، ولكن
السخاء بهذا المبلغ الكبير ، والاستعداد قبل ذلك بالوفاء بدين كبير
لأصل له دليل على قوة الإيمان عند هذا الصحابي الجليل وأصاله
معدنه .

ومن أمثلة سخائه العالي مارُوي عن الأصمعي أن امرأة أتت
بدجاجة مسمومة، فقالت لابن جعفر: بأبي أنت ، هذه الدجاجة
كانت مثل بنتي، فأَلَيْتُ أن لا أدفنها إلا في أكرم موضع أقدر عليه،
ولا والله ما في الأرض أكرم من بطنك، قال: خذوها منها، واحملوا
عليها، فذكر أنواعا من العطاء ، حتى قالت : بأبي أنت ، إن الله
لا يحب المسرفين (١) .

فهذه الكلمات بليغة من تلك المرأة استجاشت بها كرم ابن جعفر
الفياض ، فأصبح يعطيها من غير حساب، حتى فدته بأبيها، وطلبت
منه وقف ذلك العطاء حتى لا يكون من المسرفين .

ومن أمثلة كرمه المتعلق بجبر أهل المصائب مارُوي عن ابن سيرين
أن رجلا جلب سكرًا إلى المدينة فكسد، فبلغ عبد الله بن جعفر فأمر
قهْرمانه (٢) أن يشتريه، وأن يُنْهَبَ الناس (٣) (٤) .

(١) سير أعلام النبلاء ٤٦١/٣ .

(٢) يعني القائم على أمواله .

(٣) يعني أن يدعه للناس يأخذونه .

(٤) سير أعلام النبلاء ٤٦١/٣ .

فهذا الخبر بيان لما كان يقوم به عبد الله بن جعفر من مواسة أهل النوائب، فكم هي فرحة صاحب السكر حينما اشترى منه بضاعته الكاسدة !

ومن ذلك ما ذكره الحافظ الذهبي قال : قال أحمد بن جعفر بن سلم : حدثنا شيخ لنا، قال : قيل لإبراهيم الحربي : هل كَسَبْتَ بالعلم شيئاً ؟ قال : كَسَبْتُ به نصفَ فلسٍ : كانت أُمِّي تُجْري عليَّ كلَّ يوم رغيفين ، وقطيعةً فيها نصف دانق ، فخرجتُ في يوم ذي طين ، وأجمع رأيي على أن أكل شيئاً حلواً ، فلم أر شيئاً أرخص من الدبس ، فأُتيتُ بقَلاً ، فدفعْتُ إليه القطيعة ، فإذا فيها قيراط إلا نصف فلس ، وتذاكرنا حديث السخاء والكرم ، فقال البقال : يا أبا إسحاق ! أنت تكتب الأخبار والحديث ، حدثنا في السخاء بحديث ، قلتُ : نعم . حدثني أبو بكر عبد الله بن الزبير ، حدثنا أبي ، عن شيخ له ، قال : خرج عبد الله بن جعفر إلى ضياعه ينظر إليها ، فإذا في حائط (١) لنسيب له عبد أسود ، بيده رغيفٌ وهو يأكل لقمةً ، وي طرحُ لكلبٍ لقمةً ، فلماً رأى ذلك استحسَنه ، فقال : يا أسود ! لمن أنت ؟ قال : لمصعب بن الزبير . قال : وهذه الضيعة لمن ؟ قال : له . قال : لقد رأيتُ منك عجباً ، تأكلُ لقمةً ، وتطرحُ لكلبٍ لقمةً ! قال : إني لأستحيي من عين تنظرُ إليَّ أن أوثر نفسي عليها . قال : فرَجع إلى المدينة ، فاشترى الضيعة والعبد ، ثم رجع ، وإذا بالعبد ، فقال يا أسود ! إني قد اشتريتُك من مُصعب . فوثب قائماً ، وقال :

(١) أي بستان .

جعلني الله عليك ميمون الطلعة . قال : وإني اشتريت هذه الضيعة . فقال : أكمل الله لك خيرها . قال : وإني أشهد الله أنك حرٌّ لوجه الله . قال : أحسن الله جزاءك . قال : وأشهد الله أن الضيعة مني هديةً لك . قال : جزاك الله بالحسن . ثم قال العبد : فأشهد الله وأشهدك أن هذه الضيعة وقفٌ مني على الفقراء ، فرجع وهو يقول : العبد أكرم منا (١) .

فهذا الخبر يحتوي على مواقف :

الموقف الأول : في عفة الإمام الرباني إبراهيم الحربي وورعه ، فهذا الخبر شاهد براءة له بتعففه عن كسب الدنيا بعلمه ، وهكذا كان أكثر علماء الإسلام في عصوره الأولى حيث كانوا ينفرون من اتخاذ العلم الديني وسيلة إلى الدنيا ، ويحتقرون من فعل ذلك ، ويرون أن ذلك يتنافى مع ابتغاء الأجر الأخروي ، كما يرون أن ذلك يؤثر على بركة العلم ، فيضعف التحصيل ، ويقل الانتفاع بالعلم .

الموقف الثاني : في براعة الإمام الحربي العلمية ، وذلك في سرعة استحضار النصوص المناسبة ، وحسن اختياره ، حيث اختار هذا الخبر المؤثر .

الموقف الثالث : فيما تحلى به ذلك الغلام المملوك من خلق الرحمة ، حيث شاطر الكلب زاده ، واستحى من الكلب أن يراه بعينه وهو يأكل أكثر منه ، ولقد كان ذلك الغلام في غاية الرقة في الإحساس ، واللفظ في المشاعر ، وإذا كان شعوره قد بلغ من الرقة

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٣٦٣ - ٣٦٤ .

إلى حد الحياء من حيوان أعجم لا يعقل فكيف بشعوره نحو الإنسان؟ !
ثم كيف بشعوره نحو إخوانه المسلمين ؟

الموقف الرابع : في تأثر الإمام العَلَم ، في السماحة والكرم ،
عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، بهذا الموقف المدهش الذي شاهده ،
حيث سارع إلى شراء ذلك الغلام ، وشراء البستان الذي يعمل فيه ،
ثم أعتقه لوجه الله تعالى ، وأهدى إليه ذلك البستان ، وهذا سلوك
في غاية السمو والنبل ، حيث أسدى هذه المكافأة الكبيرة لذلك
الغلام ، الذي ارتفع بعقله وإحساسه إلى آفاق بعيدة من المثل العالية ،
والأخلاق النبيلة .

الموقف الخامس : فيما قام به ذلك الغلام بعد نيله الحرية من
التصدق بذلك البستان على الفقراء مع أنه لا يملك غيره ، وهو أول مال
يتأثله .

ومن هذا الموقف والموقف السابق لهذا الغلام ندرك الهدف العالي
الذي كان وراء ذلك الخلق النبيل الذي حمل الغلام على مراعاة مشاعر
ذلك الكلب ، وكأنه أمام إنسان يملك العقل والمشاعر . . إن هذا
الهدف العالي هو ابتغاء رضوان الله تعالى والسعادة الأخروية ، فلقد
كان هذا الهدف مهيمنا على فكره ومشاعره ، فما أن ملك ذلك البستان
حتى جعله صدقة على فقراء المسلمين .

وإن هذه الأخلاق العالية التي صدرت من هذا الغلام تدل على
عظمة الإسلام ، فإن هذا الغلام قبل أن يسلم لم يكن له شأن يذكر
ولم يرتفع مستواه الخلقي إلى حد المساواة بينه وبين حيوان في المعيشة ،

والتصدق بكل ما يملك على الفقراء ، ذلك لأنه في حال كفره ينظر إلى دنياه فقط ، فتتضخم في عينه نفسه ، وتبرز فيه الأنانية ، ولا يشعر بمشاعر الآخرين ، فلما أن أسلم صار ينظر إلى آخرته فبرز فيه خلق الإيثار وغيره من مكارم الأخلاق التي تتطلبها الرفعة في الحياة الآخرة .

وموقف أخير للسيد الكبير عبد الله بن جعفر حيث اعترف لأهل الفضل بالفضل فقال : العبد أكرم منا ، مع أن كل ماجرى من ذلك الغلام إنما كان نتيجة لكرم هذا السيد الفياض .

من أخبار حكيم بن حزام رضي الله عنه :

هذا ومن الأجواد الكرماء المشهورين بالسخاء الصحابي الجليل حكيم بن حزام رضي الله عنه ، ومن أخبار جوده ماروي عن شعبة بن الحجاج قال : لما توفي الزبير لقي حكيمٌ عبد الله بن الزبير فقال : كم ترك أخي من الدين ؟ قال : ألف ألف ، قال : عليّ خمسمائة ألف (١) .

ومن أخبار بذله في سبيل الله ماروي عن مصعب بن ثابت أنه قال : بلغني والله أن حكيم بن حزام حضر يوم عرفة ، ومعه مائة رقبة (٢) ومائة بدنة ، ومائة بقرة ، ومائة شاة ، فقال : الكل لله (٣) .

وكذلك ماروي من أنه باع دار الندوة من معاوية بمائة ألف ، فقال له ابن الزبير : بعت مكرمة قريش ، فقال : ذهبت المكارم يا ابن أخي إلا

(١) سير أعلام النبلاء ٣ / ٥٠ .

(٢) يعني من الممالك ليعتقهم .

(٣) سير أعلام النبلاء ٣ / ٥٠ .

التقوى، إني اشتريت بها داراً في الجنة، أشهدكم أنني قد جعلتها لله (١).

فهذه أخبار تدل على الزهد في الدنيا والكرم البالغ .

وقول حكيم « ذهبت المكارم يا ابن أخي إلا التقوى » تنبّه دقيق إلى مقياس الكرامة في الإسلام حيث يرتفع المسلم بالتقوى ، لا بالمال ولا بالشرف المبني على الأعراف والعادات البشرية .

وكون حكيم حمل عن الزبير نصف دينه وهو خمسمائة ألف دليل على استعباده المال ، وصرفه في وجوه المعروف التي ترفع ذكره عند الله تعالى وعند الناس ، وعدم استعباد المال إياه .

من أخبار سعيد بن العاص رحمة الله :

ومن الكرماء المشهورين سعيد بن العاص الأموي الذي اشتهر بالجوود والسخاء، فمن أمثلة جوده ما روي عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم قال: خطب سعيد بن العاص أم كلثوم بنت علي بعد عمر (٢)، وبعث إليها بمائة ألف، فدخل عليها أخوها الحسين وقال: لا تزوجيه، فقال الحسن: أنا أزوجه، وأتعدوا لذلك، فحضرُوا، فقال سعيد: وأين أبو عبد الله ؟ فقال الحسن: سأكفيك، قال: فلعل أبا عبد الله كره هذا، قال: نعم، قال: لا أدخل في شيء يكرهه، ورجع ولم يأخذ من المال شيئاً (٣) .

(١) سيرة أعلام النبلاء ٥٠ / ٣ .

(٢) يعني أن عمر رضي الله عنه كان قد تزوجها وتوفي عنها وليست هذه الخطبة بعد وفاته وإنما هي بعد وفاة أبيها علي رضي الله عنه بزمن .

(٣) سير أعلام النبلاء ٤٤٦ / ٣ - ٤٤٧ .

فهذا الخبر مثل من التواضع والسماحة وعدم الانتصار للنفس،
فحينما علم سعيد بن العاص بأن الحسين يرفض تزويجه لم يتخذ منه
موقفا معاديا ، بل ترك ذلك الزواج الذي أغضب الحسين .

ومع ذلك فإنه لم يسترجع المهر الذي دفعه مع ضخامته، وهذا
لون من ألوان الكرم الرفيع الذي تُبنى به الأمجاد عادة ويرفع به
الذكر .

وقال عنه الحافظ ابن كثير : كان من سادات المسلمين والأجواد
المشهورين ، وقال : كان حسن السيرة جيد السريرة، وكان كثيراً
ما يجمع أصحابه كل جمعة فيطعمهم ويكسوهم الخُلل ، ويرسل إلى
بيوتهم بالهدايا والتحف والبرِّ الكثير، وكان يَصْرُ الصَّرر فيضعها بين
يدي المصلين من ذوي الحاجات في المسجد .

قال : وروينا أنه استسقى يوماً في بعض طرق المدينة فأخرج له
رجل من دار ماء فشرب، ثم بعد حين رأى ذلك يعرض داره للبيع
فسأله عنه: لم يبيع داره؟ فقالوا: عليه دين أربعة آلاف دينار، فبعث
إلى غريمه فقال: هي لك علي، وأرسل إلى صاحب الدار فقال:
استمتع بدارك .

قال: وكان رجل من القراء الذين يجالسونه قد افتقر وأصابته فاقة
شديدة فقالت له امرأته : إن أميرنا هذا يوصف بكرم فلو ذكرت له
حالك فلعله يسمح لك بشيء! فقال : ويحك لاتحلقي وجهي،
فألحَّت عليه في ذلك فجاء فجلس إليه، فلما انصرف الناس مكث
الرجل جالسا في مكانه، فقال له سعيد: أظن جلوسك لحاجة؟

فسكت الرجل ، فقال سعيد لغلمانه : انصرفوا ، ثم قال له سعيد : لم يبق غيري وغيرك ، فسكت ، فأطفأ المصباح ثم قال : رحمك الله لست ترى وجهي فاذا ذكر حاجتك ، فقال : أصلح الله الأمير أصابتنا فاقة وحاجة فأحببت ذكرها لك فاستحييت ، فقال : إذا أصبحت فالتق وكيلي فلانا ، فلما أصبح الرجل لقي الوكيل فقال له الوكيل : إن الأمير قد أمر لك بشيء فأت بمن يحمله معك ، فقال : ماعندي من يحمله ، ثم انصرف الرجل إلى امرأته فلامها وقال : حملتيني على بذل وجهي للأمير ، فقد أمر لي بشيء يحتاج إلى من يحمله ، وماأراه أمر لي إلا بدقيق أو طعام ، ولو كان مالاً لما احتاج إلى من يحمله ولأعطانيه ، فقالت المرأة : فمهما أعطاك فإنه يقوتنا فخذ ، فرجع الرجل إلى الوكيل فقال له الوكيل : إني أخبرت الأمير أنه ليس لك أحد يحمله ، وقد أرسل بهؤلاء الثلاثة السودان يحملونه معك ، فذهب الرجل فلما وصل إلى منزله إذا على رأس كل واحد منهم عشرة آلاف درهم ، فقال للغلمان : ضعوا مامعكم وانصرفوا ، فقالوا : إن الأمير قد أطلقنا لك ، فإنه مابعث مع خادم هدية إلى أحد إلا كان الخادم الذي يحملها من جملتها ، قال : فحسن حال ذلك الرجل .

قال : وقال ابن معين وعبد الأعلى بن حماد : سأل أعرابي سعيد ابن العاص فأمر له بخمسمائة ، فقال الخادم : خمسمائة درهم أو دينار؟ فقال : إنما أمرتك بخمسمائة درهم ، وإذا قد جاش في نفسك أنها دنانير فادفع إليه خمسمائة دينار ، فلما قبضها الأعرابي جلس يبكي ، فقال له : مالك ؟ ألم تقبض نوالك ؟ قال : بلى والله ، ولكن أبكي على الأرض كيف تأكل مثلك .

قال: وقال عبد الحميد بن جعفر: جاء رجل في حمالة أربع ديات سأل فيها أهل المدينة، فقليل له: عليك بالحسن بن علي، أو عبد الله بن جعفر، أو سعيد بن العاص، أو عبد الله بن عباس، فانطلق إلى المسجد فإذا سعيد داخل إليه، فقال: من هذا؟ فقليل: سعيد بن العاص، فقصده فذكر له ما أقدمه، فتركه حتى انصرف من المسجد إلى المنزل فقال للأعرابي: انت بمن يحمل معك، فقال: رحمك الله إنما سألتك مالاً لا تمراً، فقال: أعرف، انت بمن يحمل معك! فأعطاه أربعين ألفاً فأخذها الأعرابي وانصرف ولم يسأل غيره^(١).

فهذه أمثلة عالية في الكرم يقدمها أبو عثمان سعيد بن العاص الأموي رحمه الله تعالى، وهي تدل على سمو نفسه نحو معالي الأمور، حيث سخر ماله لخدمة إخوانه المسلمين وقضى به حوائجهم، وإنه لما يلفت النظر خبره مع ذلك القارئ الذي أصابته الحاجة فمنعه الحياء من ذكر حاجته فكان من أبي عثمان موقف نبيل حيث أطفأ المصباح حتى لا يرى ذلك المحتاج وجهه وهو يعرض حاجته، وهكذا تسمو بالكرام نفوسهم حيث يهيئون الظروف التي تُبقي العزة في نفوس المحتاجين ولا تعرضهم لذل المسألة، وهذا يدل على التخلق بخلق الإيثار والبعد عن الأثرة والأنانية.

وفي خبره مع الأعرابي لون من ألوان الكرم حيث غير نيته من الدراهم إلى الدنانير لمجرد أن الخادم ظن أنه أراد الدنانير، فهو في هذا

(١) البداية والنهاية ٨/ ٨٣ - ٨٦ .

لا يريد أن يكون أقل مما يظن الناس فيه، وفي بكاء الأعرابي مثل من أثر الكرماء في حياة الناس .

وقال الحافظ ابن كثير : ولما حضرت سعيد الوفاة جمع بنيه وقال : لا يفقدن أصحابي غير وجهي، وصلوهم بما كنت أصلهم به، وأجروا عليهم ما كنت أجري عليهم، واكفوهم مؤنة الطلب، فإن الرجل إذا طلب الحاجة اضطربت أركانه، وارتعدت فرائضه مخافة أن يرد، فوالله لرجل يتململ على فراشه يراكم موضعاً لحاجته أعظم منة عليكم مما تعطونه، ثم أوصاهم بوصايا كثيرة، منها أن يوفوا ما عليه من الدين والوعود، وأن لا يزوجوا أخواتهم إلا من الأكفاء، وأن يسودوا أكبرهم، فتكفل بذلك كله ابنه عمرو بن سعيد الأشدق، فلما مات دفنه بالبقيع، ثم ركب عمرو إلى معاوية فعزاه فيه واسترجع معاوية وحزن عليه وقال: هل ترك من دين عليه؟ قال: نعم، قال: وكم هو؟ قال: ثلاثمائة ألف درهم، فقال معاوية: هي علي، فقال ابنه: يا أمير المؤمنين إنه أوصاني أن لا أقضي دينه إلا من ثمن أراضيه، فاشتري منه معاوية أراضيه بمبلغ الدين، وسأل منه عمرو أن يحملها إلى المدينة، فحملها له، ثم شرع عمرو يقضي ما على أبيه من الدين حتى لم يبق أحد، فكان من جملة من طالبه شاب معه رقعة من أديم فيها عشرون ألفاً، فقال له عمرو: كيف استحققت هذه على أبي؟ فقال الشاب: إنه كان يوماً يمشي وحده فأحببت أن أكون معه حتى يصل إلى منزله، فقال: ابغني رقعة من أدم، فذهبت إلى الجزارين فأتيته بهذه فكتب لي فيها هذا المبلغ واعتذر بأنه ليس عنده اليوم

شيء، فدفع إليه عمرو ذلك المال وزاده شيئاً كثيراً (١)

وهكذا ظل أبو عثمان سعيد بن العاص رحمه الله تعالى على كرمه الفياض حتى وهو يوصي أولاده حينما حضرته الوفاة ، حيث أوصاهم بأن يستمروا على صلة الناس الذين كان يصلهم، ولقد بلغ القمة في تمثيل الكرم حينما بين لأولاده بأن صاحب الحاجة الذي يراهم أهلاً لقضاء حاجته أعظم منة عليهم بهذه الثقة منهم عليه بالعطية، وفي هذا المعنى يقول أيضاً في وصية ابنه: يا بني أجر لله المعروف إذا لم يكن ابتداء من غير مسألة، فأما إذا أتاك الرجل تكاد ترى دمه في وجهه، أو جاءك مخاطراً لا يدري أتعطيه أم تمنعه فوالله لو خرجت له من جميع مالك ما كافأته (٢) .

ولقد قام ابنه عمرو المعروف بالأشدق بتنفيذ هذه الوصية خير قيام، كما يدل على ذلك خبره مع ذلك الشاب الذي حمل وعداً من أبيه .

فلله در أبي عثمان ما أجمل سيرته في حياته، وما أروع وصيته عند مماته !!

من أخبار عبيد الله بن عباس رحمه الله :

أخرج الحافظ ابن عساكر من خبر أبي الحجاج محمد بن الوليد الفزاري أن عبيد الله بن العباس خرج في سفر له ومعه مولى له، حتى إذا كان في بعض الطريق وقع لهما بيت أعرابي، قال: فقال

(١) البداية والنهاية ٨ / ٨٧ .

(٢) البداية والنهاية ٨ / ٨٦ .

لمولاه: لو أنا مضينا فنزلنا بهذا البيت وبتنا به، قال: فمضى وكان عبيد الله رجلاً جميلاً، جهيراً، فلما رآه الأعرابي أعظمه وقال لامرأته: لقد نزل بنا رجل شريف، وأنزله الأعرابي، ثم إن الأعرابي أتى امرأته فقال: هل من عشاء لضيئنا هذا؟ فقالت: لا، إلا هذه الشويهة التي حياة ابنتك من لبنها، قال: لا بد من ذبحها، قالت: أفقتل ابنتك، قال: وإن، قال: ثم إنه أخذ الشاة والشفرة وجعل يقول:

يا جارتى لا توقظني البنية إن توقظيها تتحب عليّ

وتنزع الشفرة من يديه

ثم ذبح الشاة فهيأ منها طعاماً، ثم أتى به عبيد الله ومولاه فعشاهما، وعبيد الله يسمع كلام الأعرابي لامرأته ومحاورتهما .

فلما أصبح عبيد الله قال لمولاه: هل معك شيء؟ قال: نعم، خمسمائة دينار فضّلت من نفقتنا، قال: ادفعها إلى الأعرابي، قال: سبحان الله أتعطيه خمسمائة دينار وإنما ذبح لك شاة ثمن خمسة دراهم، قال: ويحك، والله لهو أسخى منها وأجود، إنما أعطينا بعض مائلك، وجاد علينا وآثرنا على مهجة نفسه وولده .

قال: فبلغ معاوية، فقال: لله در عبيد الله من أي بيضة خرج، ومن أي عش درج (١).

وأمام هذا الخبر العجيب فإن المتأمل له لا يدري أيعجب من ذلك الأعرابي الذي ذبح شويّهته الوحيدة التي منها حليب ابنته إكراماً لضيئفه؟!

(١) تاريخ دمشق ٣٧/٤٨٣ - ٤٨٤، وانظر البداية والنهاية ٨/٩٠ .

أم يعجب من عبيد الله بن عباس حينما أعطى الأعرابي ذلك
العطاء الجزيل ؟!

إنها مكارم خلدتها التاريخ، وذهب ذلك المال الذي لو صرف في
وجهة خاصة أو كُنْز لما كان له ذكر ولا خبر، وأعظم من ذلك
ماسيترتب على إنفاقه من النعيم المقيم الخالد يوم القيامة، مع النية
الخالصة في طلب رضوان الله جل وعلا والجنة .

ومن ذلك ماأخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر علي بن المنذر بن
فرقد مولى ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان عبيد الله بن عباس
يسمى تيار الفرات، وكان عبد الله بن عباس يسمى حكيم العضلات،
قال: فكان عبيد الله يطعم كل يوم، ينحر غدوة حتى قدموا المدينة،
قال: فقال له أبوه العباس: يا بني مالك تغدَّى ولا تُعشِّي، إذا غديت
فَعَشْ، فقال عبيد الله لغلام له يقال له «بند»: يا بند انحر غدوة
وانحر عشية (١).

وأخرج الحافظ ابن عساكر أيضا في أخبار عبيد الله بن عباس من
خبر عبيد الله بن محمد العائشي قال: قدِمَتْ امرأة إلى البصرة في
سنة شهباء ومعها ابنان لها، فلم يأت عليها الحول حتى دفتها،
فقعدت بين قبريهما فقالت:

فله عيناى اللتان تراهما	قريين منى والمزار بعيد
هما تركا عينيَّ لأماء فيهما	وشكاً سواد القلب فهو عميد
مقيمان بالبدياء لا يبرحانها	ولا يسألان الركب أين يريد

(١) تاريخ دمشق ٣٧/ ٤٨١ .

فَقِيلَ لَهَا : لَوْ أَتَيْتَ عِبِيدَ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ فَقَبِصْتِ عَلَيْهِ الْقِصَّةَ ،
فَأَتَتْهُ فَقَالَتْ لَهُ : يَا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِنِّي أَصْبَحْتُ لَا عِنْدَ قَرِيبٍ
يَحْمِينِي ، وَلَا عِنْدَ عَشِيرَةٍ تُؤَيِّنِي ، وَإِنِّي سَأَلْتُ عَنِ الْمُرْجَى سَبَبَهُ
الْمَأْمُولِ نَائِلَهُ ، الْمَعْطَى سَائِلَهُ ، فَأُرْشِدْتَ إِلَيْكَ ، فَاعْمَلْ بِي وَاحِدَةً مِنْ
ثَلَاثَ : إِمَّا أَنْ تَقِيمَ أَوْدِي^(١) ، أَوْ تَحْسَنَ صَلَاتِي ، أَوْ تَرُدَّنِي إِلَى أَهْلِي ،
فَقَالَ عِبِيدُ اللَّهِ : كُلُّ يَفْعَلُ بِكَ^(٢) .

وَأَخْبَارُ عِبِيدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ رَحِمَهُ اللَّهُ وَرَضِي عَنْ أَبِيهِ فِي الْكُرْمِ
كَثِيرَةٌ ، وَهِيَ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْخَلْقَ النَّبِيلَ فِيهِ طَبْعٌ وَسَجِيَّةٌ ، فَهُوَ
لَا يَتْرُكُ الْبَذْلَ وَالسَّخَاءَ وَإِنْ لَاحَتْ لَهُ بَوَادِرُ الْإِقْلَالِ وَالْحَاجَةِ .
مِنْ أَخْبَارِ عَرَابَةِ الْأَوْسِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ^(٣) :

وَقَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ : وَقَالَ الْهَيْثَمُ بْنُ عَدِيٍّ : اخْتَلَفَ ثَلَاثَةٌ عِنْدَ
الْكَعْبَةِ فِي أَكْرَمِ أَهْلِ زَمَانِهِمْ ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ : عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ ،
وَقَالَ الْآخَرُ : قَيْسُ بْنُ سَعْدٍ ، وَقَالَ الْآخَرُ : عَرَابَةُ الْأَوْسِيِّ ، فَتَمَارَوْا
فِي ذَلِكَ حَتَّى ارْتَفَعَ ضَجِيجُهُمْ عِنْدَ الْكَعْبَةِ ، فَقَالَ لَهُمْ رَجُلٌ : فَلْيَذْهَبْ
كُلُّ رَجُلٍ إِلَى صَاحِبِهِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ أَكْرَمُ مِنْ غَيْرِهِ فَلْيَنْظُرْ
مَا يَعْطِيهِ وَلْيَحْكَمْ عَلَى الْعَيَانِ ، فَذْهَبَ صَاحِبُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ إِلَيْهِ ،
فَوَجَدَهُ قَدْ وَضَعَ رِجْلَهُ فِي الْغُرْزِ لِيَذْهَبَ إِلَى ضَيْعَةٍ لَهُ ، فَقَالَ لَهُ : يَا ابْنَ
عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ابْنَ سَبِيلٍ وَمَنْقَطَعٍ بِهِ ، قَالَ : فَأَخْرَجَ رِجْلَهُ مِنَ الْغُرْزِ
وَقَالَ : وَضَعْتُ رِجْلَكَ وَاسْتَوَيْتُ عَلَيْهَا ، وَخُذْ مَا فِي الْحَقِيَّةِ ، وَلَا تُتَخَدَعَنَّ عَنْ

(١) الْأَوْدُ الْعُوجُ وَالْمَقْصُودُ أَنْ تَجْبَرَ كَسْرِي .

(٢) تَارِيخُ دِمَشْقَ ٣٧/٤٨٣ .

(٣) هُوَ عَرَابَةُ بْنُ أَوْسٍ بْنِ قَيْطِيٍّ الْأَوْسِيُّ الْأَنْصَارِيُّ .

السيف فإنه من سيوف علي ، فرجع إلى أصحابه بناقة عظيمة ، وإذا في الحقيبة أربعة آلاف دينار ، ومطارف من خز وغير ذلك ، وأجل ذلك سيف علي بن أبي طالب .

ومضى صاحب قيس بن سعد فوجده نائماً ، فقالت له الجارية : ما حاجتك إليه ؟ قال : ابن سبيل ومنقطع به ، قالت : فحاجتك أيسر من إيقاظه ، هذا كيس فيه سبعمائة دينار مافي دار قيس مال غيره اليوم ، واذهب إلى مولانا في معاطن الإبل فخذ لك ناقة وعبدا ، واذهب راشدا ، فلما استيقظ قيس من نومه أخبرته الجارية بما صنعت فأعتقها شكراً لها على صنعها ذلك ، وقال : هلاً أيقظتني حتى أعطيه مايكفيه أبداً ، فلعل الذي اعطيته لا يقع منه موقع حاجته .

وذهب صاحب عرابة الأوسي إليه فوجده وقد خرج من منزله يريد الصلاة وهو يتوكأ على عبيدين له - وكان قد كف بصره- فقال له : يا عرابة ، فقال : قل ، فقال : ابن سبيل ومنقطع به ، قال : فخلّي عن العبدین ثم صفق بيده باليمنی علی اليسرى ، ثم قال : أوّه أوّه ، والله ما أصبحت ولا أمسيت وقد تركت الحقوق من مال عرابة شيئاً ، ولكن خذ هذين العبدین ، قال : ما كنت لأفعل ، فقال : إن لم تأخذهما فهما حران فإن شئت فأعتق وإن شئت فخذ ، وأقبل يلتمس الحائط بيده ، قال : فأخذهما وجاء بهما إلى صاحبيه .

قال : فحكم الناس على أن جعفر قد جاد بمال عظيم ، وأن ذلك ليس بمستنكر له ، إلا أن السيف أجلّها ، وأن قيساً أحد الأجواد ، حكم مملوكته في ماله بغير علمه واستحسن فعلها وعتقها شكراً لها على

مافعلت ، وأجمعوا على أن أسخى الثلاثة عرابة الأوسي لأنه جاد بجميع ما يملكه ، وذلك جهد من مُقلٍّ (١) .

وبعد : فهذا الخبر من أحسن الأخبار في مواقف الأجراد الكرماء ، فكل واحد من هؤلاء الثلاثة قد جاء بخير كثير .

وقد اتفق المحكّمون على أن عرابة الأوسي كان أكرم الثلاثة ، مع أنه أقلّ منهم صدقة ، إلا أنه قد تصدّق بماله كله ، وذلك جهد المقل ، وهو أفضل الصدقة كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : يا رسول الله أي الصدقة أفضل ؟ قال : جهد المقل وابدأ بمن تعول» (٢) .

من أخبار علي بن الحسين رحمه الله :

أخرج الإمام أحمد من خبر شيبه بن نعام قال : كان علي بن الحسين عليه السلام يُبَخِّل ، فلما مات وجدوه يعول مائة أهل بيت بالمدينة .

وأخرج من خبر أبي حمزة ثابت الثمالي : أن علي بن الحسين كان يحمل الجراب فيه الخبز ، ويقول : إن صدقة الليل تطفئ غضب الرب عز وجل .

وأخرج من خبر محمد بن إسحاق قال : كان ناس من أهل المدينة يعيشون ، ما يدرون من أين كان معاشهم ، فلما مات علي بن الحسين رحمه الله فقدوا ما كانوا يؤثّون به بالليل (٣) .

(١) البداية والنهاية ٨ / ١٠٠-١٠١ .

(٢) سنن أبي داود ٣١٢ / ٢ رقم ١٦٧٧ .

(٣) الزهد / ١٦٦ .

فهذه أخبار جلييلة عن زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب في مجال الكرم الذي قد ازدان بالإخلاص لله تعالى ، وذلك بإخفاء الصدقة ، وإخفاء الصدقة أفضل من إعلانها لما جاء في قول رسول الله ﷺ في حديث السبعة الذين يظلهم الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله « ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » (١) .

وذلك في غير الحالات الخاصة التي يستحب فيها إعلان الصدقة مثل ما إذا أصابت المسلمين جوائح وأراد الإنسان بإظهار الصدقة أن يكون قدوة لغيره أو فيما إذا دعا الإمام للصدقة بشكل معلن .

ولقد كان رحمه الله تعالى يحمل الطعام إلى الفقراء في الليل بنفسه حتى يحافظ على إخفاء الصدقة ، وقد نجح في إخفائها حيث لم يكن يعلم الفقراء بأنه هو الذي يمونها حتى توفي .

ولئن كان قد فات ابن الحسين ما كان يعمل له بعض الناس في الدنيا من جاه وسمعة فلقد ظفر بجاه الآخرة وسمعتها، وشتان ما بين الدارين .

من أخبار الليث بن سعد رحمه الله :

ومن مواقف الكرم ما ذكره الحافظ ابن كثير عن الإمام الليث بن سعد الفهمي أنه استهداه الإمام مالك شيئاً من العصفور لأجل جهاز ابنته ، فبعث إليه بثلاثين حملاً ، فاستعمل منه مالك حاجته وباع منه بخمسائة دينار وبقيت عنده منه بقية .

(١) صحيح البخاري ، رقم ١٤٢٣ (٢٩٢/٣) .

قال : وحج مرة فأهدى إليه مالك طبقا فيه رطب ، فرد الطبق
وفيه ألف دينار .

قال : وكان يهب للرجل من أصحابه من العلماء الألف دينار
وما يقارب ذلك (١) .

فهذه أخبار عالية في السخاء تدل على عظمة هذا الإمام وتقدمه
في مجالات البذل والمعروف والإحسان ، وما أجمل المال الصالح
للرجل الصالح الذي يقول به هكذا وهكذا حتى يفنيه في طاعة الله
تعالى واكتساب الدرجات العلى في الجنة !
من أخبار ابن شهاب الزهري رحمه الله :

ومن المشهورين بالسخاء الإمام محمد بن شهاب الزهري ، ومن
أخبار كرمه مارؤي عن الإمام الشافعي قال : عتب رجاء بن حيوة على
الزهري في الإسراف ، وكان يستدين ، فقال : لا آمن أن يحبس هؤلاء
القوم مابأيديهم عنك فتكون قد حُمِلت على أمانيك ، قال : فوعده
الزهري أن يقصر ، فمرَّ به بعد ذلك وقد وضع الطعام ونصب موائد
العسل ، فوقف به رجاء وقال : يا أبا بكر ما هذا بالذي فارقتنا عليه ،
فقال الزهري : انزل فإن السخي لا تؤدبه التجارب (٢) .

وذلك لأن الكرم فيه خلق أصيل ، فهو يشعر بمتعة كبيرة إذا
أحسن إلى الناس وبذل لهم من ماله ، كما يشعر بانقباض في النفس
إذا غير عادته في ذلك ، هذا بالنسبة لهواية النفس ، فإذا أضيف إلى

(١) البداية والنهاية ١٧١/١٠ .

(٢) البداية والنهاية ٣٥٧/٩ .

ذلك اعتبار ذلك من العمل الصالح الذي سيتقاضى عليه فاعله الأجر في الآخرة أضعا فمضاعفة فإن فاعل ذلك يندفع بحماس ونشاط من غير أن ينظر لما سترتب على إنفاقه في الدنيا ، وإذا كان التاجر يغامر برأس ماله أحيانا رجاء الربح المحتمل في الدنيا فإن المنفق في سبيل الله تعالى يغامر بماله رجاء ربح محقق في الآخرة .

من أخبار عبد الله بن المبارك رحمه الله :

ومن أخبار السخاء وبذل المعروف ما ذكره الحافظ ابن كثير في ترجمة الإمام عبد الله بن المبارك المروزي ، قال ابن كثير في ترجمته : وكان إذا عزم على الحج يقول لأصحابه : من عزم منكم في هذا العام على الحج فليأتني بنفقته حتى أكون أنا أنفق عليه ، فكان يأخذ منهم نفقاتهم ويكتب على كل صرة اسم صاحبها ويجمعها في صندوق ، ثم يخرج بهم في أوسع ما يكون من النفقات والركوب ، وحسن الخلق والتيسير عليهم ، فإذا قضوا حجتهم يقول لهم : هل أوصاكم أهلوكم بهدية ؟ فيشتري لكل واحد منهم ما وصاه أهله من الهدايا المكية واليمانية وغيرها ، فإذا جاؤوا إلى المدينة اشترى لهم منها الهدايا المدنية ، فإذا رجعوا إلى بلادهم بعث من أثناء الطريق إلى بيوتهم فأصلحت ويصت أبوابها ، ورُمَّ شعثها ، فإذا وصلوا إلى البلد عمل وليمة بعد قدومهم ، ودعاهم فأكلوا وكساهم ، ثم دعا بذلك الصندوق ففتحه وأخرج منه تلك الصرر ، ثم يقسم عليهم أن يأخذ كل واحد نفقته التي عليها اسمه ، فيأخذونها وينصرفون إلى منازلهم وهم شاكرون ناشرون لواء الشاء الجميل ، وكانت سفرتة تحمل على

بغير وحدها وفيها من أنواع المأكول من اللحم والدجاج والحلوى وغير ذلك ، ثم يطعم الناس وهو الدهر صائم في الحر الشديد (١) .

وبعد : فهذا نموذج عالٍ للكرم والإحسان وبذل المعروف ، جمع فيه ابن المبارك بين بذل ماله الكثير في النفقة على الحجاج وبذل نفسه في خدمتهم وقضاء حوائجهم ، فالذي يحج معه يكون سعيداً لأنه يُكفَى هم إعداد النفقة وتأمين اللوازم الخاصة في السفر وشراء الهدايا ، ثم إذا عاد إلى بيته يجده مجدداً مزيّناً بعده ، إلى جانب ما هو أهم من ذلك وهو الاستفادة من علمه وعبادته وزهده وورعه وأخلاقه .

وبهذه الأخلاق العالية من ابن المبارك وبما تحلّى به من العلم النافع وتعليم الأمة والتربية والجهاد ساد مجتمعاً كبيراً في زمنه ، وكان الناس يستقبلونه ويسيرون معه في حشود كبيرة في أي بلد حلّ فيه .

ومن ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير أيضاً عن كرم الإمام عبد الله ابن المبارك قال : وسأله مرة سائل فأعطاه درهماً ، فقال له بعض أصحابه : إن هؤلاء يأكلون الشواء والفالودج وقد كان يكفيه قطعة ، فقال : والله ما ظننت أنه يأكل إلا البقل والخبز ، فأما إذا كان يأكل الفالودج والشواء فإنه لا يكفيه درهم ، ثم أمر بعض غلمانه فقال : رُدّه وادفع إليه عشرة دراهم (٢) .

وفي هذا يتبين الفرق الكبير بين فهم ابن المبارك وفهم الذين حاوروه في شأن ذلك السائل ، فقد كانوا يرون أن الدرهم كثير عليه لأنه ليس بحاجة ، حيث إنه من قوم يأكلون أطايب الطعام ، بينما

(١) البداية والنهاية ١٠ / ١٨٤ - ١٨٥ .

(٢) البداية والنهاية ١٠ / ١٨٥ .

فهم ابن المبارك أنه مادام كذلك فإن الدرهم لن يملأ عينه فأعطاه عشرة دراهم ، وهكذا تكون أذهان الكرماء لَمَّاحَةً لمعالِي الأمور، سَبَّاقَةً إلى اكتساب مودة الناس .

ومن أخباره في الإحسان ما ذكره القاضي ابن أبي يَعْلَى من خبر علي بن المديني قال: كان عبد الله بن المبارك يَتَجَرُّ في البَزِّ ويقول: لولا خمسة ما أَتَجَرْتُ: سفيان الثوري، وسفيان بن عيينة، والفضيل ابن عياض، ومحمد بن السَّمَّاك، وابن عُليَّة، وكان يخرج يَتَجَرُّ إلى خراسان فكلما ربح من شيء أخذ القوت للعيال ونفقة الحج والباقي يصل به إخوانه الخمسة (١).

فهذه تضحية جليلة وكرم فياض من الإمام عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى ، حيث كان يبذل من وقته في التجارة من أجل أن يصل إخوانه من العلماء .

ولقد كان في ذلك مثالا عاليا للزهد حيث يملك المال ولا يبقى منه إلا نفقته الضرورية وينفق بقيته على أولئك العلماء .

من أخبار أبي النجم الكردي رحمه الله :

ومن أخبار الأسخياء ما ذكره الحافظ ابن كثير في ترجمة الأمير بدر ابن حسنويه أبي النجم الكردي أمير بلاد الدينور وهمدان قال: وكان يصرف كل جمعة عشرين ألف درهم على الفقراء والأرامل، وفي كل شهر عشرين ألف درهم في تكفين الموتى . . وثلاثة آلاف دينار في كل سنة إلى الحدادين والحذائين لأجل المنقطعين من همذان وبغداد،

(١) طبقات الحنابلة ١ / ١٠٠ .

يصلحون الأحذية ونعال دوابهم ، ويصرف في كل سنة مائة ألف دينار إلى الحرمين صدقة على المجاورين ، وعمارة المصانع ، وإصلاح المياه في طريق الحجاز وحفر الآبار ، وما اجتاز في طريقه وأسفاره بماء إلا بنى عنده قرية ، وعمر في أيامه من المساجد والخانات ما ينيف على ألفي مسجد وخان (١) .

من أخبار الإمام الأوزاعي رحمه الله :

من أخبار الإمام عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي في الكرم والإحسان إلى المسلمين ما ذكره الحافظ ابن كثير عنه قال : قالوا : وكان الأوزاعي من أكرم الناس وأسخاهم ، وكان له في بيت المال على الخلفاء إقطاع صار إليه من بني أمية ، وقد وصل إليه من خلفاء بني أمية وأقاربهم وبني العباس نحو من سبعين ألف دينار ، فلم يمك منها شيئاً ولا اقتنى شيئاً من عقار ولا غيره ، ولا ترك يوم مات سوى سبعة دنائير كانت جهازه بل كان ينفق ذلك كله في سبيل الله وفي الفقراء والمساكين (٢) .

فهذا الوصف المذكور للإمام الأوزاعي يدل على زهده في الدنيا وسخائه المتواصل بالمال طيلة عمره ، فهو لم يدخر من ذلك المال الكثير شيئاً ولم يُشيد به قصوراً ولم يكون به مظاهر دنيوية ، وإنما كان ينفقه في وجوه الخير ، ولقد كان راجح العقل صائب التفكير حينما ادخر تجارته للآخرة ، وما أبعد الفرق بين عائدات الدنيا وعائدات الآخرة !!

(١) البداية والنهاية ٣٧٨ / ١١ .

(٢) البداية والنهاية ١٢٠ / ١٠ .

من أخبار أمير المؤمنين المهدي رحمه الله (١) :

ومن ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير من أخبار الكرم النادرة ،
وذلك فيما جرى لأمر المؤمنين المهدي في ضيافته عند أحد الأعراب .
قال ابن كثير : وقدم أعرابي ومعه كتاب مختوم فجعل يقول :
هذا كتاب أمير المؤمنين إليّ ، أين الرجل الذي يقال له الربيع
الحاجب ؟ فأخذ الكتاب وجاء به إلى الخليفة ، وأوقف الأعرابي وفتح
الكتاب فإذا هو قطعة أديم^(٢) فيها كتابة ضعيفة ، والأعرابي يزعم أن
هذا هو خط الخليفة ، فتبسم المهدي وقال : صدق الأعرابي هذا
خطي ، إني خرجت يوما إلى الصيد فضعت عن الجيش وأقبل الليل
فتعوذت بتعويد رسول الله ﷺ ، فَرَفَعَ لي نار من بعيد فقصدتها ،
فإذا هذا الشيخ وامرأته في خباء يوقدان نارا ، فسلمت عليهما فردا
السلام ، وفرش لي كساء وسقاني مذقة من لبن^(٣) مشوب بالماء فما
شربت شيئا إلا وهي أطيب منه ، ونمت نومة على تلك العباءة ما أذكر
أنني نمت أحلى منها ، فقام إلى شويهة له فذبحها ، فسمعت امرأته
تقول له : عمدت إلى مكسبك ومعيشة أولادك فذبحتها ، هلكت
نفسك وعيالك ، فما التفت إليها ، واستيقظت فاشتويت من لحم
تلك الشويهة وقلت له : أعندك شيء أكتب لك فيه كتابا ؟ فأتاني
بهذه القطعة فكتبت له بعود من ذلك الرماد خمس مائة ألف وإنما

(١) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس .

(٢) أي من جلد .

(٣) المذقة اللبن الممزوج بالماء .

أردت خمسين ألفاً ، والله لانفدَّها له كلّها ولو لم يكن في بيت المال سواها ، فأمر له بخمسة مائة ألف فقبضها الأعرابي ، واستمر مقيماً في ذلك الموضع في طريق الحاج من ناحية الأنبار ، فجعل يُقْرِ الضيف ومن مر به من الناس ، فعُرف منزله بمنزل مُضيف أمير المؤمنين المهدي (١) .

ففي هذا الخبر مثلاً من السخاء ، قدّم أحدهما ذلك الأعرابي الذي ذبح شاته لضيفه وهو لا يملك غيرها ، وحينما ملك ذلك المال الكثير بعد ذلك لم يبق يثمر ذلك المال ويتاجر به وإنما رجع إلى خبائه ذلك على طريق الحجاج فصار يبذل من ذلك المال في إكرام الضيوف ، وذلك لأن الكرم كان فيه سجية ، فما أن ملك ذلك المال حتى صرفه فيما يُرضي طموحه في هذا الجانب .

والمثل الثاني فيما قدّمه أمير المؤمنين المهدي لذلك الأعرابي من تلك المكافأة السخية التي فجّرت فيه ينابيع الكرم ودفعته إلى الاستمرار في بذل المعروف والإحسان .

من أخبار الإمام البخاري رحمه الله :

من اشتهروا بالكرم الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ، ومن أخباره ما ذكره محمد بن أبي حاتم قال : وكان أبو عبد الله يتصدق بالكثير يأخذ بيده صاحب الحاجة من أهل الحديث فيناوله ما بين العشرين إلى الثلاثين ، وأقل وأكثر من غير أن يشعر بذلك أحد وكان لا يفارقه كيسه ، ورأيتُه ناولَ رجلاً مراراً صرة فيها ثلاثمائة

(١) البداية والنهاية ١٥٨/١٠ - ١٥٩ .

درهم، وذلك أن الرجل أخبرني بعدد ما كان فيها من بَعْد، فأراد أن يدعو، فقال أبو عبد الله: ارفق، واشتغل بحديث آخر كيلا يعلم بذلك أحد (١).

فهذا مثل على كرم أبي عبد الله البخاري ورغبته في تقديم العمل الصالح عن طريق الإنفاق، ومن إخلاصه لله تعالى أنه كان يحرص على إخفاء صدقته، وبذلك يكون قد طبق علمه رجاء أن يكون من السبعة الذين يظلهم الله تعالى تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله .

ومن ذلك ما رواه محمد بن أبي حاتم عن سقاء الإمام محمد بن إسماعيل البخاري، قال : كانت له قطعة أرض يكرها كل سنة بسبعمئة درهم، فكان ذلك المكتري ربما حمل إلى أبي عبد الله قثاة أو قثاتين، لأن أبا عبد الله كان معجبا بالقثاء النضيج، وكان يؤثره على البطيخ أحيانا، فكان يهب للرجل مائة درهم كل سنة لحمله القثاء إليه أحيانا (٢).

ومن ذلك ما ذكره الإمام الذهبي عن كاتب الإمام البخاري محمد ابن أبي حاتم قال : وكنت اشتريت منزلا بتسعمائة وعشرين درهما فقال لي - يعني الإمام البخاري - لي إليك حاجة تقضيها ؟ قلتُ : نعم، ونعمي عين ، قال : ينبغي أن تصير إلى نوح بن أبي شداد الصيرفي، وتأخذ منه ألف درهم، وتحمله إليّ ، ففعلت ، فقال لي : خذه إليك ، فاصرفه في ثمن المنزل ، فقلتُ : قد قبلته منك

(١) سير أعلام النبلاء ١٢ / ٤٥٠ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٢ / ٤٤٩ .

وشكرته . وأقبلنا على الكتابة ، وكنا في تصنيف « الجامع » فلما كان بعد ساعة ، قلت : عَرَضْتُ لِي حاجة لأَجْتَرِي رفعها إليك ، فظن أني طمعت في الزيادة ، فقال : لا تحتشميني ، وأخبرني بما تحتاج ، فإني أخافُ أن أكون مأخوذا بسببك ، قلت له : كيف ؟ قال : لأن النبي ﷺ آخى بين أصحابه . فذكر حديث سعد وعبد الرحمن . فقلت له : قد جعلتُك في حل من جميع ماتقول ، ووهبت لك المال الذي عرضته عليّ ، عَنِيتُ المُنَاصِفَةَ . وذلك أنه قال : لِي جَوَارٍ وامرأةٌ ، وأنت عَزَبٌ فالذي يجبُ عليّ أن أناصفك لنستوي في المال وغيره ، وأربح عليك في ذلك ، فقلت له : قد فعلتَ - رحمك الله - أكثر من ذلك إذا أنزلتني من نفسك ما لم تنزل أحدا ، وحللتُ منك محلَّ الولد ، ثم حفظ عليّ حديثي الاول وقال : ما حاجتك ؟ قلت : تقضيها ؟ قال : نعم ، وأسرُ بذلك . قلت : هذه الألف ، تأمر بقبوله ، واصرفه في بعض ماتحتاج إليه ، فقبله ، وذلك أنه ضمن لي قضاء حاجتي .

ثم جلسنا بعد ذلك بيومين لتصنيف « الجامع » ، وكتبنا منه ذلك اليوم شيئا كثيرا إلى الظهر ، ثم صلينا الظهر ، وأقبلنا على الكتابة من غير أن نكون أكلنا شيئا ، فرآني لما كان قُرب العصر شبه القلق المستوحش ، فتوهم في ملالا . وإنما كان بي الحصر غير أنني لم أكن أقدر على القيام ، وكنت أتلوُ اهتماما بالحصر . فدخل أبو عبد الله المنزل ، وأخرج إلي كاغدة فيها ثلاث مئة درهم ، وقال : أما إذا لم تقبل ثمن المنزل ، فينبغي أن تصرف هذا في بعض حوائجك فجهدي ، فلم أقبل .

ثم كان بعد أيام ، كتبنا إلى الظهر أيضًا ، فناولني عشرين درهما ، فقال : ينبغي أن تصرف هذه في شراء الخضر ونحو ذلك ، فاشتريت بها ماكنت أعلم أنه يلائمه ، وبعثت به إليه وأتيت ، فقال لي : بيّض الله وجهك ، ليس فيك حيلة فلا ينبغي لنا أن نُعني أنفسنا ، فقلت له : إنك قد جمعت خير الدنيا والآخرة ، فأى رجل يبر خادمه بمثل ماتبرني ، إن كنتُ لأعرف هذا فلست أعرف أكثر منه^(١) .

وبعد : فهذا خبر نفيس يدل على بلوغ الإمام البخاري وتلميذه محمد بن أبي حاتم درجات عليا في مكارم الأخلاق ، فالإمام البخاري يسخو بالمال لتلميذه بمايزيد على قيمة بيت اشتراه ، وتلميذه يحتال في رد ذلك المبلغ بعدما شكر أبا عبد الله وأظهر قبوله إياه .

ثم يحاول أبو عبد الله أن يعطي تلميذه مرة أخرى مبلغا أقل لعله يرضى بقبوله ، ولكن تلميذه يأبى ويشعره بأن ماهو فيه من خدمته في مجال العلم أعظم عنده من الدنيا .

وحينما أعطاه مبلغا من المال ليشتري شيئا من الخضرة اشترى به مايلائم رغبة شيخه ، فلله در هذا التلميذ البار ، ما أعظم أدبه ، وما أسمى أخلاقه !!

من أخبار الإمام الشافعي رحمه الله :

ومن ذلك ما روي عن الإمام محمد بن إدريس الشافعي من أخبار الكرم وسماحة النفس فمن ذلك ما ذكره عمرو بن سواد قال : كان الشافعي أسخى الناس على الدينار والدرهم والطعام ، فقال لي

(١) سير أعلام النبلاء ١٢ / ٤٥٠ - ٤٥٢ .

الشافعي : أَفْلَسْتُ في دهري ثلاثة إفلاسات ، فكنت أبيع قليلي وكثيري ، حتى حليّ ببتّي وزوجتي ، ولم أرهن قط (١) .

يعني أنه أفلس من كثرة إنفاقه على الفقراء وإلا فإنه كان من الزهاد ، وكانت نفقته على نفسه قليلة .

وقال الربيع : كان الشافعي ماراً بالخذائين فسقط سوطه فوثب غلام ومسحه بكمه وناوله ، فأعطاه سبعة دنانير (٢) .

وهذا التصرف من هذا الغلام دليل على أدبه وسمو تربيته فهو لم يكتف بمناولة الإمام الشافعي عصاه بل مسح العصا بكمه ، وإن المجتمع الذي يربي صغاره على احترام الكبار وتوقيرهم ، وخاصة أهل العلم منهم يكون مجتمعاً راقياً صالحاً .

وما كافأه به الإمام الشافعي من ذلك المبلغ الكبير يعتبر حثاً بالغاً على فعل الخير وخدمة المسلمين ، وكم هي فرحة ذلك الغلام بحصوله على ذلك المبلغ ! وكم كان أثر ذلك فيه وفيمن حوله في الاندفاع نحو بذل المعروف والإحسان إلى المسلمين !

وقال الربيع : تزوجت فسألني الشافعي : كم أصدقته قلت : ثلاثين ديناراً ، عجّلت منها ستة ، فأعطاني أربعة وعشرين ديناراً (٣) .

وحكى الربيع : أن إنساناً ناول الشافعي رقعة يقول فيها : إنني بقال رأس مالي درهم ، وقد تزوجت فأعني ، فقال ياربيع أعطه ثلاثين ديناراً واعذرني عنده ، فقلت : أصلحك الله إن هذا يكفيه

(١) سير أعلام النبلاء ٣٧/١٠ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٣٧/١٠ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٣٧/١٠ .

عشرة دراهم ، فقال : ويحك وما يصنع بثلاثين ؟ أفي كذا أم في كذا؟
- يَعدُّ ما يصنع في جهازه - أعطه (١) .

وهذا نوع رفيع من الإحسان والمواساة ، فكم هي فرحة من أقدم
على زواج وقد ضاقت به المسالك حينما يوفق بمن يعطيه المهر كله!
وأعظم من ذلك حينما يوفق بمن يعطيه أكثر من تكاليف المهر كما هو
الحال في ذلك البقال .

وروى الزبير بن سليمان القرشي عن الشافعي قال: خرج هرثمة
فأقرأني سلام أمير المؤمنين هارون وقال : قد أمر لك بخمسة آلاف
دينار .

قال [يعني الزبير] : فحُمِلَ إليه المال ، فدعا بحجام فأخذ شعره
فأعطاه خمسين ديناراً ، ثم أخذ رِقَاعاً فصراً صُراً وفرقها في القرشيين
الذين هم بالحضرة ومن بمكة ، حتى مارجع إلى بيته إلا بأقل من مائة
دينار (٢) .

وقال الربيع : أخبرني الحميدي قال : قدم الشافعي صنعاء
فصُرِبَتْ له خيمة ومعه عشرة آلاف دينار ، فجاء قوم فسألوه ، فما
قُلِعَتْ الخيمة ومعه منها شيء (٣) .

فهذه نماذج عالية في الكرم يقدمها الإمام الشافعي رحمه الله
تعالى ، إلى جانب ما قدم للأمة من علم غزير وفهم ثاقب ، والكرم

(١) سير أعلام النبلاء ٣٨/١٠ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٣٨/١٠ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٣٨/١٠ .

من الأخلاق السامية التي تبين معادن الرجال، وهو مع الإخلاص دليل على قوة الإيمان ، لأن بذل المال - وهو من أعلى المحبوبات من أجل الله تعالى - شاهد على قوة الإيمان .

من أخبار أبي عبد الله الواقدي رحمه الله :

من ذلك ما أخرجه الحافظ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي من خبر القاضي أبي عبد الله محمد بن عمر الواقدي قال : أضقت مرة من المزار وأنا مع يحيى بن خالد البرمكي ، وحضر عيد فجاءتني جارية فقالت : قد حضر العيد وليس عندنا من النفقة شيء ، فمضيت إلى صديق لي من التجار فعرفته حاجتي إلى القرض ، فأخرج إلي كيساً مختوماً ، فيه ألف ومائتا درهم ، فأخذته وانصرفت إلى منزلي ، فما استقررت فيه حتى جاءني صديق لي هاشمي فشكى إلي تأخر غلته وحاجته إلى القرض ، فدخلت إلى زوجتي فأخبرتها فقالت : على أي شيء عزمت ؟ قلت : على أن أقاسمه الكيس ، قالت ماصنعت شيئاً ، أتيت رجلاً سوقاً فأعطاك ألفاً ومائتي درهم ، وجاءك رجل له من رسول الله ﷺ رحم ماسة تعطيه نصف ما أعطاك السوق ! ما هذا شيئاً ، أعطه الكيس كله ، فدفعته إليه ، ومضى صديقي التاجر إلى الهاشمي فسأله القرض فأخرج الهاشمي إليه الكيس ، فلما رأى خاتمه عرفه ، وانصرف إلي فخبّرني الأمر ، وجاءني رسول يحيى بن خالد يقول : إنما تأخر رسولي عنك لشغلي بحاجات أمير المؤمنين ، فركبت إليه فأخبرته بخبر الكيس ، فقال : يا غلام هات تلك الدنانير ، فجاءه بعشرة آلاف دينار فقال : خذ ألفي دينار لك ، وألفين لصديقك ،

وألفين للهاشمي ، وأربعة آلاف لزوجتك فإنها أكرمكم (١).

فهذه قصة عجيبة ظهرت فيها نماذج عالية من الكرم الفياض ،
تردد فيها الكرم بين التاجر الذي بذل المال للواقدي مع حاجته إليه ،
والمرأة التي أثبت أن يكون التاجر أكرم من زوجها ، والواقدي الذي بذل
ذلك المال لمقترضه مع حاجته إليه ، ولقد كانت نتيجة ذلك الكرم
المتبادل أن حصل كل واحد من هؤلاء الكرماء على مكافأة سخية من
يحيى البرمكي وزير أمير المؤمنين هارون الرشيد .

ولقد كان أبو عبد الله الواقدي من الكرماء المشهورين يقول عن
نفسه : صار إليّ من السلطان ستمائة ألف درهم ماوجبت عليّ فيها
الزكاة ، ويقول عنه عباس الدوري : مات الواقدي وهو على القضاء
وليس له كفن فبعث المأمون بأكفانه (٢).

من أخبار ابن مهدي رحمه الله :

ومن أسخياء العلماء المشهورين الإمام القدوة أحمد بن مهدي ،
قال أبو نعيم الحافظ : كان صاحب ضياع وثروة أنفق على أهل العلم
ثلاثمائة ألف درهم (٣).

وهكذا يسخو هذا العالم الجليل بهذا المبلغ الكبير على أهل
العلم ، والمال عادة من مطالب الإنسان ، ولكن حينما تسمو الأهداف
وتعلو المقاصد فإن الحب ينبل عن المألوفات ويرتفع عما تعارف الناس

(١) تاريخ بغداد ١٩/٣ - ٢٠ .

(٢) تاريخ بغداد ٢٠/٣ .

(٣) سير أعلام النبلاء ١٢/٥٩٧ - ٥٩٨ .

عليه عادة ، ليصل بصاحبه إلى خدمة الأهداف السامية بما يملكه من مال ، فيتحول المال إلى خادم مخلص دؤوب نحو الوصول إلى تحقيق أهداف صاحبه . فالمال أداة طيعة يستخدمها الكبار في تحقيق المآرب الكبيرة والمكازم العالية ، في الوقت الذي يتحول في أيدي الصغار إلى معبود أصم ، يدفع عابديه نحو المهالك ، ويحشرهم نحو الرذائل .

من أخبار سوار صاحب المهدي رحمه الله :

ومن أخبار السخاء والوفاء ما ذكره الحافظ ابن كثير قال : وعن سوار -صاحب رحبة سوار- قال : انصرفت يوما من عند المهدي فجئت منزلي فوضعت لي الغداء فلم تقبل نفسي عليه ، فدخلت خلوتي لأنام في القائلة فلم يأخذني نوم ، فاستدعيت بعض حظايي لأتلهى بها فلم تنبسط نفسي إليها ، فنهضت فخرجت من المنزل وركبت بغلتي فما جاوزت الدار إلا قليلا حتى لقيني رجل ومعه ألفا درهم فقلت : من أين هذه ؟ فقال : من ملكك الجديد ، فاستصحبته معي وسرت في أزقة بغداد لأتشاغل عما أنا فيه من الضجر ، فحانت صلاة العصر عند مسجد في بعض الحارات ، فنزلت لأصلي فيه ، فلما قضيت الصلاة إذا برجل أعمى قد أخذ بشيابي فقال : إن لي إليك حاجة ، فقلت : وما حاجتك ؟ فقال : إني رجل ضرير ولكني لما شممت رائحة طيبك ظننت أنك من أهل النعمة والثروة فأحببت أن أفضي إليك بحاجتي ، فقلت : وما هي ؟ فقال : إن هذا القصر الذي تجاه المسجد كان لأبي فسافر منه إلى خراسان فباعه وأخذني معه وأنا صغير ، فافترقنا هناك وأصابني أنا الضرر ، فرجعنا إلى بغداد بعد أن مات أبي ، فجئت

إلى صاحب هذا القصر أطلب منه شيئاً أتبلغ به لعلّي أجتمع بسوار فإنه كان صاحباً لأبي، فلعله أن يكون عنده سعة وجود منها علي، فقلت: ومن أبوك ؟ فذكر رجلاً كان أصحاب الناس إلي، فقلت: إني أنا سوار صاحبُ أبيك، وقد منعني الله يومك هذا النوم والقرار والأكل والراحة حتى أخرجني من منزلي لأجتمع بك وأجلسني بين يديك، وأمرت وكيلي فدفع له الألفي الدرهم التي معه، وقلت له: إذا كان الغد فأت منزلي في مكان كذا وكذا، وركبت فجئت دار الخلافة وقلت: ما أتخف المهدي الليلة في السمر بأغرب من هذا.

فلما قصصت عليه القصة تعجب من ذلك جدا وأمر لذلك الأعمى بالفي دينار (١) .

فهذه حادثة عجيبة فيها مثل من حكمة الله تعالى العالية في تدبير أمور خلقه، حيث تجتمع الأسباب الموصلة إلى مقاصدها من غير أن يكون لمن جرت على يديه أحياناً أي قصد في ذلك، فهذا الغني المحسن اجتمعت له تلك الأسباب التي أخرجته من بيته في ساعة ما كان يخرج فيها ليلقاه ذلك الأعمى الفقير فيعرض عليه حاجته، ويشاء الله تعالى أن يوافي ذلك المحسن أحدُ عماله بشيء من المال ليكون طعمة عاجلة لذلك الفقير .

وموقف في السخاء والوفاء وبذل المعروف من سوار صاحب أمير المؤمنين المهدي رفع الله به حال ذلك الأعمى الفقير وسدَّ حاجته .

(١) البداية والنهاية ١٥٩/١٠ .

من أخبار إبراهيم بن أدهم التميمي رحمه الله :

ومن أخبار السخاء ما ذكره الحافظ ابن كثير عن إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى حيث قال : وذكروا أنه - يعني ابن أدهم - حصد مرة بعشرين ديناراً فجلس مرة عند حجام هو وصاحب له ليحلق رؤوسهم ويحجمهم فكأنه تبرم بهم واشتغل بغيرهم ، فتأذى صاحبه من ذلك ، ثم أقبل عليهم الحجام فقال : ماذا تريدون ؟ قال إبراهيم : أريد أن تحلق رأسي وتحجمني ، ففعل ذلك فأعطاه إبراهيم العشرين ديناراً وقال : أردت أن لا تحتقر بعدها فقيراً أبدا .

قال وقال مضاء بن عيسى : مافاق إبراهيم أصحابه بصوم ولا بصلاة ولكن بالصدق والسخاء (١) .

فهذا غيظ من فيض مما كان يتصف به إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى من السخاء ، وقد استخدم كرمه في هذه الحادثة لغرض دعوي ، حيث رأى ذلك الحجام يحتقر الفقراء فأعطاه ذلك المبلغ الكبير ليُعلمه بأن هناك من الأغنياء من يظهر من بمظهر الفقراء زهداً في مظاهر الحياة الدنيا حتى لا يحتقر الفقراء بعد ذلك .

من أخبار بقي بن مخلد رحمه الله :

ومن ذلك ما ذكره الحافظ الذهبي في ترجمة الإمام الحافظ بقي بن مخلد الأندلسي قال قال ابن لبابة الحافظ : كان بقي من عقلاء الناس وأفاضلهم ، وكان أسلم بن عبد العزيز يقدمه على جميع من لقيه بالمشرق ويصف زهده ويقول : ربما كنت أمشي معه في أزقة قرطبة

(١) البداية والنهاية ١٠/ ١٤٢ .

فإذا نظر في موضع خال إلى ضعيف محتاج أعطاه أحد ثوبيه (١) .
فهذا مثل من زهد الإمام بقي بن مخلد وكرمه ، وكونه يتصدق
بثوب ، ليس كبيرا ولكن حينما يكون ذلك الثوب أحد ثوبيه اللذين
يلبسهما وهو بحاجة إليهما فإن ذلك يكون كبيرا .
من أخبار محمد بن عباد المهلب الأزدي رحمه الله :

وعما روي من الكلام على خلق الكرم ما ذكره أبو العيلاء قال :
قال المؤمن لمحمد بن عباد : أردت أن أوليك فمنعني إسرافك قال :
منع الجود سوء ظن بالمعبود ، فقال : لو شئت أبقيت على نفسك ،
فإن ماتنفسه ما أبعد رجوعه إليك قال : من له مولى غني لم يفتقر ،
فقال المؤمن : من أراد أن يكرمني فليكرم ضيفي محمدا ، فجاءته
الأموال ، فما ذخرها درهما ، وقال : الكريم لا تحنكه التجارب (٢) .

فهذه كلمات بليغة في الكرم تدل على عمق التوحيد ، فمحمد
ابن عباد المهلب ينفق وهو يعلم أن الله تعالى سيخلف عليه ما أنفقه
ولعله يستشعر قول رسول الله ﷺ « مامن يوم يصبح العباد فيه إلا
ملكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعط منقفا خلفا ، ويقول
الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفا » (٣) ، فهو يعلم أن المال مال الله جل
وعلا ، وأنه قد تكفل للمنفقين بالعوض ، ويرى أن الإمساك سوء ظن
بوعده الله تعالى ، فكان ينفق حتى يستدين من أجل ذلك فيهيئ الله

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٩٢ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٠/ ١٩٠ .

(٣) صحيح البخاري ، الزكاة ، رقم ١٤٤٢ (٣/ ٣٠٤) ، صحيح مسلم ، الزكاة رقم ٥٧ .

جل وعلا من يسد عنه دينه ، كما رُوي أن المأمون قال له مرة : كم دينك يا محمد ؟ قال : ستون ألف دينار فأعطاه مائة ألف دينار (١) .

من أخبار دعلج السجستاني رحمه الله :

ومن الذين اشتهروا بالكرم المحدث الفقيه أبو محمد دَعْلَج بن أحمد بن دَعْلَج السجستاني ، روى الخطيب البغدادي من خبر أحمد ابن الحسين الواعظ قال : أودِعَ أبو عبد الله بن أبي موسى الهاشمي عشرة آلاف دينار لیتيم، فضاقت يده فأنفقها ، وكبر الصبي وأُذِن له في قبض ماله ، قال ابن أبي موسى : فضاقت عليَّ الأرض وتحيرت ، فبكرت علي بغلتي وقصدت الكرخ فانتهدت بي البغلة إلى درب السلولي ، ووقفت بي على باب دَعْلَج ، فدخلت فصليت خلفه الفجر ، فلما انفتل رحب بي ، وقمنا فدخلنا داره فقدمت لنا هريسة ، فأكلت وقصرت ، فقال : أراك منقبضا ، فأخبرته فقال : كل فإن حاجتك تُقضى ، فلما فرغنا استدعى بالذهب والميزان ، فوزن لي عشرة آلاف دينار ، وقمت أطيّر فرحا ، فوضعت المال على القربوس (٢) وغطيته بطيلساني ، ثم سلمت المال إلى الصبي بحضرة قاضي القضاة ، وعظمُ الثناء علي ، فلما عدت إلى منزلي استدعاني أمير من أولاد الخليفة فقال : قد رغبت في معاملتك وتضمينك أملاكی ، فضممتها فربحتُ في سنتي ربعا عظيما وكسبت في ثلاث سنين ثلاثين ألف دينار ، وحملت لدَعْلَج المال ، فقال : سبحان الله

(١) سير أعلام النبلاء ١٩٠ / ١٠ .

(٢) هو جزء من السرج .

والله مانويت أخذها، حلُّ بها الصبيان، فقالت: أيها الشيخ أيش أصل هذا المال حتى تهب لي عشرة آلاف دينار؟ فقال: نشأت وحفظت القرآن وطلبت الحديث، وكنت أتبرز^(١) فوافاني تاجر من البحر فقال: أنت دعلج؟ قلت: نعم قال: قد رغبت في تسليم مالي إليك مضاربة، فسلم إلي برنامجات بألف ألف درهم، وقال لي: ابسط يدك فيه ولا تعلم مكانا يُنفق فيه المتاع إلا حملته إليه، ولم يزل يتردد إلي سنة بعد سنة يحمل إلي مثل هذا، والبضاعة تنمي، ثم قال: أنا كثير الأسفار في البحر فإن هلك فهذا المال لك على أن تصدق منه وتبني المساجد، فأنا أفعل مثل هذا، وقد ثمر الله المال في يدي، فاكم عليّ ماعشت^(٢).

وبعد: فهذه نماذج من الكرم الفياض، فذلك التاجر الذي لم يذكر اسمه قد فوض العالم دعلج السجستاني بالصدقة من ذلك المال الكثير الذي أعطاه إياه ليتاجر به، وكان دعلج أميناً حيث عمل بوصية ذلك التاجر ولم يقصُر نفع المال على نفسه وأسرته بل بذله في وجوه الخير.

من أخبار الوزير ابن هبيرة رحمه الله :

من مواقف الوزير أبي المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة الشيباني في مجال الكرم ما ذكره الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين البغدادي نقلاً عن ياقوت الحموي بإسناده : أن الوزير عُرِضت عليه جارية فائقة الحسن وظهر له في المجلس من أدبها وحسن كتابتها

(١) يعني يتاجر في الثياب .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٦/٣٣ - ٣٤ .

وذكائها وظرفها ما أعجبه، فأمر فاشترت له بمائة وخمسين ديناراً، وأمر أن يُهيأ لها منزل وجارية، وأن يُحمل لها من الفرش والآنية والثياب وجميع ما تحتاج إليه ، ثم بعد ثلاثة أيام جاءه الذي باعها وشكى إليه ألم فراقها، فضحك وقال: لعلك تريد أن ترجع الجارية؟ قال: إي والله يامولانا وهذا الثمن بحاله لم أتصرف فيه، وأبرزه، فقال له الوزير : ولانحن تصرفنا في الثمن، ثم قال لخدمته : ادفع إليه الجارية وماعليها وجميع ما في حجرتها، ودفع إليه الخرقعة التي فيها الثمن وقال: استعينا به على شأنكما، فأكثرنا من الدعاء له، وأخذها وخرج (١).

فهذا مثل بليغ في الكرم والإيثار حيث تنازل الوزير ابن هبيرة عن تلك الجارية التي اشتراها مع إعجابه بها ولم يكتف بذلك بل تنازل عن ثمنها للبائع ، وزاده على ذلك ما أعطاهما بعد ملكه إياها، وهذا الخبر يدل على مقدرة ابن هبيرة الفائقة على تحويل شهواته الجسدية إلى الرغبات الأكيدة في تطهير نفسه والسمو بها نحو الفعال الحميدة والأخلاق الكريمة .

إن ما وقع فيه ذلك الرجل البائع من ألم الفراق أمر محزن ، ولقد كان قصارى ما يتمناه أن تعود إليه تلك الجارية مع إعادة ثمنها ولكنه فوجئ بكرم ابن هبيرة الفياض حيث عادت إليه ومأازته وثنمها، وهذا يعتبر إسهاماً كبيراً في سد حاجات المعوزين وتضميد جراحاتهم .

وقال الإمام أبو الفرج البغدادي : وحكي عن الوزير أنه كان إذا مد السمات فأكثر ما يحضره الفقراء والعميان ، فلما كان ذات يوم وأكل

(١) ذيل طبقات الحنابلة ٣/ ٢٨٢ - ٢٨٣ .

الناس وخرجوا بقي رجل ضرير يكي ويقول : سرقوا مداسي وماليّ غيره ، والله ماأقدر على ثمن مداس ومابي إلا أن أمشي حافيا وأصلي ، فقام الوزير من مجلسه ولبس مداسه وجاء إلى الضرير فوقف عنده وخلع مداسه والضرير لايعرفه وقال له : البس هذا وأبصره على قدر رجلك ، فلبسه وقال : نعم ، لا إله إلا الله كأنه مداسي ومضى الضرير ، ورجع الوزير إلى مجلسه وهو يقول : سلّمتُ منه أن يقول : أنت سرقته (١) .

فهذا مثل جليل في التواضع والكرم ، لقد كان أيسرَ من التنازل عن الخداء أن يدفع الوزير لذلك الفقير مالاً يشتري به خداء ، ولكنه عزَّ عليه أن يمشي ذلك الفقير الأعمى حافيا ، خصوصا حينما ذكر تخرجه من الصلاة وقد مشى حافيا لاحتمال أن يطاء نجاسة وهو لا يدري ، ففضّل هذا الوزير النبل أن يؤثر بنعليه ذلك الفقير .

من أخبار الوزير علي بن عيسى رحمه الله :

ذكر الحافظ ابن كثير في ترجمة أبي الحسن علي بن عيسى بن الجراح وزير المقتدر والقاهر من رواية أبي القاسم علي بن الحسن التنوخي عن أبيه عن جماعة : أن عطاراً من أهل الكرخ كان مشهوراً بالسنة ، ركبته ستمائة دينار ديناً ، فأغلق دكانه وانكسر عن كسبه ولزم منزله ، وأقبل على الدعاء والتضرع والصلاة ليالي كثيرة ، فلما كان من بعض تلك الليالي رأى رسول الله ﷺ في المنام وهو يقول له : اذهب إلى علي بن عيسى الوزير فقد أمرته لك بأربعمائة دينار ، فلما أصبح

(١) الذيل على طبقات الحنابلة ٣/ ٢٨٣ .

الرجل قصد باب الوزير فلم يعرفه أحد ، فجلس لعل أحداً يستأذن له على الوزير حتى طال عليه المجلس وهم بالانصراف، ثم إنه قال لبعض الحجة، قل للوزير إني رجل رأيت رسول الله ﷺ في المنام وأنا أريد أن أقصه على الوزير، فقال له الحاجب: وأنت صاحب الرؤيا إن الوزير قد أنفذ في طلبك رسلاً متعدده .

ثم دخل الحجاب فأخبروا الوزير فقال: أدخلوه سريعا، فدخل عليه فأقبل عليه الوزير يستعلم عن حاله واسمه وصفته ومنزله، فقال له الوزير: إني رأيت رسول الله ﷺ وهو يأمرني بإعطائك أربعمئة دينار، فأصبحت لأدري من أسأل عنك، ولا أعرفك ولا أعرف أين أنت، وقد أرسلت في طلبك إلى الآن عدة رسل فجزاك الله خيرا عن قصدك إياي .

ثم أمر الوزير بإحضار ألف دينار فقال: هذه أربعمئة دينار لأمر رسول الله ﷺ وستمئة هبة من عندي، فقال الرجل: لا والله لا أريد على ما أمرني به رسول الله ﷺ فإني أرجو الخير والبركة فيه، ثم أخذ منها أربعمئة دينار، فقال الوزير: هذا الصدق واليقين، فخرج يومه الأربعمئة دينار فعرض على أرباب الديون أموالهم فقالوا: نحن نصبر عليك ثلاث سنين وافتح بهذا الذهب دكانك ودم على كسبك، فأبى إلا أن يعطيهم من أموالهم الثلث وفتح حانوته بالمائتي دينار الباقية، فما حال عليه الحول حتى ربح ألف دينار^(١) .

ففي هذا الخبر مثل من المعروف والإحسان الذي كان يتصف به الوزير علي بن عيسى ابن الجراح .

(١) البداية والنهاية ١١/ ٢٣١ - ٢٣٢ .

وفيه مثل من رحمة الله جل وعلا بأوليائه المؤمنين الذين يتضرعون إليه ويلجئون إليه وقت الشدائد، ولا ينسون عبادته في حال رخائهم، فإن ماتم من تقدير الله تعالى هذه الرؤيا التي رآها هذا الوزير والتي رآها صاحب الحاجة إنما هو أثر من اثار التوحيد الخالص الذي كان يتصف به هذا العطار، فإن القلوب كلها بيد الله عز وجل يصرفها كيف يشاء.

وفيه مثل من القناعة وصدق اليقين، حيث اكتفى ذلك العطار بالأربعمائة التي أمره النبي ﷺ في المنام أن يأخذها من الوزير ورد بقية الألف اعتماداً على أن البركة فيما نص عليه رسول الله ﷺ، فبارك الله تعالى له فيها، وقضى منها دينه، وكون له بها تجارة طيبة .

من أخبار عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي رحمه الله :

ومن أخبار السخاء عند العلماء ماذكر الحافظ الضياء المقدسي عن الإمام الحافظ عبد الغني المقدسي : أنه كان سخيا جوادا لا يدخر دينارا ولا درهما ، مهما حصل أخرجه ، وقال : لقد سمعت عنه أنه كان يخرج في الليل بقفاف الدقيق إلى بيوت متنكرا في الظلمة، فيعطيههم ولا يعرف ، وكان يُفتح عليه بالثياب فيعطى الناس وثوبه مرقع .

قال : وسمعت بدر بن محمد الجزري يقول : مارأيت أحد أكرم من الحافظ ، كنت أستاذين ، يعني لأطعم الفقراء ، فبقي لرجل عندي ثمانية وتسعون درهما ، فلما تهيأ الوفاء أتيت الرجل فقلت : كم لك ؟ قال : مالي عندك شيء ، قلت : من أوفاه قال : قد أوفى عنك ، فكان وفاه الحافظ وأمره أن يكتم عليه^(١) .

(١) سير أعلام النبلاء ٤٥٧/٢١ .

وهكذا قدم هذا الإمام الجليل نماذج عالية من السماحة والكرم،
وتفقد أحوال المحتاجين، والوفاء عن المعسرين ، مع ماكان حريصا
عليه من إخفاء عمله بعداً عن الرياء وليكون أجره عند الله أعظم .

* * *

مواقف وعبد

في

العدل والاهتمام بالمسؤولية

- من مواقف أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه -

في أثناء العرض التاريخي للمواقف والعبر مرت بنا أخبار عن عدل النبي ﷺ واهتمامه بالمسئولية ، وكذلك الحال في خليفته الصديق أبي بكر رضي الله عنه وأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وبقيت أخبار أخرى لم يكن لها ارتباط محدد بتاريخ معين ، وهي التي سيتم عرضها في هذا الباب .

اهتمام عمر بأهل الذمة :

أخرج الإمام الطبري من طريق سيف بن عمر التميمي عن شيوخه قالوا : وكتب عمر إلى عتبة (١) : أن أوفد عليّ وفداً من صلحاء جند البصرة عشرة ، فوفد إلى عمر عشرة فيهم الأحنف (٢) ، فلما قدم على عمر قال : إنك عندي مصدق وقد رأيتك رجلاً فأخبرني أأن ظلمت الذمة ؟ (٣) المظلمة نفروا أم لغير ذلك ؟ قال : لا ، بل لغير مظلمة ، والناس على ماتحب ، قال : فنعم إذا .

وهذا مثل من أمثلة اهتمام عمر رضي الله عنه بالعدل ومتابعة ولاته والسؤال عنهم حتى لا يقع ظلم على أيديهم أو أيدي من يولونهم .

وإذا كان أهل الذمة قد حَظُّوا باهتمام عمر وعدله فكيف بالمسلمين؟! إنه يشعر بمسئوليته عما يجري في أي جزء من بلاد الله

(١) يعني ابن غزوان عامله على البصرة .

(٢) هو الأحنف بن قيس التميمي .

(٣) يعني أهل الذمة .

ولو كان نائيا ولا يكتفي بالتحري الشديد في اختيار الولاة ثم إلقاء المسئولية عليهم ، ولذلك كان لا يشعر بالراحة إلا إذا سأل الناس على مختلف طبقاتهم حتى يتأكد من إقرار العدل والقيام بأمر الدين .

ومن أجل ذلك كتب إلى عتبة بن غزوان كما جاء في هذه الرواية يقول : « أَنْ اعْزُبِ النَّاسَ عَنِ الظُّلْمِ ، وَاتَّقُوا وَاحْذَرُوا أَنْ يُدَالَ عَلَيْكُمْ لَغْدَرٌ يَكُونُ مِنْكُمْ أَوْ بَغْيٌ ، فَإِنَّكُمْ إِنَّمَا أَدْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا أَدْرَكْتُمْ عَلَى عَهْدِ عَاهِدِكُمْ عَلَيْهِ ، وَقَدْ تَقَدَّمْ إِلَيْكُمْ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْكُمْ ، فَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ وَقَوْمُوا عَلَى أَمْرِهِ يَكُنْ لَكُمْ عَوْنًا وَنَاصِرًا (١) .

ففي هذا تأكيد من عمر على ولاته بلزوم جانب العدل ، وحمل الناس عليه ، وهو إدراك منه لأهمية إقرار العدل في ثبات الهيمنة للمسلمين على أعدائهم ، واستقرار أمورهم .

وفيه تنفير من الغدر وتأكيد على الالتزام بالوفاء بالعهود وعدم الاغترار بقوة جيوش المسلمين وتوالي انتصاراتهم ، فإنهم إنما أُدِيلُوا عَلَى أَعْدَائِهِمْ بِعَدْلِهِمْ وَوَفَائِهِمْ ، فإذا جاروا وخانوا العهد لم يكونوا جديرين بنصر الله تعالى .

وقوله « فَإِنَّمَا أَدْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا أَدْرَكْتُمْ » تأكيد منه على استحضر عظمة الله جل وعلا ، وأن كل ما يوفق المسلم إليه في حياته من الخير فإنه من الله وبالله تعالى ، فليألف المسلم ذكره جل وعلا وكيف بالعهد الذي عاهد ربه عليه من تنفيذ شريعته وإخلاص العمل له يكن الله دائما معه ، ومن كان الله معه فلن يُخْذَلَ ولن يُدَالَ عليه .

(١) تاريخ الطبري ٧٨/٤ .

قال الله تعالى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

وإنما تصاب الأمة الإسلامية بما تصاب به لغفلة أفرادها عن ذكر الله تعالى وعدم استحضار عظمته وأنه بيده مقاليد الأمور كلها، فيتضخم في أعينهم حجم القوى المادية، وتشكل تصوراتهم للنصر والهزيمة والنجاح والإخفاق على ضوء تعظيمهم للأمور المادية، وتقلص استحضارهم معية الله تعالى ورقابته عليهم وعلى أعدائهم.

هذا وقد جاء في الرواية السابقة أن عمر رضي الله عنه بعدما سأل الأحنف عن العدل مع أهل الذمة قال: انصرفوا إلى رحالكم، فانصرف الوفد إلى رحالهم، فنظر في ثيابهم فوجد ثوبا قد خرج طرفه من عيبة فشمه، ثم قال: لمن هذا الثوب منكم؟ قال الأحنف: لي، قال: فبكم أخذته؟ فذكر ثمنًا يسيرًا. ثمانية أو نحوها، ونقص مما كان أخذه به - وكان قد أخذه باثني عشر - قال: فهلاً بدون هذا ووضعت فضلته موضعاً تُغني به مسلماً! حُصوا وضعوا الفضول مواضعها تريحوا أنفسهم وأموالكم، ولا تسرفوا فتخسروا أنفسكم وأموالكم، إن نظر امرؤ لنفسه وقدم لها يُخلف له.

وهذا مثل من أمثلة حياة الزهد والقناعة التي حمل عمر نفسه عليها بأشد صورها، وأراد أن يحمل الناس على ما استطاع منها وقاية

لهم من حياة السرف والبذخ التي لها نتائجه المعروفة ، من ضياع الأفراد والأمم في الدنيا وخسارتها في الآخرة .

وفي قوله « وَوَضَعْتَ فَضْلَهُ مَوْضِعًا تُغْنِي بِهِ مُسْلِمًا » إشارة إلى أن إغناء المسلمين إلى حد الاكتفاء بالنسبة للضروريات مقدّم على تمتع الإنسان بأمور الكماليات ، وأنه مطلوب منه أن يقتصد بشراء الأدنى من الملابس والمراكب وجميع متاع الحياة ليؤمن بما بقي المال الكافي لإنقاذ أسرٍ مسلمة من الفقر والحاجة .

وقوله « حُصُّوا وَضَعُوا الْفُضُولَ مَوَاضِعَهَا » يعني اجعلوا أموالكم حصصا يكون منها للضروريات ويكون منها للحاجيات ويكون منها فضول تستغنون عنها وضعوا هذه الفضول مواضعها من الإنفاق في سبيل الله تعالى . وفي قوله « تَرْبِحُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ » إشارة إلى أن الربح والفلاح لدى المسلم العاقل ليس في تمتيع الأجسام بألوان المتع وإنما يكون بمقدار انتصار الإنسان على مطالب جسمه وأدّخار الفضول من المال لتقديمها أعمالاً صالحة تُدّخر لصاحبها يوم القيامة ، فمن اقتصد في إنفاقه ربح نفسه حيث يقودها إلى الفلاح ، وربح ماله لأنه لم يستهلكه كله فيما يعود عليه في الدنيا ، وإنما حوّلَه إلى عمل صالح بإنفاقه في سبيل الله تعالى فربح ماله ، أما إذا أسرف فإنه يكون قد خسر نفسه حيث متّعها بمتاع عاجل مؤقت ، على حساب العمل الصالح الذي ينفعها في يوم آجل خالد ، وخسر ماله لأنه استهلكه في عائد نفعه قليل محدود، ولم يقدّمه ليوم خالد تُضاعف فيه حسنات الأعمال أضعافاً كثيرة، فهو خاسر في ماله ولو كان عبقرياً

في التجارة ، لأنه في تجارته ينظر لمواقع الربح والخسارة في الدنيا ، ولو فكر في الآخرة لعلم أنه هو الخاسر وأن الصالحين المنفقين أموالهم في سبيل الله تعالى هم الرابحون المفلحون .

وهذا لا يعني أن المسلم يزهد في طلب المال ، بل المطلوب منه أن يعمل بطاقته في عمران الأرض ، ولكن من منطلق تحرير الكسب أولاً ، بأن يكون حلالاً ، ومن منطلق إخلاص النية وتصحيحها ثانياً ، وذلك بأن يكون هدفه من جمع المال أن يحصل على أكبر قدر من الكسب الذي يصرفه في الإنفاق في سبيل الله تعالى ، بعد تغطية ضروراته واحتياجاته ، مع الالتزام بالقصد ، فإذا فعل ذلك أُجِرَ أولاً على تنقية ماله من الكسب الحرام ، وأُجِرَ ثانياً على النية الصالحة التي يَبْتِهَا وهو يجمع ذلك المال ، وأُجِرَ ثالثاً على العمل الصالح الذي اجتمع له بسبب هذا المال الذي أنفقه في سبيل الله تعالى .

محاسبته سعد بن أبي وقاص في بناء بيت له :

لقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحرص دائماً على محاسبة ولاته وتفقد أمورهم ، فقد أخرج الإمام الطبري من طريق سيف بن عمر عن شيوخه أن سعد بن أبي وقاص لما بنى له بيتاً في الكوفة ادّعى الناس عليه مالم يقل ، وقالوا : قال سعد : سَكُنْ عني الصُّوَيْتُ (١) ، وبلغ ذلك عمر وأن الناس يسمونه قصر سعد ، فدعا محمد بن مسلمة فسرحه إلى الكوفة ، وقال : اعْمُدْ إلى القصر حتى تُحرق بابه ، ثم ارجع عَوْدَكَ على بَدْنِكَ ، فخرج حتى قدم

(١) يعني أنه أمر بوضع باب لبيته ليمنع وصول صوت غوغاء الناس وهم في أسواقهم .

الكوفة فاشترى حطبًا ، ثم أتى به القصر ، فأحرق الباب وأُتِيَ سعد فأخبر الخبر ، فقال : هذا رسول أرسل لهذا الشأن ، وبعث لينظر مَنْ هو ، فإذا هو محمد بن مسلمة ، فأرسل إليه رسولا بأن : ادخل ، فأبى ، فخرج إليه سعد ، فأرادَه على الدخول والنزول فأبى ، وعرض عليه نفقة فلم يأخذ ، ودفع كتاب عمر إلى سعد : بلغني أنك بنيت قصرا اتخذته حصنا ، ويسمى قصر سعد ، وجعلت بينك وبين الناس بابا ، فليس بقصرك ولكنه قصر الخبال ، انزل منه منزلا مما يلي بيوت الأموال وأغلقه^(١) ولا تجعل على القصر بابا تمنع الناس من دخوله وتنفيهم به عن حقوقهم ، ليوافقوا مجلسك ومخرجك من دارك إذا خرجت ، فحلف له سعد ما قال الذي قالوا .

ورجع محمد بن مسلمة من فوره ، حتى إذا دنا من المدينة فني زاده ، فتبلغ بلحاء من لحاء الشجر ، فقدم عليه عمر وقد سنق^(٢) ، فأخبره خبره كله ، فقال : هلا قبلت من سعد ! فقال : لو أردت ذلك كتبت لي به ، أو أذنت لي فيه ، فقال عمر : إن أكمل الرجال رأيا من إذا لم يكن عنده عهد من صاحبه عمل بالخزم أو نال به ولم ينكل ، وأخبره يمين سعد وقوله ، فصدقَّ سعدا وقال : هو أصدق ممن روى عليه ومن أبلغني^(٣) .

هذا وإن من أبرز ما نلاحظه في هذا الخبر اهتمام عمر رضي الله

(١) هكذا جاء في رواية الطبري ولعله وأغلقها يعني بيوت المال ، لأنه قد نهى أن يجعل لمنزله بابا .

(٢) يعني ظهر عليه أثر الجوع والتعب .

(٣) تاريخ الطبري ٤٧/٤ .

عنه بأداء الحقوق لأصحابها ، وتمكين أصحاب الحقوق من طلب حقهم من غير حواجز تمنعهم أو تضعف من شخصيتهم ، فإذا شعر صاحب الحق والحاجة بأن المسئول قد فتح بابه لسماع تظلم أصحاب الحق وعرفوا بأن حقهم سيصل إليهم من غير مشقة ولاضياع وقت طويل أو نفقة تفوق الحد الضروري المعتاد فإنهم يقدمون على رفع حوائجهم وطلب حقوقهم أما إذا كان الأمر بضد ذلك فإن الإنسان قد يترك حقه تفادياً لهذه العوائق المرهقة .

فلذلك وغيره اهتم عمر رضي الله عنه بمحاسبة ولاته، ووضع الضمانات الكافية لوصول أصحاب الحقوق والحاجات للمسؤولين دون مشقة أو عوائق .

ولاشك أن توفر هذه الضمانات التي تكفل راحة أصحاب الحقوق والحاجات ، وسرعة وصولهم إلى مطلوبهم ، حتى لو كانوا من غير المسلمين . . لاشك أن ذلك يعتبر مجالا مهما من مجالات الدعوة الإسلامية ، سواء في تثبيت وتقوية إيمان المسلمين ، أو باجتذاب غير المسلمين إلى الإسلام .

هذا ومن المقطوع به أن سعدا رضي الله عنه لم يحتجب عن الناس ولم يُقَصِّر في أداء حقوقهم والعدل بينهم ، ولم يتهمه عمر رضي الله عنه بذلك ، ولكن عمر كان يراعي تثبيت قواعد عامة لتقرير العدل وتيسير حصول أصحاب الحقوق على حقوقهم، وإذا كان سعد لم يُرد ماخافه عمر حين أغلق باب بيته، فإن من سيأتون بعد سعد لايؤمن عليهم أن يحتجبوا عن الناس ، وأن يعوقوا أصحاب

الحقوق والحاجات عن بلوغ مرادهم ، فكان تصرف عمر بهذه الشدة في إنكار هذا الأمر مقصود به إبلاغ جميع المسئولين المعاصرين له ، ومن سيأتون من بعده بما يقتضيه عليهم واجب المسؤولية في الدين .

أما بالنسبة للفرس فإن هذا الحدث يعتبر أمراً عظيماً عندهم فإن الأمر بتحريق باب قصر متواضع من أجل حماية حقوق عامة الناس يعتبر نوعاً من الأحلام الخيالية ، حيث قد ألفت أنظارهم منظر القصور الضخمة ذات الأبواب الحصينة والحرس المدججين بالسلاح والمظاهر الدنيوية الجليلة ، وكلها تكسر من شخصية العامة وتحرمهم من مجرد المطالبة بحقوقهم ، فهذا الحدث لاشك أن له أثراً في اجتذاب الأعاجم للإسلام وإعجابهم بالمسلمين .

هذا وما نستفيدة من مناقشة عمر مع محمد بن مسلمة بعد عودته من مهمته أن الإنسان إذا كُلف بمهمة فإنه يعمل بوصية من كلفه ، فإذا عرض له أمر لم يكن فيه رأي لمن كلفه فإنه ينبغي له أن يتصرف فيه بالحكمة والحزم ، فمحمد بن مسلمة لم يأمره عمر بأن يأخذ نفقةً من سعد ولم ينهه عن ذلك ، فاجتهد محمد بموجب ما تقتضيه طاعة ولي الأمر فلم يقبل النفقة من سعد ، ولكن الحزم يقتضي بأن يتزود منه بما يكفيه في سفره خشية أن يتعرض للهلاك .

والحكمة تقتضي أن يدخل بيت سعد تطيباً لخطره ، وحفاظاً على مكانته بين المسلمين الذين هو مسئول عنهم ، ولكنه اجتهد فرأى أن مقام به من ضمن العمل بوصية أمير المؤمنين ، ولاشك أن الطاعة من أهم الأمور التي تعين على النجاح في المسؤولية ، ولكنها مقيدة بالحكمة

والخزم، وذلك بالنظر إلى المحافظة على جوهر القضية التي كُلف بها الإنسان، ثم النظر بعد ذلك بما تقتضيه المصلحة العامة والخاصة .

وفي هذا المعنى قال له عمر : إن أكمل الرجال رأياً من إذا لم يكن عنده عهد من صاحبه عمل بالخزم أو قال به .

جوابه لمن أمره بالتقوى :

أخرج المؤرخ أبو زيد عمر بن شبة من خبر الحسن بن أبي الحسن البصري قال قال رجل لعمر رضي الله عنه : اتق الله يا أمير المؤمنين، فوالله ما الأمر كما قلت ، قال: فأقبلوا على الرجل فقالوا : لا تأت (١) أمير المؤمنين ، فلما رأهم أقبلوا على الرجل قال: دعوهم فلا خير فيهم إذا لم يقولوها لنا، ولا خير فينا إذا لم نُقل لنا (٢) .

فهذه كلمة عظيمة من أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه قرر فيها وجوب التناصح بين الحاكم والمحكومين ، فلا خير في شعوب تدهن في دينها ولا تقول كلمة الحق، ولا خير في ولاة يخشاهم الناس ولا يتجرؤون على أن يقولوها لهم ، وإذا كانت هذه الكلمة قد قيلت لأبي العدل أمير المؤمنين عمر فكيف يستعظم أحد أن يقال لمن هم دونه في ذلك بمراحل ؟!

تحاكمه مع أبي بن كعب إلى زيد بن ثابت :

ومن ذلك ما أخرجه أيضا أبو زيد عمر بن شبة من خبر عامر الشعبي قال : كان بين عمر وأبي بن كعب رضي الله عنهما خصومة ،

(١) أي لا تنتقص .

(٢) تاريخ المدينة المنورة / ٧٧٢ .

فجعلاً بينهما زيد بن ثابت رضي الله عنه ، فأتياه فضربا الباب فخرج إليهما فقال: ألا أرسلت إليّ يا أمير المؤمنين ؟ فقال : في بيته يُؤتَى الحكم ، فدخلا فقال : في الرحب والسعة ، وألقى وسادة ، فقال - يعني أمير المؤمنين - : هذا أول جورك ، فتكلما فقال لأبيّ: بينك ، وإن رأيت أن تُعفي أمير المؤمنين من اليمين فافعل ، فقال أبيّ: نعفيه ونصدقّه ، فقال عمر رضي الله عنه : أيقضى عليّ باليمين ثم لاأحلف؟ ! فحلف ، فلما وجبت له الأرض وهبها لأبيّ (١) .

فهذا مثل عظيم في العدل ، حيث يجلس أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أمام القاضي ليحكم بينه وبين أحد أفراد رعيته ويأتي بنفسه إلى بيت القاضي الذي كان - آنذاك - هو المحكمة ، حيث كان القضاة يحكمون في بيوتهم أو في المساجد ونحو ذلك .

وحينما ألقى القاضي لأمر المؤمنين الوسادة أنكر عليه ووصفه بالظلم حيث لم يُسوِّ بينه وبين خصمه ، وفي هذا تثبتت لقاعدة من أهم قواعد العدل في الحكم .

وكان زيد بن ثابت رضي الله عنه الذي ارتضاه أمير المؤمنين للحكم في غاية الأدب وتقدير أهل الفضل ، حيث عرض على أبيّ ابن كعب رضي الله عنه أن يعفي أمير المؤمنين من الحلف ، كما أن أبيّ كان قمة في الأدب وحسن الخلق ، حيث أعفى أمير المؤمنين من الحلف وصدقّه ، ولكن عمر لم يرض بذلك بل أمضى ماحكم به القاضي ، وقد بلغ درجة عالية في العفو والإحسان حينما تجاوز عن ذلك ووهب الأرض لأبيّ بن كعب .

(١) تاريخ المدينة المنورة / ٧٥٥ .

وإننا لنجد في هذه القضية مثلاً عالياً من أخلاق الصحابة رضي الله عنهم ، فقد جرت هذه القضية بين أعلى رجل في الدولة وبين رجل من سادة المسلمين وعلمائهم ، وهذا يبين لنا أن وقوع الخلاف بين المسلمين وتحاكمهم إلى القاضي الشرعي لا يعتبر عيباً ولا منقصة ، ماداموا محتفظين بأخوتهم الدينية وأخلاقهم الإسلامية ، وإنما العيب والنقص فيما يقع بين ضعفاء الإيمان من السب والشتم والتهاجر والمخادعات بسبب وقوع الخلاف بينهم ، فهذا يعتبر من الانحطاط الخلقي ، بينما نجد الصحابة رضي الله عنهم قد بلغوا درجة عالية من الرقي الأخلاقي ، حيث لم يفسد الخلاف أخلاقهم ، ولم يقطع حبل الوصل بينهم .

إعلانه الاستعداد لإنصاف الرعية من الأمراء :

أخرج المؤرخ أبو زيد عمر بن شبة من خبر أبي فراس قال : خطبنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : إني لم أبعث عمالي عليكم ليصيبوا من أشعاركم ولا أبشاركم ولا أموالكم ، إنما بعثتهم ليحجزوا بينكم ، ويقسموا فيئكم ، فمن فعل به غير ذلك فليقم فو الله لأقصنه منه ، فقال عمرو بن العاص - رضي الله عنه - : يا أمير المؤمنين إن كان رجل على رعية يؤدب بعض رعيته إنك لتقصه منه ؟ فقال : أنا لأقصه منه وقد رأيت رسول الله ﷺ أقص من نفسه ! ثم قال : ألا لاتضربوا المسلمين فتذلّوهم ، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ، ولا تجمروهم في البعوث فتفتنوهم ، ولا تنزلوهم الغياض

فتضيّعوهم^(١). وأخرج ابن سعد نحوه من خبر عطاء^(٢).

ففي هذا الخبر مثل من عدل أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه وتحريه في رفع الظلم عن أفراد رعيته، وقوله « والله لأقصنه منه » محمول على وجود الظلم من الوالي وتجاوزه حدود الاعتدال، أما إذا كان هناك تجاوز من بعض أفراد الرعية فإنه يجوز للوالي أن يؤدبهم في حدود الاعتدال .

وفي قوله « لاتضربوا المسلمين فتذلّوهم » تنبّه منه إلى أهمية رفع معنوية المسلمين وتقوية شخصياتهم ، ليكون عطاؤهم لدينهم وأمتهم كبيراً، وإرشاد منه إلى تحاشي إذلالهم لأن المسلم إذا شعر بالذلة ضعف وانزوى ، وأصبح يعطي بجهد قليل .

وقوله « ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم » يفيد بأنه يجب أن تبقى الصلة بين الوالي والرعية قائمة على المودة والاحترام بين الطرفين ، وذلك مبني على الرحمة والعدل من الوالي ، والشكر والاعتراف بالفضل من الرعية ، ومن الأمور المهمة التي تعكر على هذه الصلة وتضعفها أن يمنع الوالي حقوق الرعية فيحملهم على كفر النعمة ونكرانها بدلاً من شكرها، وفي مقابل التقصير الحاضر قد ينسى الأفراد الإنعام السابق ، وإذا ضعفت الثقة بين الوالي والرعية اختلّت حياة الأمن وضعفت أسباب السعادة والرخاء .

وقوله « ولا تجمروهم في البعوث فتفتنّوهم » يعني ولا تطيلوا مدة

(١) تاريخ المدينة المنورة / ٨٠٧ .

(٢) طبقات ابن سعد ٣/ ٢٩٣ .

غياب الجنود عن أهاليهم فتفتنهم عن دينهم ، وفي هذا توجيه إلى لزوم المحافظة على مستوى الإيمان والاستقامة عند المسلمين ، وأنه لايجوز للولاة أن يعرضوهم للفتن التي تُضعف من تمسكهم بدينهم .

وقوله « ولاتنزلوهم الغياض فتضيّعوهم » الغياض هي مجتمع الشجر في مغيض الماء ، وإذا نزل الجيش فيها تفرقوا فيسهل على الأعداء تصيدهم ، فلذلك نهى أمير المؤمنين عن ذلك حتى لايتعرض أفراد الجيش لسهام الأعداء .

اهتمامه بحراسة المسلمين في الليل :

من مواقف أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه في مجال تفقد أحوال المسلمين ماأخرجه الإمام الطبري من طريق بكر بن عبد الله المزني قال : جاء عمر بن الخطاب إلى باب عبد الرحمن بن عوف فضربه ، فجاءت المرأة ففتحته ، ثم قالت له : لاتدخل حتى أدخل البيت وأجلس مجلسي ، فلم يدخل حتى جلست ، ثم قالت : ادخل ، فدخل ثم قال : هل من شيء ؟ فأتته بطعام فأكل ، وعبدالرحمن قائم يصلي ، فقال له : تجوز أيها الرجل ^(١) ، فسلم عبدالرحمن حينئذ ، ثم أقبل عليه فقال : ماجاء بك هذه الساعة ياأمير المؤمنين ؟ فقال : رفقة نزلت في ناحية السوق خشيت عليهم سراق المدينة ، فانطلق نحرسمهم ، فانطلقا فأتيا السوق فقعدا على نشز من الأرض يتحدثان . فرفع لهما مصباح ، فقال عمر : ألم أنه عن المصاييح بعد النوم ! فانطلقا فإذا هم قوم على شراب لهم ، فقال :

(١) يعني خفف صلاتك .

انطلق فقد عرفته ، فلما أصبح أرسل إليه فقال : يا فلان كنت وأصحابك البارحة على شراب ؟ قال : وما علمك يا أمير المؤمنين ؟ قال : شيء شهدته ، قال : أو لم ينهك الله عن التجسس ؟ قال : فتجاوز عنه .

قال بكر بن عبد الله المزني : وإنما نهى عمر عن المصاييح لأن الفأرة تأخذ الفتيلة فترمي بها في سقف البيت فيحترق وكان إذ ذاك سقف البيت من الجريد (١) .

نجد في هذا الخبر فهم عمر العميق لمجالات العبادة وتقديم الأهم على المهم . فحينما كان بعض المسلمين بحاجة إلى عمر وعبدالرحمن ابن عوف كان أمر احتياجهم مقدما على صلاة النفل ، فالصلاة عبادة ، وخدمة المسلمين أيضا عبادة ، ومادامت الصلاة نفلاً فإن منازل من حاجة المسلمين مقدم على ذلك ، لأن الصلاة عبادة يقتصر نفعها على صاحبها ، وخدمة المسلمين عبادة يتعدى نفعها للمسلمين .

ولقد كان هذا الأمر واضحاً لدى الصحابة رضي الله عنهم ولذلك لم ينكر عبد الرحمن على عمر أن أمره بتخفيف الصلاة وإنهاؤها من أجل المشاركة في خدمة المسلمين ، ولم ير أن غيرهما من صغار المسلمين أولى بالقيام بهذه المهمة لأنهم كانوا ينظرون إلى هذا الأمر من خلال كونه عبادةً وعملاً صالحاً ، فهو أمر يتنافسون عليه ، ولا يكلونه إلى غيرهم ، لأنهم يرون أنفسهم أحوج إلى الأجر من غيرهم ، وإن لهم في ذلك أسوة حسنة برسول الله ﷺ الذي قال لمن

(١) تاريخ الطبري ٢٠٥/٤ .

عرض عليه أن يستريح في السفر « ما أنت بأقوى مني ولا أنا بأغنى منك عن الأجر » وقد كان النبي ﷺ أراد جمع الحطب لرفقته .

ونجد في هذا الخبر مثلاً مهماً للوقوف عند كتاب الله تعالى ، فلقد كان عمر رضي الله عنه مُقَدِّماً على التحقيق في أمر أولئك الذين اجتمعوا على الشراب ، ولكن حينما ذكره أحدهم بقوله تعالى ﴿وَلَا تَجْسُوا﴾ تجاوز عنهم ، فلم يكمل التحقيق في الأمر لكون الاشتباه في أمرهم نتج عن التجسس عليهم ، وهو أمر منهي عنه .
وتجاوز عمر عنهم محمول على عدم ثبوت ما يوجب إقامة الحد عليهم .

وقد ذكر القرطبي رحمه الله نحوه من هذه الرواية وفيها أن عمر لما دنا من البيت المذكور قال له عبد الرحمن بن عوف : أرى أنا قد أتينا مانهى الله عنه ، قال الله تعالى ﴿وَلَا تَجْسُوا﴾ وقد تجسسنا ، فانصرف عمر وتركهم (١) .

هذا وإذا كان الله جل وعلا قد نهى عن التجسس حتى في معرفة المخالفات التي في إزالتها صلاح المجتمع ، فكيف بمن يتجسسون على المسلمين في خاصة أمرهم ، وينقلون كلامهم من غير معرفتهم ؟!
وكما كان أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه عميق الشعور بالمسئولية نحو المسلمين في أرواحهم وأمنهم ، فإنه كذلك في الاهتمام بحفظ أموالهم وتنميتها .

ومن ذلك ما أخرجه ابن سعد من خبر عبد الله بن عمر رضي

(١) تفسير القرطبي ١٦ / ٣٣٣ .

الله عنهما قال : قدمت رفقةً من التجار فنزلوا المُصلى فقال عمر
لعبدالرحمن بن عوف : هل لك أن نحرُسَهم الليلة من السرَق؟ فباتا
يحرسانهم ويضليّان ماكتب الله لهما، فسمع عمر بكاءً صبيّ فتوجّه
نحوه فقال لأمه : اتقي الله وأحسني إلى صبيّك، ثم عاد إلى مكانه،
فسمع بكاءه فعاد إلى أمه فقال لها مثل ذلك ثم عاد إلى مكانه، فلما
كان في آخر الليل سمع بكاءه فأتى أمه فقال : ويحك، إني لأراك أمّ
سوءٍ ، مالي أرى ابنك لا يقرّ منذ الليلة ؟ قالت : يا عبد الله قد أبرمتني
منذ الليلة ، إني أريغُه عن الفطام فيأبى، قال : ولم؟ قالت : لأن
عمر لا يفرضُ إلّا للفُطُم، قال : وكم له؟ قالت : كذا وكذا شهراً،
قال : ويحك لا تُعجلِيه ! فصلى الفجر وما يستعينُ الناسُ قراءته من
غلبة البكاء ، فلما سلّم قال : يا بؤساً لعمر كم قتل من أولاد المسلمين!
ثم أمرَ منادياً فنادى : ألا لا تُعجلُوا صبيانكم عن الفطام فإنّا نفرض
لكلّ مولود في الإسلام . وكتب بذلك إلى الآفاق : إنّنا نفرض لكل
مولود في الإسلام (١) .

فهذا مثل من قيام أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بمسئوليته
الكاملة في رعاية أفراد أمته وحمايتهم، ولقد كان بإمكانه أن يوكل
بالحراسة أفراداً يقومون بهذه المهمة، ولكنه يريد أن يجعل من نفسه مثلاً
عالياً لأمرائه في أنحاء الأرض، فحينما يسمعون هذا الخبر يتحمسون
لأداء مسئوليتهم، ويجافيهم النوم ليقوموا بالإشراف على أعمالهم.

(١) طبقات ابن سعد ٣/ ٣٠١ .

وفي آخر الخبر موقف عظيم لأمير المؤمنين عمر في الشعور بالمسئولية والخشية من الله جل وعلا ، حيث تمخض هذا الخبر عن تغيير نظام من أنظمة العطاء ، فصار عمر يفرض لكل مولود في الإسلام ، حتى لاتعجل الأمهات بفطام أولادهن فيتضرروا بذلك ، ومع أنه مجتهد في النظام الأول ولم يظلم الرعية بذلك حيث إن الرضيع لا يحتاج إلى طعام وبالتالي فإنه لا يحتاج إلى نفقة فإن سوء الرعاية من بعض الأمهات جعل عمر يُحمّل نفسه مسئولية كل ضرر يحصل على أولاد المسلمين ، وهذا من أعلى ما يتصور من الشعور بالمسئولية ، ولقد بلغ من تأثره بهذه الحادثة أن غلبه البكاء حتى وهو يصلي الفجر بالمسلمين .

فأي وجدان كان ينطوي عليه قلب عمر !!

وأي إحساس كان يعمر فكره الحي المتوقد !!

مثل من تفقده أحوال المسلمين في الليل :

كان عمر رضي الله عنه يتفقد أحوال المسلمين في الليل كعاداته ، عله يجد أناساً منقطعين في سفرهم فيسعفهم ، أو يجد أموراً تخالف الدين أو تخل بالأمن فيزيلها .

وهذه المهمة الشاقة كان يمكن أن يوكل بها عمر من يقوم بها من أفراد رعيته الذين هم أطوع له من بنانه ، ولكنه كان شديد الخشية من الله تعالى وعظيم التقدير للمسئولية ، وقد حمّله ذلك على أن يباشر هذا الأمر الشاق بنفسه خشية أن لا يبلغ غيره مبلغ ما يريد من الاطمئنان التام على أحوال المسلمين .

وقد رُويت عن عمر في ذلك أخبار مهمة منها ما أخرجه الإمام الطبري من طريق زيد بن أسلم عن أبيه أسلم العدوي مولى عمر قال: خرجت مع عمر بن الخطاب رحمه الله إلى حرة واقم ، حتى إذا كنا بصرار إذا نار توثرت ، فقال : يا أسلم ، إني أرى هؤلاء ركبا قصر بهم الليل والبرد ، انطلق بنا ، فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم ، فإذا امرأة معها صبيان وقدر منصوبة على النار ، وصبيانها يتضاغون - يعني يتضورون جوعا - فقال عمر : السلام عليكم يا أهل الضوء - وكره أن يقول يا أصحاب النار - قالت : وعليك السلام ، قال : أأدنو؟ قالت : أدن بخير أودعْ ، فدنا فقال : ما بالكم ؟ قالت : قصر بنا الليل والبرد ، قال : فما بال هؤلاء الصبية يتضاغون ؟ قالت : الجوع ، قال : وأي شيء في هذه القدر ؟ قالت : ماء أسكتهم به حتى يناموا ، الله بيننا وبين عمر ، قال : أي رحمك الله ما يدري عمر بكم ! قالت : يتولى أمرنا ويغفل عنا ! فأقبل عليّ فقال : انطلق بنا .

وهذا مثل عظيم من تواضع عمر رضي الله عنه واهتمامه بخدمة المسلمين حيث عرج على تلك النار التي رآها رجاء أن يقدم خدمة لأصحابها في تلك الليلة الباردة .

وكان الواقع أعظم مما تصور عمر حيث شاهد واقع تلك المرأة وأبنائها ، وكان منظرًا يبعث على الحزن والرحمة لأقصى الناس فضلا عن أمير المؤمنين عمر الذي يخشى الله تعالى في ضياع بهيمة في أقصى البلاد .

وكان موقفا ساميا من عمر حينما شكته تلك المرأة إلى الله تعالى حيث أشفق على نفسه من تلك الشكوى فقال : أي رحمك الله

وما يدري عمر بكم ؟ وإنما قال ذلك لعله يخفف من موجدتها عليه فيكون ذلك شافعا له عند الله تعالى الذي نصب أمام عينيه دائما خشيته والوجل منه ، ولكن تلك المرأة ردت بما يزيد من إشفاق عمر وخوفه حيث قالت : يتولى أمرنا ويغفل عنا ! ولم تعد لغة الكلام مجدية في ذلك الموقف وإنما كان الموقف يستدعي الإسراع في نجدة تلك الأسرة المنكوبة ، وهذا ما فعله عمر .

يقول أسلم : فخرجنا نهروا حتى أتينا دار الدقيق فأخرج عدلا فيه كبة شحم فقال : احمله عليّ فقلت : أنا أحمله عنك ، فقال : احمله علي ، مرتين أو ثلاثا ، كل ذلك أقول : أنا أحمله عنك فقال لي في آخر ذلك : أنت تحمل عني وزري يوم القيامة ، لا أم لك ، فحملته عليه ، فانطلق وانطلقت معه نهروا حتى انتهينا إليها ، فألقى ذلك عندها .

وهكذا يبلغ تصور عمر لمستقبله الأخروي ، ويبني عليه سلوكه الديني ، فهو أولا يهرول ولا يمشي مشيا ، ثم هو يصر على حمل الكيس الكبير على ظهره اتقاء ما يخشاه من الحساب يوم القيامة على ما ظن أنه تقصير منه في أمور الرعية .

ولم يكن مركزه الكبير الذي أهّله لأن يكون أعظم رجل في العالم آنذاك . . لم يكن ليحول بينه وبين أن يجعل من نفسه عاملا متواضعا يحمل الأثقال على ظهره .

إنه مظهر من مظاهر العظمة والجلال ، تفتخر به الأمة الإسلامية عبر الأجيال .

إنه واقع مدهش وسلوك محير ، أن يتنازل أعظم رجل في العالم ليقوم بمهمة الحمالين البسطاء .

ولكن الذي يحل اللغز ويزيل الحيرة والدهشة قول عمر « أنت تحمل عني وزري يوم القيامة ! » ، إنه كلما عظمت الآخرة في عين المسلم صغرت في عينه الدنيا وما فيها ، ومن ثمَّ يأتي بالعجائب من السلوك العالي الذي يظل أمامه أهل الدنيا خاشعين حائرين . .

إن مفتاح شخصية العباد في هذه الحياة الدنيا هو مقدار نظرهم إلى الآخرة ووزنها في تفكيرهم ، فإن كانت الآخرة هي التي تبرز أمام خيالهم عند كل سلوك يقومون به في هذه الحياة الدنيا فإنهم يعيشون سعادة ويسعد الله بهم الأمة ، ويصلح بهم ما اعوج من سلوكها ، ويؤمنون بإذن الله تعالى من الوقوع في الزلل والمهالك ، وإن كان الذي يبرز هو الحياة الدنيا بما فيها من مال وجاه فالويل لهؤلاء ولئن كانوا مسئولين عنه ، والخراب والدمار هو الذي يتوقع من خلال سلوكهم .

إلى أن قال أسلم : وقام - يعني عمر - وقمت معه فجعلت - يعني المرأة - تقول : جزاك الله خيراً أنت أولى بهذا الأمر من أمير المؤمنين ، فيقول : قولي خيراً ، إنك إذا جئت أمير المؤمنين وجدته في هناك إن شاء الله !

لقد غمر المعروف والإحسان تلك المرأة حتى عقدت مقارنة بين هذا المحسن الكبير وبين أمير المؤمنين ، لما استقر في الأذهان بأن الإمام الذي استرعاه الله جل وعلا أمر الأمة مسئول عن كل فرد من

أفرادها، ولم تكن تدري أن الذي تخاطبه هو أمير المؤمنين، وما كان يدور في خلدها أن الله سبحانه قد ساقه إليها ليقتضي أمرين كل واحد منهما بالغ الأهمية : أمر إنقاذ تلك المرأة وأبنائها من الجوع، وأمر إنقاذ أمير المؤمنين من الإخلال بالمسئولية فيما لا يعلم ، وأمر ثالث لا يقل عنهما ، وهو أن يسطر التاريخ هذه الحادثة المهمة بمداد الفخار والعز الذي يرفع رؤوس المسلمين أمام العالم، وينشئ الأجيال المتعاقبة على القدوة الحسنى والتربية الفاضلة .

وبعد ذلك هل اكتفى أمير المؤمنين بما قدم لتلك المرأة وأولادها من خدمات جليلة؟! يقول أسلم : ثم تنحى ناحية عنها ثم استقبلها وربض مربض السبع ، فجعلت أقول له : إن لك شأنًا غير هذا، وهو لا يكلمني، حتى رأيت الصبية يضطرعون ويضحكون ، ثم ناموا وهدؤوا، فقام وهو يحمد الله ، ثم أقبل علي فقال : يا أسلم إن الجوع أسهرهم وأبكاهم، فأحببت أن لا أنصرف حتى أرى ما رأيت منهم^(١) .

الله أكبر ما أعظمك يا عمر ! وما أطف مشاعرك وأحاسيسك ! إن عمر العظيم لم يشغله تأمين المواد المادية عن ملاحظة النواحي المعنوية، لقد كان رأى الصبية وهم يبكون ويتضاغون من الجوع، وهو منظر مؤلم لأصحاب النفوس الأبية، وإذا كان عمر قد ملأ بطونهم بالطعام فإن هول المنظر السابق لا يزال يعمل عمله في حسه المرهف، ونفسه الجياشة ، فأحب أن يمسح هذا المنظر برؤية الأطفال وقد بدت عليهم علائم الفرح والسرور .

(١) تاريخ الطبري ٢٠٥/٤ ، وانظر تاريخ دمشق ٣٥٣/٤٤ .

هذا ومما تجدر الإشارة إليه الإشادة بجرأة أمير المؤمنين عمر الخارقة وإيمانه الراسخ بقضاء الله تعالى وقدره، حيث كان يخرج ليلاً وليس معه حرس والمسلمون في حال حرب ضروس شاملة مع أعدائهم في الشرق والغرب، وفي المدينة عدد كبير من الأعاجم الذين فتحت بلدانهم، وأزيلت ممالكهم أو أضعفت على يد المسلمين، ومع ذلك يخرج خارج المدينة وليس معه إلا مولاه أو أحد أصحابه، ولا شك أن هذا يعتبر مثلاً عالياً للشجاعة النادرة والإيمان القوي واليقين الراسخ.

طلبه من سعد أن يقتص منه :

من ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير من حديث الإمام الطبراني بإسناده عن سعيد بن المسيب قال: خرجت جارية لسعد [يعني ابن أبي وقاص رضي الله عنه] يقال لها: زبراء، وعليها قميص جديد فكشفتها الريح، فشد عليها عمر بالدرة، وجاء سعد ليمنعه فتناوله عمر بالدرة، فذهب سعد يدعو على عمر، فناوله الدرة وقال: اقتص مني فعفا عن عمر (١).

فهذان مثلاً من مكارم الأخلاق يطبقهما عظيمان من عظماء الصحابة رضي الله عنهم، فأمر المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه تناول سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه بالعصا في ساعة غضب بسبب تلك الجارية التي لم تلتزم بالاحتشام، وسعد أقدم على الدعاء على عمر في ساعة غضب مما حدث، لكن أمير المؤمنين ندم على

(١) البداية والنهاية ٧٦/٨، وأخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر سعيد بن المسيب - منتخب كنز العمال ٧١/٥ - .

ماكان منه نحوه فأعطاه العصا ليقتص منه ، حتى يخرج من دنياه ولم يحمل حقا لمسلم ، فهل يفعل سعد ذلك ؟!

إنه لايمكن أن يقدم على ضرب أمير المؤمنين ، ويكفيه نبلا وتواضعا من أمير المؤمنين أنه أعطاه العصا ليقتص منه ، فكان العفو من سعد ، واطمأنت نفس عمر حينما عفا أخوه سعد رضي الله عنهما .

محاسبته أهله وأبناءه :

من ذلك ماأخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : اشتريت إبلا وارجمعتها إلى الحمى ، فلما سمئت قدمت بها ، قال : فدخل عمر بن الخطاب السوق فرأى إبلا سمانا ، فقال : لمن هذه ؟ قيل لعبد الله بن عمر ، قال : فجعل يقول : يا عبد الله بن عمر بنخ بنخ ، ابن أمير المؤمنين ، قال : فجئت أسعى ، فقلت : مالك يا أمير المؤمنين ؟ قال : ماهذه الإبل ؟ قلت : أنا اشتريتها وبعثت بها إلى الحمى ابتغي مايبتغي المسلمون ، قال فقال : ارعوا إبل ابن أمير المؤمنين ، اسقوا إبل ابن أمير المؤمنين ، يا عبد الله ابن عمر اغد على رأس مالك واجعل باقيه في بيت مال المسلمين^(١) .

فهذا الخبر يدل على ورع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فهو لايريد أن يستفيد أولاده من جاه الخلافة ويرى أن مااستفاده من مال من هذا الطريق فالمسلمون أحق به .

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر زيد بن أسلم عن أبيه قال : رأيت عبد الله بن الأرقم صاحب بيت مال المسلمين في

(١) تاريخ دمشق ٣٢٦/٤٤ - ٣٢٧ .

زمن أبي بكر وعمر أتى عمر فقال : يا أمير المؤمنين إن عندنا حلية من حلية جلولاء ، آتية من ذهب وورق (١) فانظر أن تفرغ لذلك يوما فترى فيه رأيك ، فقال : إذا رأيتني فارغا فأذني ، فجاءه يوما فقال : أراك اليوم فارغا قال : أجل ، فابسط لي نطعا في الأشياء - وهو النخل الذي لا يسقى - فبسط له فيه نطعا ، ثم أتى بذلك المال ، فصُبَّ عليه ، فدنا عمر حتى وقف عليه وقال : اللهم إنك ذكرت وقلت ﴿ زين للناس حب الشهوات ﴾ [آل عمران: ١٤] وقلت : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ [الحديد: ٢٣] . وإنا لانستطيع إلا أن نفرح بما ربيته لنا ، اللهم فاجعلني أنفقه في الحق ، وأعذني من شره .

قال : وأُتِيَ عمر بابن له يحمل يقال له : عبد الرحمن ، فقال : يا أبتاه هب لي خاتما ، فقال له عمر : اذهب إلى أمك تسقيك سويقا (٢) .

وهكذا حينما رأى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه نفائس الأموال التي أفاءها الله تعالى على المسلمين أدركته الخشية من الله جل وعلا ، فتفتق فكره عن تذكر الآيات التي تزهد المسلم في الحياة الدنيا وتسمو بفكره نحو آفاق الحياة الآخرة ، ومع ما اشتهر به عمر من الورع والزهد فإنه يشير إلى طبيعة الإنسان التي جبل عليها من الفرح بطيبات الحياة الدنيا ، ثم يلجأ إلى الله سبحانه بالدعاء ليسدده إلى الطريق القويم في إنفاق المال ، وأن يعيذه من فتنه .

وفي آخر الخبر مثل من ورع أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ،

(١) الورق بكسر الراء الفضة .

(٢) تاريخ دمشق ٣٢٥/٤٤ .

حيث لم يسمح لابنه الصغير أن يأخذ شيئاً من مال المسلمين العام .
ويشبه ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر أيضاً من خبر عبد الله
ابن واقد بن عبد الله بن عمر قال : بعث أبو موسى من العراق إلى
عمر بن الخطاب بحلية ، فوضعت بين يديه ، وفي حجره أسماء بنت
زيد بن الخطاب ، وكانت أحب إليه من نفسه ، لما قتل أبوها باليمامة
عطف عليهم ، فأخذت من الحلية خاتماً فوضعت في يدها ، وأقبل
عليها يقبلها ويلتزمها ، فلما غفلت أخذ الخاتم من يدها ، فرمى به في
الحلية ، وقال : خذوها عني (١) .

هذا ومن النماذج الدالة على قيام أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه
بالمسئولية وأداء الأمانة ما ذكره ابن جرير رحمه الله من أن عمر كان إذا
أراد أن يأمر المسلمين بشيء أو ينهاهم عن شيء مما فيه صلاحهم بدأ
بأهله ، وتقدم إليهم بالوعظ لهم والوعيد على خلافهم أمره ، ثم روى
حديثاً بإسناده عن سالم بن عبد الله قال : كان عمر إذا صعد المنبر
فنهى الناس عن شيء جمع أهله ، فقال : إني نهيت الناس عن كذا
وكذا ، وإن الناس ينظرون إليكم نظر الطير - يعني إلى اللحم - وأقسم
بالله لا أجد أحداً منكم فعله إلا أضعفت عليه العقوبة (٢) .

وهذا تركيز بالغ على القدوة الحسنة ، وجمع بين القول والعمل ،
فإن الحاكم إذا أمر بأمر ، والعالم الداعية إذا دعا إلى فعل خير أو ترك
شر فإن أول ما ينظر الناس إليه وإلى أسرته ، فإن رأوا تطبيقاً والتزاماً

(١) تاريخ دمشق ٣٢٥/٤٤ .

(٢) تاريخ الطبري ٢٠٦/٤ .

أخذوا قوله مأخذ الجذ وسارعوا إلى التطبيق ، وإلا فإن قوله يذهب أدراج الرياح ، وقد يطبقون من غير قناعة بشكل ضعيف ثم يحصل التفلت بعد ذلك .

وتهديد عمر رضي الله عنه أفراد أسرته بتضعيف العقوبة يلاحظ فيه أمران :

الأول : ارتكاب المخالفات ، وهذا يشتركون فيه مع غيرهم .
الثاني : صدُّ الناس عن الالتزام ، وهذا تنفرد به أسرُ المسؤولين ومن لهم بهم علاقة لأنهم موضع القدوة .
ولئن كان هذا يدل على ورع عمر الشديد فإنه يدل أيضا على حزمه البالغ في تنفيذ ما يراه في صالح المجتمع الإسلامي .
مثل من اهتمامه بأموال المسلمين :

من أمثلة اهتمامه البالغ في هذا المجال ما أخرجه الإمام الطبري من حديث أبي يزيد المديني قال: حدثنا مولى لعثمان بن عفان قال: كنت رديفا لعثمان بن عفان حتى أتى على حظيرة الصدقة في يوم شديد الحر شديد السموم ، فإذا رجل عليه إزار ورداء قد لف رأسه برداء يطرد الأبل يدخلها الحظيرة ، حظيرة إبل الصدقة، فقال عثمان : من ترى هذا ؟ قال : فانتبهنا إليه فإذا هو عمر بن الخطاب ، فقال: هذا والله القوي الأمين .

وأخرج أيضا من حديث أبي بكر العبسي قال: دخلت حَيْرَ الصدقة- يعني الحظيرة - مع عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب ،

قال: فجلس عثمان في الظل يكتب ، وقام على رأسه عليٌّ يملُّ عليه مايقول عمر ، وعمر في الشمس قائم في يوم حار شديد الحر ، عليه بردان أسودان ، متزراً بواحد ، وقد لف على رأسه الآخر ، يعدُّ إبل الصدقة ، يكتب ألوانها وأسنانها ، فقال علي لعثمان - وسمعه يقول نَعَتْ بِنْتُ شَعِيبٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ [القصص: ٢٦] ، ثم أشار عليٌّ بيده إلى عمر ، فقال : هذا القوي الأمين (١) .

وهكذا رأينا اهتمام عمر الشديد بأموال الأمة ، واستهائته براحته وصحته من أجل صيانة وحفظ هذه الأموال ، وفي سبيل الأهداف العالية يهون على النفوس العظيمة تحمل المشاق ، ولعل إحساس عمر الكبير بالمسئولية ، واستغراق فكره في أداء عمل يراه مهما قد خفف عن جسمه الإحساس بحرارة الشمس ولفح السموم .

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام
ولقد استحق عمر بجدارة ثناء كبار الصحابة عليه بالقوة والأمانة فهو القوي الأمين حقا الذي لم تشغله كبار الأمور عن صغارها ، وهو بعمله هذا نموذج حي للشعور بالمسئولية والدقة في محاسبة النفس .
تورعه في صرف مال المسلمين :

من ذلك ماأخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر سعيد بن المسيب قال: انكسر بغير من مال الله ، فنحره عمر فصنعه ، ودعا عليه أصحاب رسول الله ﷺ ، فقال العباس بن عبد المطلب : ياأمير

(١) تاريخ الطبري ٢٠١/٤ .

المؤمنين لو صنعت لنا كل يوم مثل هذا أصبنا منه وتحدثنا عندك فقال عمر: يهون عليك جوع امرأة بسلع (١)؟ إنه كان لي صاحبان عملاً عملاً وسلكا طريقا ، إن عملت بمثل عملهما سلكت طريقهما ، وإن عملت بغيرها لم أسلك في طريقهما (٢) .

فالمنهج واضح عند عمر رضي الله عنه فهو ملتزم بمنهج رسول الله ﷺ ومنهج صاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وقد استقام على ذلك طوال حياته ، وهذا قد جنبه الزلل وسار به على الطريق القويم .

محاسبته نفسه في رعيته :

من ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر سلامة بن صبيح التميمي قال : قال الأحنف بن قيس : ما كذبت قط إلا مرة ، قالوا: وكيف يا أبا بحر؟ قال: وفدنا إلى عمر بفتح عظيم ، فلما دنونا من المدينة قال بعضنا لبعض : لو ألقينا ثياب سفرنا ولبسنا ثياب صوننا فدخلنا على أمير المؤمنين والمسلمين في هيئة حسنة وشارة حسنة كان أمثل ، قال : فلبسنا ثياب صوننا وادخلنا ثياب سفرنا ، حتى إذا طعنا في أوائل المدينة لقينا رجلا فقال: انظروا إلى هؤلاء أصحاب دنيا ورب الكعبة ، قال: فكنت رجلا ينفعني رأيي ، فعلمت أن ذلك ليس بموافق للقوم ، فعدلت فلبستها وأدخلت ثياب صوني العيبة (٣) وأشرجت (٤)

(١) سلع هو الجبل المعروف في المدينة .

(٢) تاريخ دمشق ٤٤ / ٣٤٠ - ٣٤١ .

(٣) العيبة وعاء من جلد وهو بمنزلة الحقيبة الآن .

(٤) أي ربطتها .

وأغفلت طرف الرداء، ثم ركبت راحلتي فلحقت أصحابي ، فلما دفعنا إلى عمر نَبْتُ عيناه عنهم ووقعت عيناه علي ، فأشار إلي بيده فقال : أين نزلتم ؟ قلت : في مكان كذا وكذا، قال فقال : أرني يدك ، فقام معنا إلى مناخ ركابنا، فجعل يتخللها ببصره ثم قال : ألا اتقيتم الله في ركابكم هذه ؟ أما علمتم أن لها عليكم حقا؟ ألا تقصدم بها في المسير ؟ ألا حللتم عنها فأكلت من نبت الأرض؟ فقلنا : ياأمير المؤمنين إنا قدمنا بفتح عظيم فأحببنا أن نسرع إلى أمير المؤمنين وإلى المسلمين بالذي يسرهم، فحانت منه التفاتة فرأى عييتي فقال : لمن هذه العيبة ؟ قلت : لي ياأمير المؤمنين، قال : فما هذا الثوب ؟ قلت : ردائي ، قال : بكم ابتعته ؟ فألغيت ثلثي ثمنه، فقال : إن رداءك لحسن لولا كثرة ثمنه .

قال : ثم انصفق راجعا ونحن معه ، فلقيه رجل فقال : ياأمير المؤمنين انطلق معي فأعدني ^(١) على فلان فإنه قد ظلمني ، قال : فرفع الدرة فخفق بها رأسه، فقال : تدعون أمير المؤمنين وهو معرض لكم حتى إذا شغل في أمر من أمور المسلمين أتيتموه : أعدني ، أعدني ! قال : فانصرف الرجل وهو يتذمر ، قال : علي بالرجل، فألقى إليه المخفقة فقال : امثل ^(٢) ، فقال : لا والله ولكن أدعها لله ولك، قال : ليس هكذا ، إما أن تدعها لله إرادة ماعنده، أو تدعها لي، فاعلم ذلك ، قال : أدعها لله .

قال : فانصرف ثم جاء يمشي حتى دخل منزله ونحن معه ،

(١) أي انصرنني .

(٢) أي اضربني مثل ما ضربتك .

فافتتح الصلاة فصلى ركعتين وجلس فقال : كنتَ وضيعاً فرفعتك الله ، وكنت ضالاً فهداك الله ، وكنت ذليلاً فأعزك الله ، ثم حملك على رقاب المسلمين ، فجاءك رجل يستعيز بك فضربتته ، ماتقول لربك غدا إذا أتيتَه ؟ قال : فجعل يعاتب نفسه في ذلك معاتبة ظننا أنه من خير أهل الأرض (١) .

في هذا الخبر نماذج من سلوك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأخلاقه ، فبينما نراه رحيماً بالبهائم ، يلوم أصحابها على إيتاعها في السير نراه زاهداً في الدنيا حيث رأى ثمن ذلك الثوب كثيراً مع أن الأحنف لم يذكر له إلا ثلث ثمنه ، ثم نراه متواضعاً عادلاً حينما طلب من ذلك الرجل أن يقتص منه ، كما نراه غزير العلم حينما وجه ذلك الرجل إلى إخلاص العمل لله تعالى ، ثم نراه خاشعاً لله جل وعلا عظيم الخشية منه حيث صار يعاتب نفسه ويحاسبها على شدته في معاملة ذلك الرجل الذي تظلم له ، حتى حكم له الأحنف بمجموع تلك الفضائل بأنه من خير أهل الأرض ، بل هو في خلافته خير أهل الأرض .

وأخيراً موقف أخلاقي للأحنف بن قيس التميمي حيث كان قد نزه نفسه من الكذب ماعداً تلك المرة التي ذكر ، وإن رجلاً يعيش عشرات السنين لا يمارس الكذب لهو رجل عظيم ، لأنه قلما يسلم الناس من فلتات اللسان .

(١) تاريخ دمشق ٤٤/٢٩١ - ٢٩٢ .

خبره مع الخطيئة :

ومن ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير من خبر زيد بن أسلم عن أبيه قال : أمر عمر بإخراج الخطيئة من الحبس وقد كلمه فيه عمرو بن العاص وغيره ، فأخرج وأنا حاضر فأنشأ يقول :

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ رغب الحواصل لاماء ولاشجر
غادرت كاسبهم في قعر مظلمة فارحم هداك مليك الناس يا عمر
أنت الإمام الذي من بعد صاحبه ألقى إليك مقاليد النهى البشر
لم يؤثروك بها إذ قدموك لها لكن لأنفسهم كانت بك [الخير]
فامنن على صبية بالرمل مسكنهم بين الأباطح يغشاهم بها القدر
نفسي فداؤك كم بيني وبينهم من عرض أودية يعمى بها الخبر

قال: فلما قال الخطيئة : ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ ، بكى عمر ، فقال عمرو بن العاص : ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أعدل من رجل يبكي على تركه الخطيئة (١) .

فهذا مثل من أمثلة كثيرة على ما كان يتصف به أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه من الرحمة والشفقة ، حيث بكى حينما ذكر له الخطيئة أبناءه الذين أصبحوا لاعائل لهم ، ولقد اعتبر عمرو بن العاص رضي الله عنه ذلك منتهى العدل وكماله ، لأن مساوى الخطيئة الكثيرة تجعل قلوب الناس عليه قاسية ، لأنه كان كثير الهجاء للناس ، وقد سجنه عمر رضي الله عنه لحماية أعراض الناس منه .

(١) البداية والنهاية ٩٧/٨ - ٩٨ ، والخضراء هي السماء والغبراء هي الأرض .

خبره مع سلمان حينما اعترض عليه :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر العتبي قال: بُعث إلى عمر بِحُلٍّ فقسمها فأصاب كل رجل ثوب، ثم صعد المنبر وعليه حلة، والحلة ثوبان، فقال: أيها الناس ألا تسمعون؟ فقال سلمان: لانسمع، فقال عمر: لم يا أبا عبد الله؟ قال: إنك قسمت علينا ثوبا ثوبا وعليك حلة، فقال: لاتعجل يا أبا عبد الله، ثم نادى: يا عبد الله، فلم يجبه أحد، فقال: يا عبد الله بن عمر، فقال: لبيك يا أمير المؤمنين، فقال: نشدتك الله، الثوب الذي ائتذرت به أهو ثوبك؟ قال: اللهم نعم، قال سلمان: فقل الآن نسمع^(١).

فهذا خبر جليل يكشف لنا صورة من واقع الصحابة في عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، وذلك في العلاقة بين الحاكم والمحكومين، فأفراد الرعية يقولون الحق علنا إذا رأوا أمرا مجانباً للصواب غير هيايين ولا مترددين، والحكام يسمعون كلمة الحق بصدور رحبة وخضوع كامل للحق.

فأبو عبد الله سلمان الفارسي رضي الله عنه كان جريئاً حينما رد على أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، وكان في رده هذا يريد كشف الأمر للناس، وإلا فإنه يعرف أن عمر لا يفضل نفسه على أفراد الرعية بشيء، وكان فقيهاً حينما ربط السمع والطاعة بالعدل، وهذا يبين لنا أن العدل مع الرعية من شروط الطاعة.

وأمير المؤمنين عمر كان متواضعاً عادلاً حينما سمع كلام سلمان

(١) صفة الصفوة ١/ ٥٣٥.

بصدر رحب وسماحة عاليه ، ولم يغضب من اعتراضه عليه .

فرضي الله عنهم ما أعظمهم حكاما ، وما أعظمهم محكومين !!

خبره مع القبطي الذي ضربه ابن عمرو بن العاص :

أخرج ابن عبد الحكم من خبر أنس بن مالك رضي الله عنه : أن رجلا من أهل مصر أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : يا أمير المؤمنين عائدُ بك من الظلم ، قال : عدت معادًا ، قال : سابتُ ابن عمرو بن العاص فسبقتَه فجعل يضربني بالسوط ويقول : أنا ابن الأكرمين ، فكتب عمر إلى عمرو يأمره بالقدوم عليه ويقدم بابه معه ، فقدم فقال عمر : أين المصري ؟ خذ السوط فاضرب ، فجعل يضربه بالسوط ، ويقول عمر : اضرب ابن الأكرمين .

قال أنس : فاضرب ، والله لقد ضربه ونحن نحب ضربه ، فما أفلح عنه حتى تمنينا أنه يرفع عنه ، ثم قال للمصري : ضع على صلعة عمرو ، فقال : يا أمير المؤمنين إنما ابنه الذي ضربني وقد استقدت منه ، فقال عمر لعمرو : مُدْكم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ ! قال : يا أمير المؤمنين لم أعلم ولم يأتني (١) .

فهذا موقف عظيم في العدل ، أنصف به أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه رجلا من أهل مصر من ظالمه ابن حاكم مصر .

لقد كان عمرو بن العاص رضي الله عنه مشهوراً بالعدل والحكمة ، ولكن ابنه استغل مكانة أبيه فاعتدى على ذلك المصري ، ورفع شعار العصبية ، حيث اعتز بنسبه وجاه أبيه ، فاعتبر أنه من

(١) منتخب كنز العمال ٤ / ٤٢٠ .

طائفة الأكرمين وأن ذلك المصري من طائفة الأذلين، وحيث إنه لا استعباد في الإسلام إلا في حال الحرب فإن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه قد فزع من سماع تلك الكلمة التي تنذر بخطر نشوء الطبقة في المجتمع الإسلامي، فلذلك كان علاجه لتلك الظاهرة الخطيرة حازما وحاسما .

إن الناظر في هذه القضية لأول وهلة يرى غرابة ذلك الحكم ، حيث تم استدعاء والي مصر من أجل تلك القضية الصغيرة مع ما يترتب على ذلك من مشقة السفر واحتمال تأخير بعض الأحكام التي لا ييت فيها إلا عمرو نفسه، وكان يكفي أن يتم استدعاء صاحب القضية وهو ابن عمرو، ولكن أمير المؤمنين عمر كان يعلم أن ابن عمرو ما كان له أن يستطيل على الناس إلا بجاه أبيه، ولذلك أمر عمر المصري بأن يضرب عمراً كذلك، فأراد عمر بذلك أن يقرر العدالة في أبلغ صورها، وذلك بحضور صاحب القضية وأبيه الذي انخدع ابنه بسلطانه فقال هذه الكلمة العظيمة التي أصبحت مثالا لكمال العدل والإنصاف « مَذْكُم تَعَبَّدْتُم النَّاسَ وَقَدْ وَلَدْتَهُمْ أُمَهَاتَهُمْ أَحْرَارًا ؟ ! » .

ولاشك أن تلك الكلمة العظيمة كان لها مردود كبير في الدعوة إلى الإسلام ، فإنها ترفع من معنوية جميع المصريين وكل الشعوب الذين تبلغهم ، حيث أظهرت ما يدعو إليه الإسلام من محاربة كل أنواع العصبية وإقرار المساواة بين الناس .

لقد كانت هذه الكلمة مثالا عاليا في كمال العدل وسمو الأخلاق، حتى أصبح النصارى يستشهدون بها على عدالة الإسلام،

لقد نادى أحد الصادقين في مجلس البرلمان المصري وهو الشيخ صلاح أبو إسماعيل بتطبيق الإسلام ، فقام أحد الأعضاء من النصارى وقال : ولمَ لانوافق على تطبيق الإسلام ؟ وهل رأينا في التاريخ من الإسلام إلا العدالة منذ أن أمر عمر بن الخطاب غلاما من أبناء القبط بأن يقتص من ابن أمير مصر ؟!

وهكذا حول أمير المؤمنين عمر عدالة الإسلام إلى واقع تطبيقي خلّده التاريخ حتى صار أبناء هذا العصر يذكرون به عدالة الإسلام ، ورحم الله أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حينما قالت في وصف عمر : كأنما خلق للإسلام .

اهتمامه بالمسئولية :

أخرج الإمام ابن جرير الطبري من خبر عروة بن الزبير أن عمر رضي الله عنه خطب فقال: إن الله عز وجل قد ولاني أمركم، وقد علمت أنفع ما بحضرتكم لكم ، وإنني أسأل الله أن يعينني عليه وأن يحرسني عنده كما حرسني عند غيره، وأن يلهمني العدل في قسمكم كالذي أمر به ، وإنني امرؤ مسلم وعبد ضعيف إلا ما أعان الله عز وجل ، ولن يغير الذي وليت من خلافتكم من خلقي شيئا إن شاء الله ، إنما العظمة لله عز وجل وليس للعباد منها شيء ، فلا يقولن أحد منكم إن عمر تغير منذ ولي ، أعقلُ الحق من نفسي وأتقدم وأبين لكم أمري ، فأيا رجل كانت له حاجة أو ظلم مظلومة أو عتب علينا في خلق فليؤدني فإنا أنا رجل منكم فعليكم بتقوى الله في سرهم وعلايتكم وحرمتكم وأعراضكم ، وأعطوا الحق من أنفسكم ،

ولا يحمل بعضكم بعضا على أن تحاكموا إليّ ، فإنه ليس بيني وبين أحد من الناس هوادة، وأنا حبيب إليّ صلاحكم عزيز عليّ عتبكم، وأنتم أناس عامتكم حَضَرٌ في بلاد الله ، وأهل بلد لا زرع فيه ولا ضرع إلا ماجاء الله به إليه، وإن الله عز وجل قد وعدكم كرامة كثيرة، وأنا مسئول عن أمانتي وما أنا فيه . ومطلع على ما يحضرني بنفسي إن شاء الله ، لا أكله إلى أحد، ولا أستطيع مابعد منه إلا بالأمناء وأهل النصح منكم للعامة، ولست أجعل أمانتي إلى أحد سواهم إن شاء الله تعالى (١) .

هذا الخبر مثل من أمثلة اتصاف عمر رضي الله عنه بالتوحيد وقوة الإيمان والاتصال بالله تعالى ، فهو حينما يذكر تحمله لولاية المسلمين يسأل الله تعالى أن يعينه على أداء ما تحمله وأن يحرسه من الوقوع في الخطأ، وإن هذا ليعتبر مظهرا من مظاهر تمثل العبودية لله جل وعلا، فالإنسان مهما اتصف بالعظمة وتحلى بالمواهب الممتازة ووفق بالأعوان المخلصين فإنه عبد لله تعالى ضعيف بنفسه محتاج إلى عون ربه جل وعلا ، ١٠ مر إلى تسديده وتوفيقه .

ثم يشير إلى موضوع ثبات الشخصية واتزانها، وذلك ببيان أن عمر الذي كان جنديا من جنود الإسلام هو عمر الذي أصبح خليفة على المسلمين، وأن الخلافة لن تغير من نفسيته وأخلاقه، وذلك لأنهم لم يكونوا ينظرون إلى الولاية والمسئولية على أنها درجات رفيعة في الحياة الدنيا ، وإنما ينظرون إليها على أنها مجال من مجالات العمل الصالح ، فإن أحسن فيها حاملها وعدل والتزم بضوابط عبوديته لله

(١) تاريخ الطبري ٢١٥/٤ .

تعالى كان له الثواب العظيم عند الله تعالى ، الذي منه ما جاء في قوله ﷺ « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل » الحديث (١) .

وإن أساء وجار وتعالى وطغى فلم يلتزم بضوابط عبوديته لله تعالى فإنه يبوء بالعذاب الأليم يوم القيامة إذا لم يغفر الله له . ويقول حين لا ينفعه الندم ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ (٢٨) هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ ﴾ [الحاقة : ٢٨ - ٢٩] .

ومن وصايا عمر النافعة في هذه الخطبة إرشاد المسلمين إلى اجتناب الظلم ، وإنصاف إخوانهم من أنفسهم ، وعدم التعدي الذي يلجئ المعتدى عليه إلى التظلم والشكوى .

ويثبت هذا المعنى ببيان أنه ليس بينه وبين أحد من الناس محاباة ولا مداراة، وأن الأمر إذا رفع إليه فسيقر ما يرى فيه من الحكم الشرعي . وإن مما يثبت العدل ويجفف منابع الظلم ويقلل من وقوع الخصومات شعور المسلمين بقوة الوالي وحزمه وعدله بحيث لا يحابي سيذا لجأه ولا غنيا لغناه ولا يقبل شفاعة شافع في ظلم .

ثم يبين عمر رضي الله عنه أن قيامه بهذه المسؤولية الكبرى يكون بأمرين : أن يطلع بنفسه على ما يحضره في دار الخلافة من أمور الرعية ، وأن يوكل على ما بعد عنه من يثق بهم من أهل الأمانة ، وأنه لن يجعل أمانته إلا عند أهلها .

وإذا كان المسئول يقوم بنفسه في أداء مسؤوليته أو يوكلها إلى أهل

(١) صحيح البخاري ، رقم ١٤٢٣ ، الزكاة (٣/ ٢٩٢) .

الأمانة فإنه يكون قد أدى ماعليه من واجب ، فإذا جاءت الأمور موافقة للحق ومحقة لمصلحة الأمة فهذا ما يهدف إليه أهل الإخلاص ، وإن كانت غير ذلك فإن المسئول قد بذل جهده ، ولن يلدغ المؤمن من جحر مرتين .

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: رأى عوف بن مالك كأن شيئا دُلِّي من السماء ، فأخذ به رسول الله ﷺ فانبسط ثم دُلِّي ، فأخذ به أبو بكر فانبسط ، ثم ذُرِعَ الناسُ ففضلهم عمر بثلاثة أذرع ، فقصها عوف على أبي بكر ، فلما بلغ هذا المكان قال له عمر: دعنا من رؤياك ، فسكت عوف ، فلما استُخلف قال لعوف: بقية رؤياك ، قال: أليس أنت انتهرتني فأسكتني؟ قال: إني كرهتُ أن تنعى إلى الرجل نفسه ، هات رؤياك من أولها ، حتى بلغ : وذُرِعَ الناسُ ففضلهم عمر بثلاثة أذرع - قال: فقلت: فقيم فضلهم عمر بثلاثة أذرع؟ فقل لي: إنه خليفة ، وإنه شهيد ، وإنه لا يخاف في الله لومة لائم - قال عمر: أما الخلافة فإن الله عز وجل يقول : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (١) ، فقد استخلفت ياعمر ، فانظر كيف تعمل ، وأما الشهادة فكيف لي بها وحولي العرب ، وإن الله لقادر على أن يسوقها إليّ وأما ألا أكون أخاف في الله لومة لائم ، فما شاء الله (٢) .

(١) سورة يونس : الآية ١٤ .

(٢) تاريخ دمشق ٤٤ / ٤٠٥ ، وأخرجه ابن سعد من خبر أبي موسى الأشعري رضي الله عنه وذكر نحوه - طبقات ابن سعد ٣ / ٣٣١ . .

وهكذا كان فهم أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه للخلافة، فليست الخلافة لطلب زيادة الشرف والجاه، ولا للذكر بين الناس، وإنما هي مجال كبير للعمل، فمن عمل فيها صالحاً وعدل نال الأجر على ذلك من الله تعالى، ومن أساء وظلم فإنه ييؤء بالإثم ويكون معرضاً للعذاب، وكون عمر يستحضر الآية التي استشهد بها دليل على عمق علمه ودقة فهمه .

ومما جاء في ذلك ما أخرجه محمد بن سعد من خبر سعيد بن المسيب أن عمر قال : أيما عامل لي ظَلَمَ أحداً فبلغتني مظلُمته فلم أغيرها فأنا ظلمته (١) .

وهكذا يكون فهم المسئولية ، فإن المسئول المباشر ليست مسئوليته مطلقة ، ولا تبرأ ذمة المسئول الأعلى بأحكام المسئول المباشر، بل يكون مشاركاً له في الإثم عند المخالفة إذا بلغه ذلك ، كما أن المسئول المباشر مسئول عن المخالفة إذا صدرت من المسئول الأعلى مسئولية مشاركة ، فلا يجوز له تنفيذ ما يراه باطلاً وإن كان قد صدر من مسئول أعلى منه .

ولقد كان اهتمامه بالمسئولية كبيراً حتى إنه شمل البهائم في الصحراء ، ومما جاء في ذلك ما أخرجه محمد بن سعد من خبر قطن ابن واهب بن عويمر بن الأجدع قال: إن عمر بن الخطاب كان يسير ببعض طريق مكة ، فسمع صوت راع في جبل فعُدل إليه ، فلما دنا منه صاح : ياراعي الغنم، فأجابه الراعي: ياراعيها، فقال عمر: إني

(١) طبقات ابن سعد ٣ / ٣٠٥ .

قد مررت بمكان هو أخصب من مكانك، وإن كل راع مسؤول عن رعيته، ثم عدك صدور الرُّكَّاب (١) .

وهكذا مال بالإبل نحو ذلك الراعي ليذكره بمسئوليته في رعي مواشيه ، وإن حاكما يشعر بمسئوليته عن البهائم التي لاتقع تحت ملك دولته لجدير بأن يكون اهتمامه أكبر بأموال المسلمين العامة، وإن أجدر من ذلك وأولى أن يهتم بأفراد رعيته فيختار لهم الطيب الأفضل ويجنبهم السيء الأرذل .

ومن ذلك ما أخرجه أبو جعفر محمد بن جرير الطبري من خبر الحسن بن أبي الحسن البصري قال: قال عمر : إذا كنتُ في منزلة تسعني وتعجز عن الناس فوالله ماتلك لي بمنزلة حتى أكون أسوة للناس (٢) .

فهذا مثل أعلى في المساواة بين الراعي والاعية، وتمثيل لخلافة النبوة، حيث التساوي مع الرعية في نمط العيش، فالولاية في الإسلام لاتعني الترفع بنوع من المعيشة، لأن ذلك يعني وجود الطبقة التي كان عليها ملوك فارس والروم، والتي كان من أهداف الإسلام محاربتها.

ومن ذلك ما أخرجه الطبري أيضا من خبر الحسن بن أبي الحسن البصري قال: قال عمر: لئن عشت إن شاء الله لأسيرن في الرعية حولا، فإني أعلم أن للناس حوائج تقطع دوني، أما عمالهم فلايرفعونها إلي ، وأما هم فلايصلون إلي ، فأسير إلى الشام فأقيم

(١) طبقات ابن سعد ٣/ ٢٩١ - ٢٩٢ .

(٢) تاريخ الطبري ٤/ ٢٠١ .

بها شهرين ، ثم أسير إلى الجزيرة فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى مصر فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى البحرين فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى الكوفة فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى البصرة فأقيم بها شهرين ، والله لنعم الحول هذا (١) .

فهذا مثل مهم في شعور الوالي بمسئوليته عن جميع أفراد رعيته ، حيث عزم أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه في السير في البلاد الإسلامية لسماع شكاوى الناس ، مع اجتهداه الدقيق في التحري في اختيار الولاية ومحاسبتهم .

وأخرج أيضا من خبر أسلم العدوي مولى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه قال : بعثني عمر بإبل من إبل الصدقة إلى الحمى فوضعت جهازي على ناقة منها ، فلما أردت أن أصدرها قال : اعرضها علي ، فعرضتها عليه فرأى متاعي على ناقة منها حسناء ، فقال : لا أم لك ! عمدت إلى ناقة تغني أهل بيت من المسلمين ! فهلا ابن لبون بوالا ، أو ناقة شصوصا ! (٢) .

فهذا مثل من اهتمام أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بأموال المسلمين العامة وتقديم مصالحهم على المصالح الخاصة ، كما أنه مظهر من مظاهر مراقبة الله تعالى ، حيث لم يعامل الحاضر على حساب مصلحة الغائب .

(١) تاريخ الطبري ٢٠١/٤ - ٢٠٢ .

(٢) تاريخ الطبري ٢٠٢/٤ ، وابن اللبون ولد الناقة إذا كان في العام الثاني أو دخل في الثالث ، والشصوص الناقة الغليظة اللبن .

وأخرج الطبري أيضا من خبر أبي الدهقانة قال: قيل لعمر بن الخطاب: إن ها هنا رجلا من أهل الأنبار له بَصَرٌ بالديوان، لو اتخذته كاتباً! قال عمر: لقد اتخذت إذاً بطانة من دون المؤمنين^(١).
يريد قول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ الآية [آل عمران: ١١٨].

فجواب أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه يعتبر إدراكا عميقا لمبدأ الولاء والبراء، حيث لا يجوز وضع أمور المسلمين في يد غيرهم لأنهم لا يؤتمنون على مصلحة الأمة، وفي هذا اهتمام بدرء المفسد وإن كانت قد لا توجد إلا في المستقبل.

وأخرج ابن جرير الطبري أيضا من خبر أبي عمران الجوني قال: كتب عمر إلى أبي موسى^(٢): إنه لم يزل للناس وجوه يرفعون حوائجهم، فأكرم من قبلك من وجوه الناس، وبحسب المسلم الضعيف من العدل أن يُنصف في الحكم وفي القسم^(٣).

فهذه وصية من أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه بإكرام وجوه المسلمين، فالناس قادة وعامة، وتتفاوت درجات القيادة بتفاوت سمعة القادة، والقادة يتكفون في المجتمع بحسب ما يقدمون لمجتمعهم في العلم النافع ومكارم الأخلاق

(١) تاريخ الطبري ٢٠٢/٤.

(٢) هو أبو موسى الأشعري عبد الله بن قيس رضي الله عنه.

(٣) تاريخ الطبري ٢٠٣/٤.

كالكرم والشجاعة والوفاء والإيثار، فهؤلاء وجوه الناس الذين يرفعون حوائج المحتاجين لمن بيدهم الأمر، وإكرام هؤلاء السادة من عوامل نجاح الحكم واستقرار المجتمع، وهؤلاء الذين تتكون سيادتهم من خلال عملهم الصالح لن يشفعوا لأحد إلا بأمر فيه خير له ولا مضرة فيه على غيره، وبهذا يستقيم المجتمع ويتجه نحو الصلاح.

وهناك سادة تتكون سيادتهم من قريتهم من الحكام بغض النظر عن تمثيلهم لمكارم الأخلاق، فهؤلاء غالبا يكون الضابط لشفاعاتهم هو بناء سمعتهم وإشباع غرورهم، لأن سيادتهم لم تتكون من رصيدهم الأخلاقي الذي تم بناؤه شيئا فشيئا حتى ترسخ في النفوس، وإنما تكون من علاقتهم بالحكام، وهؤلاء تزول سيادتهم بزوال الحكام الذين رفعوهم بما يقدمون لهم من خدمات، بخلاف وجهاء الناس الذين تكونت سيادتهم بمآلهم من رصيد علمي وأخلاقي فإن سيادتهم راسخة في المجتمع ولا تتغير بتغير الولاة والدول.

ثم يبين عمر رضي الله عنه أن أمور العامة تستقر بأمرين: العدل في الحكم، والعدل في توزيع المال العام، وذلك لأن النفوس مهما بلغت من التضحية والصبر فإنه يندر وجود من يصبر على الضيم والهضم ويتنازل عن حقه في المال، خصوصا مع الحاجة إليه، فإذا لم يحصل الإنصاف في هذين الأمرين لجأ الناس إلى وجهائهم ليدافعوا عنهم ويستخلصوا لهم حقوقهم، فإذا لم يسمع من هؤلاء السادة فإن سمعتهم تضعف أو تزول، وبذلك تنفصم حلقة الاتصال بين الولاة العامة أو تضعف، وبالتالي قد تكون المواجهة، وستكون بغير نظام

ولاضوابط ، مما يسبب حدوث الفوضى والقلق في المجتمع ، وذلك لغياب وجوه الناس عن الساحة ، وقد يشارك بعضهم في تمثيل هذه المواجهة إذا رأوا ظلماً فادحاً ، وهضمًا لحقوق الناس واضحا .

ومن هنا نعرف قيمة هذه الوصية الغالية من أمير المؤمنين عمر الذي حنكته التجارب وصقلته المحن ، بعد استهدائه بنور الله تعالى واعتصامه بشريعته .

مثل من عدالة عمر في توزيع العطاء :

أخرج المؤرخ محمد بن سعد من خبر جهم بن أبي جهم قال : قدم خالد بن عرفة العُدري على عمر فسأله عما وراءه فقال : يا أمير المؤمنين تركتُ من ورائي يسألون الله أن يزيد في عمرك من أعمارهم ، ما وطئ أحدٌ القادسية إلا عطاؤه ألفان أو خمس عشرة مائة ، وما من مولود يولدُ إلا ألحق على مائة وجريين كل شهر ذكراً أو أنثى ، وما يبلغ لنا ذكرٌ إلا ألحق على خمسمائة أو ستمائة ، فإذا خرج هذا لأهل بيت منهم من يأكل الطعام ومنهم من لا يأكل الطعام ، فما ظنك به؟ فإنه لينفقه فيما ينبغي وفيما لا ينبغي ، قال عمر : فالله المستعان إنما هو حقهم أعطوه وأنا أسعد بأدائه إليهم منهم بأخذه ، فلا تحمدي عليه فإنه لو كان من مال الخطاب ما أعطيتموه ولكني قد علمتُ أن فيه فضلاً ولا ينبغي أن أحبسهم عنهم ، فلو أنه إذا خرج عطاء أحد هؤلاء العريب ابتاع منه غنماً فجعلها بسوادهم ثم إذا خرج العطاء الثانية ابتاع الرأس فجعله فيها فإني ويحك يا خالد بن عرفة أخاف عليكم أن يليكم بعدي ولالة لا يُعد العطاء في زمانهم مالا ، فإن بقي

أحدٌ منهم أو أحدٌ من ولده كان لهم شيءٌ قد اعتقدوه فيتكئون عليه ،
فإن نصيحتي لك وأنت عندي جالس كنصيحتي لمن هو بأقصى ثغر
من ثغور المسلمين وذلك لما طوقني الله من أمرهم ، قال رسول الله :
صلى الله عليه وسلم : من مات غاشاً لرعيته لم يرح رائحة الجنة^(١) .

فهذا مثل من النعمة والرخاء في عهد أمير المؤمنين عمر بن
الخطاب رضي الله عنه ، فقد وسع العطاء المسلمين مع كثرتهم حينما
تم توزيعه بالعدالة ولم يقتصر على كبراء الناس ووجهائهم .

وفي آخر هذا الخبر توجيه سديد من الفاروق رضي الله عنه نحو
الاقتصاد في المعيشة وتوفير جزء من العطاء لشراء مايدخر وينمو حتى
يتمتع به الأبناء وأبناؤهم .

سؤاله عن أحوال أمرائه :

أخرج الإمام محمد بن جرير الطبري من خبر الأسود بن يزيد
قال : كان الوفد إذا قدموا على عمر رضي الله عنه سألهم عن أميرهم
فيقولون خيراً ، فيقول : هل يعود مرضاكم ؟ فيقولون : نعم ،
فيقول : هل يعود العبد ؟ فيقولون : نعم ، فيقول : كيف صنيعة
بالضعيف ؟ هل يجلس على بابه ؟ فإن قالوا لخصلة منها : لا ،
عزله^(٢) .

فهذا اهتمام من أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بأحوال الأمراء
في عهده ، فهو يتحرى ويجتهد في اختيارهم ، ولكنه لا يكتفي بذلك

(١) طبقات ابن سعد ٣/ ٢٩٨ - ٢٩٩ .

(٢) تاريخ الطبري ٤/ ٢٢٦ .

بل يسأل عنهم أفراد رعيّتهم الذين يفدون إليه ، ويركز على ضرورة اتصافهم بالتواضع والعدل ، ولا يتردد في عزلهم إذا أنكر عليهم شيئا من سلوكهم .

اهتمامه بتولية الأكفاء :

مما جاء في ذلك ما أخرجه محمد بن سعد من خبر الزهري أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : إني لأتخرج أن استعمل الرجل وأنا أجد أقوى منه (١) .

فالولاية لا بد أن يتوفر فيها عاملان : القوة والأمانة كما جاء في قول الله تعالى حكاية عن كلام ابنة شبيب عليه السلام ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ ﴾ [القصص: ٢٦] والقوة درجات ، وأمير المؤمنين عمر يخبر بأنه يتخرج من تأمير من هو في درجة أقل في القوة وهو يجد من هو أقوى منه لأن ذلك نقص في تحقيق المسؤولية العليا عن الأمة ، فإن أداء من هو أضعف في القوة أقل من أداء من هو أقوى منه .

بيان شيء من سياسته :

من ذلك ما أخرجه محمد بن سعد من خبر أبي معشر قال : حدثنا أشياخنا أن عمر قال : إن هذا الأمر لا يصلح إلا بالشدة التي لا جبرية فيها وباللين الذي لا وهن فيه (٢) .

وهكذا يضع لنا أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه قاعدة من قواعد

(١) طبقات ابن سعد ٣/ ٣٠٥ .

(٢) طبقات ابن سعد ٣/ ٣٤٤ - ٣٤٥ .

الحكم الناجح ، وهي القوة من غير عنف واللين من غير ضعف ، وقد كان يطبق هذه السياسة في عهده ، وكانت من أسباب نجاحه في إدارة أكبر دولة في الأرض أكثر من عشر سنوات بدون حدوث فتن ولا اضطرابات .

من مواقف أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه :

من ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير من خبر أبي قبيل قال : كان معاوية يبعث رجلا يقال له أبو الجيش في كل يوم ، فيدور على المجالس يسأل : هل وُلد لأحد مولود ؟ أو قدم أحد من الوفود؟ فإذا أُخبر بذلك أثبت في الديوان ليجري عليه الرزق (١) .

فهذا مثل مما كان يتصف به أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه من التحري الدقيق في القيام بالمسئولية التي وفقه الله إليها ، فهو لا ينتظر من أبناء الأمة أن يغدوا إليه أو يرأسلوه ليثبت لهم العطاء ، بل كان يكلف من يسأل كل يوم عن المواليد والوفود ، ولقد كان ذلك من أسباب سعادة الناس في عهده وتمتعهم بنعمتي الرخاء والأمن .

موقف لأmir المؤمنين يزيد بن عبد الملك رحمه الله :

من أخبار الانتصار للمظلومين ما ذكره الحافظ ابن كثير في حوادث سنة أربع ومائة ، قال : وفي ربيع الأول منها عزل يزيد بن عبد الملك عن إمرة الحرمين عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس ، وكان سببه أنه خطب فاطمة بنت الحسين فامتنعت من قبول ذلك ، فألح عليها وتوعدها ، فأرسلت إلى يزيد تشكوه إليه ، فبعث إلى عبد الواحد بن

(١) البداية والنهاية ١٣٤/٨ .

عبد الله النضري نائب الطائف فولاه المدينة، وأن يضرب عبد الرحمن ابن الضحاك حتى يسمع صوته أمير المؤمنين وهو متكئ على فراشه بدمشق ، وأن يأخذ منه أربعين ألف دينار، فلما بلغ ذلك عبد الرحمن ركب إلى دمشق واستجار بمسلمة بن عبد الملك ، فدخل على أخيه فقال: إن لي إليك حاجة ، فقال: كل حاجة تقولها فهي لك إلا أن تكون ابن الضحاك ، فقال: هو والله حاجتي ، فقال: والله لا أقبلها ولا أعفو عنه ، فردّه إلى المدينة فتسلمه عبد الواحد فضربه وأخذ ماله حتى تركه في جبة صوف ، فسأل الناس بالمدينة .

وكان قد باشر نيابة المدينة ثلاث سنين وأشهرًا ، وكان الزهري قد أشار عليه برأي سديد ، وهو أن يسأل العلماء إذا أشكل عليه أمر فلم يقبل ولم يفعل ، فأبغضه الناس وذمه الشعراء ، ثم كان هذا آخر أمره^(١).

هذا وإن الناظر في هذا الخبر يرى شدة في الحكم على ذلك الأمير، ولكن إذا قورن ذلك بجريمته التي كان يريد ارتكابها فإن تلك العقوبة تبدو مناسبة، لأن مهمة الحاكم هي الحكم بين الناس وإدارة أمورهم والعدل بينهم ، فأما حينما يستغل الحاكم سلطته للاعتداء على حرية أفراد الرعية فإنه جدير بأن يبعد عن الولاية وأن يعاقب على ذلك العدوان، ولعل هذا الموقف الجيد في الشهامة والعدالة من يزيد ابن عبد الملك يخفف من آثامه التي اشتهر بها في اللهو والمظالم .

من مواقف أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور رحمه الله :

(١) البداية والنهاية ٢٣٨/٩ .

من ذلك ما ذكره الإمام الطبري من خبر إسحاق بن موسى بن عيسى : أن المنصور ولَّى رجلا من العرب حضرموت ، فكتب إليه والي البريد أنه يُكثر الخروج في طلب الصيد بِبُرْزَاة^(١) وكلاب أعدّها ، فعزله وكتب إليه : ثكلتك أمك وعدمّتك عشيرتك؟ ماهذه العدة التي أعددتها للنكاية في الوحش؟! إنا إنما استكفينك أمور الناس ولم نستكفك أمور الوحش ، سلّم ماكنت تلي من عملنا إلى فلان بن فلان ، والحق بأهلك ملوما مدحورا^(٢) .

فهذا مثال على اهتمام أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور بالمسئولية ، حيث عرف مايجري من ذلك الوالي على بعد المسافة بينه وبينه ، فاتخذ هذا الإجراء الصارم ضده ، وهذا يدل على حزم المنصور وجدّه ، وبذلك استطاع أن يسوس دولة تمتد من الصين شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا مع ما اكتنفها من الفتن الداخلية وحادثة عهد هذه الدولة .

من عدالة القاضي أبي يوسف رحمه الله :

ذكر الحافظ ابن كثير في ترجمة القاضي أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم أنه قال : ولت هذا الحكم وأرجو الله أن لايسألني عن جور ولا ميل إلى أحد إلا يوما واحدا ، جاءني رجل فذكر أنه له بستانا وأنه في يد أمير المؤمنين ، فدخلت إلى أمير المؤمنين فأعلمته فقال : البستان لي اشتراه لي المهدي ، فقلت : إن رأى أمير المؤمنين أن يُحضره

(١) هي الطيور التي تستعمل في الصيد .

(٢) تاريخ الطبري ٦٨/٨ .

لأسمع دعواه، فأحضره فادعى بالبستان ، فقلت : ماتقول ياأمير المؤمنين ؟ فقال : هو بستاني ، فقلت للرجل : قد سمعت ماأجاب ، فقال الرجل : يحلف ، فقلت : أتحلف ياأمير المؤمنين ؟ فقال : لا ، فقلت : سأعرض عليك اليمين ثلاثا فإن حلفت وإلا حكمت عليك ياأمير المؤمنين ، فعرضتها عليه ثلاثا فامتنع ، فحكمت بالبستان للمدعي، قال : فكنت في أثناء الخصومه أود أن ينفصل، ولم يمكني أن أجلس الرجل مع الخليفة، وبعث القاضي أبو يوسف في تسليم البستان للرجل (١) .

فهذا شيء عظيم أن يحكم القاضي أبو يوسف تلك السنوات الطويلة وهو يتحرى العدل ويطبقه ولم يظلم أحدا، وإن كان قد شعر بخطئه في مقدمات الحكم في هذه القضية، حيث لم يجلس الخليفة وخصمه في مجلس سواء، فإنه قد حكم على الخليفة لصالح خصمه، وكونه أصدر هذا الحكم، وكونه أيضا أظهر ندمه على عدم المساواة بين الخليفة وخصمه دليل على قوة إيمانه وورعه .

فما أعظم هذا القاضي وأمثاله من القضاة الذين يحكمون على أعلى مسئول في العالم !!

من مواقف القاضي حفص بن غياث رحمه الله تعالى :

قال ابن خلكان : قال حميد بن الربيع : لما جاء بعبد الله بن إدريس وحفص بن غياث ووكيع بن الجراح إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد ليوليهم القضاء دخلوا عليه، فأما ابن إدريس فقال : السلام

(١) البداية والنهاية ١٨٧/١٠ .

عليكم وطرح نفسه كأنه مفلوج، فقال هارون: خذوا بيد الشيخ لا فضل في هذا ، وأما وكيع فقال: والله ياأمير المؤمنين ما أتصرف بها منذ سنة ، ووضع إصبعه على عينه وعنى إصبعه ، فأعفاه، وأما حفص بن غياث فقال: لولا غلبة الدين والعيال ماوليت (١).

فهذه مواقف عالية من هؤلاء العلماء حيث تورع عبد الله ابن إدريس ووكيع بن الجراح الرؤاسي من تولي القضاء ، والامتناع عن القضاء منهج سار عليه كثير من العلماء، لما قد يتعرض له القاضي من ضغوط من الناس أو من الولاة وغير ذلك من الفتن، مع أن القاضي إذا عدل ولم يرتكب مائماً فإنه يؤدي عملاً من أركى الأعمال الصالحة، ولكن أولئك العلماء يأخذون بقاعدة « درء المفسد مقدم على جلب المصالح » .

أما حفص بن غياث فإنه قد أجاب إلى القضاء ، حيث دعت ضرورة المعيشة إلى ذلك، ولم يكن له هدف في الجاه والسمعة ولا في التكثر من الدنيا ، ولقد كان مثالا للعدل في القضاء .

ومن أمثلة عدله ما ذكره ابن خلكان من خبر غنام بن حفص قال: باع رجل من أهل خراسان جمالاً بثلاثين ألف درهم من مرزبان المجوسي وكيل أم جعفر (٢) فمطله ثمنها وحبسها عن سفره، وطال ذلك على الرجل، فأتى بعض أصحاب حفص بن غياث فشاوره فقال له: اذهب إليه فقل له : أعطني ألف درهم وأحيل عليك ببقية المال

(١) وفيات الأعيان ١٩٨/٢ .

(٢) هي روجة أمير المؤمنين هارون الرشيد .

وأخرجُ إلى خراسان ، فإذا فعلت هذا فأخبرني حتى أشير عليك ،
ففعل الرجل وأتى مرزبان فأعطاه ألف درهم فرجع إلى الرجل فأخبره
فقال : عد إليه فقل له : إذا ركبت غداً فطريقك على القاضي تحضر ،
وأوكلُ رجلاً بالقبض على المال وأخرجُ ، فإذا جلس إلى القاضي فادع
عليه بما بقي لك من المال ، فإذا أقر حبسه القاضي وأخذت مالك .

فرجع إلى مرزبان فسأله فقال : انتظرني بباب القاضي ، فلما ركب
من الغد وثب إليه الرجل وقال : إن رأيت أن تترك إلي القاضي حتى
أوكلُ بقبض المال وأخرجُ ، فنزل مرزبان إلى حفص المذكور فقال
الرجل : أصلح الله القاضي ، لي على هذا الرجل تسعة وعشرون
ألف درهم ، فقال حفص : ماتقول يامجوسي؟ قال : صدق ، أصلح
الله القاضي ، فقال القاضي : ماتقول يارجل فقد أقر لك ، فقال :
يعطيني مالي ، فأقبل حفص على المجوسي فقال : ماتقول؟ فقال : هذا
المال على السيدة ، فقال : أنت أحقق تقر ثم تقول على السيدة؟
ماتقول يارجل ؟ قال : أصلح الله القاضي إن أعطاني مالي وإلا
حبسته ، قال حفص : ماتقول يامجوسي؟ قال : المال على السيدة ،
فقال حفص : خذوا بيده إلى الحبس .

فلما حبس بلغ الخبر أم جعفر فغضبت وبعثت إلى السندي : وجه
إلى المرزبان ، وكانت القضاة تحبس الغرماء في مجلس الشرط ،
فأخرجَه ، وبلغ الخبر حفصاً فقال : أحبس أنا ويخرج السندي؟
لاجلست مجلسي هذا أو يردّ مرزبان إلى الحبس ، فجاء السندي إلى أم

جعفر فقال: الله الله فيّ، إنه حفص بن غياث وأخاف من أمير المؤمنين أن يقول لي : بأمر من أخرجته؟ رديه إلى الحبس، وأنا أكلم حفصاً في أمره ، فرجع مرزبان إلى الحبس (١) .

فهذا الخبر فيه موقف قوي للقاضي حفص بن غياث، حيث حكم على وكيل زوجة أمير المؤمنين هارون الرشيد، وحيث غضب حينما أخرج رئيس الشرطة ذلك الرجل الذي حبسه حفص وصمم على ترك القضاء إن لم يرجع ذلك الرجل إلى الحبس .

وهكذا تكون مواقف القضاة الذين يريدون بعملهم وجه الله تعالى ولا يعظمون معه مخلوقا يرجونه أو دنيا يعملون لها، فإن من كان كذلك فإن عظمة الله تعالى وخشيته ورجاءه تتضخم في القلب حتى تملأه فلا يكون فيه متسع لأي قوة من القوى الدنيوية ، وبذلك يكتسب صاحب هذا القلب جرأة فائقة وقوة خارقة ، ويسخر الله تعالى له قلوب عباده إكراما له ومثوبة على خلوص نيته وحسن عمله .

ومن مواقفه العالية في القضاء أنه كان يعتبر نفسه أجيرا فلا يشتغل في الوقت المخصص للقضاء بغيره ، حتى لو كان الذي سيشغله أمير المؤمنين ، وفي ذلك يقول ابن خلكان : وقال الخطيب: كان حفص ابن غياث المذكور جالسا في الشرقية للقضاء (٢) فأرسل إليه الخليفة يدعوه فقال لرسوله : حتى أفرغ من الخصوم، إذ كنت أجيرا لهم،

(١) وفيات الأعيان ١٩٩/٢ .

(٢) يعني الجهة الشرقية من بغداد وكان قد تولى قضاءها .

(٣) وفيات الأعيان ١٩٨/٢ .

وأصير إلى أمير المؤمنين ، ولم يقم حتى تفرق الخصوم (٣) .

وكان لا يعتبر نفسه مستحقا لراتب القضاء إذا لم يحضر حتى لو كان معذورا بالمرض ، وفي ذلك يقول غنام بن حفص : مرض أبي خمسة عشر يوما فدفع إلي مائة درهم وقال : امض بها إلى العامل وقل له : هذه رزق خمسة عشر يوما لم أحكم فيها بين المسلمين لاحظ لي فيها (١) .

وهذان مثالان جليان في الورع والعفة ومحاسبة النفس ، وهذا يدل على قوة إيمان القاضي حفص بن غياث وغزارة علمه رحمه الله تعالى .

ولقد ظل حفص بن غياث في القضاء عدة سنوات كان فيها قرير العين لما يتم على يديه كل يوم من إحقاق الحق وإبطال الباطل ، يدل على ذلك ما ذكره ابن خلكان من خبر ابنه عمرو بن حفص قال : لما حضرت أبي الوفاة أغمي عليه فبكيت عند رأسه ، فأفاق فقال : مايبيك ؟ قلت : أبكي لفراقك ولما دخلت فيه من هذا الأمر ، يعني القضاء ، فقال لابنه : يا بني ما حللت سراويلي على حرام قط ، ولا جلس بين يدي خصمان فباليت على من توجه الحكم بينهما (٢) .

فهو يحمد الله تعالى على نزاهته وعفته وسلامته من الفتن التي يتعرض لها بعض القضاة ، رحمه الله تعالى رحمة واسعة .

من مواقف أمير المؤمنين المأمون رحمه الله :

(١) وفيات الأعيان ١٩٨/٢ .

(٢) وفيات الأعيان ١٩٨/٢ .

قال الحافظ ابن كثير : جاءته امرأة ضعيفة قد تظلمت على ابنه العباس وهو قائم على رأسه ، فأمر الحاجب فأخذه بيده فأجلسه معها بين يديه ، فادعت عليه بأنه أخذ ضيعة لها واستحوذ عليها ، فتناظرا ساعة ، فجعل صوتها يعلو صوته ، فزجرها بعض الحاضرين فقال له المأمون : اسكت فإن الحق أنطقها والباطل أخرسه ، ثم حكم لها بحقوقها وأغرم ابنه لها عشرة آلاف درهم (١) .

فهذا مثل من عدل الولاية حتى مع الأقارب الأدين ، وقد تمثل عدل أمير المؤمنين عبد الله المأمون في إجلال ابنه العباس مع تلك المرأة التي خاصمته ، وتوحيد المجلس بين الخصوم مظهر من مظاهر العدل ، كما ظهر عدله في إتاحة الفرصة لتلك المرأة في إبداء ظلامتها مع ارتفاع صوتها ، ثم في حكمه لها على ابنه ، والعدل من أهم أسباب استقرار الحكم ، لأن الحاكم يكسب بالعدل قلوب الرعية .

من مواقف أمير المؤمنين المعتضد رحمه الله (٢):

من ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير قال : وقد أورد ابن الجوزي بإسناده أن المعتضد اجتاز في بعض أسفاره بقرية فيها مقثاة ، فوقف صاحبها صائحا مستصرخا بالخليفة ، فاستدعى به فسأله عن أمره فقال : إن بعض الجيش أخذوا لي شيئا من القثاء وهم من غلمانك ، فقال : أتعرفهم ؟ فقال : نعم ، فعرضهم عليه فعرف منهم ثلاثة ، فأمر الخليفة بتقييدهم وحبسهم ، فلما كان الصباح نظر الناس ثلاثة

(١) البداية والنهاية ١٠ / ٢٩٠ .

(٢) هو أمير المؤمنين أبو العباس أحمد بن محمد المعتضد بالله العباسي .

أنفس مصلوبين على جادة الطريق ، فاستعظم الناس ذلك واستنكروه وعابوا ذلك على الخليفة ، وقالوا : قتل ثلاثة بسبب قثاء أخذوه!! فلما كان بعد قليل أمر الخوَّاص - وهو مسامره - أن ينكر عليه ذلك ويتلطف في مخاطبته في ذلك والأمراء حضور ، فدخل عليه وقد عزم على ذلك ، ففهم الخليفة ما في نفسه من كلام يريد أن يبديه ، فقال له : إني أعرف أن في نفسك كلاما فما هو ؟ فقال : يا أمير المؤمنين وأنا آمن ؟ قال : نعم ، قال له : فإن الناس ينكرون عليك تسرعك في سفك الدماء ، فقال : والله ماسفكت دما حراما منذ وليت الخلافة إلا بحقه ، فقال له : فعلام قتلت أحمد بن الطيب وقد كان خادمك ولم يظهر له خيانة ؟ فقال : ويحك إنه دعاني إلى الإلحاد والكفر بالله فيما بيني وبينه ، فلما دعاني إلى ذلك قلت له : يا هذا أنا ابن عم صاحب الشريعة ، وأنا منتصب في منصبه فأكفر حتى أكون في غير قبيلته !! فقتلته على الكفر والزندقة .

فقال له : فما بال الثلاثة الذين قتلتهم على القثاء ؟ فقال : والله ماكان هؤلاء الذين أخذوا القثاء ، وإنما كانوا لصوصاً قد قتلوا وأخذوا المال فوجب قتلهم ، فبعثت فجئت بهم من السجن فقتلتهم وأريت الناس أنهم الذين أخذوا القثاء ، وأردت بذلك أن أرهب الجيش لئلا يفسدوا في الأرض ويتعدوا على الناس ويكفُّوا عن الأذى .

ثم أمر بإخراج أولئك الذين أخذوا القثاء فأطلقهم بعدما استتابهم وخلع عليهم وردهم إلى أرواقهم (١) .

(١) البداية والنهاية ٩٢/١١ - ٩٣ .

أوهم أنه قتل أصحاب تلك الجريمة الخفيفة ليرتدع جميع الجنود بينما قدّم للقتل ثلاثة قد وجب عليهم حد القتل شرعاً، وهذه سياسة حكيمة في ردع أصحاب الجرائم، وذلك يدل على رغبة المعتضد في أن يسود الأمن في المجتمع مع حرصه على عدم ارتكاب الظلم، وإذا كان الوالي حريصاً على سيادة الأمن والقضاء على الجرائم فإنه يُسدّد للمنهج الأفضل في ذلك .

وفي هذا الخبر دلالة على تغلغل الملحدين في الدولة الإسلامية حيث وصل ذلك الملاحد إلى مرتبة عالية عند الخليفة المعتضد، ثم تجرأ على دعوته إلى الإلحاد، ولو نجح في ذلك لأحدث فتنة كبرى في العالم الإسلامي، وكون ذلك الملاحد وصل إلى تلك المنزلة دليل على نقص الوعي الديني عند أهل العلم، إذ كان يجب عليهم أن يعرفوا الملحدين وأن يتابعوهم وأن يحذروا الولاة منهم حتى لا يصلوا إلى مناصب قيادية فيفسدوا في الأرض .

ومن ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير في ترجمته قال: وروى ابن الجوزي عن بعض خدام المعتضد قال: كان المعتضد يوماً نائماً وقت القائلة، ونحن حول سريريه، فاستيقظ مذعوراً ثم صرخ بنا فجئنا إليه، فقال: ويحكم اذهبوا إلى دجلة فأول سفينة تجدونها فارغة منحدره فأثوني بملاحها واحتفظوا بالسفينة، فذهبنا سراعاً فوجدنا ملاحاً في سَيمرية^(١) فارغة منحدره، فأتينا به الخليفة، فلما رأى

(١) هي السفينة الصغيرة .

الملاح الخليفة كاد أن يتلف، فصاح به الخليفة صيحة عظيمة، فكادت روح الملاح تخرج ، فقال له الخليفة : ويحك اصدقني عن قصتك مع المرأة التي قتلتها اليوم وإلا ضربت عنقك .

قال : فتلعثم ثم قال : نعم ياأمير المؤمنين كنت اليوم سحرًا في مشرعتي الفلانية فنزلت امرأة لم أر مثلها وعليها ثياب فاخرة وحلي كثير وجوهر ، فطمعت فيها، واحتلت عليها فشددت فاها وغرقتها وأخذت جميع ماكان عليها من الحلي والقماش، وخشيت أن أرجع به إلى منزلي فيشتهر خبرها، فأردت الذهاب به إلى واسط، فلقيني هؤلاء الخدم فأخذوني .

فقال : وأين حليها ؟ فقال : في صدر السفينة تحت البواري^(١)، فأمر الخليفة عند ذلك بإحضار الحلي فجيء به فإذا حلي كثير يساوي أموالا كثيرة .

فأمر الخليفة بتغريق الملاح في المكان الذي غرق فيه المرأة، وأمر أن ينادى على أهل المرأة ليحضرُوا حتى يتسلموا مال المرأة ، فنادى بذلك ثلاثة أيام في أسواق بغداد وأزقتها، فحضرُوا بعد ثلاثة أيام، فدفع إليهم ما كان من الحلي وغيره مما كان للمرأة ، ولم يذهب منه شيء .

فقال له خدمه : ياأمير المؤمنين من أين علمت هذا؟ قال : رأيت في نومي تلك الساعة شيخًا أبيض الرأس واللحية والثياب وهو ينادي : ياأحمد ياأحمد ، خذ أول ملاح ينحدر الساعة فاقبض عليه، وقرره

(١) هي الحصر من القصب .

عن خبر المرأة التي قتلها اليوم وسلبها، فأقم عليه الحد، وكان
ماشاهدتم (١) .

وهكذا نبّه الله تعالى الخليفة المعتضد بذلك الشيخ الجليل الذي رآه
في المنام ، وذلك من فضل الله جل وعلا عليه حتى لا يقع تحت
إمارته ظلم من غير أن يعلم ، إذ أن جرأة ذلك الملاح على قتل تلك
المرأة وسلبها من مظاهر نقص الأمن وضعف الحراسة ، فأنقذ الله
تعالى المعتضد من مسئولية ضياع تلك المرأة بتلك الرؤيا الصالحة ، لأنه
كان حريصا على العدل وإنقاذ المظلومين ، فنبهه الله لتلك المظلمة من
باب الجزاء بالحسنى على العمل الصالح .

وهذا مما يدخل في قول رسول الله ﷺ « تعرّف إلى الله في
الرخاء يعرفك في الشدة » (٢) إذ أن قيام ذلك الحاكم بالعدل فيما
يعلم من الأمور كان سببا في توفيقه إلى علم مالم يعلم من ذلك
ليبرئ ساحته من وجود الظلم تحت مسئوليته .

ومن أخباره في الشهامة والعدل ما ذكره الحافظ ابن كثير من خبر
القاضي أبي الحسن محمد بن عبد الواحد الهاشمي عن شيخ من
التجار قال: كان لي على بعض الأمراء مال كثير فمأطلني ومنعني
حقني، وجعل كلما جئت أطلبه حجبي عنه، ويأمر غلمانة يؤذونني،
فاشتكيت عليه إلى الوزير فلم يُفد ذلك شيئا، وإلى أولياء الأمر من
الدولة فلم يقطعوا منه شيئا ، ومازاده ذلك إلا منعاً وجحوداً، فأيست

(١) البداية والنهاية ٩٤ / ١١ .

(٢) مسند أحمد ٣٠٧ / ١ .

من المال الذي عليه ودخلني همٌّ من جهته، فبينما أنا كذلك وأنا حائر إلى من أشتكي، إذ قال لي رجل : ألا تأتي فلانا الخياط- إمام مسجد هناك - فقلت وماعسى أن يصنع خياط مع هذا الظالم. وأعيان الدولة لم يقطعوا فيه ؟ فقال لي : هو أقطع وأخوف عنده من جميع من اشتكيت إليه، فاذهب إليه لعلك أن تجد عنده فرجاً. قال فقصدته غير محتفل في أمره، فذكرت له حاجتي ومالي ومالقيت من هذا الظالم، فقام معي فحين عاينه الأمير قام إليه وأكرمه واحترمه وبادر إلى قضاء حقي الذي عليه فأعطانيه كاملاً من غير أن يكون منه إلى الأمير كبير أمر، غير أنه قال له : ادفع إلى هذا الرجل حقه وإلا أذنت. فتغير لون الأمير ودفع إليّ حقي.

قال التاجر : فعجبت من ذلك الخياط مع رثائه حاله وضعف بنيته كيف انطاع (١) ذلك الأمير له، ثم إني عرضت عليه شيئاً من المال فلم يقبل مني شيئاً، وقال : لو أردت هذا لكان لي من الأموال ما لا يحصى. فسألته عن خبره وذكرت له تعجبي منه وألححت عليه فقال : إن سبب ذلك أنه كان عندنا في جوارنا أمير تركي من أعالي الدولة، وهو شاب حسن، فمر به ذات يوم امرأة حسناء قد خرجت من الحمام وعليها الثياب مرتفعة ذات قيمة، فقام إليها وهو سكران فتعلق بها يريد لها على نفسها ليدخلها منزله، وهي تأبى عليه وتصيح بأعلى صوتها : يامسلمين أنا امرأة ذات زوج، وهذا رجل يريدني على نفسي ويدخلني منزله، وقد حلف روجي بالطلاق أن لا أبيت في

(١) انطاع : انصاع واستمع .

غير منزله ،ومتى بت ها هنا طلقت منه ولحقني بسبب ذلك عار
لاتدحضه الأيام ولا تغسله المدامع .

قال الخياط : فقامت إليه فأنكرت عليه وأردت خلاص المرأة من
يديه فضربني بدبوس في يده فشج رأسي ، وغلب المرأة على نفسها
وأدخلها منزله قهراً ، فرجعت أنا فغسلت الدم عني وعصبت رأسي
وصليت بالناس العشاء ثم قلت للجماعة : إن هذا قد فعل ماقد
علمتم فقوموا معي إليه لننكر عليه ونخلص المرأة منه ، فقام الناس
معي فهجمنا عليه داره فثار إلينا في جماعة من غلمانهم بأيديهم العصي
والدبابيس يضربون الناس، وقصدني هو من بينهم فضربني ضرباً
شديداً مبرحاً حتى أدماني، وأخرجنا من منزله ونحن في غاية الإهانة .

قال : فرجعت إلى منزلي وأنا لا أهتدي إلى الطريق من شدة
الوجع وكثرة الدماء ، فنمت على فراشي فلم يأخذني نوم ، وتحيرت
ماذا أصنع حتى أنقذ المرأة من يده في الليل لترجع فتبيت في منزلها
حتى لا يقع على زوجها الطلاق ، فألهمت أن أؤذن الصبح في أثناء
الليل لكي يظن أن الصبح قد طلع فيخرجها من منزله فتذهب إلى
منزل زوجها ، فصعدت المنارة وجعلت أنظر إلى باب داره وأنا أتكلم
على عاداتي قبل الأذان هل أرى المرأة قد خرجت ثم أذنت فلم
تخرج ، ثم صممت على أنه إن لم تخرج أقمت الصلاة حتى يتحقق
الصباح ، فبينما أنا أنظر هل تخرج المرأة أم لا ، إذ امتلأت الطريق
فرساناً ورجالة وهم يقولون : أين الذي أذن هذه الساعة؟ فقلت : ها
أنا ذا ، وأنا أريد أن يعينوني عليه، فقالوا : انزل، فنزلت فقالوا :

أجب أمير المؤمنين ، فأخذوني وذهبوا بي لأملك من نفسي شيئاً ، حتى أدخلوني عليه ، فلما رأيته جالساً في مقام الخلافة ارتعدت من الخوف وفزعت فزعا شديداً ، فقال : أدنُ ، فدنوت فقال لي : ليسكن روعك وليهدأ قلبك . وما زال يلاطفني حتى اطمأنت وذهب خوفي ، فقال : أنت الذي أذنت هذه الساعة ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين . فقال : ماحملك على أن أذنت هذه الساعة ، وقد بقي من الليل أكثر مما مضى منه ؟ فتغرّ بذلك الصائم والمسافر والمصلي وغيرهم . فقلت : يؤمنني أمير المؤمنين حتى أقص عليه خبري ؟ فقال : أنت آمن . فذكرت له القصة .

قال : فغضب غضباً شديداً وأمر بإحضار ذلك الأمير والمرأة من ساعته على أي حالة كانا فأحضرا سريعا فبعث بالمرأة إلى زوجها مع نسوة من جهته ثقات ومعهن ثقة من جهته أيضا ، وأمره أن يأمر زوجها بالعفو والصفح عنها والإحسان إليها ، فإنها مكرهة ومعدورة . ثم أقبل على ذلك الشاب الأمير فقال له : كم لك من الرزق ؟ وكم عندك من المال ؟ وكم عندك من الجوار والزوجات ؟ فذكر له شيئاً كثيراً . فقال له : ويحك أما كفاك ما أنعم الله به عليك حتى انتهكت حرمة الله وتعديت حدوده وتجرأت على السلطان ، وما كفاك ذلك أيضا حتى عمدت إلى رجل أمرك بالمعروف ونهاك عن المنكر فضربته وأهنته وأدميته ؟ فلم يكن له جواب . فأمر به فجعل في رجله قيلاً وفي عنقه غل ثم أمر به فأدخل في جوالق^(١) ثم أمر به

(١) الجوالق كيس كبير من الصوف .

فضرب بالدبابيس ضرباً شديداً حتى خفت ، ثم أمر به فألقي في دجلة فكان ذلك آخر العهد به . ثم أمر بَدْرًا صاحب الشرطة أن يحتاط على ما في داره من الخواصل والأموال التي كان يتناولها من بيت المال ، ثم قال لذلك الرجل الصالح الخياط : كلما رأيت منكراً صغيراً كان أو كبيراً ولو على هذا - وأشار إلى صاحب الشرطة - فأعلمني . فإن اتفق اجتماعك بي وإلا فعلى ما بيني وبينك الأذن ، فأذن في أي وقت كان ولو في مثل وقتك هذا .

قال : فلهذا لا أمر أحداً من هؤلاء الدولة بشيء إلا امتثلوه ، ولا أنهاهم عن شيء إلا تركوه خوفاً من المعتضد . وما احتجت أن أؤذن في مثل تلك الساعة إلى الآن (١) .

في هذا الخبر موقفان عاليان :

أولهما : موقف ذلك الخياط الصالح الذي أبى عليه إيمانه القوي وشهامته العالية أن يترك أخته في الإسلام فريسة لذلك الوحش الغادر ، فأنكر عليه اعتدائه عليها وتلقى منه الإهانة والضرب بالحديد ، ولما لم يستطع ردع ذلك الظالم بمفرده استعان عليه بمن ناصره من جماعة المسجد ، فلما لم يستطع لامتناع ذلك الظالم بغلمانه لم ييأس من إنقاذ تلك الفتاة المظلومة ولم تهدأ نفسه ولم يغمض له جفن حتى ابتكر تلك الحيلة الناجحة ، فأذن في جوف الليل ليوهم ذلك الظالم بأن الفجر قد طلع .

وهكذا يصل المتقون السابقون بالخيرات إلى تعريض أنفسهم للأذى

(١) البداية والنهاية ٩٥ / ١١ - ٩٧ .

والهلاك في سبيل إنقاذ إخوانهم المسلمين من الظلم والعار .
إنهم ينظرون إلى كل أخت مسلمة على أنها بمنزلة أمهاتهم
وبناتهم وأخواتهم ، فيحبون لإخوانهم وأخواتهم ما يحبون لأنفسهم ،
ويكرهون لهم ما يكرهون لها .

والموقف الثاني : موقف ذلك الحاكم العادل الحازم أمير المؤمنين
المعتضد بالله ، الذي تنبه لذلك الأذان الذي انطلق في جوف الليل ،
مما يدل على يقظته واهتمامه بأمور رعيته ، ثم اهتمامه بالقضاء على
ذلك المنكر بصرامة وشدة ، ليكون في ذلك ردع للظالمين المتجبرين .
من مواقف القاضي يوسف بن يعقوب رحمه الله :

ذكر الحافظ ابن كثير في ترجمة القاضي يوسف بن يعقوب بن
إسماعيل بن حماد بن زيد قال : ولي قضاء البصرة وواسط والجانب
الشرقي من بغداد ، وكان عفيفا شديدا حرمة نزلها ، جاءه يوما بعض
خدم الخليفة المعتضد فترفع في المجلس على خصمه ، فأمره حاجب
القاضي أن يساوي خصمه فامتنع إدلالا بجاهه عند الخليفة ، فزبره
القاضي وقال : اتئوني بدلال النخس حتى أبيع هذا العبد وأبعث بثمانه
إلى الخليفة ، وجاء حاجب القاضي فأخذ بيده وأجلسه مع خصمه ،
فلما انقضت الحكومة رجع الخادم إلى المعتضد فبكى بين يديه فقال له :
مالك ؟ فأخبره بالخبر وما أراد القاضي من بيعه ، فقال : والله لرب
باعك لأجزت بيعه ولما استرجعتك أبدا ، فليس خصوصيتك عندي
تزيل مرتبة الشرع ، فإنه عمود السلطان وقوام الأديان (١) .

(١) البداية والنهاية ١١٩/١١ .

فهذا مثل من عدل القضاة في الإسلام وعدم محاباتهم أصحاب الجاه والمنزلة ، ولقد كان هذا القاضي العادل يوسف بن يعقوب شديداً على ذلك الخادم الذي أراد أن يهين الدين بعدم استسلامه للقاضي ، وترفعه عن مساواة خصمه ، ولقد أثر فيه هذا الموقف القوي حتى أبكاه أمام الخليفة ، ولكنه كان أمام خليفة تقي عادل ، حيث وبخه على ما كان منه من الترفع والإدلال بصلته به ، وهذا موقف يذكر للأمير المؤمنين المعتضد مع مواقفه السابقة في العدل وتعظيم حرمة الدين .

موقف للأمير أبي النجم بدر بن حسنويه الكردي رحمه الله :

قال عنه الحافظ ابن كثير : كان من خيار الملوك بناحية الدينور وهمدان ، وله سياسة وصدقة كثيرة ، كنّا القادر بأبي النجم ، ولقبه ناصر الدولة ، وعقد له لواء وأنفذه إليه ، وكانت معاملاته وبلاده في غاية الأمن والطيبة ، بحيث إذا أعى جمل أحد من المسافرين أو دابته عن حمله يتركها بما عليها في البرية فيرد عليه ولو بعد حين لا ينقص منه شيء ، ولما عاثت امرأؤه في الأرض فساداً عمل لهم ضيافة حسنة ، فقدمها إليهم ولم يأتهم بخبز ، فجلسوا ينتظرون الخبز ، فلما استبطؤوه سألوا عنه فقال لهم : إذا كنتم تهلكون الحرث وتظلمون الزراع ، فمن أين تؤتون بخبز؟ ثم قال لهم : لا أسمع بأحد أفسد في أرض بعد اليوم إلا أرقت دمه .

واجتاز مرة في بعض أسفاره برجل قد حمل حزمة حطب وهو يبكي فقال له : مالك تبكي؟ فقال : إني كان معي رغيفان أريد أن

أتقوتهما فأخذهما مني بعض الجند ، فقال : أتعرفه إذا رأيته؟ قال : نعم . فوقف به في موضع مضيق حتى مر عليه ذلك الرجل الذي أخذ رغيفيه ، قال : هذا هو ، فأمر به أن ينزل عن فرسه وأن يحمل حزمته التي احتطبها حتى يبلغ بها إلى المدينة ، فأراد أن يفتدي من ذلك بمال جزيل فلم يقبل منه ، حتى تأدب به الجيش كلهم (١) .

فهذا مثل جليل في العدل ، ولمسة حانية وعطف رحيم من هذا الأمير لذلك العامل البسيط .

إن منظر المظلومين الضعفاء وهم يبكون يثير شهامة الكرماء ، ويبعث أصحاب النفوس السوية على الرحمة بهم والعطف عليهم وبذل الجهد في إنصافهم .

ومن هذا المنطلق كان هذا الموقف الكريم من هذا الأمير الذي سلك سلوكا عاليا أنصف به المظلوم وردع به الظالم ، وبهذا الحكم العادل تستقيم أمور الأمة ويصلح المجتمع .

موقف للسلطان عبد العزيز الحفصي رحمه الله تعالى :

قال عنه الإمام شمس الدين السخاوي رحمه الله تعالى : عبدالعزيز ابن أحمد بن محمد أبو فارس الهنتاتي الحفصي ملك المغرب وصاحب تونس . قال شيخنا في « انبائه » : قرأت بخط صاحبنا أبي عبد الله محمد بن عبد الحق التونسي فيما كتب من سيرته أنه بلغه أنه كان لا ينام من الليل إلا قليلا بل حزر بقدر أربع ساعات لا تزيد قط وربما نقصت ، وأنه ليس له شغل سوى النظر في مصالح ملكه ، وأنه كان

(١) البداية والنهاية ١١/٣٧٧ - ٣٧٨ .

يؤذن بنفسه ويؤم بالناس في الجماعة ويكثر من الذكر ويقرب أهل الخير، وأنه أبطل كثيراً من التركات والمفاسد بتونس كالعيلة وهو مكان يباع فيه الخمر للفرنّج يتحصل منه شيء كثير في السنة ولأكثر الجيش عليه رواتب وعوضهم عنه، وكذا المكوس (١) بحيث لم يكن ببلاده كلها شيء منها .

شُكِيَ إليه قلة القمح بالسوق فدعا تجاره فعرض عليهم قمحاً من عنده وقال أريد بيعه بدينار ونصف فاسترخصوه فأمر ببيعه بذلك السعر وأن لا يشتري من غيره بأزيد فاحتاجوا لبيع ما عندهم كذلك فترك هو حينئذ البيع فبلغه أنهم زادوا قليلاً فأمر ببيع ما عنده بدينار فقط وتقدم إلى خازنه أنه إن وجد القمح في السوق لا يبيع شيئاً وإلا باع بدينار فاضطربوا إلى أن مشى الحال فكانت من أحسن الحيل في تمشية حال الناس .

إلى أن قال: حضر محاكمة مع منازع له في بستان إلى القاضي فحكم عليه فقبل الحكم وأنصف الغريم (٢) .

فهذا موقف جيد من السلطان عبد العزيز الحفصي ، وذلك في الشعور بمسئوليته عن الأمة التي تولى أمرها ، فبعض التجار لا يهمهم إلا مصالحهم الخاصة ولا يبالون باحتكار الأطعمة الضرورية والزيادة في أثمانها ، ولا يشعرون بمشاعر الفقراء الذين لا يستطيعون دفع الأثمان

(١) أي : الضرائب .

(٢) الدر المصون للدكتور محمد بن حسن بن عقيل / ٤٢٨ عن « الضوء اللامع » للسخاوي .

الغالية ، فيكون ذلك سببا في حرمانهم من العيش الضروري أو تحملهم الديون بسبب ذلك .

فلما قام بعض التجار باحتجار ما عندهم من القمح ليكون ذلك سببا في غلاء الأسعار قام ذلك السلطان بتصرف مضاد لهم ، حيث أمر عملاءه من التجار بالبيع بثمن منخفض ، فاضطروا إلى البيع بالثمن المعتاد ، ففضى بذلك على تلك الأزمة التي سيتضرر منها جميع الفقراء .

وأخيراً موقف في التواضع والعدل من السلطان الحفصي ، حيث حضر إلى القاضي وجلس مع خصمه ، وهذا دليل على قوة إيمانه ورجاحة عقله .

* * *

مواقف وعبد
في
تقدير أهل الفضل

سبقت أمثلة لهذا الموضوع أثناء عرض مواقف النبي ﷺ وأصحابه ومن بعدهم .

وسأذكر في هذا الفصل بعض الأخبار في ذلك مما لم يسبق عرضه في أحداث السيرة والتاريخ .

تقدير النبي ﷺ لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما :

لقد كان رسول الله ﷺ قدوة هذه الأمة في مكارم الأخلاق ، وما رُوي عنه في تقدير أهل الفضل قوله في أبي بكر الصديق رضي الله عنه « إن أمنَّ الناس علي في صحبته وماله أبو بكر ، ولو كنت متخذا خليلا غير ربي لاتخذت أبا بكر ، ولكن أخوة الإسلام ومودته » أخرجه الإمامان البخاري ومسلم (١) .

وقوله في عمر بن الخطاب رضي الله عنه « قد كان يكون في الأمم قبلكم محدثون (٢) فإن يكن في أمتي منهم أحد فإن عمر بن الخطاب منهم » أخرجه الإمامان البخاري ومسلم واللفظ لمسلم (٣) .

ولقد روي عن الصحابة رضي الله عنهم في ذلك أخبار كثيرة .

(١) صحيح البخاري ، فضائل الصحابة ، رقم ٣٦٥٤ (١٢/٧) ، صحيح مسلم ، فضائل الصحابة ، رقم ٢٣٨٣ (ص ١٨٥٥) .

(٢) أي ملهمون يجري الصواب على ألسنتهم .

(٣) صحيح البخاري ، فضائل الصحابة ، رقم ٣٦٨٩ (٤٢/٧) ، صحيح مسلم ، فضائل الصحابة ، رقم ٢٣٩٨ (ص ١٨٦٤) .

ومن ذلك ما أخرجه الإمام البخاري من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال : كنت جالساً عند النبي ﷺ إذ أقبل أبو بكر آخذاً بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبته ، فقال النبي ﷺ أما صاحبكم فقد غامر^(١) ، فسلم وقال : يا رسول الله إني كان بيني وبين ابن الخطاب شيء فأسرعت إليه ثم ندمت ، فسألته أن يغفر لي فأبى علي فأقبلت إليك ، قال : يغفر الله لك يا أبا بكر (ثلاثاً) ، ثم إن عمر ندم فأتى منزل أبي بكر فسأل : أأنت أبو بكر ؟ فقالوا : لا ، فأتى إلى النبي ﷺ فجعل وجه النبي ﷺ يتمعر^(٢) ، حتى أشفق أبو بكر فجثا على ركبتيه فقال : يا رسول الله والله أنا كنت أظلم (مرتين) ، فقال النبي ﷺ : إن الله بعثني إليكم فقلتم : كذبت وقال أبو بكر : صدقت ، وواساني بنفسي وماله ، فهل أنتم تاركوا لي صاحبي ؟ (مرتين) ، فما أؤذي بعدها^(٣) .

وهذا الإعلان من النبي ﷺ لفضل أبي بكر رضي الله عنه مع اعترافه بالخطأ دليل على اهتمام النبي ﷺ بتميز أهل الفضل والإشادة بهم ليكونوا أعلام هداية في القدوة الحسنة ، فإن الأمة تحتاج برجالها الذين يحملون مبادئها ، وليست تقاد بمجرد المبادئ ، ولهذا وغيره من المقاصد العالية ركز النبي ﷺ في الثناء على أناس معدودين من الصحابة على رأسهم أبو بكر ثم عمر رضي الله عنهما .

وتمت أمر آخر في غاية الأهمية نلاحظه في هذا الخبر ولا بد من

(١) أي دخل في غمرة الخصومة .

(٢) أي يتغير ويتلون من الغضب .

(٣) صحيح البخاري ، فضائل الصحابة ، رقم (٣٦٦١) (١٨ / ٧) .

الإشارة إليه إنصافاً لذلك الجليل الراشد واعتراضاً بمدى السمو الأخلاقي الذي بلغوه ، وذلك في الوضوح والصراحة ، ثم العفو والتسامح .

إن الأخوة التي بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما لم تنقص بهذا الخلاف والمغاضبة ، بل زادت قوة ومتانة بما يتبعها من العفو والتسامح ، بينما نجد أبناء الدنيا على غير هذه الشاكلة . . تحامل في القلوب ، وأحقاد وضغائن في الخفاء ، ومداراة وبشاشة في العلانية ، وظهور بوجه أمام بعض الناس وبوجه آخر أمام الآخرين ممن يخالفون الصنف الأول في المعتقد والرأي ، يحاولون بذلك كسب رضى الناس جميعاً عنهم ، ولو كانوا متباينين في العقيدة التي يترتب عليها الحب والبغض أو يحاولون الكسب الدنيوي من وراء أعمالهم هذه ، وهؤلاء هم الذين عناهم النبي ﷺ بقوله « تجد من شر الناس يوم القيامة ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه » أخرجه الإمامان البخاري ومسلم (١) .

من مواقف أبي بكر وعمر رضي الله عنهما :

من ذلك ما أخرجه الحافظ ابن مردويه من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : قام رجل إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه بعد رسول الله ﷺ فقال : يا خليفة رسول الله من خير الناس؟ قال : عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال : ولأي شيء قدمته على نفسك؟ قال : بخصال ، لأن الله تعالى باهى به الملائكة ولم يباه

(١) صحيح البخاري ، رقم ٦٠٥٨ ، الأدب (١٠/٤٧٤) ، صحيح مسلم ، كتاب البر ، رقم ٩٨ .

بي، ولأن جبريل أقرأه السلام ولم يقرئني، ولأن جبريل قال: يارسول الله اشدد الإسلام بقول عمر، القول ما قال عمر، ولأن الله صدقه في آيتين من كتابه ولم يصدقني، قال: عاتب النبي ﷺ بعض نسائه فأتاهم عمر فقال: لَتَنْتَهِنَ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَوْ لَيُنْزِلَنَّ اللَّهُ فِيكُمْ كِتَابًا فَانْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكُمْ﴾ [الآية: سورة التحريم: ١٠]، ولأن عمر قال: يارسول الله إنه يدخل عليهن البر والفاجر فلو ضربت عليهن الحجاب، فأنزل الله تعالى ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، ولأن عمر قال: يارسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، فأنزل الله تعالى ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥] .

قال: فلما قبض أبو بكر قام رجل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين من خير الناس بعد رسول الله ﷺ ؟ قال: أبو بكر الصديق ، فمن قال غيره فعليه ما على المفتري (١) .

ففي هذا الخبر بيان اتصاف أبي بكر الصديق بصفتي التواضع والإيثار ، فبالرغم مما استقر في أذهان الصحابة رضي الله عنهم من أن أبا بكر هو أفضل هذه الأمة بعد نبيها ﷺ فإن أبا بكر يفضل عمر عليه رضي الله عنهما ، ويذكر شيئا من فضائله التي تميز بها .
ونجد عمر من شدة حماسه لتفضيل أبي بكر على جميع أفراد الأمة بعد رسول الله ﷺ يهدد من فضله عليه بالجلد ثمانين جلدة وهو حد المفتري .

(١) كنز العمال ١٥/٢-٣ .

إن هذا الخبر وأمثاله يبين لنا شيئا من الصفات التي تفوق بها الصحابة رضي الله عنهم، من الإيثار، والتواضع وتقدير أهل الفضل .

ومن ذلك ما أخرجه المؤرخ ابن الأثير من خبر عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: وفد ناس من أهل الكوفة وناس من أهل البصرة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: فلما نزلوا المدينة تحدث القوم بينهم إلى أن ذكروا أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، ففضل بعض القوم أبا بكر على عمر، وفضل بعض القوم عمر على أبي بكر، وكان الجارود بن المعلّى ممن فضل أبا بكر على عمر، فجاء عمر ومعه دِرَّةٌ [أي عصا] فأقبل على الذين فضلوه على أبي بكر فجعل يضربهم بالدرة، حتى مايتقى أحدهم إلا برجله، فقال له الجارود: أَفِقْ أَفِقْ يا أمير المؤمنين فإن الله عز وجل لم يكن ليرانا نفضلك على أبي بكر، أبو بكر أفضل منك في كذا وأفضل منك في كذا، فَسُرِّيَ عن عمر، ثم انصرف فلما كان من العشي صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ألا إن أفضل هذه الأمة بعد نبيها ﷺ أبو بكر، فمن قال غير ذلك بعد مقامي هذا فهو مفتر عليه ماعلى المفترى (١).

وهكذا رأينا موقفا جليلا من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث غضب غضبا شديداً على من فضلوه على أبي بكر رضي الله عنه، وقد حمّله ذلك على القيام بتأديبهم وهو في حال من التأثير الشديد من مقالاتهم، وإنه حينما يقوم بذلك العمل لا يقوم به تمثيلا ولا تظاهرا بالتواضع . .

(١) أسد الغابة في معرفة الصحابة ٣/ ٢١٥ - ٢١٦ .

إنه عاصف يعصر قلبه أن سمع من يفضل على أبي بكر ،
فظهرت آثار هذا العاصف المشاهدة للناس بصورة التأديب التي قام
بها .

ولئن شاهد الناس منه شيئاً من مظاهر إجلاله لأبي بكر فإن
ما يُكنُّ قلبه أبلغ من ذلك بكثير ، ولا أدل على ذلك من ظهور السرور
على وجهه حينما بين له المعلّي فضل أبي بكر عليه .

« أفق أفق يا أمير المؤمنين » كلمات شديدة قالها المعلّي لعمر ، فهل
كان عمر في غيبوبة !! الحقيقة أنه كان في حال من الغضب الشديد
الذي هيمن على مشاعره فعبر عنه بذلك التأديب الذي قام به ، ولقد
كان المعلّي بحاجة إلى هذا التعبير لأنه هو السلوك المناسب لرفع حالة
الغضب الشديد الذي هيج أمير المؤمنين عمر ، فهي كلمات تنبيه قوية
ليصغي عمر لما سيقوله له من بيان فضل أبي بكر عليه ، فلما سمع
عمر ذلك البيان زال غضبه واطمأنت نفسه ، فأين طلاب الدنيا الذين
يتسابقون على بناء أمجادهم الشخصية ليسمعوا هذه الروائع العظيمة
من حياة الصحابة رضي الله عنهم !!

ومن ذلك ما أخرجه محمد بن سعد من خبر أبي هريرة رضي الله
عنه قال قال عمر بن الخطاب : عليّ أقضانا .

وأخرج من خبر سعيد بن المسيب قال : كان عمر يتعوذ بالله من
معضلة ليس لها أبو حسن (١) .

وهكذا يقدر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أهل

(١) طبقات ابن سعد ٢/ ٣٣٩ .

الفضل ، ويظهر كفاءة الأكفاء فيما تميزوا به ، فلما كان أبو الحسن علي بن أبي طالب رضي الله عنه متفوقا في العلم بالأمور الدقيقة ، وحل المشكلات العويصة أشاد به عمر ، وكان يبحث عنه إذا نزل به شيء من ذلك ، ويشفق من فقدته لعدم وجود من يسد مسده في ذلك .

ومن ذلك ما أخرجه الإمام البخاري من حديث ثعلبة بن أبي مالك : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قسم مروطا بين نساء أهل المدينة ، فبقى مرط جيد ، فقال بعض من عنده : يا أمير المؤمنين أعط هذا ابنة رسول الله ﷺ التي عندك - يريدون أم كلثوم بنت علي - فقال عمر : أم سليط أحق - وأم سليط من نساء الأنصار ممن بايع رسول الله ﷺ - قال عمر : فإنها كانت تزفر لنا القرب يوم أحد (١) .

ففي هذا الخبر حفظ أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه حق أم سليط بنت عبيد بن زياد المازنية الأنصارية رضي الله عنها ، وقدر لها موقفها مع المؤمنين المجاهدين يوم أحد ، ففضلها بذلك الثوب المتميز ، وكون عمر يذكر هذا الموقف بعد سنوات من زمانه دليل على اهتمامه بما يقدمه المسلمون من أعمال البر والإحسان ، وخاصة فيما يتعلق بالجهاد ، وهذا أسلوب تربوي بناء ، فإن صاحب المعروف إذا قدر له المسلمون أعماله يزداد حماسا وإقداما على المزيد من البذل والإحسان ، ويسارع الآخرون في التنافس على أعمال الخير ، وإن كان الهدف الأساسي هو ابتغاء رضوان الله تعالى والدار الآخرة ، ولكن ثناء المؤمنين من عاجل بشرى المؤمن في هذه الحياة الدنيا .

(١) صحيح البخاري ، رقم ٢٨٨١ ، الجهاد (٦/٧٩) وقوله « تزفر » يعني تحمل .

ومن ذلك ما أخرجه أيضا المؤرخ أبو زيد عمر بن شبة من خبر أفلح مولى أبي أيوب قال: كان عمر رضي الله عنه يأمر بِحُلِّ تَنْسِجٍ لأهل بدر يُتَنَوَّقُ^(١) فيها، فبعث إلى معاذ ابن عفراء رضي الله عنه الحلة فقال لي معاذ: يا أفلح بع لي هذه الحلة، فبعتهَا له بألف وخمسمائة، ثم قال: اذهب فابتع لي رقابا، فاشتريت له خمس رقاب، ثم قال: والله إن امرءاً اختار قشرتين يلبسهما على خمس رقاب يعتقها لَغِينِ الرأي^(٢) اذهبوا فأنتم أحرار .

فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه أنه لا يلبس ما يبعث به إليه، فاتخذ له حلة غليظة أنفق عليها مائة درهم، فلما أتاه بها الرسول قال: ما أراه بعثك إليّ! قال: بل والله إليك بعثني، فأخذ الحلة فأتى بها عمر رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين بعثت إليّ بهذه الحلة؟ قال: نعم، إنا كنا نبعث إليك حلة مما يتخذ لك ولإخوانك فبلغني أنك لا تلبسها، فقال: يا أمير المؤمنين إني وإن كنت لا ألبسها فإني أحب أن تأتيني من صالح ما عندك، فأعاد له حلته^(٣).

فهذا الخبر فيه موقفان :

الأول : تقدير أهل الفضل ، حيث اختص أمير المؤمنين أهل بدر بمزيد من التقدير والعناية ، وتقدير أهل الفضل يعتبر نوعا من الشكر على الجميل والإحسان ، يناله صاحب الفضل في الدنيا، إلى جانب

(١) أي يتأنق بها ويتجمل .

(٢) أي ضعيف الرأي .

(٣) تاريخ المدينة المنورة / ٧٨١ - ٧٨٢ .

مايدخره الله تعالى له في الآخرة، وهو الأمر الأهم، كما أنه يعتبر تشجيعاً للمسلمين على المزيد من تقديم الأعمال الصالحة التي ينتفع بها المسلمون ويترتب عليها عز الإسلام ودولته .

الثاني : موقف جليل من معاذ ابن عفراء رضي الله عنه في الزهد في الدنيا، وإيثار العمل الصالح الذي يرجو ثوابه في الآخرة، ولقد قارن بين ثوبين يلبسهما وعمل صالح يتمثل في عتق خمسة ممالك، فحكم على من يقدم الثوبين بأنه ضعيف الرأي، وهذا يدل على ضآلة الدنيا وضخامة الآخرة في عينه، فلهذا أقدم على ذلك العمل الصالح .

ومن ذلك ما أخرجه البخاري عن زيد بن أسلم عن أبيه قال : «خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى السوق، فلحقتُ عمرَ امرأةً شابةً فقالت: ياأمير المؤمنين ، هلك زوجي وترك صبيةً صغاراً والله ماينضجون كراعاً ولا لهم زرع ولاضرع^(١) وخشيت أن تأكلهم الضبع^(٢) ، وأنا بنت خفاف ابن إيماء الغفاري وقد شهد أبي الحديبية مع النبي ﷺ . فوقف معها عمر ولم يمض، ثم قال مرحباً بنسب قريب. ثم انصرف إلى بعير ظهير^(٣) كان مربوطاً في الدار فحمل عليه غرارتين مألها طعاماً وحمل بينهما نفقة وثياباً، ثم ناولها خطامه ثم قال: اقتاديه ، فلن يفنى حتى يأتاكم الله بخير. فقال

(١) أي ليس عندهم مايكفي لحاجتهم، وليس لهم مورد من زراعة ولاماشية .

(٢) أي السنة المجذبة .

(٣) أي قوي الظهر معد للحاجة .

الرجل : يا أمير المؤمنين أكثرت لها ، قال عمر : ثكلتك أمك ، والله إني لأرى أبا هذه وأخاها قد حاصرا حصناً زماناً فافتتحاه ، ثم أصبحنا نستقيء سهماننا فيه « (١) .

فهذا موقف لأمر المؤمنين عمر في تقدير أهل السابقة والفضل ، فقد اهتم بتلك المرأة تقديراً لأبيها خفاف بن إيماء الغفاري رضي الله عنه ، وفي ذكر كونه من أهل الحديبية بيان لما استقر في الأذهان من تقدير الذين حضروا بيعة الرضوان يوم الحديبية لأن الله تعالى قد رضي عنهم كما جاء في قوله سبحانه ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ ..﴾ الآية [الفتح : ١٨] .

وفي قوله عمر « والله إني لأرى أبا هذه وأخاها قد حاصرا حصناً زماناً فافتتحاه » إشادة بالمجاهدين في سبيل الله تعالى ومالهم من فضل في حماية الأمة وتوسيع مصادر تمويلها .

وفي هذا الخبر تتكشف لنا بعض نواحي عظمة عمر رضي الله عنه ، ومنها رحمته بالضعفاء ولينه لهم في حدود الحق ، والعظماء هم الذين يتحسسون آلام الضعفاء فيقفون لمواساتهم .

ونجد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ينكر بشدة على رجل رد على ابن مسعود لما أمره بالالتزام بحكم شرعي وذلك فيما ذكر الإمام الذهبي من حديث أبي وائل أن ابن مسعود رأى رجلاً قد أسبل ، فقال : ارفع إزارك ، فقال : وأنت يا ابن مسعود فارفع إزارك ، قال :

(١) صحيح البخاري ، رقم ٤١٦٠ ، المغازي (٧/ ٤٤٥) .

إِنَّ بِسَاقِيَّ حَمُوشَةً (١) وأنا أؤم الناس فبلغ ذلك عمر، فجعل يضرب الرجل ويقول : أتردُّ على ابن مسعود ؟ (٢) .

وفي هذا اهتمام كبير من عمر رضي الله عنه في حفظ مكانة علماء الأمة ، ولا يمكن أن تستقيم أحوال المجتمع إلا بحفظ كرامة العلماء الربانيين لأنهم قادة الأمة وموجهوها ، فإذا تجرأ عامة الأمة عليهم انقطع خيط المهابة الذي يفرض وجود علاقة قوية بين العلماء وسائر أفراد الأمة .

ونجد عمر بن الخطاب يقدر فضل ابن مسعود رضي الله عنهما في حفظ القرآن، ومما يبين ذلك ما أخرجه الإمام أحمد رحمه الله تعالى من حديث قيس بن مروان رحمه الله تعالى : أنه أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : جئتُ يا أمير المؤمنين من الكوفة وتركت بها رجلاً يُملِّي المصاحف عن ظهر قلبه، فغضب وانتفخ حتى كاد يملأ ما بين شعبتي الرَّحْل ، فقال : ومن هو ويحك؟ قال : عبد الله بن مسعود ، فما زال يطفأ ويُسَرَّى عنه الغضب حتى عاد إلى حاله التي كان عليها ، ثم قال : ويحك والله ما أعلمه بقي من الناس أحد هو أحق بذلك منه، وسأحدثك عن ذلك ، كان رسول الله ﷺ لا يزال يسمر عند أبي بكر رضي الله عنه الليلة كذلك في الأمر من أمر المسلمين، وإنه سمر عنده ذات ليلة وأنا معه، فخرج رسول الله ﷺ وخرجنا معه فإذا رجل قائم يصلي في المسجد، فقام رسول الله ﷺ يستمع قراءته، فلما كدنا أن نعرفه قال رسول الله ﷺ : من سره أن

(١) يعني أنه كان دقيق الساقين .

(٢) سير أعلام النبلاء ٤٩١/١ - ٤٩٢ .

يقرأ القرآن رطباً كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد، قال: ثم جلس الرجل يدعو فجعل رسول الله ﷺ يقول له: سَلْ تُعْطَهُ، سَلْ تُعْطَهُ، قال عمر رضي الله عنه: قلت: والله لأغدونَّ إليه فلا بُشرته، قال: فغدوت إليه لأبشره فوجدت أبا بكر رضي الله عنه قد سبقني إليه فبشره، ولا والله ما سبقته إلى خير قط إلا وسبقني إليه (١).

هذا وإذا قارنا بين فزع عمر حينما طرق مسامعه خير من يلي المصاحف من قلبه، وبين سكنته ورضاه حين علم أن المعنيَّ بذلك هو عبد الله بن مسعود، يتبين لنا سمو منزلة ابن مسعود العلمية بين الصحابة رضي الله عنهم.

ثم إذا رأينا ثناء النبي ﷺ عليه أمام كبار الصحابة، ثم تذكرُ عمر لهذا الثناء، وروايته إياه ندرك مدى اهتمامهم بتقدير أهل الفضل، وحفظ منزلتهم، والإشادة بها في المجتمع.

ومن ذلك ما ذكره الخطيب البغدادي بإسناده عن عدي بن حاتم الطائي رضي الله عنه: أنه أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أناس من طيء-أو قال من قومه-فجعل يفرض للرجال من طيء في ألفين ألفين، قال: فاستقبلته فأعرض عني، فقلت: يا أمير المؤمنين أما تعرفني؟ قال: بلى إني والله لأعرفك، أسلمتَ إذ كفرُوا، وأقبلتَ إذ أدبرُوا، ووفيتَ إذ غدروا، وإن أول صدقة بيَّضت وجه رسول الله ﷺ ووجوه أصحابه صدقة طيء، جئت بها إلى رسول الله ﷺ (٢).

(١) مسند أحمد ٢٥/١ - ٢٦.

(٢) تاريخ بغداد ١٩٠/١.

وهكذا ذكر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فضل عدي بن حاتم وسابقته في الإسلام رضي الله عنه بعد مرور سنين على موافقه المشرفة في عهد النبي ﷺ ويوم أن ارتدت أو تمردت أكثر قبائل العرب بعد وفاته ﷺ ، حيث حمل عدي قومه على طاعة أمير المؤمنين أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فلم ينس له عمر هذا الفضل بل أثنى عليه علانية بما يستحق من التكريم والشكر ، وهكذا ينبغي لكل مسئول أن يكون خبيراً بفضل أهل الفضل وأن يشكرهم عليه في الوقت المناسب .

من مواقف علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

من ذلك اعترافه بفضل طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه مع ماسبق بينهما من خلاف، وقد أخرج الخبر في ذلك الإمام الطبري من حديث أبي حبيبة مولى طلحة قال: دخل عمران بن طلحة على عليّ بعدما فرغ من أصحاب الجمل، فرحب به وقال: إني لأرجو أن يجعلني الله وأباك من الذين قال الله ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾^(١) ورجلان جالسان على ناحية البساط فقالا: الله أعدل من ذلك، تقتلهم بالأمس وتكونون إخواناً؟ فقال علي: قوماً أبعد أرضٍ وأسحقها، فمن هم إذن إذا لم أكن أنا وطلحة^(٢) .

فقد بين علي فضل طلحة رضي الله عنهما، وإنما يُعرف فضل الإنسان بما يقدم من عمل يُرجى به حسن العُقْبَى في الآخرة، فهما

(١) الحجر / ٤٧ .

(٢) تفسير الطبري ٣٧/١٤ .

أخوان تتلمذا في مدرسة النبوة ، ولئن كان باعد بينهما اجتهداهما في آخر حياتهما حيث اختلف رأيهما في تطبيق الإسلام فإن أُخُوَّتَهُمَا الإيمانية باقية راسخة مادامت قلوبهما تسير نحو هدف واحد هو ابتغاء رضوان الله تعالى والدار الآخرة .

ولقد استبعد اثنان من الجاهلين أن يتقابل المسلمون في ميدان القتال ثم يكون مصيرهم في الآخرة إلى الجنة فزجرهما علي رضي الله عنه لكون الزجر أجْدَى في مقام الجدل المبني على اتباع الهوى ، ومن أجل ذلك لم يورد خبر شهادة رسول الله ﷺ لطلحة بالجنة مع وضوحه لكون الرجلين المعترضين يعلمان ذلك ، ولكنهما من أهل الأهواء المنحرفة .

وفي موقف علي رضي الله عنه هذا درس للمسلمين في حفظ حقوق إخوانهم ، فالخلاف الشديد الذي دار بينه وبين إخوانه لا يعني تغيير قلوبهم ، بل كل واحد منهم يرى للآخر فضله وإن خالفه في الاجتهاد .

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر أبي السفر قال : رُئيَ عليّ علي - رضي الله عنه - بُردٌ كان يكثر لبسه ، فقيل له : يا أمير المؤمنين إنك تكثر لبس هذا البرد ! قال : إنه كسانيه خليلي وصفيي وصديقي وخاصتي عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ، إنه عمر ناصحَ الله فنصحه الله تعالى ، ثم بكى (١) .

نعم ، بكى رضي الله عنه من شدة تأثره لما ذكر خليله عمرَ

(١) تاريخ دمشق ٤٤ / ٣٦٣ .

رضي الله عنه الذي اكتسب محبة معاصريه بعدله وحكمته وتواضعه وزهده في الدنيا ، وسائر صفاته الحميدة .

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر أبي جحيفة قال: دخلت على علي - رضي الله عنه - فقلت يا خير الناس بعد رسول الله ﷺ ، قال: فقال: مهلاً يا أبا جحيفة ، أولاً أخبرك بخير الناس بعد رسول الله ﷺ : أبو بكر وعمر ، ويحك يا أبا جحيفة لا يجتمع حبي وبغض أبي بكر وعمر في قلب مؤمن ، ويحك يا أبا جحيفة لا يجتمع بغضي وحب أبي بكر وعمر في قلب مؤمن (١) .

ففي هذا الخبر يبين علي رضي الله عنه فضل الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما على سائر الناس بعد رسول الله ﷺ ، ويبين أن حبه ملازم لحبهما ، وأن من أبغضهما فقد أبغضه ، ومن أبغضه فقد أبغضهما ، ذلك لأنهم إخوة في الله متحابون ، ويسر كل واحد منهما ما يسر صاحبيه ويسوءه ما يسوءهما .

ومن ذلك ما أخرجه اللالكائي والشيرازي وأبو الحسن البغدادي وابن منده وابن عساكر من خبر سويد بن غفلة قال: مررت بقوم يذكرون أبا بكر وعمر ويتقصونهما ، فأتيت علياً فذكرت له ذلك فقال لعن الله من أضمر لهما إلا الحسن الجميل ، أخوا رسول الله ﷺ ووزيراه .

قال: ثم صعد المنبر فخطب خطبة بليغة فقال: ما بال أقوام يذكرون سيدي قريش وأبوي المسلمين بما أنا عنه متنزه وما يقولون برئ

(١) تاريخ دمشق ٢٠١/٤٤ ، وانظر كثر العمال ١٦/١٥ .

وعلى مايقولون معاقب، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إنه لا يحبهما إلا مؤمن تقي ولا يغيظهما إلا فاجر ردي ، صحبا رسول الله ﷺ بالصدق والوفاء ، يأمران وينهيان ويعاقبان ، فما يجاوزان فيما يصنعان رأي رسول الله ﷺ ، ولا يرى رسول الله ﷺ كرايهما رأيا ، ولا يحب كحبهما حبا ، مضى رسول الله ﷺ وهو عنهما راض ، والناس راضون ، وولّى أبا بكر الصلاة ، فلما قبض الله نبيه ﷺ ولاه المسلمون ذلك ، وفوضوا إليه الزكاة لأنهما مقرونتان ، وكنت أول من لبّى له من بني عبد المطلب وهو لذلك كاره ، يود أن بعضنا كفاه فكان والله خير من بقي ، أرأفه رافة ، وأرحمه رحمة ، وأكيسه ورعا ، وأقدمه إسلاما ، شبهه رسول الله ﷺ بميكائيل رافة ورحمة ، وبإبراهيم عفوا ووقارا ، فسار بسيرة رسول الله ﷺ حتى قبض رحمة الله عليه .

قال : ثم ولّى الأمر من بعده عمر بن الخطاب ، واستأمر في ذلك الناس ، فمنهم من رضي ومنهم من كره ، فكنت ممن رضي ، فو الله ما فارق عمر الدنيا حتى رضي من كان له كارها ، فأقام الأمر على منهاج النبي ﷺ وصاحبه ، يتبع آثارهما كما يتبع الفصيل أثر أمه ، وكان والله خير من بقي ، رفيقا رحима ، وناصر المظلوم على الظالم ، ثم ضرب الله بالحق على لسانه حتى رأينا أن ملكا ينطق على لسانه ، وأعز الله بإسلامه الإسلام ، وجعل هجرته للدين قواما ، وقذف في قلوب المؤمنين الحب له ، وفي قلوب المنافقين الرهبة منه ، شبهه رسول الله ﷺ بجبريل فظا غليظا على الأعداء ، وبنوح حنّقا ومغتاضا على الكافرين ، فمن لكم بمثلهما ؟ لا يُبلّغ مبلغهما إلا بالحب لهما ، واتباع

آثارهما، فمن أحبهما فقد أحبني ، ومن أبغضهما فقد أبغضني وأنا منه برئ ، ولو كنت تقدمت في أمرهما لعاقبت أشد العقوبة ، فمن أُتيت به بعد مقامي هذا فعليه ما على المفتري ، ألا وخير هذه الأمة بعد نبينا أبو بكر وعمر، ثم الله أعلم بالخير أين هو، أقول قولي هذا ويغفر الله لي ولكم (١).

فهذه خطبة بليغة بين فيها علي بن أبي طالب أفضلية الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهم، وذكر شيئا من فضائلهما، وهذا موقف يذكر له في الوقت الذي غالى في حبه وتفضيله بعض التابعين، فقال كلاماً فصلاً في هذا الموضوع ووضع الأمور في نصابها .

من مواقف سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه :

أخرج أبو بكر الخطيب البغدادي من خبر الحسن بن أبي الحسن البصري قال: لما كان من بعض همج الناس ماكان (٢) جعل رجل يسأل عن أفاضل أصحاب رسول الله ﷺ ، فجعل لايسأل أحداً إلا دله على سعد بن مالك، قال فقل له : إن سعدا رجل إذا أنت رفقت به كنت قَمِنًا أن تصيب منه حاجتك، وإن أنت خرقت به كنت قَمِنًا أن لاتصيب منه شيئاً، فجلس أياما لايسأله عن شيء حتى استأنس به وعرف مجلسه، ثم قال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ ﴾ الآية [البقرة: ١٥٩] قال فقال سعد : هات ماقلت : لاجرم والذي نفس سعد بيده

(١) كنز العمال ١٦/٥ - ١٨ ، تاريخ دمشق ٣٦٦/٤٤ .

(٢) يعني في الفتنة التي قتل فيها عثمان رضي الله عنه .

لاتسألني عن شيء أعلمه إلا أنبأتك به، قال: أخبرني عن عثمان، قال: كنا إذ نحن جميع مع رسول الله ﷺ كان أحسننا وضوءاً، وأطولنا صلاة وأعظمنا نفقة في سبيل الله تعالى (١).

فهذا مثل من حفظ الصحابة رضي الله عنهم حقوق إخوانهم بعد موتهم، فقد اختلف الناس من التابعين في شأن عثمان بن عفان رضي الله عنه فكثير القدر فيه ممن لم يعاصروه إلا في خلافته أو بعدها، فركزوا على مارأوه مثالب، وغضوا الطرف عن فضائل الجمة ومناقبه الحميدة، وكان بعضهم يأتي إلى من بقي من كبار الصحابة فيسأله عن عثمان، ربما للتثبت في أمره، وربما لمحاولة الحصول على نقد من صحابي كبير، ليطير به في الآفاق، ويعمر به قلوب أصحاب الفتن، لكن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ليس ممن يغمط أصحاب الحقوق فضلهم، وليس ممن تُعمر به مجالس الفتن، بل هو خريج المدرسة النبوية التي يحافظ أفرادها على أعراض المسلمين أكثر مما يحافظون على أموالهم وجاههم، فكان منه هذا الجواب السديد الذي يعتبر حجراً في حلوق الراتعين في الفتن الشاغلي أوقاتهم وجهودهم في تلمس العيوب والنقائص لأعلام المسلمين الذين بهم انتشر الإسلام وبهم استقرت دولته .

من مواقف كعب بن مالك رضي الله عنه :

أخرج الإمام أبو داود من حديث عبد الرحمن بن كعب بن مالك وكان قائد أبيه بعدما ذهب بصره عن أبيه كعب بن مالك أنه كان إذا

(١) تاريخ بغداد ٤٤٧/٣ .

سمع النداء يوم الجمعة ترحم لأسعد بن زرارة قال: فقلت له : إذا سمعت النداء يوم الجمعة ترحمت لأسعد بن زرارة ، قال : لأنه أول من جمع بنا في هزم النبيت ^(١) من حرة بني بياضة في نقيع يقال له نقيع الخضمات ، قلت : كم أنتم يومئذ ؟ قال : أربعون ^(٢) .

هذا وإن تذكر كعب بن مالك لفضل أبي أمامة أسعد بن زرارة رضي الله عنهما بعد ذلك العهد الطويل دليل على صدق الوفاء ، والقيام بحق الشكر على الجميل ، ولقد كانت مبادرة أبي أمامة في تطبيق شعائر الإسلام في مجتمع لم يألفها شجاعة عالية تتم عن إيمان راسخ ووعي تام بأهداف الإسلام العليا ، فلهذا استحق من كعب بن مالك هذا الدعاء الذي واطب عليه سنوات طويلة وكان مظهرًا من مظاهر الشكر والثناء .

فالذين يبادرون إلى إقرار سنن الإسلام وتطبيقها في مجتمع لا يقبلها ابتداءً لهم أجر عظيم ، كما جاء في قول رسول الله ﷺ « من سنَّ في الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها ، ولا ينقص من أجورهم شيء » ^(٣) .

هذا وإن بروز هذا المشهد في ذهن كعب بن مالك مع هذا العمر المديد دليل على تمكن هذا الخلق الرفيع من نفسه ، وهو مثل صادق على عظمة النبي ﷺ ونجاحه الكبير في تربية ذلکم الجيل الراشد .

(١) يعني في مكان بني النبيت ، والهزم المكان المنخفض .

(٢) سنن أبي داود / كتاب الصلاة، باب الجمعة في القرى ، حديث رقم ١٠٦٩ .

(٣) صحيح مسلم ، رقم ١٠١٧ ، العلم ١٥ (٢٠٥٩) .

من موقف أبي الدرداء رضي الله عنه :

وهناك موقف كريم لأبي الدرداء رضي الله عنه أشاد فيه بفضل بعض علماء الصحابة، وذلك فيما أخرجه الإمام البخاري من حديث علقمة قال: قدمت الشام فصليت ركعتين، ثم قلت اللهم يسّر لي جليسا صالحا، فأتيت قوما فجلست إليهم، فإذا شيخ قد جاء حتى جلس إلى جنبي، قلت: من هذا؟ قالوا: أبو الدرداء، فقلت: إني دعوت الله أن يسر لي جليسا صالحا فيسرك لي، قال: من أنت؟ قلت: من أهل الكوفة، قال: أوليس عندكم ابن أم عبد صاحب النعلين والوساد والمطهرة؟ أفیکم الذي أجاره الله من الشيطان، يعني على لسان نبيه ﷺ؟ أوليس فيكم صاحب سر النبي ﷺ الذي لا يعلم أحد غيره؟ (١).

وقوله « أليس فيكم ابن أم عبد » يعني عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ووصفه المذكور في الخبر كناية عن قربه من النبي ﷺ وقيامه بخدمته وذلك يعني كثرة تحصيله العلمي منه، وقوله « أفیکم الذي أجاره الله من الشيطان؟ » يعني عمار بن ياسر رضي الله عنه، وصاحب السر هو حذيفة بن اليمان رضي الله عنه لأن رسول الله ﷺ أسر إليه بأسماء المنافقين .

وهكذا يعرف الصحابة رضي الله عنهم فضل إخوانهم فيثنون عليهم أمام المسلمين بذكر مناقبهم ، وهذه سنة حسنة ينبغي أن تنتشر بين العلماء ، وذلك بأن يحاول العالم تثبيت مكانة العلماء الآخرين

(١) صحيح البخاري ، رقم ٣٧٤٢ ، فضائل الصحابة (٧/ ٩٠) .

في بلادهم عن طريق نشر فضائلهم في قومهم ليعودوا لعلمائهم وهم يحملون عنهم سمعة حسنة ، وهذا له نفعه ووقعه في النفوس ، خاصة إذا صدر من العالم الكبير لمن هو دونه .
من مواقف عبد الله بن عباس رضي الله عنهما :

ومن أمثلة تذكر حقوق أهل الفضل وأدائها في الوقت المناسب ما أخرجه الإمام الطبراني في الكبير من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن أبا أيوب الأنصاري رضي الله عنه أتى عبد الله بن عباس بالبصرة وقد أمره عليها علي رضي الله عنه ، فقال : يا أبا أيوب إني أريد أن أخرج لك من مسكني كما خرجت للنبي ﷺ ، فأمر أهله فخرجوا وأعطاه كل شيء أغلق عليه الدار ، فلما كان انطلاقه قال : حاجتك ؟ قال : حاجتي عطائي وثمانية أعبد يعملون في أرضي ، وكان عطاؤه أربعة آلاف ، فأضعفها له خمس مرات ، فأعطاه عشرين ألفا وأربعين عبدا « (١) .

وهكذا تذكر ابن عباس ما قام به أبو أيوب من إنزال النبي ﷺ في بيته يوم الهجرة والقيام على خدمته والعناية به ، فأراد أن يكافئه على هذا الفضل لما قدر على ذلك ، وهو نوع رفيع من الوفاء ، وبراعة في اختزان المعاني السامية في الذاكرة وقد مر عليها قرابة أربعين عاما ، ثم إبدائها عند اللزوم لبناء الحاضر عليها ، وإنما يعرف قيمة أهل الفضل ويتذكر أخبارهم أهل الفضل والوفاء .

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من حديث طارق بن شهاب

(١) المعجم الكبير ٤/ ١٤٨ ، رقم ٣٨٧٦ .

قال: قلت لابن عباس : أيُّ رجل كان عمر؟ قال: كان كالطير الحذر الذي كأن له بكل طريق شركا (١).

ففي هذا الخبر يصف عبد الله بن عباس أمير المؤمنين عمر رضي الله عنهم بالنباهة واليقظة والفراسة، فهو بذلك يدرك الأخطار المحدقة بالأمّة وما يتوقع أن يكون من تخطيط الأعداء، ويتصور المشكلات التي قد تحدث فيضع الحلول المناسبة لها بفكره، فإذا حدثت بوادرها سارع إلى حسم القضايا قبل أن تستفحل، ويشبه هذا الوصف قول عائشة رضي الله عنها في عمر رضي الله عنه: كان والله أحوذياً نسيج وحده، قد أعدّ للأمور أقرانها، كأنما خلق للإسلام.

من مواقف معاوية رضي الله عنه :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر أبي صالح قال: قال معاوية بن أبي سفيان لضرار بن ضمرة: صف لي عليّاً: فقال: أو تعفيني؟ قال: بل صفه. قال: أو تعفيني؟ قال: لا أعفيك. قال أما إذا فإنه والله كان بعيد المدى شديد القوى، يقول فصلاً ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه، وينطق بالحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل وظلمته، كان والله غزير الدمعة، طويل الفكرة، يقلب كفه ويخاطب نفسه، يعجبه من اللباس ما خشن، ومن الطعام ما جشِبَ (٢)، كان والله كأحدنا، يجيبنا إذا سألناه، وبيتدئنا إذا أتينا، ويأتيننا إذا دعونا، ونحن والله مع تقريبه لنا وقربه منا

(١) تاريخ دمشق ٣١٢/٤٤.

(٢) الجشب من الطعام: الغليظ الخشن، وقيل: غير المأدوم.

لأنكلمه هيبه، ولانبتديه لعظمه. فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم يعظم أهل الدين، ويحب المساكين، لايطمع القويّ في باطله، ولايشس الضعيفُ من عدله. وأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سُجُوفَه وغارت نجومُه، وقد مَثُلَ في محرابه قابضاً على لحيته يتململ تلمل السليم^(١)، ويبكي بكاء الحزين، وكأني أسمعُه وهو يقول: يادنيا يادنيا أبي تعرّضت أم لي تشوّفت؟ هيهات هيهات غُرّي غيري، قد بَتَّكُ^(٢) ثلاثاً لارجعة لي فيك، فعمرك قصير، وعيشك حقير، وخطرك كبير. آه من قلّة الزاد وبُعد السفر، ووحشة الطريق .

قال فذرفت دموع معاوية رضي الله عنه حتى خرّت على لحيته فما يملكها، وهو ينشفها بكمه، وقد اختنق القوم بالبكاء. ثم قال معاوية رحم الله أبا الحسن، كان والله كذلك، فكيف حزنك عليه يا ضرار قال: حزن من ذُبِح ولدها في حجرها فلا ترقأ^(٣) عبرتها، ولايسكن حزنها^(٤).

فهذا وصف بليغ من ضرار الكناني لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، حيث وصفه ببعد النظر، والقوة في الحق، والفصاحة والبيان، والعدل في الحكم، وغزارة العلم والتقيد بالحكمة، والزهد في الدنيا ومظاهرها، والأنس بذكر الله تعالى ومناجاته، والبكاء من خشيته جل وعلا، واستدامة التأمل والتفكير في أمور

(١) السليم يعني المريض فهو من أسماء الأضداد .

(٢) أي طلقتك .

(٣) أي لا تحف .

(٤) صفوة الصفوة ١/ ٣١٥ - ٣١٦ .

الدنيا والآخرة، والتواضع لإخوانه المؤمنين ، وتعظيم أهل التقوى، والانتصار للضعفاء حتى يأخذوا حقوقهم، والقوة على أهل الباطل حتى يرتدعوا عن باطلهم، وقوة الاتصال بالله سبحانه وكثرة العبادة .
فهذه صفات عظيمة قلما تجتمع لإنسان واحد، وهي تدل على تفوق علي رضي الله عنه في أمور الدنيا والدين .

وفي الخبر موقف لمعاوية رضي الله عنه حيث بكى من خشية الله تعالى، ووافق ضرارا على تلك الصفات العالية التي وصف بها عليا رضي الله عنه مع ماسبق بينهما من خلاف، وفي هذا الخبر وأمثاله رد على الأخبار التي تفيد بأن معاوية أمر بسب علي على المنابر، وهذه الأخبار ظاهرة البطلان لأنها تتنافى تماما مع أخلاق معاوية الذي اشتهر بالحلم والسماحة والسياسة الحكيمة، فإنه ليس من الحكمة أن يُصدر هذا الأمر الذي سيثير عليه غضب الأمة الإسلامية في وقت كان يحاول بكل وسيلة اجتذاب قاداتها وحكمائها .

من مواقف أبي موسى الأشعري رضي الله عنه :

وفي باب الثناء على العلماء من أقرانهم تذكر هذه الحادثة التي جرت بين أبي موسى الأشعري وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما فقد أخرج الإمامان أحمد والبخاري وغيرهما من حديث هزيل بن شرحبيل قال: سئل أبو موسى الأشعري عن ابنة وابنة ابن وأخت^(١) فقال: للابنة النصف وللأخت النصف، وأنت ابن مسعود سيتابعني، فسئل ابن مسعود وأُخبر بقول أبي موسى فقال: لقد ضللت إذا وما أنا

(١) يعني عن قسمة الميراث بينهم .

من المهتدين ، أقضي بما قضى النبي ﷺ : للابنة النصف ولابنة الابن
السدس تكملة الثلثين وما بقي فللأخت ، فأتينا أبا موسى وأخبرناه
بقول ابن مسعود فقال : لاتسألوني مادام هذا الخبر فيكم (١) .

وهذا موقف جليل من أبي موسى رضي الله عنه حيث خالفه في
الحكم عبد الله بن مسعود فلم يغمطه حقه ، ولم ينتقص من قدره ، بل
أحال الناس عليه في الفتيا اعترافاً بقدره العلمي ، وهكذا يجب أن
تكون العلاقة بين علماء الدين حتى تبقى منزلتهم عالية في النفوس
ويحترمهم الناس .

وفي هذا بيان لحياة الصحابة رضي الله عنهم القائمة على الحب
والإخاء ، والاعتراف لأهل الفضل ، والترفع عن الأنانية .
من مواقف حذيفة رضي الله عنه :

من ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من حديث حذيفة بن
اليمان رضي الله عنهما قال : لأن أعلم أن فيكم مائة مؤمن أحب إليّ
من حمر النعم وسودها ، فقال أصحاب النبي ﷺ : ما تهاجرنا بيننا ،
ولاتشاتمنا بيننا ولاتفرقنا ، قال : هل فيكم من لا يخاف في الله لومة
لائم؟ ثم بكى ، ثم قال : لا أعلمه إلا عمر بن الخطاب فكيف أنتم لو
فارقكم ١٢ ؟ (٢) .

في هذا الخبر يبين لنا حذيفة رضي الله عنه صفة من الصفات
التي تميز بها أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه وهي قول الحق والعمل

(١) مسند أحمد ٤٦٣/١ ، صحيح البخاري ، رقم ٦٧٣٦ ، الفرائض (١٧/٢) .

(٢) تاريخ دمشق ٣٣٢/٤٤ .

به في جميع الظروف والأحوال ، وعدم خشية الناس ، وهذا مقام من مقامات الدين العظيمة ، وهو دليل على قوة الإيمان ورسوخ اليقين ، وبه تصلح أمور الأمة ، ويستسلم الناس للحق طوعا أو كرها .

ويقصد حذيفة بذلك الكمال في هذه الصفة ، وإلا فإن الصحابة يتصفون بهذه الصفة بنسب متفاوتة ، ولكنهم لا يصلون في ذلك إلى مستوى عمر ولا إلى قريب منه رضي الله عنهم أجمعين .

ومن ذلك ما أخرجه الشيخان من حديث شقيق بن سلمة عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال : بينا نحن جلوس عند عمر إذ قال : أيكم يحفظ قول النبي ﷺ في الفتنة ؟ قال : فتنة الرجل في أهله وماله وولده وجاره يكفرها الصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، قال : ليس عن هذا أسألك ولكن التي تموج كموج البحر ، فقال : ليس عليك منها بأس يا أمير المؤمنين ، إن بينك وبينها بابًا مغلقًا ، قال عمر : أيكسر الباب أم يفتح ؟ قال : بل يكسر ، قال عمر : إذا لا يُغلق أبدا ، قلت : أجل ، قلنا لحذيفة ؟ أكان عمر يعلم الباب ؟ قال : نعم كما يعلم أن دون غد ليلة ، وذلك أني حدثته حديثًا ليس بالأغاليط ، فهَبْنَا أن نسأله من الباب ، فأمرنا مسرورًا فسأله فقال : من الباب ؟ قال : عمر (١) .

ففي هذا الحديث بيان لمنزلة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه في

(١) صحيح البخاري ، رقم ٧٠٩٦ ، الفتن (٤٨ / ١٣) .

صحيح مسلم رقم (١٤٤) الإيمان (ص ١٢٨) .

الإسلام ، فهو الباب الذي كان يحجز بين المسلمين والوقوع في الفتن ، وهذا لا يعني أن كل الصحابة والتابعين قد وقعوا في الفتنة بعد عمر ، بل إن أكثر الصحابة وبعض التابعين ظلوا على استقامتهم وزهدهم في الدنيا حتى بعد وفاته ، ولكن الاعتبار هو العرف الاجتماعي الذي يسير الناس نحو سلوك معين وإن لم يقتنع به بعضهم ، والرأي العام الذي يشكل تصورات الناس وأفكارهم ، فقد كانت الاستقامة على الدين والزهد في الدنيا والإقبال على الآخرة هي المفاهيم السائدة قبل وفاة عمر ، وكان الناس يتسابقون في إظهار حياة التقشف في الملبس والمأكل وغير ذلك من أمور الدنيا ، وإن كان بعضهم في قرارة نفسه يود أن يعيش حياة أكثر رخاء ونعيمًا ، فلما توفي عمر أصبح هناك انفتاح نحو الدنيا من الذين لم يكونوا قبل ذلك مقتنعين بحياة الزهد والتقشف .

وكانت طاعة الإمام والولادة هي المنهج السائد قبل وفاة عمر رضي الله عنه سواء كان ذلك عن رضى أو عن كراهية ، فلما توفي عمر كثر الطعن على الإمام والولادة حتى أدى ذلك إلى قيام الثورة المعروفة على أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه ، ثم إلى وقوع القتال المعروف في عهد علي رضي الله عنه .

موقف للشفاء بنت عبد الله رحمها الله :

من ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر أيضا من حديث سليمان بن أبي حثمة قال : قالت الشفاء بنت عبد الله : - ورأت فتيانا يقصدون في المشي ويتكلمون رويدا فقالت - : ما هذا ؟ فقالوا :

نُسَّاك، فقالت : كان والله عمر إذا تكلم أسمع ، وإذا مشى أسرع ، وإذا ضرب أوجع ، وهو الناسك حقا (١).

نعم فليست العبادة بتصنع الوقار ، وإظهار النفوس في حال التخشع المفتعل ، بل هي بالاستقامة على منهج الله تعالى الكامل الذي تصبح فيه العلانية صورة من السرية .

وقد روي نحو هذا عن عائشة رضي الله عنها .

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر المسور بن مخرمة رضي الله عنه قال : كنا نلزم عمر بن الخطاب نتعلم منه الورع (٢).

وهكذا يكون المربون قدوة للناس بسمتهم ووقارهم وسلوكهم ، قبل أن يكونوا كذلك بوعظهم وتذكيرهم .

من مواقف عمر بن عبد العزيز رحمه الله :

من ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر حسن بن صالح قال : تذاكروا الزهاد عند عمر بن عبد العزيز فقال قائلون : فلان ، وقال قائلون : فلان فقال عمر بن عبد العزيز : أزهّد الناس في الدنيا علي بن أبي طالب (٣).

فهذه كلمة حق من أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى في وسط كان يكرهها ، حيث كان أغلب بني أمية يكرهون أمير

(١) تاريخ الإسلام ٢٨٨/٤٤ .

(٢) تاريخ دمشق ٢٨٨/٤٤ .

(٣) تاريخ دمشق ٤٢ / ٤٨٩ ، وانظر البداية والنهاية ٥ / ٨ .

المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وقد صدق عمر بن عبد العزيز في ذلك فلقد كان علي يشبه عمر بن الخطاب في الزهد ولكن المجتمع الذي عاش فيه قد اختلف وتمكنت الدنيا من نفوس كثير من الناس ، فلذلك لم يستطع أن يعمم حياة الزهد على أمرائه كما كان يفعل عمر وأصبح غريبا في مجتمعه .

من مواقف الحسن البصري رحمه الله :

ومن ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير من خبر هشام بن حسان قال :
بينما نحن عند الحسن البصري إذ أقبل رجل من الأزارقة فقال : يا أبا سعيد مائقول في علي بن أبي طالب ؟ قال : فاحمرت وجنتا الحسن وقال : رحم الله عليا ، إن عليا كان سهما لله صائبا في أعدائه ، وكان في محلة العلم أشرفها وأقربها إلى رسول الله ﷺ ، وكان رهبانياً هذه الأمة ، لم يكن لمال الله بالسروقة ، ولا في أمر الله بالنؤومة ، أعطى القرآن عزائمه وعمله وعلمه ، فكان منه في رياضٍ مونقة ، وأعلام بينة ، ذاك علي بن أبي طالب يالكع (١) .

فهذا موقف جيد من الحسن بن أبي الحسن البصري رحمه الله تعالى ، حيث صرح بفضائل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أمام رجل من الخوارج ، الذين كانوا من أعدائه ، والتصريح بفضائل الصحابة أمام من يعادونهم نوع من الجهاد ، لأن من فعل ذلك قد يتعرض للأذى .

(١) البداية والنهاية ٨ / ٥ .

من مواقف محمد بن علي بن الحسين رحمه الله :

قال عروة بن عبد الله : سألت أبا جعفر محمد بن علي عن حلية السيف فقال : لا بأس به ، قد حلّى أبو بكر الصديق سيفه . قال : قلت : وتقول الصديق؟ قال : فوثب وثبة واستقبل القبلة ثم قال : نَعَمْ الصديق ، نعم الصديق ، فمن لم يقل الصديق فلا صدق الله له قولاً في الدنيا والآخرة .

وقال جابر الجعفي : قال لي محمد بن علي : يا جابر! بلغني أن قومًا بالعراق يزعمون أنهم يحبونا ويتناولون أبا بكر وعمر ويزعمون أنني أمرتهم بذلك ، فأبلغهم عني أنني إلى الله منهم بريء ، والذي نفس محمد بيده - يعني نفسه - لو وليت لتقربت إلى الله بدمائهم ، لا نالني شفاعة محمد ﷺ إن لم أكن أستغفر لهما ، وأترحم عليهما ، إن أعداء الله لغافلون عن فضلهما وسابقتهما ، فأبلغهم أنني بريء منهم ومن تبرأ من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما .

وقال : من لم يعرف فضل أبي بكر وعمر فقد جهل السنة .
وقال في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (١)
الآية . قال : هم أصحاب محمد ﷺ ، قال : قلت : يقولون : هو علي قال : علي من أصحاب محمد ﷺ (٢) .

فهذا كلام جليل من الإمام أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين في الاعتراف بالفضل لأهل الفضل ، والكلام في إثبات عدالة

(١) سورة المائدة ، الآية/ ٥٥ .

(٢) البداية والنهاية ٩ / ٣٢٣ .

الصحابة رضي الله عنهم وبيان فضلهم يعتبر من الأعمال الصالحة التي يثاب عليها فاعلها، وخاصة إذا صدر ذلك من علماء آل البيت، حيث نسب إليهم المبطلون كلاما في التنقيص من قدر الصحابة هم منه برءاء .

إن محبة أي إنسان تعني أن يصدر من مُحبة ما يهواه ويلائمه ، ليكون قد حقق متطلبات الحب ، وإن الذي يهواه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وذريته أن تتحقق محبة الصحابة رضي الله عنهم في قلوب المسلمين وأن يُعرف فضل أهل التقدم منهم ، أما دعوى التناقض بين محبة علي وآله ومحبة بقية الصحابة فهي دعوى باطلة ، قد فنّدها عليّ كما سبق ، وهذا أحد أحفاده محمد بن علي يرد على هذه الدعوى ويبطلها .

موقف للأئمة أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وأبي عبيد رحمهم الله :

ذكر الإمام الذهبي عن محمد بن إسحاق بن راهويه قال : حدثني أبي قال : قال لي أحمد بن حنبل : تعال حتى أريك من لم يُر مثله ، فذهب إلى الشافعي ، قال أبي : وما رأى الشافعي مثل أحمد بن حنبل ، ولولا أحمد وبذل نفسه لذهب الإسلام - يريد المحنة - (١) .

فهذا مثل جليل في تقدير أهل الفضل ، فقد كان الإمام أحمد يكثر من الثناء على الإمام الشافعي ، ويرى أنه يتفوق على غيره بالتوسع في فهم معاني النصوص الشرعية ، فلذلك أطنب في الثناء

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ١٩٦ .

يعني امتحان الناس بالقول بخلق القرآن .

عليه ، ومن ذلك ما ذكره علي بن أحمد بن النضر الأزدي قال :
سمعت أحمد بن حنبل ، وسئل عن الشافعي فقال : لقد منَّ الله
علينا به ، لقد كنا تعلمنا كلام القوم وكتبنا كتبهم حتى قدم علينا فلما
سمعنا كلامه علمنا أنه أعلم من غيره ، وقد جالسناه الأيام والليالي
فما رأينا منه إلا كل خير (١) .

وقوله « لقد تعلمنا كلام القوم » يشير به إلى فقه الفقهاء في
المسائل التي دونوها حسب فهمهم من الكتاب والسنة والقياس عليهما
فيما لانص فيه .

وهذا الثناء يبين قوة إيمان الإمام أحمد وتجرده من حظ النفس ،
فالإمام الشافعي معاصر له ، وقد وفد إلى بغداد بعلمه المتميز الذي
لا يقاربه فيه أحد من علماء عصره ، فلم يكن في قلب أحمد بن
حنبل ذرة من الحسد له ، بل رفع من ذكره ولازمه وأخذ العلم عنه
حتى عاتبه أحد أهل العلم في لزوم ركابه فقال له : لو علمت علمه
للزمت الركاب الآخر .

وكما كان الشافعي متفوقا في هذا الجانب فإن أحمد بن حنبل كان
متفوقا في جوانب أخرى ، أبرزها التوسع في رواية السنة النبوية ،
كما كان صاحب الموقف العظيم في الدفاع عن عقيدة السلف الصالح
رضوان الله عليهم والثبات عليها ، وبهذا أثنى عليه الحافظ إسحاق بن
راهويه .

وهكذا يضرب علماء الإسلام أمثلة عالية في مكارم الأخلاق في
مجال تقدير أهل الفضل وتمجيد ذكرهم .

(١) سير أعلام النبلاء ٥٨/١٠ .

ومن ذلك ماروي عن محمد بن أبي بشر قال : أتيت أحمد بن حنبل في مسألة فقال : ائت أبا عبيد فإن له بيانا لاتسمعه من غيره ، فأتيته فشفاني جوابه ، فأخبرته بقول أحمد فقال : ذاك رجل من عمال الله نشر الله رداء عمله وذخر له عنده الزُّلفى ، أما تراه محببا مألوفاً ، مارأت عيني بالعراق رجلا اجتمعت فيه خصال هي فيه ، فبارك الله له فيما أعطاه من الحلم والعلم والفهم ، فإنه لَكَمَّا قِيل :

يَزِينُكَ إِمَّا غَابَ عَنْكَ فَإِنْ دَنَا رَأَيْتَ لَهُ وَجْهًا يَسْرُكُ مَقْبَلًا
يَعْلَمُ هَذَا الْخَلْقَ مَا شَدَّ عَنْهُمْ مِنْ الْأَدَبِ الْمَجْهُولِ كَهَفًا وَمَعْقَلًا
وَيُحْسِنُ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ إِذَا رَأَى مَضِيًّا لِأَهْلِ الْحَقِّ لَا يَسْأَمُ الْبَلَا
وَإِخْوَانَهُ الْأَدْنُونَ كُلَّ مَوْفُقٍ بِصِيرٍ بِأَمْرِ اللَّهِ يَسْمُو عَلَى الْعَلَا(١)
ففي هذا الخبر مثل من آداب أهل العلم وتقدير أهل الفضل ، فهذان الإمامان الجليلان كل واحد منهما أثنى على الآخر بما فيه من خصال الخير ، فالإمام أحمد قد تواضع وبرئ من حظ النفس حينما أحال من سألته في تلك المسألة العلمية على أبي عبيد القاسم بن سلام .

وفي المقابل كان أبو عبيد منصفاً عارفاً بفضل أهل الفضل ، فقد أطنب في الثناء على أبي عبد الله أحمد بن حنبل ، ولم يقل فيه إلا حقاً وصدقاً ، فإن مآثر هذا الإمام قد بلغت المشرق والمغرب في زمنه ، وما يزال ذكره حسناً وسمعته عالية .

(١) سير أعلام النبلاء ١١ / ٢٠٠ - ٢٠١ .

ومما جاء في إبراز أهل الفضل والتقدم في العلم ماروي عن عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: يا أبة من الحفاظ؟ قال يابني شباب كانوا عندنا من أهل خراسان، وقد تفرقوا قلت: من هم؟ قال: محمد بن إسماعيل ذاك البخاري، وعبيد الله بن عبد الكريم ذاك الرازي، وعبد الله بن عبد الرحمن ذاك السمرقندي، والحسن بن شجاع ذاك البلخي، قال: فقلت: يا أبة من أحفظ هؤلاء؟ قال: أما أبو زرعة فأسردهم، وأما محمد فأعرفهم، وأما الدارمي فأتقنهم وأما ابن شجاع فأجمعهم للأبواب (١).

وهذا كلام جليل من الإمام أحمد في حق هؤلاء الأربعة الحفاظ الكبار، الذين أصبح لهم شأن كبير في الحياة العلمية آنذاك، وخاصة في بلاد خراسان وما وراء النهر.

وقد نال هؤلاء كلهم شهرة علمية ماعدا محمد بن شجاع البلخي وقد أبان السبب في ذلك محمد بن عقيل، وذلك فيما ذكر أبو عمرو محمد البيكندي قال: فحكيت هذا - يعني كلام الإمام أحمد - لمحمد بن عقيل فأطرى ذكر الحسن بن شجاع، فقلت له: لم يشتهر كما اشتهر هؤلاء؟ قال: لأنه لم يُمتّع بالعمر (٢).

والعمر كان عاملاً مهماً في اشتهار العالم آنذاك لأن مرحلة الطلب طويلة، ولا يكاد العالم يعطي علمه ويؤلف إلا في سن الكهولة. فأما الإمام محمد بن إسماعيل البخاري، فمن المعروف في ذلك

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/ ١٨٨ - ١٨٩ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٢/ ١٨٩ .

العهد وبعده بأنه أفضل هؤلاء ، وقد حاز التميز في كل الخصال التي ذكرها الإمام أحمد ولكن الإمام أحمد أراد أن يذكر أهم صفة تميز بها كل واحد ، وقد اشتهر في التصنيف في السنة كما هو واضح من كتابه " الجامع الصحيح " وفي الجرح والتعديل كما هو واضح في كتابه " التاريخ الكبير .

وأما الإمام أبو زرعة عبيد الله بن عبد الكريم الرازي فقد اشتهر في علم الجرح والتعديل ، وأقواله مبثوثة في كتب هذا الفن ومن أبرزها " الجرح والتعديل " لابن أبي حاتم .

وأما الإمام عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي السمرقندي فقد اشتهر بتدوين السنة وكتابه في السنن مشهور معروف .

وهذا لا يعني خلو ذلك العصر من الحفاظ غير هؤلاء بل هناك حفاظ كثيرون من أمثال الحفاظ أبي حاتم الذي كان قرين الحفاظ أبي زرعة في الجرح والتعديل ، والحافظ أحمد بن عبد الله العجلي ، والحافظ محمد بن واره ، وأمثالهم كثير .

وإنما ذكر الإمام أحمد أبرز الحفاظ الذين لازموا في أثناء طلب العلم .

موقف لعمر بن علي الفلاس رحمه الله :

أخرج الخطيب البغدادي من خبر محمد بن أبي حاتم الوراق قال : سمعت محمد بن إسماعيل يقول : ذاكرني أصحاب عمرو بن علي بحديث فقلت : لا أعرفه ، فسروا بذلك ، وساروا إلى عمرو بن علي فقالوا : ذاكرنا محمد بن إسماعيل البخاري بحديث فلم يعرفه ، فقال

عمرو بن علي: حديث لا يعرفه محمد بن إسماعيل ليس بحديث (١).

فهذا موقف جليل للحافظ عمرو بن علي الفلاس حيث لم يغتنم هذه الفرصة للتشهير بالإمام البخاري حينما أبدى عدم معرفته بذلك الحديث الذي طرحه عليه تلاميذ الفلاس، بل تصرف بضد ذلك حينما أثنى على البخاري في العلم ثناء عظيمًا، فحكم على أي حديث لا يعرفه البخاري بأنه ليس بحديث معتبر، وهذه شهادة قيمة من حافظ كبير.

وهذا السلوك من الحافظ الفلاس يعتبر قمة في البعد عن الأنانية، والتجرد من حظ النفس، والاعتراف بالفضل لأهله.

موقف لسهل بن عبد الله التستري رحمه الله:

ومن ذلك ماروي عن القاضي الخليل بن أحمد السجزي: سمعت أحمد بن محمد بن الليث قاضي بلدنا يقول: جاء سهل بن عبد الله التستري إلى أبي داود السجستاني، فقيل: يا أبا داود هذا سهل بن عبد الله جاءك زائرا، فرحب به وأجلسه، فقال سهل: يا أبا داود لي إليك حاجة، قال: وما هي؟ قال: حتى تقول: قد قضيتها مع الإمكان، قال: نعم، قال: أخرج إلي لسانك الذي تحدث به أحاديث رسول الله ﷺ حتى أقبله، فأخرج إليه لسانه فقبله (٢).

فهذا مثل عالٍ من إكرام أهل العلم وتقديرهم الذي هو مبني على تعظيم سنة رسول الله ﷺ.

(١) تاريخ بغداد ١٨/٢.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢١٣/١٣، وفيات الأعيان ٤٠٤/٢.

وإن هذا التقدير البالغ والاحترام الكبير لأصحاب الحديث الذي عمرت به تلك العصور الزاهرة من أهم أسباب ازدهار التحديث ، وإقبال طلاب العلم على دراسة السنة النبوية ، فقد أصبح أهل الحديث هم عِلْيَةُ القوم في كل بلد ، وهم الذين يشار إليهم بالبنان ، ويغبطهم على السمعة العالية الكبراء من أهل السمعة الدنيوية .

ولقد أصبح الحُلُم الكبير في تلك العصور للآباء والأُمّهات في مستقبل أبنائهم أن يكونوا من المحدثين حتى يحوزوا على تلك السمعة العالية ، ولذلك كانوا يحملون أبناءهم من الصغر على حفظ القرآن الكريم ، ثم على السماع من شيوخ الحديث .

موقف للأمير نوح بن نصر رحمه الله :

ذكر الحافظ الذهبي من خبر أبي عبد الرحمن السلمي قال : سمعت أبا أحمد الحافظ ^(١) يقول : حضرت مع الشيوخ عند أمير خراسان نوح بن نصر ، فقال : من يحفظ منكم حديث أبي بكر رضي الله عنه في الصدقات ؟ فلم يكن فيهم من يحفظه ، وكان علي خُلُقَانٌ وأنا في آخر الناس ، فقلت لوزيره : أنا أحفظه ، فقال : ها هنا فتى من نيسابور يحفظه ، فقُدِّمْتُ فوقهم ، ورويتُ الحديث ، فقال الأمير : مثل هذا لا يُضَيِّع ، فولاني قضاء الشاش ^(٢) .

وهكذا ارتفع هذا الفتى بسبب حفظه حديث أبي بكر رضي الله

(١) هو الإمام محمد بن محمد بن أحمد النيسابوري (الحاكم الكبير) .

(٢) سير أعلام النبلاء ٣٧٢ / ١٦ - ٣٧٣ .

عنه في الصدقات ، وقد أصبح فيما بعد من الحفاظ المشهورين .
وهذا السؤال من ذلك الأمير نوح بن نصر يعتبر اهتماما منه
بالعلم وأهله ، ولما برز هذا الشاب في حفظ ذلك الحديث الطويل
قدره ذلك الأمير وولاه القضاء .

وهكذا يرفع العلم أقواما وإن كانوا صغارا لا يُؤبه بهم وذلك عند
من يقدرون العلم وأهله .

موقف للأمير إسماعيل بن أحمد الساماني رحمه الله :

من أمثلة تقدير أهل الفضل والعلم ما ذكره الوزير أبو الفضل
محمد بن عبيد الله البلّعي : سمعت الأمير إسماعيل بن أحمد
يقول : كنت بسمرقند ، فجلست يوما للمظالم وجلس أخي إسحاق
إلى جنبي إذ دخل أبو عبد الله محمد بن نصر ، فقامت له إجلالا
للعلم ، فلما خرج عاتبني أخي وقال : أنت والي خراسان تقوم لرجل
من الرعية ؟ هذا ذهاب السياسة .

قال : فبتُّ تلك الليلة وأنا متقسم القلب ، فرأيت النبي ﷺ في
المنام ، كأني واقف مع أخي إسحاق ، إذ أقبل النبي ﷺ فأخذ
بعضدي ، فقال لي : ثبّت ملكك وملك بنيك بإجلالك محمد بن
نصر ، ثم التفت إلى إسحاق فقال : ذهب ملك إسحاق وملك بنيه
باستخفافه بمحمد بن نصر (١) .

وهكذا أنقذ الله تعالى بهذه الرؤيا المباركة الأمير إسماعيل بن
أحمد بن أسد بن سامان من تلك الحيرة التي تردد فيها بين الاستمرار

(١) سير أعلام النبلاء ٣٨/١٤ - ٣٩ .

في احترام العلماء ، وهو الذي تميل إليه نفسه الطيبة ، وبين التمسك بالمظاهر المصطنعة التي يقصد بها إظهار هيبة السلطة ، فتبين له من هذه الرؤيا أن التواضع للعلماء هو السياسة الحكيمة وهو الذي يعطي ولي الأمر قوة تُبقي على ولايته وتحبب الرعية إليه .

إن هذا هو الموافق لتوجيهات النبي ﷺ في مثل قوله « إن من إجلال الله تعالى إكرامَ ذي الشيبة المسلم ، وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه ، وإكرامَ ذي السلطان المقسط » (١) .

وإذا كان إجلال عالم الدين إجلالا لله تعالى فإنه سبحانه يوفق من صدر منه إلى الخير ، ويقيه الشر ، ويثبت له أمره إن كان من الولاة .

وإذا نظرنا إلى الأمر من ناحية السياسة الإنسانية الاجتهادية فإن علماء الدين لهم مكانة عالية في نفوس المسلمين ، فمن أعزهم كان عزيزا عندهم ، ومن أذلهم كان محتقرا مكروها لديهم ، ولهذا فإنه بغضُ النظر عن المعنى الأول الذي هو الأهم ، فإن ذلك الوالي كان أعلى في فهم السياسة من أخيه .

موقف للإمام محمد بن يحيى الذهلي رحمه الله :

قال الإمام محمد بن يحيى الذهلي : لما رحلت بابني (٢) إلى العراق صحبني جماعة من الغرباء ، فسألوني : أي حديث عند أحمد

(١) سنن أبي داود ، كتاب الأدب رقم ٤٦٧٦ باب ٢٣ .

(٢) يعني ابنه يحيى بن محمد الذهلي وهو من الحفاظ وقد ورث المكانة العلمية بعد أبيه في نيسابور .

ابن حنبل أغرب ؟ (١) فكنت أقول : إذا دخلنا عليه سألته عن حديث تستفيدونه ، فلما دخلنا عليه سألته عن حديث يحيى بن سعيد عن عثمان بن غياث عن ابن بريدة عن يحيى بن يعمر عن ابن عمر عن عمر . . حديث الإيمان (٢) .

فقال : يا أبا عبد الله ليس هو عندي عن يحيى بن سعيد ، فخرجت وقمنا ، فأخذ أصحابنا يقولون : إنه ذكر الحديث غير مرة ، ثم لم يعرفه أحمد ، وأنا ساكت لا أجيبهم .

قال : ثم قدمنا بغداد فدخلنا على أحمد فرحب بنا وسأل عنا ، ثم قال : أخبرني يا أبا عبد الله أي حديث استفدت من مسدد عن يحيى بن سعيد ؟ فذكرت له حديث الإيمان ، فقال أحمد : حدثناه يحيى بن سعيد ، ثم أخرج كتابه وأملى علينا ، فسكت محمد بن يحيى ولم يقل : سألناك عنه ، فتعجب أصحابه من صبره .

قال : فأخبر أحمد بأنه كان سألته عن الحديث قبل خروجه إلى البصرة ، فكان أبو عبد الله إذا ذكره يقول : محمد بن يحيى العاقل (٣) .

فهذا مثل رفيع في الأدب مع العلماء ، فمحمد بن يحيى الذهلي كان قد اهتم موقفه لما عرض ذلك الحديث على الإمام أحمد بن حنبل فأجابه بأنه ليس من حديثه ، واختلال السمعة العلمية أمام إمام كبير كأحمد بن حنبل يعتبر هبوطاً في المستوى العلمي في الحفظ ، فكان

(١) أي غير مشهور بإسناد معين وإن كان متنه مشهوراً .

(٢) يعني حديث سؤال جبريل عليه السلام عن الإسلام والإيمان إلخ .

(٣) سير أعلام النبلاء ١٠٢ / ٢٧٨ - ٢٧٩ .

المظنون بالذهلي أن يتتهز فرصة تحديث الإمام أحمد به في المرة الثانية ليذكره بذلك الموقف ، ولكن لما كان في ذلك شيء من التسهوين من سمعة العلماء أعرض عن ذلك .

وموقف جليل من الإمام أحمد حينما أشاد بمحمد بن يحيى لما علم بذلك الموقف ولقبه بالعاقل .

ولئن كان الإمام أحمد قد نسي ذلك الحديث في ذلك الموقف مع قوة حفظه وسعة علمه فإن ذلك لايهوّن من سمعته العلمية فلكل جواد كبوة ولكل عالم هفوة .

موقف للأمير طاهر بن عبد الله رحمه الله :

ومما جاء في تقدير أهل الفضل واحترام أهل العلم ماجاء في قول جعفر بن أحمد بن نصر الحافظ : مارأيت في المحدثين أهيب من محمد بن رافع ، كان يستند إلى الشجرة الصنوبر في داره ، فيجلس العلماء بين يديه على مراتبهم ، وأولاد الطاهرية ومعهم الخدم (١) ، كأن على رؤوسهم الطير ، فيأخذ الكتاب ويقرأ بنفسه ، ولا ينطق أحد ولا يتبسم إجلالا له ، وإذا تبسم واحد أو راطن صاحبه قال : وصلى الله على محمد ، ويأخذ الكتاب ، فلا يقدر أحد يراجعه أو يشير بيده ، ولقد تبسم خادم من خدم الطاهرية يوما فقطع ابن رافع مجلسه ، فانتهى الخبر بذلك إلى طاهر بن عبد الله فأمر بقتل الخادم ، حتى احتلنا لخلاصه (٢) .

(١) يعني أولاد الأمير ابن طاهر .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/ ٢١٦ .

فهذا مثل من إجلال الأمير طاهر بن عبد الله للعلم وأهله ، وإن كان قد بالغ في العقوبة ، ولعله لم يكن يريد تنفيذ ذلك وإنما أراد تثبيت هيبة ذلك العالم الجليل في نفوس الناس .
إن إجلال علماء الدين دليل على تعظيم الدين نفسه ، وذلك دليل على قوة الإيمان بهذا الدين .

وما كان من محمد بن رافع من الحزم والشدة في ضبط الدرس يعتبر إجلالا لحديث رسول الله ﷺ ، وليس من باب الكبر وإثبات الشخصية ، فلقد قال عنه الإمام البخاري : كان من خيار عباد الله .
موقف للحافظ محمد بن بشار رحمه الله :

وذلك فيما أخرجه الخطيب البغدادي عن محمد بن أبي حاتم قال : سمعت محمد بن إسماعيل البخاري يقول : لما دخلت البصرة صرت إلى مجلس محمد بن بشار ، فلما خرج وقع بصره عليّ فقال : من أين الفتى ؟ قلت : من أهل بخارى ، قال : كيف تركت أبا عبد الله ؟ فأمسكت ، فقال له أصحابه : رحمك الله هو أبو عبد الله ، فقام وأخذ بيدي وعانقني ، وقال : مرحباً بمن أفتخر به منذ سنين (١) .

فهذه لفظة كريمة من الحافظ محمد بن بشار المعروف بـ«بندار» حيث احتفى بالإمام أبي عبد الله البخاري وأكرمه وهو في طبقة تلاميذه ، وهذا من تقدير أهل الفضل لأهل الفضل ، وإنما يقدر أهل الفضل والتقدم الكبارُ العظماء ولا يحقرهم إلا حاسد أو جاهل .

(١) تاريخ بغداد ١٧/٢ .

وموقف لأبي عبد الله البخاري حينما سأله بNDAR عن البخاري وهو لا يعرف أنه الذي أمامه حيث سكت أبو عبد الله ولم يظهر منه الفخر والاعتداد بالنفس ، وكان رحمه الله تعالى من رجاحة عقله شديد الحياء والبعد عن الشهرة ، كما قال عنه محمد بن سلام جلسائه : أترون البكر أشد حياء من هذا ؟ (١) .

وموقف آخر للحافظ بNDAR مع أحد أقارب الإمام البخاري يقول محمد بن يوسف : لما دخلت البصرة صرت إلى بNDAR فقال لي : من أين أنت ؟ ؟ قلت : من خراسان ، قال : من أيها ؟ قلت : من بخارى ، قال : تعرف محمد بن إسماعيل ؟ قلت : أنا من قرابته ، فكان بعد ذلك يرفعني فوق الناس (٢) .

فهذا مثل من إجلال أهل الفضل والعلم ، فقد حاز محمد بن يوسف على التقدم في مجلس بNDAR لكونه من قرابة أبي عبد الله البخاري ، وهذا يبين لنا شيئاً من فضل الإمام البخاري وتقدمه في نظر العلماء .

موقف للحسين بن أحمد بن فطيمة رحمه الله :

ذكر الحافظ الذهبي في رواية له عن أبي المظفر عبد الرحيم بن عبد الكريم ابن الحافظ أبي المظفر منصور بن محمد السمعاني أنه قال عن الإمام الحسين بن أحمد بن فطيمة الخُسرُوجردِي : كثيرُ السماع حسن السيرة مليح المجالسة ، مارأيت أخف روحاً منه ، مع السخاء

(١) سير أعلام النبلاء ٤١٨/١٢ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٤٢٢/١٢ .

والبذل ، سمعت منه الكثير، وكتب لي أجزاء، ومن العجب أنه قُطعت أصابعه بكرمان من علة، فكان يأخذ القلم ويترك الورق تحت رجله ويمسك القلم بكفّيه، فيكتب خطأ مليحاً سريعاً، يكتب في اليوم خمس طاقات خطأً واسعاً، تفقه بمرور على جدّي أبي المظفر .

قال السمعاني: خرجت نحو "أصبهان"، فتركت القافلة ومضيت إلى "خُسروُجرد" مع رفيق لي راجلين، فدخلنا داره، وسلمنا على أصحابه فما التفتوا علينا، ثم خرج الشيخ فاستقبلناه فأقبل علينا وقال: لِمَ جئتم؟ قلنا: لنقرأ عليك جزأين من معرفة الآثار للبيهقي، فقال: لعلكم سمعتم الكتاب من الشيخ عبد الجبار^(١) وفاتكم هذا القدر؟ قلنا: بلى، وكان الجزآن فَوْثًا لعبد الجبار، فقال: تكونون عندي الليلة فإن لي مهمًا، أريد أن أخرج إلى «سُتروار» فإن ابني كتب إليّ أن ابن أستاذي جائي في هذه القافلة، فأريد أن أسلم عليه وأسأله أن يقيم عندي أياماً، وسمّاني^(٢)، فتبسّمت، فقال لي: تعرفه؟ قلت: هو بين يديك، فقام ونزل وبكى، وكاد أن يقبل رجليّ، ثم أخرج الكتب والأجزاء، ووهبني بعض أصوله، فكنت عنده ثلاثة أيام^(٣).

وهكذا رأينا معاملة هذا العالم الجليل مع حفيد شيخه، وهذا سلوك كريم في احترام العلماء والوفاء لأهل الفضل، فقد كان على

(١) يعني أبا محمد عبد الجبار بن محمد الخواري المنيعي .

(٢) يعني ذكر اسم ابن أستاذي جائي في هذه القافلة هو الذي يخاطبه .

(٣) سير أعلام النبلاء ٢٠/٦١ - ٦٢ .

استعداد للخروج إلى قرية أخرى لاستقبال حفيد استاذہ مع فارق السن بينهما إجلالا لأستاذہ الإمام أبي المظفر السمعاني وحفظا لحقه ، ثم لما علم بأنه من يخاطبه بكى من تذكّر أستاذہ والفرح بقلنا بحفيده ، وكانت منه تلك المظاهر العالية من الحفاوة والإكرام .

وهذا مثل من أمثلة كثيرة تبين لنا رابطة المحبة القوية بين الشيوخ وتلاميذهم .

ومما جاء في هذا الخبر وصف هذا العالم الجليل 'بأنه لما قُطعتْ أصابعه أصبح يمسك القلم بكففيه ويكتب خطأ فليحا سريعا ، وهذا دليل على علو همة الإمام وطموحه نحو المعالي ، فلم يعذر نفسه بفقد أصابعه ، بل مرّن كفيه حتى أصبحتا تقومان بمهمة الأصابع ، وهذا دليل على أن الإنسان لديه طاقة عالية للعمل ، ولكنه يكبتها بالتكاسل أحيانا والاعتماد على غيره .

موقفان لأبي عمر محمد بن يوسف القاضي وأبيه رحمهما الله :

ومما جاء في تقدير أهل الفضل والعلم وجزاء ذلك ماروي من أن الإمام أبا إسحاق الحربي لما دخل على إسماعيل القاضي بادر أبو عمر محمد بن يوسف القاضي إلى نعله فأخذها فمسحها من الغبار ، فدعا له وقال : أعزك الله في الدنيا والآخرة ، فلما توفي أبو عمر رُوي في النوم فقيل : ما فعل الله بك ؟ قال : أعزني في الدنيا والآخرة بدعوة الرجل الصالح (١) .

فهذا الخبر قد اشتمل على تواضع كريم من أبي عمر محمد بن

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/٣٥٧ - ٣٥٨ .

يوسف القاضي حيث بادر إلى نعل الإمام إبراهيم الحربي فمسحها من الغبار ، وهذا دليل على المكانة الكبرى في قلوب أهل العلم للعلماء الربانيين .

ولقد كان هذا العمل البسيط سببا في حصول أبي عمر على العز في الدنيا والآخرة استجابة لدعوة العالم الرباني الصالح أبي إسحاق الحربي ، كما تفيده تلك الرؤيا المباركة ، وهذا يدل على أن دعوة أبي إسحاق قد صدرت من قلبه ، رحمهم الله تعالى جميعا .

وموقف آخر ليوسف القاضي والد أبي عمر يرويه الحسن بن قريش فيقول : حضرت إبراهيم الحربي وجاء يوسف القاضي ومعه ابنه أبو عمر : فقال له : يا أبا إسحاق لو جئناك على مقدار واجب حقك لكنت أوقاتنا كلها عندك ، فقال : ليس كل غيبة جفوة ولا كل لقاء مودة وإنما هو تقارب القلوب (١) .

فهذه كلمات جليلة معبرة من العالم يوسف القاضي في حق الإمام إبراهيم الحربي ، تدل على مكانته العالية في قلبه ، وإجابة سديدة من أبي إسحاق الحربي وضع فيها الأمور مواضعها حيث بين أن العبرة بتقارب القلوب لا بكثرة الزيارات ، وإن كانت الزيارات سببا في توثيق الصلات ، وتقوية الروابط القلبية .

موقف لأبي مسلم الكجّي رحمه الله :

ومن أمثلة تقدير أهل العلم والفضل ما ذكره جعفر بن محمد الطّبرسي قال : كنا ببغداد ومعنا عبد الله مستملي صالح جزرة ، فقيل

(١) سير أعلام النبلاء ٣٥٨/١٣ .

لأبي مسلم الكجي : هذا مستملي صالح ، قال : ومن صالح ؟ فقيل :
صالح الجزري ، قال : ويحكم ، مأهونه عليكم ! ألا تقول : سيد
المسلمين ، وكنا في أخريات الناس فقدّمنا ، فقال : كيف أخي
وكبيرى ؟ ماتريدون ؟ فقلنا : أحاديث محمد بن عرعة وحكايات
الأصمعي ، فأملى علينا عن ظهر قلب ، وكان ضريرا مخضوب
اللحية (١) .

فهذا موقف كريم من الإمام أبي مسلم الكجي حيث حفظ حق
العالم الجليل الحافظ صالح جزرة ، فوصفه بأنه سيد المسلمين ، وهذا
الوصف له سابقة من أقوال الصحابة رضي الله عنهم في وصف
العلماء ، فقد قال عمر بن الخطاب عن أبي بن كعب رضي الله عنهما :
إنه سيد المسلمين ، والسيادة تعني التقدم والرئاسة ، فسيد القوم هو
رئيسهم المقدم فيهم ، والعلماء هم سادة المسلمين لأن مهمة جميع
المسلمين في هذه الحياة هي تطبيق شريعة الله تعالى وعمران الأرض
بها ، والذين لهم حق الإشراف على هذا التطبيق وتوجيه المسلمين نحو
التطبيق الصحيح هم علماء الدين .

موقف لإبراهيم الحربي رحمه الله :

قال ابن بشكوال : نقلت من كتاب ابن عتاب : كان إبراهيم
الحربي رجلا صالحا من أهل العلم ، بلغه أن قوما من الذين كانوا
يجالسونه يفضلونه على الإمام أحمد بن حنبل ، فوقفهم على ذلك
فأقروا به ، فقال : ظلمتموني بتفضيلكم لي على رجل لا أشبهه ولا

(١) سير أعلام النبلاء ٤٢٥/١٣ .

ألحق به في حال من أحواله ، فأقسم بالله لا أسمعكم شيئاً من العلم أبداً ، فلا تأتونني بعد يومكم (١) .

فهذا موقف كريم للعالم الجليل إبراهيم الحربي ، فقد غضب حينما فضّلوه على الإمام أحمد بن حنبل ، وبين فضله عليه ، فهذا يدل على تواضعه وعدم اغتراره بثناء الناس عليه ، والعاقل هو من عرف قدر نفسه ، وورثتها بما يعلم منها لا بما يقول الناس عنه .

وهؤلاء الطلاب لعل لهم بعض العذر فيما ذهبوا إليه وذلك أن الناس عادة تميل نفوسهم إلى العالم المعاصر لهم ، لمباشرتهم معرفة فضائله ، ولفضله المباشرة عليهم ، وقد يكون ذلك أبلغ في نفوسهم من قراءة تاريخ من مضى ولو كان قريباً من زمنهم .

ولئن كان ما يتصف به إبراهيم الحربي من تواضع كبير ، وما يعتقده من تقدم الإمام أحمد عليه في كل أحواله قد حمّله على الغضب مما قاله تلامذته ، فلقد بالغ في عقوبة هؤلاء التلاميذ وما كان ينبغي له أن يحرمهم من علمه إلى الأبد ، رحمهم الله جميعاً .

موقفان للإمامين علي بن المديني والبخاري رحمهما الله :

ذكر الإمام الذهبي من خبر أحمد بن عبد السلام قال : ذكرنا قول البخاري لعلي بن المديني يعني : ما استصغرت نفسي إلا بين يدي عليّ ابن المديني ، فقال علي : دَعُوا هذا فإن محمد بن إسماعيل لم ير مثل نفسه (٢) .

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٣٦٤ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٢٠ ، تاريخ بغداد ١٨/ ٢ .

وهذا مثل من السمو الأخلاقي في الأدب العلمي يقدمه هذان الإمامان الكبيران حيث ذكر كل واحد منهما الآخر بما هو أهله، ولم يغتر ابن المديني بثناء البخاري عليه مع أن الثناء منه يعني ارتفاع من أثنى عليه وتميزه ، لأن الثناء عن الكبير كبير .

موقف لإسماعيل بن أبي أويس رحمه الله :

ذكر الإمام الذهبي من خبر الإمام البخاري أنه قال : اجتمع أصحاب الحديث فسألوني أن أكلم إسماعيل بن أبي أويس ليزيدهم في القراءة ، ففعلت ، فدعا إسماعيل الجارية وأمرها أن تخرج صرة دنانير ، وقال : يا أبا عبد الله فرّقها عليهم .

قلت : إنما أرادوا الحديث ، قال : قد أجبتك إلى ما طلبت من الزيادة ، غير أنني أحب أن يُضمَّ هذا إلى ذاك ليظهر أثرك فيهم (١) .

ففي هذا الخبر بيان اهتمام أهل الحديث بهذا العلم الشريف . فقد استشفعوا بأبي عبد الله البخاري إلى إسماعيل بن أبي أويس ليزيدهم في الحديث ، وفي هذا دلالة على مكانة الإمام البخاري .

وفيما قام به الحافظ ابن أبي أويس من توزيع الدنانير على يد أبي عبد الله البخاري مثلاً من تقدير أهل الفضل وحفظ مكانتهم .



(١) سير أعلام النبلاء ١٢ / ٤١٩ .

الموقفُ العِلمِيَّة

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

رقم الإيداع : ١٩٩٧/٥٦٣٢
الترقيم الدولي
8 - 151 - 253 - 977

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع

٢ شارع منشأ - محرم بك - الإسكندرية

ت : ٤٩٠١٩١٤ - فاكس : ٥٩٥١٦٩٥

مكتب توزيع القاهرة ت : ٣٨٣٢٧٤٧

دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع

حي السلامة - شارع عبد الرحمن السديري - مركز الزومان التجاري

ص.ب : ٤٢٣٤٠ - جدة : ٢١٥٤١ هاتف / فاكس : ٦٨٢٥٢٠٩

المملكة العربية السعودية

التَّائِيحُ الْإِسْلَامِيّ

مَوَاقِفُ وَعِبَر

١٨

المَوَاقِفُ الْعِلْمِيَّةُ

دكتور

عبد العزيز بن عبد الحميد

الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين
بجامعة أم القرى

دار النشر

للنشر والتوزيع
جدة

دار النور

للطباعة والنشر والتوزيع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مواقف وعبد

في

إخلاص النية

قبل أن أذكر المواقف الإسلامية في هذا الموضوع أحب أن أقدم لذلك بذكر حديث عظيم كان له أثر بالغ في إخلاص كثير من العلماء على مر العصور ، وقد أخرج هذا الحديث الإمام أبو عيسى الترمذي بإسناده عن عقبة بن مسلم أن شُفِيًّا الْأَصْبَحِيَّ حَدَّثَهُ أَنَّهُ دَخَلَ الْمَدِينَةَ ، فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ قَدْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ ، فَقَالَ : مَنْ هَذَا ؟ فَقَالُوا أَبُو هَرِيرَةَ ، فَدَنَوْتُ مِنْهُ حَتَّى قَعَدْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُوَ يَحْدُثُ النَّاسَ ، فَلَمَّا سَكَتَ وَخَلَا قُلْتُ لَهُ أَنْشِدْكَ بِحَقٍّ وَبِحَقٍّ لَمَّا حَدَّثْتَنِي حَدِيثًا سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَقَلْتُهُ وَعَلِمْتُهُ ، فَقَالَ أَبُو هَرِيرَةَ أَفْعَلُ ، لِأُحَدِّثَنَّكَ حَدِيثًا حَدَّثَنِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَقَلْتُهُ وَعَلِمْتُهُ ، ثُمَّ نَشَغَ (١) أَبُو هَرِيرَةَ نَشْغَةً ، فَمَكَثَ قَلِيلًا ثُمَّ أَفَاقَ ، فَقَالَ : لِأُحَدِّثَنَّكَ حَدِيثًا حَدَّثَنِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي هَذَا الْبَيْتِ مَامَعْنَا أَحَدًا غَيْرِي وَغَيْرُهُ ، ثُمَّ نَشَغَ أَبُو هَرِيرَةَ نَشْغَةً أُخْرَى ، ثُمَّ أَفَاقَ فَمَسَحَ وَجْهَهُ فَقَالَ : لِأُحَدِّثَنَّكَ حَدِيثًا حَدَّثَنِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا وَهُوَ فِي هَذَا الْبَيْتِ مَامَعْنَا أَحَدًا غَيْرِي وَغَيْرُهُ ، ثُمَّ نَشَغَ أَبُو هَرِيرَةَ نَشْغَةً أُخْرَى ثُمَّ أَفَاقَ وَمَسَحَ وَجْهَهُ فَقَالَ : أَفْعَلُ لِأُحَدِّثَنَّكَ حَدِيثًا حَدَّثَنِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا مَعَهُ فِي هَذَا الْبَيْتِ مَامَعُهُ أَحَدًا غَيْرِي وَغَيْرُهُ ، ثُمَّ نَشَغَ أَبُو هَرِيرَةَ نَشْغَةً شَدِيدَةً ، ثُمَّ مَالَ خَارًا عَلَى وَجْهِهِ فَأَسْنَدْتَهُ عَلَيَّ طَوِيلًا .

قال : ثم أفاق فقال : حَدَّثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى

(١) نَشَغَ نَشْغَةً : أي شَهَقَ حَتَّى كَادَ يَغْمِي عَلَيْهِ ، وَيَحْصُلُ ذَلِكَ لِلْإِنْسَانِ إِذَا اشْتَدَّ أَسْفَهُ عَلَى فَائِت .

إذا كان يوم القيامة ينزلُ إلى العباد ليقضي بينهم وكلُّ أمةٍ جاثيةٌ ، فأولُ من يدعو به رجلٌ جمع القرآن ، ورجلٌ قُتل في سبيل الله ، ورجلٌ كثير المال ، فيقولُ الله للقارئ: ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي ؟ قال : بلى ياربُّ . قال : فماذا عملت فيما علّمت ؟ قال : كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار . فيقول الله له كذبت . وتقول له الملائكة كذبت . ويقول الله : بل أردت أن يُقال إن فلانًا قارئٌ فقد قيل ذلك ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد ؟ قال : بلى ياربُّ . قال : فماذا عملت فيما آتيتك ؟ قال : كنت أصل الرحم وأتصدقُ ، فيقول الله له كذبت ، وتقول له الملائكة كذبت . ويقول الله تعالى : بل أردت أن يُقال فلانٌ جوادٌ فقد قيل ذلك . ويؤتى بالذي قتل في سبيل الله ، فيقول الله له : فبماذا قتلت ؟ فيقول : أمرتُ بالجهاد في سبيلك فقاتلتُ حتى قتلت فيقول الله تعالى له كذبت ، وتقول له الملائكة كذبت . ويقول الله : بل أردت أن يُقال فلانٌ جريءٌ فقد قيل ذاك ، ثم ضرب رسولُ الله ﷺ على ركبتي فقال : يا أبا هريرة ، أولئك الثلاثة أول خلق الله تُسعرُ بهم النار يوم القيامة .

وقال الوليد أبو عثمان : فأخبرني عتبة بن مسلم أن شُفيًا هو الذي دخل على معاوية فأخبره بهذا ، قال أبو عثمان : وحدثني العلاء بن أبي حكيم أنه كان سيقًا لمعاوية فدخل عليه رجل فأخبره بهذا عن أبي هريرة ، فقال معاوية : قد فعل بهؤلاء هذا فكيف بمن بقي من الناس ؟ ثم بكى معاوية بكاءً شديدًا حتى ظننا أنه هالك . وقلنا قد

جاءنا هذا الرجل بشر ، ثم أفاق معاوية ومسح عن وجهه وقال :
صدق الله ورسوله ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ
أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ
إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ [هود: ١٥-١٦] .

قال أبو عيسى : هذا حديث حسنٌ غريب (١) .

من مواقف أبي الدرداء رضي الله عنه (٢) :

ومن مظاهر الإخلاص في طلب العلم أن يكون العلم من أجل
العمل ، ولقد كان أبو الدرداء رضي الله عنه يهتم بالتربية مع التعليم
حيث كان يحث تلامذته على العمل بما علموا ، كما جاء في قوله :
لن تكون عالما حتى تكون متعلما ، ولا تكون متعلما حتى تكون بما
علمت عاملا ، إن أخوف ما أخاف إذا وقفت للحساب أن يقال لي :
مَاعَمِلْتَ فِيمَا عِلِمْتَ ؟

وقال : أيضاً في هذا المعنى : ويل للذي لا يعلم مرة ، وويل
للذي يعلم ولا يعمل سبع مرات (٣) .

من مواقف أبي جعفر القاري رحمه الله :

وكان العلماء يهتمون بالعمل الصالح مع العلم النافع ، ولا يعتبرون
العلم نافعاً إذا لم يصاحبه العمل الصالح ، وفي ذلك يقول عسبد

(١) سنن الترمذي ، رقم ٢٣٨٢ ، كتاب الزهد (٤ / ٥٩١ - ٥٩٣) .

(٢) هو عويمر بن زيد الأنصاري اشتهر بكنيته ، وتوفي في آخر خلافة عثمان .

(٣) سير أعلام النبلاء ٢ / ٢٤٧ .

الرحمن بن زيد بن أسلم رحمه الله : قال رجل لأبي جعفر - وكان في دينه فقيها وفي دنياه أبله - : هنيئًا لك ما آتاك من القرآن ، قال : ذاك إذا أحللت حلاله وحرمت حرامه وعملت بما فيه (١) .

وأبو جعفر هو القارئ أحد الأئمة العشرة في القراءات .

من مواقف سفيان الثوري وفضيل بن عياض رحمهما الله :

لقد كان علماء السلف يهتمون بإخلاص النية في طلب العلم لله تعالى ، ويحثون طلابهم على ذلك ، ومما رُوي في ذلك أن سفيان الثوري وفضيل بن عياض رحمهما الله التقيا فتذاكرا فبكيا ، فقال سفيان : إني لأرجو أن يكون مجلسنا هذا أعظم مجلس جلسناه بركة ، فقال له فضيل : لكنني أخاف أن يكون أعظم مجلس جلسناه شؤما ، أليس نظرت إلى أحسن ماعندك فتزيت به لي وتزيت لك ، فعبدتني وعبدتك ؟ فبكى سفيان حتى علا نحيبه ، ثم قال : أحييتني أحياك الله (٢) .

وهكذا وجدنا هذين العالمين العابدين يلتقيان فيبكيان من ذكر الله تعالى ، فيشعر سفيان الثوري بالفرح من تلك النتيجة الطيبة التي خرجا بها من ذلك المجلس ، ولكن فضيل بن عياض يذكره بأن ماتذاكرا به من العلم الذي أثار فيهما خشية الله تعالى يخشى أن لا يكونا وصلًا به إلى درجة التجرد التام من ملاحظة حظ النفس ، خشية أن يكون خطر في بالهما تزيين كل واحد منهما للآخر بخير

(١) سير أعلام النبلاء ٢٨٨/٥ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٦٧/٧ .

ما عنده من العلم ، فيؤثر ذلك على إخلاص النية لله تعالى .
 وإذا كان هذان السيدان الجليلان اللذان ملأت شهرتهما الأرض
 بالتقوى والعلم والورع والزهد قد خافا على أنفسهما من الرياء
 والسمعة فكيف بمن هو دونهما في هذه المحامد بمراحل ؟
 ولأهمية إخلاص النية نجد سفيان الثوري رحمه الله يقول :
 ما نعلم شيئا أفضل من طلب العلم بنية ^(١) .
 يعني أن يطلب المسلم العلم ابتغاء وجه الله تعالى وحده ، وإنما
 جعل سفيان ذلك أفضل من أداء نوافل العبادة مثلا لأن الإخلاص في
 طلب العلم عسير المنال عند كثير من طلاب العلم ، فهو يحتاج إلى
 مكابدة ومجاهدة للنفس حتى تستقيم على النية الخالصة وتتجرد من
 الرياء والسمعة .

ولقد بين سفيان الثوري رحمه الله منزلة العالم الصادق في
 إصلاح الأمة حيث يقول : المال داء هذه الأمة والعالم طيب هذه
 الأمة ، فإذا جر العالم الداء إلى نفسه فمتى يبرئ الناس ؟ ^(٢)
 نعم ، متى يبرئ الناس وهو مريض ، كما قال الشاعر :
 طيب يدواي الناس وهو عليل

إن مجموعة أدواء الأمة أكثرها يترتب على عبادة المال ، فعبيد المال
 لا يتورعون عن الكسب الحرام بطرقه المختلفة ، ولا يتورعون عن إنفاق
 المال في الوجوه المحرمة ، إلى جانب اتصافهم بالحسد والغل والكذب
 والنفاق وغير ذلك من الأخلاق السيئة التي يجر إليها محاولة كسب

(١) سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٤٤ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٤٣ .

أكبر قدر ممكن من المال، والانحراف في تصرفه .

والطبيب الذي يستطيع بإذن الله تعالى تشخيص أمراض القلوب ثم تطهيرها من تلك الأمراض هو عالم الدين الذي نور الله بصيرته، وشغل قلبه بمحبته ومحبة رسوله ﷺ ومحبة دينه، وبالاهتمام الدائم بتشخيص أمراض الأمة والبحث في علاجها .

أما إذا كان العالم الديني قد رتع فيما رتع فيه مرضى القلوب فمن لهؤلاء المرضى ؟

أين من يشخص أمراضهم ويلتمس شفاءهم من تلك الأمراض؟ وهكذا شخص سفيان الثوري رحمه الله أدواء الأمة وبين سببها الأساسي ، وعلى يد مَنْ يكون علاجها، ومتى يتمكن هؤلاء الأطباء من شفاء الأمة من أدوائها .

ولقد كان وراء هذا العالم الرباني وأمثاله آباء مربون وأمهات مربيات، كما جاء عن وكيع بن الجراح رحمه الله قال: قالت أم سفيان لسفيان: اذهب فاطلب العلم حتى أعولك بمغزلي، فإذا كتبت عدة عشرة أحاديث فانظر هل تجد في نفسك زيادة فاتبعه، وإلا فلا تتعن^(١).

نعم لقد كان وراء هذا العالم الكبير أم صالحة مربية كانت تعمل بيديها في طلب الرزق لتكفي ابنها مؤنة النفقة حتى يتفرغ للعلم .
لقد علّمتها الاستقامة على العمل الصالح قبل أن يتعلم العلم .

(١) سير أعلام النبلاء ٢٦٩/٧ .

ولقد أخذ من أمه مقاصد العلم فوعاها ، وأصبح رقيب نفسه ،
فهو يزنها كلما تعلم مجموعة من الأحاديث .

هل تقوى إيمانه ؟ هل ازداد عمله الصالح ؟

هل نما يقينه وذكره لله تعالى والدار الآخرة ؟

وهكذا تفاعل هذا العالم في سنوات الطلب مع العلم الذي
تلقاه ، واقتبس خير ما وجدته من تربية العلماء وسلوكهم حتى أصبح
من كبار علماء الأمة المربين .

وكان أساس ذلك وبذرتة الأولى تربية أمه له ووصيتها الغالية التي
كانت مناراً لطريقه العلمي .

ومما روي عن الثوري في الإخلاص في طلب العلم وتقدير
أصحاب النية الصادقة ما أخرجه القاضي الحسن بن عبد الرحمن
الرامهرمزي من حديث محمد بن إسحاق بن عبد الله الكوفي قال :
سمعت أبي يقول : جاء رجل إلى سفيان الثوري وهو في مجلسه بعد
العصر وحوله أصحاب الحديث ، فقال له : يا شيخ ما يمنعك أن تنشر
ما عندك وتحدث به هؤلاء ؟ فقال سفيان : لو علمت أن الذي يطلب
هذا لله لكنت آتية في منزله حتى أحدثه (١) .

من مواقف سفيان بن عيينة رحمه الله :

من ذلك ما رواه محمد بن قدامة الحمصي قال : كنا نواظب على

(١) المحدث الفاصل بين الراوي والواعي / ١٨٤ .

(٢) المحدث الفاصل بين الراوي والواعي / ١٨٤ .

ابن عيينة فقال : تتركون الصلاة والطواف وتأتونني ؟ فقال بعضنا :
لعلنا نسمع منك بعض ما ينفعنا الله به ، فقال : لوددت أنني أرى من
يطلبه لله فآتيه وأحدثه (٢) .

من مواقف هشام الدستوائي رحمه الله :

وبعضهم نفى عن نفسه الإخلاص تواضعا لشدة حذرهم من
اختلاط النية كما روي عن هشام بن سَنَبَرٍ الدستوائي أنه قال : والله
ما أستطيع أن أقول إني ذهبت يوما قط أطلب الحديث أريد به وجه الله
عز وجل .

ذكره الإمام الذهبي وقال : قلت : ولأنا ، فقد كان السلف يطلبون
العلم لله فنبلوا وصاروا أئمة يُقتدى بهم ، وطلبه قوم منهم أولاً لا لله ،
وحصلوه ثم استقاموا وحاسبوا أنفسهم ، فَجَرَّهْم العلم إلى الإخلاص
في أثناء الطريق ، كما قال مجاهد وغيره : طلبنا هذا العلم ومالنا فيه
كبير نية ، ثم رزق الله النية بعد ، وبعضهم يقول : طلبنا هذا العلم لغير
الله فأبى أن يكون إلا لله ، فهذا أيضا حسن ثم نشره بنية سمالحة (١) .

ولاشك أن اتهام هذين العالمين الجليلين أنفسهم بعدم التجرد
والإخلاص في طلب العلم إنما هو من باب التواضع منهما ، وهذا هو
اللائق بمقامهما الرفيع .

من مواقف الشافعي رحمه الله :

ومن الأمثلة على الإخلاص والتجرد من حظ النفس مارواه

(١) سير أعلام النبلاء ١٥٢/٧ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٣٣/١٠ ، طبقات الخنابلة ٢٨٢/١

عبدالله بن الإمام أحمد بن حنبل قال : سمعت أبي يقول : قال الشافعي : أنتم أعلم بالأخبار الصحاح منا ، فإذا كان خبر صحيح فأعلمني حتى أذهب إليه ، كوفيا كان أو بصريا أو شاميا (٢) .

وقول الإمام محمد بن إدريس الشافعي هذا إلى جانب كونه من التواضع حيث إنه من شيوخ الإمام أحمد فإنه دليل على قوة إيمان الشافعي ورغبته الصادقة في معرفة الحق المتمثل في الكتاب والسنة ، وتجرده من هوى النفس ، فهو على استعداد تام للرجوع عن رأيه إذا ثبت عنده حديث يخالفه ، وهذا يعني أنه لا يعتمد مخالفة السنة أتباعاً لقواعد علمية قعدها أو فتاوى صدرت عنه .

وهكذا اطلعنا على نماذج طيبة من إخلاص العلماء في تعليم العلم وحثهم طلاب العلم على إخلاص النية في طلبه ، وقد تقدمت لنا أمثلة كثيرة من أخبار العلماء في الزهد والعفة والورع ، وقد صاروا بذلك قدوة صالحة لطلاب العلم على مر العصور ، فإن طالب العلم حينما ينشأ فيرى شيوخه لا ينافسون أهل الدنيا في دنياهم ، ولا يطلبون في مقابل علمهم مالاً ولا جاهاً فإنه يقتدي بهم في هذه الأخلاق العالية .

أما إذا نشأ طالب العلم فرأى من حوله من العلماء ينافسون الناس في طلب المال والجاه فإنه قد يعتقد مشروعية ذلك ، وأن طلب المال والجاه هدف مشترك بين علماء الدين وغيرهم وإن اختلفت الوسائل

الموصلة إلى ذلك ، فربما سلك طريق التعليم الديني للوصول إلى
ذلك الهدف ، وهذا هو الذي حذر منه العلماء المخلصون أبلغ تحذير.

* * *

مواقف وعبد

في

الاهتمام بالعلم

لقد كانت للعلماء مواقف عالية في الاهتمام بطلب العلم وتعليمه وإرشاد الناس به وتدوينه .

وفي هذا الفصل أذكر بعض مواقف العلماء في هذا المجال .

من مواقف أبي هريرة رضي الله عنه :

كان أبو هريرة الدوسي رضي الله عنه أبرز أصحاب رسول الله ﷺ في نشر السنة ، ولقد انتشر العلم عنه وكثر تلامذته في المدينة وحملوا علمه إلى الآفاق .

وإلى جانب ما كان يقوم به من تعليم العلم فإنه كان يهتم بوعظ الناس بالسنة وتذكيرهم في أيام اجتماعهم ، كما روى عاصم بن محمد عن أبيه قال : رأيت أبا هريرة يخرج يوم الجمعة ، فيقبض على رمّانتي المنبر قائما ، ويقول : حدثنا أبو القاسم ﷺ الصادق المصدوق ، فلا يزال يحدث حتى إذا سمع فتح باب المقصورة لخروج الإمام جلس .

أخرجه الحاكم وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ثم قال : قد تحريت الابتداء من فضائل أبي هريرة رضي الله عنه لحفظه لحديث المصطفى ﷺ وشهادة الصحابة والتابعين له بذلك فإن كل من طلب حفظ الحديث من أول الإسلام وإلى عصرنا هذا فإنهم من أتباعه وشيعته ، هو أولهم وأحقهم باسم الحفظ .

وقد أقره الإمام الذهبي على تصحيح هذا الحديث (١) .

من مواقف تميم الداري رضي الله عنه :

من ذلك ما ذكره الإمام الذهبي من حديث الإمام الزهري عن حميد بن عبد الرحمن : أن تميما استأذن عمر في القصص سنين ويأبى عليه ، فلما أكثر عليه قال : ماتقول ؟ قال : أقرأ عليهم القرآن وأمرهم بالخير وأنهاهم عن الشر ، قال عمر : ذاك الربح ، ثم قال : عطف قبل أن أخرج إلى الجمعة (٢) .

وفي هذا الخبر والذي سبق عن أبي هريرة رضي الله عنه دلالة على مشروعية الوعظ قبل صلاة الجمعة .

من مواقف أبي الدرداء رضي الله عنه :

مما يبين اهتمام السلف بالعلم كثرة عدد التلاميذ في الحلقات العلمية ، ومن الذين كان التلاميذ يزدحمون في حلقاتهم أبو الدرداء عويمر بن زيد الأنصاري رضي الله عنه ، وهو أحد القراء الثلاثة الذين بعثهم أمير المؤمنين عمر لتفقيه أهل الشام ، وقد استقر بدمشق فصار سيد القراء والعلماء بها ، وقد لُقِّبَ بحكيم الأمة لكثرة ما صدر عنه من الحكم والمواعظ .

وفي الشام ازدحم عليه طلاب العلم حتى بلغوا المئين كما جاء في رواية عن مسلم بن مشكم قال قال لي أبو الدرداء : اعدُّ من في

(١) المستدرک ٥١٢/٣ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٤٤٧/٢ .

مجلسنا قال: فجاءوا ألفاً وستمائة ونيفا ، فكانوا يقرؤون ويتسابقون عشرة عشرة ، فإذا صلى الصبح انفتل وقرأ جزءاً فيُحدقون به يسمعون ألفاظه ، وكان ابن عامر مقدماً فيهم (١) .

من مواقف عبد الله بن عباس رضي الله عنهما :

لقد كان ابن عباس رضي الله عنهما حريصا على العلم دؤوبا في جمعه وتحصيله حتى استوعب علم أكابر الصحابة إلى جانب ما استفاده من النبي ﷺ ، ومن شواهد ذلك ما أخرجه الإمام الدارمي بإسناده عن عكرمة عن ابن عباس قال : لما توفي رسول الله ﷺ قلت لرجل من الأنصار : يافلان هلم فلنسأل أصحاب النبي ﷺ فإنهم اليوم كثير ، فقال : واعجباً لك يا ابن عباس أترى الناس يحتاجون إليك وفي الناس من أصحاب النبي ﷺ من ترى ، فترك ذلك وأقبلت على المسألة ، فإن كان ليبلغني الحديث عن الرجل فأتيه وهو قائل ، فأتوسد ردائي على بابه فتسفي الريح على وجهي التراب ، فيخرج فيراني فيقول يا ابن عم رسول الله ما جاء بك ؟ ألا أرسلت إليّ فأتيك ! فأقول : أنا أحق أن أتيك ، فأسأله عن الحديث ، قال : فبقي الرجل حتى رأيته وقد اجتمع الناس عليّ فقال : كان هذا الفتى أعقل مني (٢) .

أما تلاميذ ابن عباس فقد كانوا كثيرين جداً حتى كان موكبه يشبه

(١) سير أعلام النبلاء ٣٤٦/٢ ، وابن عامر هو عبد الله بن عامر الذي كان أميراً على البصرة في عهد عثمان رضي الله عنه .

(٢) سنن الدارمي / المقدمة ١/ ١٤١ .

مواكب الخلفاء ، كما جاء عن يزيد بن الأصم قال : خرج معاوية حاجاً معه ابن عباس ، فكان لمعاوية موكب ولابن عباس موكب ممن يطلب العلم (١) .

وذكر الحافظ ابن كثير من خبر شقيق بن سلمة قال : خطب ابن عباس وهو على الموسم فافتتح سورة البقرة ، فجعل يقرأها ويفسرهما ، فجعلت أقول مارأيت ولاسمعت كلام رجل مثله ، لو سمعته فارس والروم لأسلمت (٢) .

فهذا مثل من سعة علم حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما وتعمقه في تأويل القرآن .

وقول أبي وائل « لو سمعته فارس والروم لأسلمت » دليل على قوة تأثير ابن عباس على السامعين لقوة تأثيره هو بمايقول ، وحسن اختياره للمعاني والألفاظ .

من مواقف مكحول الدمشقي رحمه الله :

من ذلك ماروي عن مكحول الدمشقي رحمه الله أنه قال : عُنْتُ بمصر فلم أدع بها علماً إلا احتويت عليه فيما أرى ، ثم أتيت العراق فلم أدع بها علماً إلا احتويت عليه فيما أرى ، ثم أتيت المدينة فلم أدع بها علماً إلا احتويت عليه ، ثم أتيت الشام فغربلتها ، كل ذلك أسأل عن النَّقْلِ فلم أجد أحداً يخبرني عنه حتى مررت بشيخ من بني تميم يقال له : زياد بن جارية جالساً على كرسي ، فسألته فقال :

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٥١ .

(٢) البداية النهاية ٨/ ٣٠٣ .

حدثني حبيب بن مسلمة قال : شهدت رسول الله ﷺ نفل في البُدْءِ
الربع ، وفي الرجعة الثلث .

قال الإمام الخطابي رحمه الله : البُدْءُ ابتداء السفر للغزو وإذا
نهضتُ سرية من جملة العسكر فإذا أوقعتُ بطائفة من العدو فما
غنموا كان لهم فيه الربع ويشركهم سائر العسكر في ثلاثة أرباعه، فإن
هم قفلوا من الغزاة ثم رجعوا فأوقعوا بالعدو ثانية كان لهم مما غنموا
الثلث، لأن نهوضهم بعد القفل أشق لكون العدو على حذر وحزم^(١).

ومكحول عالم أهل الشام من التابعين ، كان مولى لرجل مصري
من هذيل فأعتقه، وكان إماما في العلم، وهذا الخبر يدل على شدة
اهتمامه بالمعرفة حيث ظل سنوات يبحث عن هذا الحكم الشرعي
ويسأل عنه أهل العلم حتى وجده عند أحد الشيوخ .

من مواقف أبي عبد الله عكرمة رحمه الله :

ومما يدل على حرص طلاب العلم آنذاك على التحصيل ماكان
يحصل بينهم من التزاحم على أبواب العلماء وفي حلقاتهم وتنافسهم
في الوصول إليهم .

ومن الأمثلة على ذلك ما جاء عن أيوب السخيتاني أنه قال : قدم
علينا عكرمة فاجتمع الناس عليه حتى صعد فوق ظهر بيت .

وقال أيوب : كنت أريد أن أرحل إلى عكرمة إلى أفق من الآفاق
فإنني لفي سوق البصرة إذا رجل على حمار، فقيل لي : عكرمة،

(١) سير أعلام النبلاء ١٥٨/٥ .

فاجتمع الناس إليه ، فقامت إليه ، فما قدرت على شيء أسأله ، ذهبَتْ
مني المسائل ، فقامت إلى جنب حمارة ، فجعل الناس يسألونه وأنا
أحفظ (١) .

وعكرمة هو العلامة المفسر أبو عبد الله البربري المدني مولى
عبدالله بن عباس رضي الله عنهما كان إماما في التفسير والحديث ،
وهذا الخبر يدل على منزلة العلماء في ذلك الوقت وحرص طلاب
العلم على الأخذ عنهم حتى وهم يسرون في الأسواق .

من مواقف أبي الزناد رحمه الله :

ومن الأمثلة على كثرة طلاب العلم في عهد التابعين ما رواه الليث
ابن سعد عن عبد ربه بن سعيد قال : دخل أبو الزناد (٢) مسجد رسول
الله ﷺ ومعه من الأتباع - يعني طلبة العلم - مثل مامع السلطان
فمن سائل عن فريضة ومن سائل عن الحساب ، ومن سائل عن الشعر
ومن سائل عن الحديث ومن سائل عن معضلة (٣) .

من مواقف الإمام الزهري رحمه الله :

من ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير قال : وجاء شيخ إلى الزهري
فقال : حدثني ، فقال : إنك لاتعرف اللغة ، فقال : لعلني أعرفها ،
فقال : فما تقول في قول الشاعر :

(١) سير أعلام النبلاء ١٨/٥ .

(٢) هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن ذكوان القرشي الفقيه الحافظ كان من أكابر علماء
المدينة .

(٣) سير أعلام النبلاء ٤٠٨/٥ .

صريح ندامي يرفع الشرب رأسه (١)

وقد مات منه كل عضو ومفصل

ما المفصل ؟ قال : اللسان ، قال : عد عليّ أحدثك (٢) .

وهذا مثل على اهتمام علماء الحديث باللغة العربية ، حيث كانوا يختبرون طلابهم باللغة أولاً ، فإذا أجادوها أذنوا لهم بالسماع منهم وإلا امتنعوا من ذلك حتى يتقنوا اللغة ، وذلك لأن حديث رسول الله ﷺ رواه الصحابة رضي الله عنهم باللغة العربية الفصحى ، فإذا رواه من لا يتقن هذه اللغة فإنه سيؤديه بشيء من اللحن فيكون قد قصر في أداء ما تحمل من هذه السنة .

من مواقف أبي بكر الباغندي رحمه الله :

وكانوا لاهتمامهم بالعلم يعتنون به أكثر من عنايتهم بمصالحهم الخاصة ، فمن ذلك ما جاء في خبر أبي بكر الباغندي الحافظ أنه كان ينتخب على شيخ - يعني يسمع منه أحاديث مختارة - فكان يقول له : كم تُضجرني ؟ أنت أكثر حديثاً مني وأحفظ ، فقال : إني قد جئت إلى الحديث ، بحسبك أني رأيت النبي ﷺ في النوم فلم أسأله الدعاء ، وإنما قلت : يا رسول الله أيما أثبت في الحديث منصور أو الأعمش ؟ فقال : منصور منصور (٣) .

يعني منصور بن المعتمر رحمه الله ، فأبو بكر الباغندي حينما

(١) أي قاتل المندامين حيث يزيل شرب الخمر عقله .

(٢) البداية والنهاية ٣٦١/٩ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٤٠٨/٥ . وأبو بكر الباغندي هو محمد بن محمد بن سليمان .

رأى رسول الله ﷺ في النوم كان أول ما تبادر إلى ذهنه أن يسأله عن هذه القضية العلمية ، ونسي أن يسأله الدعاء له ، مما يدل على أن الذي كان يشغل باله هو الاهتمام بالعلم .

من مواقف سعيد بن المسيب وقتادة رحمهما الله :

من ذلك ما رَوَى الإمام مالك عن سعيد بن المسيب رحمه الله أنه قال : إن كنت لأسير الأيام والليالي في طلب الحديث الواحد (١) .

وسعيد بن المسيب من أكبر سادة التابعين وعالم أهل المدينة في وقته أبو محمد المخزومي القرشي ، وقد حصل له ابتلاء في حياته على يد بعض ولاة المدينة، فقد ضُربَ وأُوقِفَ في الشمس ، ومع ذلك لم يتركه طلاب العلم بل حاولوا الاستفادة منه وهو في تلك الحال كما جاء في رواية عن قتادة بن دعامة السدوسي رحمه الله قال : أتيت سعيد بن المسيب وقد أُلْبِسَ ثَبَانُ الشعر وأُقيم في الشمس فقلت لقائدي : أدنني منه فأدناني ، فجعلت أسأله خوفاً من أن يفوتني ، وهو يجيبني حسبةً والناس يتعجبون (٢) .

وهو موقف يثير العجب فعلاً عند عامة الناس ، ولكنه بالنسبة لطلاب العلم أمر معتاد ، فكم خاطروا بحياتهم في الأسفار ، وكم كابدوا من المشاق في سبيل طلب العلم

(١) سير أعلام النبلاء ٤ / ٢٢٢ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٤ / ٢٣٢ .

من مواقف أبي حنيفة النعمان رحمه الله :

ومن أخبارهم في الجد في طلب العلم وطول ملازمة الشيوخ
ماروي عن الإمام أبي حنيفة قال : قدمت البصرة فظننت أنني لأسأل
عن شيء إلا أجبت فيه ، فسألوني عن أشياء لم يكن عندي فيها
جواب ، فجعلت على نفسي أن لأفارق حماداً حتى يموت ، فصحبته
ثمانى عشرة سنة (١) .

يعني شيخه حماد بن أبي سليمان رحمه الله .

من مواقف عبد الملك بن جريج رحمه الله :

وقال عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج : مادون هذا العلم
تدويني أحد ، جالست عمرو بن دينار بعدما فرغت من عطاء سبع
سنين ، وقال : لم يغلبني على يسار عطاء عشرين سنة أحد ، فقليل
له : فما منعك من يمينه ؟ قال : كانت قریش تغلبني عليه (٢) .

وقال أيضاً : أقمت على عطاء إحدى وعشرين حجة ، يخرج
أبواي إلى الطائف وأقيم أنا تخوفاً أن يفجعني عطاء بنفسه (٣) .

من مواقف مالك بن أنس رحمه الله :

من ذلك مذكره الحافظ ابن عبد البر في « التمهيد » قال : هذا
كتبته من حفظي وغاب عني أصلي : أن عبد الله العمري العابد كتب

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٩٨ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٣٤ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٣٦ .

إلى مالك يحضُّه على الانفراد والعمل (١) ، فكتب إليه مالك : إن الله قسم الأعمال كما قسم الأرزاق ، قَرُبَ رجل فُتِحَ له في الصلاة ولم يفتح له في الصوم ، وآخر فتح له في الصدقة ولم يفتح له في الصوم ، وآخر فتح له في الجهاد ، فَنَشَرَ العلم من أفضل أعمال البر ، وقد رُضيت بما فُتِحَ لي فيه ، وما أظن مأناً فيه بدون مأنت فيه ، وأرجو أن يكون كلانا على خير وبرٍّ (٢) .

وهكذا أبان الإمام مالك فضل العلم ، وبين لذلك العابد شمول العبادة ، حيث ذكر له أن نشر العلم من أفضل الأعمال الصالحة ، وأن العالم الذي ينشر علمه ليس بأقل عملاً ممن قَصَرَ عمله على أداء الشعائر التعبدية . .

وهذه نظرة مهمة في بيان شمول العبادة حيث تشمل كل عمل مشروع أراد به فاعله وجه الله تعالى ، وإن من أفضل الأعمال التي تدخل في ذلك نشر العلم ، بل إنه أفضل من الاقتصار على أداء الشعائر التعبدية من النوافل ، لأن هذه نفعها قاصر على فاعلها ، ونشر العلم يصل نفعه إلى من قام به ومن استفاد من نشره .

هذا إضافة إلى الأدلة الصحيحة الصريحة التي تدل على فضل نشر العلم والدعوة به إلى الإسلام ، كما جاء في قول رسول الله ﷺ « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » (٣) ، وقوله « لأن يهدي الله بك

(١) يعني على العزلة والتعبد . .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٠٢/٨ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب فضائل القرآن ، باب خيركم من تعلم القرآن .

رجلا واحداً خير لك من حمر النعم» (١) وقوله « مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن (٢) كمثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها » (٣) وهذا صريح في تفضيل معلم العلم الديني على من اقتصر على العبادات الخاصة .

بل أصرح من ذلك قوله ﷺ « من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً من طرق الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضى بما يصنع ، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض ، والحيتان في جوف الماء ، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر » (٤) . وكذلك قوله ﷺ « فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم ، إن الله عز وجل وملائكته وأهل السماوات والأرض ، حتى النملة في جحرها ، وحتى الحوت ليصلُّون على معلِّم الناس الخير » (٥) .

كما يبين النبي ﷺ أن الاشتغال بالعلم أفضل من نوافل العبادة

(١) سبق في مواقف غزوة خيبر .

(٢) يعني يعلمه الناس .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب فضائل القرآن، باب فضل القرآن، صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضيلة حافظ القرآن .

(٤) صحيح الجامع الصغير ، رقم ٦١٧٣ (٣٠٢/٥) .

(٥) صحيح الجامع رقم ٤٠٨٩ (٨٦/٣) .

حيث يقول: « فضل العلم أحب إليَّ من فضل العبادة، وخير دينكم الورع » (١).

ويربط النبي ﷺ في حديث آخر بين الخير والفقہ في الدين كما في قوله « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين » (٢).

وذلك أن عبادة الله تعالى بغير فقه قد تضر صاحبها ، وذلك فيما إذا عبد الله سبحانه بغير ما شرع .

فهذه النصوص وأمثالها تدل على فضل الاشتغال بطلب العلم ونشره على الاشتغال بنوافل العبادة ، وإن كان الكمال في الجمع بين ذلك لمن استطاع .

ولو أن الإمام مالكا وأمثاله من العلماء ساروا على منهج ذلك العابد الذي أشار عليه بالعزلة والاشتغال بنوافل العبادة لما انتشر العلم ولعبد الناس ربهم على جهل ، وما ذلك الاهتمام الذي تمتع به ذلك العابد إلا بسبب ما بلغه من العلم عن طريق العلماء الذين تقربوا إلى الله تعالى بنشر العلم .

ومن المواقف في الاهتمام بالعلم ما رواه ابن مهدي قال : سأل رجل مالكا عن مسألة فقال : لا أحسنها ، فقال الرجل : إني ضربت إليك من كذا وكذا لأسألك عنها ، فقال له مالك : فإذا رجعت إلى مكانك وموضعك فأخبرهم أنني قد قلت لك : إني لا أحسنها (٣).

(١) صحيح الجامع رقم ٤٠٩٠ (٨٦/٣) .

(٢) صحيح الجامع رقم ٦٤٨٧ (٣٧١/٥) .

(٣) حلية الأولياء ٣٢٣/٦ .

فهذا مثل على ورع الإمام مالك وقوة إيمانه ، فقد كان لا يفتي إلا متمكنا من معرفة الحكم ، ولا يبالى أن يوصف بنقص العلم إذا اعتذر عن الجواب ، لأنه لا يعمل من أجل الناس وإنما يعمل من أجل الله تعالى ، والعالم إذا سئل عن مسألة فأجاب يكون قد خلص نفسه من الناس ، ولكنه إذا أجاب بغير علم يكون قد ورط نفسه وأوقعها في مهلكة ، فالعالم التقي يوازن بين مشكلة الدنيا التي قد تنقص من جاهه ومكانته عند الناس ، وبين مشكلة الآخرة ، حينما يقف للحساب بين يدي الله تعالى فيسأله عن الفتوى بغير علم ، فيفضل الخلاص من مشكلة الآخرة وإن حصل له نقص في جاهه ومنزلته في الدنيا .

وهكذا فعل الإمام مالك حينما اعتذر عن الفتيا في تلك المسألة مع أن ذلك زاده شرفا ومنزلة عند العلماء ، لأنهم اعتبروا ذلك دليلا على ورعه وتقواه .

وقد بين في خبر آخر عنه أنه يخشى من إجابة السائلين القادمين من الآفاق البعيدة أن يرجع عن فتواه إلى ما يراه أقرب إلى الصواب ، فلا يستطيع بعد ذلك العثور على السائلين لإخبارهم بذلك ، كما أخرج أبو نعيم بإسناده عن عمرو بن عمرو بن يزيد أنه قال قلت لمالك : يا أبا عبد الله يأتيك ناس من بلدان شتى قد أنضوا مطاياهم ، وأنفقوا نفقاتهم يسألونك عما جعل الله عندك من العلم تقول لا أدري ! فقال : يا عبد الله يأتيني الشامي من شامه ، والعراقي من عراقه ، والمصري من مصره ، فيسألونني عن الشيء لعلِّي أن يبدو لي فيه غير ما أجيب به فأين أجدهم ؟ (١) .

(١) حلية الأولياء ٦ / ٣٢٤ .

وهذا أبلغ في التحري والورع حيث يكون له اجتهاد في المسألة
ويخشى أن يتغير اجتهاده .

موقف لعبد الله القعني رحمه الله :

ومن العلماء من بالغ في الورع فترك نشر الحديث خشية الوقوع
في مآثم بسبب ذلك مثل احتمال مداخله الرياء والسمعة أو وقوع
الخلافا مع العلماء الآخرين ونحو ذلك ورأى بسبب ذلك أن يتفرغ
لأداء الشعائر التعبدية .

ومن هؤلاء الإمام عبد الله بن مسلمة القعني ، ولكنه بعد
التوقف رجع إلى التحديث بسبب رؤيا صالحة رآها ، كما روي عن
أبي سبرة المديني قال : قلت للقعني : حدثتَ ولم تكن تحدث ! قال :
لني رأيت كأن القيامة قد قامت ، فصيح بأهل العلم ، فقاموا وقمت
معهم ، فنودي لي : اجلس ، فقلت : إلهي ألم أكن أطلب ؟ قال :
بلى ولكنهم نشروا وأخفيتهُ ، قال : فحدثت (١) .

فهذه الرؤيا جاءت تذكيرا وإيقاظا لهذا الإمام لما أراد الله تعالى
به من الخير ، وإلا فهو على علم غالبا بالأحاديث التي تحث على نشر
العلم وتبين أن ذلك من أركى الأعمال الصالحة ، لكن غلب عليه
الورع ، فغلب جانب اتقاء الأثم المحتمل على التزود بالعمل الصالح
المتيقن مع صلاح النية .

من مواقف أبي حنيفة وتلميذه أبي يوسف رحمهما الله :

من أمثلة اهتمام العلماء بطلب العلم ونشره ما ذكره الحافظ ابن

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٢٦١ - ٢٦٢ .

كثير من خبر الإمام القاضي أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم صاحب الإمام أبي حنيفة قال: توفي أبي وأنا صغير فأسلمتني أمي إلى قصار^(١)، فكنت أمرُّ على حلقة أبي حنيفة فأجلس فيها ، فكانت أمي تتبعني فتأخذ بيدي من الحلقة وتذهب بي إلى القصار، ثم كنت أخالفها في ذلك وأذهب إلى أبي حنيفة ، فلما طال ذلك عليها قالت لأبي حنيفة : إن هذا صبي يتيم ليس له شيء إلا ما أطعمه من مغزلي، وإنك قد أفسدته علي، فقال لها : اسكتي يارعناء^(٢)، هاهو ذا يتعلم العلم وسيأكل الفالودج بدهن الفستق في صحن الفيروزج، فقالت له : إنك شيخ قد خرفت، قال أبو يوسف : فلما وليت القضاء - وكان أول من ولاه القضاء الهادي، وهو أول من لُقِّب قاضي القضاة ، وكان يقال له : قاضي قضاة الدنيا لأنه كان يستنيب في سائر الأقاليم التي يحكم فيها الخليفة - قال أبو يوسف : فيينا أنا ذات يوم عند الرشيد إذ أتني بالفالودج في صحن فيروزج، فقال لي: كل من هذا فإنه لا يُصنع لنا في كل وقت، وقلت: وما هذا يا أمير المؤمنين؟ فقال: الفالودج، قال: فتبسمت فقال: مالك تتبسم؟ فقلت: لا شيء أبقي الله أمير المؤمنين، فقال: لتُخبرني، فقصصت عليه القصة، فقال: إن العلم ينفع ويرفع في الدنيا والآخرة، ثم قال: رحم الله أبا حنيفة فلقد كان ينظر بعين عقله، ما لا ينظر بعين رأسه^(٣).

ففي هذا الخبر مثل على اهتمام الطلاب آنذاك بالعلم، حيث تنبه

(١) القصار الصانع أو مبيض الثياب .

(٢) أي ياحمقاء .

(٣) البداية والنهاية ١٨٦/١٠ - ١٨٧ .

الإمام أبو يوسف إلى أهمية العلم وهو طفل، وفراصة عالية وتقدير للعلم من الإمام أبي حنيفة حيث أخبر بما سيؤول إليه أمر أبي يوسف، وموقف لأمر المؤمنين هارون الرشيد في إعزاز العلماء وتقديرهم .
من مواقف هاشم السلمي وشيخه أبي شيبه رحمهما الله :

من ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير في ترجمة أبي معاوية هاشم بن بشير بن أبي حازم السلمي ، قال : كان أبوه طباحا للحجاج بن يوسف الثقفي ، ثم كان بعد ذلك يبيع الكوامخ^(١) ، وكان يمنع ابنه من طلب العلم ليساعده على شغله ، فأبى إلا أن يسمع الحديث ، فاتفق أن هاشمًا مرض فجاءه أبو شيبه قاضي واسط عائدًا له ومعه خلق من الناس ، فلما رآه بشير فرح بذلك وقال : يا بني أبلغ من أمرك أن جاء القاضي إلى منزلي ؟ لا أمنعك بعد هذا اليوم من طلب الحديث^(٢) .

وهكذا عرف بشير بن أبي حازم قيمة العلم ومنزلة أهله حينما جاء قاضي واسط ومعه أهل العلم لزيارة ابنه هاشم الذي كان -آنذاك- من طلاب العلم ، وكم كانت فرحته حينما جاء القاضي لزيارته لما سترتب على ذلك من تقدير أبيه للعلم وأهله ، وهذا موقف يذكر لأبي شيبه قاضي واسط في تقديره لطلاب العلم ، ولقد رفعت هذه الزيارة الحرج عن هاشم بن بشير ، حيث أصبح أبوه لا يمنعه بعد ذلك من طلب العلم .

(١) جمع كامخ ، معرب ، وهو اسم لما يؤتم به .

(٢) البداية والنهاية ١٠ / ١٩٠ .

موقف لهشام بن عمار رحمه الله :

ومن أمثلة اهتمامهم بطلب العلم ماروي عن هشام بن عمار قال : دخلت على مالك (١) فقلت له : حدثني ، فقال : اقرأ ، فقلت : لا بل حدثني ، فقال : اقرأ ، فلما أكثرته عليه ، قال : يا غلام تعال اذهب بهذا فاضربه خمسة عشر ، فذهب بي فضربني خمس عشرة درّة ، ثم جاء بي إليه ، فقال : قد ضربته ، فقلت له : لِمَ ظلمتني ؟ ضربتني خمس عشرة درّة بغير جرم ، لا أجعلك في حل ، فقال مالك : فما كفارته ؟ قلت : كفارته أن تحدثني بخمسة عشر حديثاً ، قال : فحدثني بخمسة عشر حديثاً ، فقلت له : زد من الضرب وزد في الحديث ، فضحك مالك وقال : اذهب (٢) .

فهذا مثل بليغ في اهتمام طلاب العلم بالتحصيل العلمي في رواية السنة النبوية ، فقد احتمل هشام بن عمار الضرب في سبيل العلم ، وكان يريد المزيد من العلم وإن ناله مزيد من الضرب في سبيل ذلك .

وفيه مثل من اهتمام الإمام مالك بتأديب الطلاب الذي قد يصل إلى حد الضرب ، ومع أنه قد فعل ذلك على سبيل التأديب فإنه لما تظلم إليه هشام بن عمار غلب عليه جانب الخوف من الله تعالى فسأل ذلك الطالب عن كفارة ما حصل منه نحوه ، وهذا دليل على قوة إيمانه وشدة استحضاره لرقابة الله عز وجل والحساب الأخروي .

(١) يعني الإمام مالك بن أنس .

(٢) سير أعلام النبلاء ٤٢٩/١١ .

من مواقف أبي يوسف يعقوب الفسوي رحمه الله :

ومن ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير في ترجمة الإمام أبي يوسف يعقوب بن أبي معاوية الفسوي قال: وقد رحل في طلب الحديث إلى البلدان النائية ، وتغرب عن وطنه ثلاثين سنة ، وروى ابن عساكر عنه قال : كنت أكتب في الليل على ضوء السراج في زمن الرحلة ، فبينما أنا ذات ليلة إذا وقع شيء على بصري فلم أبصر معه السراج ، فجعلت أبكي على ما فاتني من ذهاب بصري ، وما يفوتني بسبب ذلك من كتابة الحديث ، وما أنا فيه من الغربة ، ثم غلبتني عيني فتمت فرأيت رسول الله ﷺ فقال : مالك ؟ فشكوت إليه ما أنا فيه من الغربة وما فاتني من كتابة السنة ، فقال : ادن مني ، فدنوت منه فجعل يده على عيني ، وجعل كأنه يقرأ شيئاً من القرآن ، ثم استيقظت فأبصرت وجلست أسبح الله (١) .

وهكذا كان اهتمام الإمام الفسوي سبباً فيما نزل به من الغم الشديد حينما فقد بصره ، فلم يفكر - آنذاك - بأمر دينه وإنما كان باله مشغولاً بما سيفوته من كتابة السنة النبوية بسبب فقد البصر ، وقد رحمه الله تعالى فشفاه بواسطة رقية رسول الله ﷺ إياه في المنام ، وأكرم بها من واسطة !

من مواقف عبد الله بن المبارك وعلي بن الحسن بن شقيق رحمهما الله :

ومن أمثلة اهتمامهم بالعلم وهيامهم بمذاكرته ماروي عن علي بن الحسن بن شقيق رحمه الله قال : قمت لأخرج مع ابن المبارك في ليلة

(١) البداية والنهاية ١١/٦٣ - ٦٤ .

باردة من المسجد ، فذاكرني عند الباب بحديث أو ذاكرته فما رلنا نتذاكر حتى جاء المؤذن للصبح (١) .

فهذان العالمان الجليلان يستغرقان في مذاكرة الحديث ليلة كاملة عند باب المسجد ، ولم يعكّر عليهما ماكان من برودة الجو لأن اشتيقاهما إلى المذاكرة واستغراق أفكارهما في العلم ينسيهما لوافح البرد وسمائم الحر .

من مواقف إسماعيل بن عياش رحمه الله :

ومن الأخبار التي تدل على اهتمام العلماء بالعلم وتذكره مارواه محمد بن عوف عن أبي اليمان قال : كان منزل إسماعيل [يعني ابن عياش] إلى جانب منزلي ، فكان يحبي الليل ، وكان ربما قرأ ، ثم يقطع ثم رجع فقرأ من الموضع الذي قطع منه ، فلقيته يوماً فقلت : يا عم قد رأيت منك في القراءة كيت وكيت ، قال : يا بني وماسؤالك ؟ قلت : أريد أن أعلم ، قال : يا بني إني أصلي فأقرأ ، فأذكر الحديث في الباب من الأبواب التي أخرجتها فأقطع الصلاة فأكتبه ثم أرجع إلى صلاتي فأبتدئ من الموضع الذي قطعت منه (٢) .

وقوله « فأقطع الصلاة » يعني القراءة ثم يتم الركعتين خفيفتين ثم يعود إلى القراءة بعد كتابه الحديث في صلاة أخرى ، لأنه يبعد من ذلك العالم أن يقطع صلاته بالكلية .

وفي هذا الخبر دلالة على اهتمام العلماء البالغ بالعلم وتذكره

(١) سير أعلام النبلاء ٣٣٩/٨ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٨٠/٨ .

وتدوينه، فقد كان التفكير في العلم يدخل عليهم حتى في صلاتهم التي كانت أغلى شيء في حياتهم، فهذا العالم الجليل يوقف قراءته ويخفف صلاته ليدون ماخطر في فكره من العلم خشية فواته، وهذا دليل على فهمهم الصحيح لمنزلة العلم وأهميته .

من مواقف أبي جعفر المنصور مع أحد العلماء رحمهما الله :

ذكر الإمام محمد بن جرير الطبري في ترجمة أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور قال : ودخل على المنصور رجل من أهل العلم فازدراه واقتحمته عينه ، فجعل لايسأله عن شيء إلا وجد عنده ، فقال له : أئني لك هذا العلم ! قال : لم أبخل بعلم علمته ، ولم أستح من علم أتعلمه ، قال : فمن هناك (١) .

وهكذا رفع العلم هذا الرجل الذي احتقره أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور في أول الأمر ، فالعلم النافع رفعة ونور لصاحبه في الدنيا والآخرة، وقد أبان هذا العالم للمنصور سبب حفظه العلم واستيعابه إياه بأمرين: الأول أنه لم يبخل بعلمه، بل نشره وعلمه غيره، وتعليم العلم هو أهم وسائل حفظه وتذكره ، والثاني أنه لم يمنع الحياء من طلب العلم حيث كان يسأل عما خفي عليه منه، وهذا يعطيه فرصة أكبر في التزود من العلم ومعرفة مسائله الخفية .

من مواقف عاصم بن علي رحمه الله :

ومن أمثلة كثرة طلاب العلم وتزاحمهم على العلماء ما جاء عن

(١) تاريخ الطبري ٨٨/٨ .

عمر بن حفص السدوسي قال: سمعنا من عاصم بن علي، فوجه المعتصم من يحرر مجلسه في رحبة النخل التي في جامع الرصافة، وكان يجلس على سطح، وينتشر الناس، حتى إنني سمعته يوماً يقول: حدثنا الليث بن سعد، ويُسْتَعَاد، فأعاد أربع عشرة مرة، والناس لا يسمعون، وكان هارون المستملي يركب نخلة معوجة يستملي عليها، فبلغ المعتصم كثرة الخلق فأمر بحزْرهم، فوجهً بقطّاعي الغنم فحزروا المجلس عشرين ومائة ألف (١).

فهذا مثال على كثرة طلاب العلم والمستمعين للدروس العلمية، وخاصة ما يتعلق بالسنة النبوية، حيث إن دروسها هي التي كانت تحظى بالعدد الكبير من الطلاب والمستمعين.

وإذا نحن قارنا بين تلك العصور وعصرنا الحاضر نجد أن الله تعالى منّ علينا في هذا العصر بالوسائل التي يستطيع بها أهل العلم أن يُبلِّغوا العلم ومن ذلك مكبرات الصوت، بينما كان أهل العلم سابقاً يضطرون إلى عدد من المبلّغين إذا كثّر طلاب العلم، وذلك يأخذ عليهم وقتاً طويلاً.

إضافة إلى ما توفر في هذا العصر من الآلات الأخرى التي يتم بها نشر العلم بسرعة وحفظه كالمسجلات وآلات الطباعة والتصوير.

وإن من شكر هذه النعمة على أبناء هذا الجيل أن يستخدموا هذه الوسائل في تكثيف الإنتاج والاستفادة من الوقت الذي وفرته هذه الوسائل.

(١) سير أعلام النبلاء ٢٦٣/٩، تاريخ بغداد ٢٤٨/١٢.

من مواقف علي بن عاصم رحمه الله :

من ذلك ما ذكره الإمام الذهبي عن الخضر بن أبان قال : سمعت علي بن عاصم يقول : خرجت من واسط أنا وهشيم إلى الكوفة للُقِيَّ منصور - يعني ابن المعتز - فلما خرجت فراسخ لقيني أبو معاوية ، فقلت : أين تريد؟ قال : أسعى في دين عليٍّ ، فقلت : ارجع معي فإن عندي أربعة آلاف أعطيك منها ألفين ، فرجعته فأعطيته ألفين ، ثم خرجت فدخل هشيم الكوفة غداة ، ودخلتها العشي فذهب فسمع من منصور أربعين حديثاً ، ودخلت أنا الحمام ، ثم أصبحت فأتيت باب منصور فإذا جنازته ، فقعدت أبكي ، فقال شيخ هناك : يا فتى ما يبكيك؟ قلت : قدمت لأسمع من هذا الشيخ فمات ، قال : فأدلك على من شهد عرس أم ذا ؟ قلت : نعم ، قال : اكتب : حدثنا عكرمة عن ابن عباس ، فجعلت أكتب شهراً ، فقلت : من أنت؟ قال : أنا حصين بن عبد الرحمن ما كان بيني وبين أن ألقى ابن عباس إلا تسعة دراهم ، وكان عكرمة يسمع منه ثم يجيء فيحدثني (١) .

ففي هذا الخبر مواقف عالية :

فالموقف الأول في رجوع علي بن عاصم الواسطي ليقضي دين أحد العلماء وهو أبو معاوية ، وهذا مثل من الكرم المتأصل في النفس ، حيث أجل سفره من أجل هذه المهمة ، ولم يطلب منه أبو معاوية وإنما ذكر فقط بأنه خرج من أجل طلب سداد دين عليه ، وليس غريباً هذا الكرم على علماء الدين بل هو الغالب عليهم وخاصة فيما بينهم

(١) سير أعلام النبلاء ٢٥٣/٩ .

ومع طلابهم لأنهم كانوا يريدون وجه الله تعالى والدار الآخرة، ولأن مثل هذا الموقف يكون بعيداً عن الخيلاء والمباهاة، وهم كانوا أحرص شيء على توقّي أمراض القلوب .

والموقف الثاني: في بكاء علي بن عاصم حينما فاته السماع من منصور بن المعتمر، والبكاء أثر من آثار حرقّة النفس وكمدها على فوات المحبوب، وقد كان العلم أعزّ محبوب من الطالب عند أهل العلم .

وقد كان علي بن عاصم يستطيع سماع مافاته من مرويات منصور ابن المعتمر من تلامذته الذين سمعوا منه، ولكنه كان يريد علو الإسناد، وكان ذلك مطلباً عزيزاً عند أهل الحديث رحمهم الله تعالى، وقد عوضه الله سبحانه بما يشفي وجده ذلك بما سمع من حصين بن عبد الرحمن الذي لم يكن بينه وبين ابن عباس رضي الله عنهما إلا عكرمة .

والموقف الثالث: فيما قام به حصين بن عبد الرحمن من مواصلة علي بن عاصم حينما رأى مصيبتَه بفقد منصور بن المعتمر، حيث جلس يحدثه شهراً، فعوضه عما فاته مما قدم الكوفة من أجله، وقد كان العلماء يقدّرون طالب العلم الذي يلمسون منه إخلاصاً في طلب العلم .

وإلى جانب حرص الطلاب في ذلك الزمن على تعلم العلم نجد الآباء يشجعون أبناءهم ويوجهونهم إلى العلماء ، ويبدلون في سبيل ذلك الكثير من أموالهم كما جاء عن عاصم بن علي أنه قال: دفع

إليّ أبي مائة ألف درهم ، وقال : اذهب فلا أرى لك وجهًا إلا بمائة ألف حديث (١) .

فهذا مثل من أمثلة اهتمام الآباء بتوجيه أبنائهم نحو العلم مع ما يكلفهم ذلك من أموال ، فقد كانوا أسخياء بأموالهم في سبيل تعليم أبنائهم ، وإذا كان طلب العلم لا يحصل إلا بهذا الجهد البدني والمالي فإنه أبقى له وأجدر بالانتفاع به .

موقف لعبد الله بن داود الخريبي رحمه الله :

ويشبه موقف علي بن عاصم مارواه الكديمي عن عبد الله بن داود الخريبي أنه قال : كان سبب دخولي البصرة لأن ألقى ابن عون فلما صرت إلى قناطر سردارا تلقاني نعيه ، فدخلني ما الله به عليم (٢) .

موقف لابن المديني رحمه الله :

ومن أمثلة حرصهم على طلب العلم ماجاء عن إبراهيم بن المنذر الحزامي قال : قدمت البصرة فجاءني علي بن المديني فقال : أول شيء أطلب أن تخرج إليّ حديث الوليد بن مسلم ، فقلت : يا ابن أمّ ، سبحان الله ! وأين سماعي من سماعك ؟ فجعلت آبي ، ويلح ، فقلت له : أخبرني عن إلحاحك ماهو ؟ قال أخبرك : إن الوليد رجل أهل الشام ، وعنده علم كثير ، ولم استمكن منه ، وقد حدثكم بالمدينة في المواسم ، وتقع عندكم الفوائد ، لأن الحجاج يجتمعون بالمدينة من الآفاق فيكون مع هذا بعض فوائده ومع هذا شيء .

(١) سير أعلام النبلاء ٢٥٢/٩ ، تاريخ بغداد ٤٤٧/١١ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٣٤٨/٩ ، تهذيب الكمال ٦٧٨ .

قال : فأخرجت إليه ، فتعجب من كتابه ، كاد أن يكتبه على الوجه (١) .

فهذا مثال لحرص العلماء على نواذر العلم ، كما أنه مثال لتواضعهم في الطلب فإن علي بن المديني أشهر من إبراهيم بن المنذر ، ومع ذلك يذهب إليه ابن المديني ليأخذ منه الفوائد العلمية .

وهو إضافة إلى ذلك مثال لما كانت تعمر به مكة والمدينة في أيام المواسم من النشاط العلمي المترتب على وفود العلماء وطلاب العلم من الآفاق ، وهذه منفعة عظيمة من المنافع التي ذكرها الله جل وعلا بقوله ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ [الحج : ٢٨] .

من مواقف أبي حاتم وزملائه رحمهم الله :

من ذلك ما روي عن أبي حاتم (٢) أنه قال عن عبد الله بن مسلمة القعنبي : سألناه أن يقرأ علينا الموطأ ، فقال : تعالوا بالغداة ، فقلنا : لنا مجلس عند حجاج بن منهال ، قال : فإذا فرغتم من حجاج ، قلنا : نأتي مسلم بن إبراهيم ، قال : فإذا فرغتم ، قلنا : يكون وقت الظهر ونأتي أبا حذيفة النهدي ، قال : فبعد العصر ، قلنا : نأتي عارماً أبا النعمان ، قال : فبعد المغرب ، فكنا نأتيه بالليل فيخرج علينا وعليه كبل (٣) ماتحته شيء في الصيف في الحر الشديد ، فكان يقرأ علينا وعليه كساؤه ولو أراد لأعطى الكثير (٤) .

(١) سير أعلام النبلاء ٩ / ٢١٤ .

(٢) هو الإمام الحافظ محمد بن إدريس التيمي الرازي .

(٣) أي فرو كبير .

(٤) الجرح والتعديل ٥ / ١٨١ ، سير أعلام النبلاء ١٠ / ٢٦٠ .

فهذا مثل لعمران البلاد آنذاك بمجالس العلم ، فأبو حاتم وزملاؤه في طلب العلم يحضرون خمسة دروس في اليوم في الحديث ، وإذا تذكرنا أنهم يحفظون ما يسمعون عن ظهر قلب غالبا عرفنا الجهد الكبير الذي كان يبذله طلاب العلم آنذاك في حمل العلم .

ولقد كان بعض تلك الأحاديث من مسموعاتهم قديما ولكنهم يحبون أن يسمعوها من أكثر من شيخ زيادة في الثبوت والتحري .
من مواقف سليمان بن حرب رحمه الله :

ومن أمثلة كثرة طلاب العلم في دروس الحديث النبوي ما أخرجه ابن أبي حاتم قال : سمعت أبي يقول : لقد حضرت مجلس سليمان ابن حرب ببغداد ، فحزروا من حضر مجلسه أربعين ألف رجل ، وكان مجلسه عند قصر المأمون ، فبُني له شبه منبر فصعد سليمان وحضر حوله جماعة من القواد عليهم السواد^(١) والمأمون فوق قصره ، قد فتح باب القصر ، وقد أرسل سترٌ يَشْفُ وهو خلفه يكتب ما يُملَى ، فسُئِلَ أول شيء حديث حوشب بن عقيل ، فلعله قد قال : حدثنا حوشب بن عقيل أكثر من عشر مرات وهم يقولون : لانسمع فقام مستملي ومستمليان وثلاثة ، كل ذلك يقولون : لانسمع ، حتى قالوا : ليس الرأي إلا أن يحضر هارون المستملي ، فذهب جماعة فأحضروه ، فلما حضر قال : من ذكرت ؟ فإذا صوته خلاف الرعد ، فسكتوا ، وقعد المستملون كلهم ، فاستملى هارون ، وكان - يعني سليمان بن حرب - لا يُسأل عن حديث إلا حدث من حفظه ، وسئل عن حديث فتح مكة

(١) أي لبس السواد وهو شعار العباسيين .

فحدثنا به من حفظه، فقمنا من مجلسه فأتينا عفان-يعني ابن مسلم - فقال: ماحدثكم أبو أيوب ؟ وإذا وهو يعظمه (١) .

فهذا الخبر مثل لكثرة طلاب العلم في عصور الإسلام الزاهرة، فهذا الإمام الجليل سليمان بن حرب قد اجتمع في درسه أربعون ألف طالب، وهؤلاء يعادلون طلاب جامعة من أكبر جامعات الدنيا في العصر الحاضر .

وفي المقارنة بين الوسائل المتاحة للعلماء وطلاب العلم في هذا العصر وماأتيح لهم في العصور السابقة نجد فرقا كبيرا، فقد كانوا مضطرين سابقا إلى تكليف عدد من المبلغين لكثرة الحضور وعدم سماعهم صوت الشيخ ، وحينما يوجد رجل جهوري الصوت من أهل العلم فإنه يكون نعمة على الشيوخ والتلاميذ كما هو الحال في هارون المستملي الذي جاء ذكره في هذا الخبر .

وكان القادة يستفيدون أيضاً من أصحاب الأصوات الجهورية في إبلاغ البلاغات العسكرية ، ولهم في ذلك أسوة حسنة برسول الله ﷺ يوم حنين ، حيث كلف عمه العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه ببناء أفراد الجيش ، وكان جهوري الصوت .

أما أبناء هذا العصر فقد هيا الله تعالى لهم مكبرات الصوت التي تحيل الصوت الخافت إلى صوت جهوري ، يصل إلى أبعاد طويلة ، فاستفاد من ذلك العلماء والخطباء والقادة وغيرهم في اختصار الوقت الذي كان سابقا يذهب في التبليغ .

(١) الجرح والتعديل ٤/ ١٠٨ - ١٠٩ ، سير أعلام النبلاء ١٠/ ٣٣١-٣٣٢ .

أما ماجاء في هذا الخبر من كون سليمان بن حرب لا يُسأل عن حديث إلا حدث به من حفظه فهو مثل من أمثلة كثيرة تكشف عما كان يبذله العلماء من جهود كبيرة في حفظ السنة النبوية بأسانيدها .
وأخيراً موقف كريم للعالم الجليل عفّان بن مسلم الذي كان معاصراً لسليمان بن حرب ، ويساميه في الحفظ والعلم ، فلما سأل عنه طلاب العلم الذين حضروا هذا المجلس وأخبروه عنه أثنى عليه وعظمه .

من مواقف يحيى بن معين رحمه الله :

من مواقف العلماء المشهور شدة تحريهم ودقة تثبتهم في رواية الحديث النبوي ، ومن أمثلة ذلك ما رواه أحمد بن منصور الرمادي قال : خرجت مع أحمد ويحيى إلى عبد الرزاق خادماً لهما^(١) . قال : فلما عدنا إلى الكوفة قال يحيى بن معين : أرى أن أختبر أبا نعيم^(٢) فقال أحمد : لا تُردّ فالرجل ثقة ، قال يحيى : لا بد لي ، فأخذ ورقة فكتب فيها ثلاثين حديثاً وجعل على رأس كل عشرة منها حديثاً ليس من حديثه ، ثم إنهم جاؤوا إلى أبي نعيم ، فخرج وجلس على دكان طين ، وأخذ أحمد بن حنبل فأجلسه عن يمينه ، ويحيى عن يساره ، وجلست أسفل الدكان ، ثم أخرج يحيى الطبق فقرأ عليه عشرة أحاديث ، فلما قرأ الحادي عشر قال أبو نعيم : هذا ليس من

(١) يعني أن أحمد الرمادي خرج مع الإمام أحمد بن حنبل ويحيى بن معين من العراق

إلى اليمن لسماع الحديث من محدث اليمن عبد الرزاق الصنعاني .

(٢) هو الحافظ الفضل بن دُكَيْن ، ودكين لقب اشتهر به أبوه عمرو بن حماد .

حديثي، اضرب عليه ، ثم قرأ العشر الثاني وأبو نعيم ساكت ، فقرأ الحديث الثاني - يعني من الأحاديث التي أدخلها في أحاديث أبي نعيم- فقال أبو نعيم : ليس هذا من حديثي فاضرب عليه ، ثم قرأ العشر الثالث ، ثم قرأ الحديث الثالث ، فتغير وجه أبي نعيم وانقلبت عيناه ، ثم أقبل على يحيى فقال: أما هذا - وذراع أحمد بيده- فأورع من أن يعمل مثل هذا ، وأما هذا - يريدني - فأقل من أن يفعل ذلك ولكن هذا من فعلك يا فاعل ، وأخرج رجله فرفس يحيى فرمى به من الدكان ، وقام فدخل داره ، فقال أحمد بن حنبل ليحيى : ألم أَمْنَعَكَ وأقل لك : إنه ثبت ، قال: والله لرَفُسْتُهُ أحب إلي من سفرتي (١).

فهذا الإمام الكبير والحافظ الخبير يحيى بن معين يقوم باختيار شيخه أبي نعيم ، لا على سبيل التعنت والإحراج وإنما ليصل بذلك إلى توثيق آلاف الأحاديث التي رواها عنه، وقد كان الإمام أحمد واثقا من شيخه أبي نعيم ويعتقد أنه ثقة ، ولكن يحيى أصر على الاختبار ليحصل على مزيد من الثقة .

ونجح الشيخ أبو نعيم رحمه الله تعالى في ذلك الاختبار، ولكنه غضب غضبا شديداً ، وكَبُرَ عليه أن يحصل ذلك من تلاميذه وهذا هو الذي كان يخشى منه أحمد بن حنبل

وتلقَى يحيى ضريبة عمله ذلك رفسة أطاحت به من قدم شيخه ولكن هذه الرفسة كانت عند يحيى أحلى من فرحة العودة من سفرته العلمية إلى اليمن .

(١) تاريخ بغداد ٣٥٣/١٢ - ٣٥٤ ، سير أعلام النبلاء ١٠/١٤٨ - ١٤٩ .

لقد استقرت نفس يحيى واطمأن بعد ذلك الاختبار لحديث أبي نعيم الكثير فلم لا يكون ذلك أحلى عنده مما جمعه من عبد الرزاق الصنعاني في سفرته إلى اليمن ؟

إن سعادة هؤلاء العلماء النفسية ومتعتهم الروحية تتحقق فيما يقدمونه لسنة رسول الله ﷺ من خدمة في جمعها وتنقيتها ومعرفة درجات رواتها في القوة والضعف ، ومن أجل هذه السعادة استحل يحيى تلك الرفسة من أبي نعيم فرحمهم الله تعالى رحمة واسعة .

ومن أمثلة اهتمامهم أنهم كانوا يكتبون الحديث مرات عديدة كما روي عن يحيى بن معين أنه قال : لو لم نكتب الحديث خمسين مرة ما عرفناه (١) .

ولعل ذلك بتعدد الروايات عن الشيوخ حيث يروون الحديث الواحد مرات عديدة بأسانيد متعددة ، وهذا دليل على الجد والمثابرة في جمع العلم حيث لم يكتفوا برواية واحدة للحديث الواحد أو روايات قليلة ، وكلما تكرر متن الحديث زادوا به معرفة وإتقاناً وضبطاً ، وبهذا نالوا مرتبة الحفظ التام والإتقان الكامل .

ومما روي عن توسع يحيى بن معين في العلم ما ذكره أحمد بن عقبة قال : سألت يحيى بن معين : كم كتبت من الحديث ؟ قال : كتبت بيدي هذه ستمائة ألف حديث .

قال الإمام الذهبي : يعني بالمكرر .

وقال صالح بن أحمد الحافظ : سمعت أبا عبد الله محمد بن

(١) سير أعلام النبلاء ١١ / ٨٤ .

عبد الله يقول : سمعت أبي يقول : خَلَفَ يحيى بن معين مائة قِمَطْرٍ وأربعة عشر قِمَطْرًا وأربعة حَبَابٍ شرايية مملوءة كتباً (١) .

وهذا يعني أن الحافظ يحيى بن معين قد استوعب أكثر السنة رواية ، وقد سبق عنه أنهم كانوا يروون الحديث الواحد بأسانيد متعددة فالمقصود هنا الأسانيد وليس المتون ، فالمتون تكون مكررة كما ذكر الذهبي .

وهذه الخزائن الكُتُبِيَّة التي خَلَفَهَا ابن معين كلها من مروياته لأن الكتب إذا نُسبت إلى العالم فإنما يقصدون بذلك كتب الأحاديث التي رواها .

من مواقف الشقيقي رحمه الله :

من أمثلة تثبت العلماء - رحمهم الله تعالى - في رواية الحديث ماروي عن أبي عمار الحسين بن حريث قال : قلت للشقيقي (٢) : سمعت من أبي حمزة كتاب الصلاة ؟ قال : قد سمعت ولكن نهق حمار يوما فاشتبه حديثٌ فلا أدري أي حديث هو ، فتركت الكتاب كله (٣) .

من مواقف أبي رجاء قتيبة رحمه الله :

ومن ذلك ما ذكره أحمد بن سيار المروزي عن الحافظ أبي رجاء

(١) سير أعلام النبلاء ٨١ / ١١ ، [والقمطر هو وعاء يصنع من القصب ، والحَبَاب الجرار الضخمة] .

(٢) هو الحافظ علي بن الحسن بن شقيق المروزي .

(٣) سير أعلام النبلاء ١٠ / ٣٥١ - ٣٥٢ .

قتيبة مولى الحجاج بن يوسف حيث قال عن كثرة مروياته : وكان كثير الحديث ، لقد قال لي : أقم عندي هذه الشتوة حتى أخرج لك مائة ألف حديث عن خمسة أناسي ، فقلت : لعل أحدهم عمر بن هارون ؟ قال : لا ، كنت كسبت عن عمر بن هارون وحده أكثر من ثلاثين ألفا ، ولكن وكيع بن الجراح ، وعبد الوهاب الثقفي ، وجريز ، ومحمد بن بكر البرسائي ، ونسيت الخامس (١) .

وإذا كانت روايات أبي رجاء مائة ألف حديث عن خمسة شيوخ فكيف برواياته عن بقية شيوخه !

من مواقف أحمد بن حنبل وأبي زرعة وإسحاق بن راهويه رحمهم الله :

لقد كان اهتمام العلماء بالعلم يصل أحيانا إلى حد الانشغال به عن بعض نوافل العبادات ، ومن أمثلة ذلك ما رواه عبد الله بن الإمام أحمد قال : لما قدم أبو زرعة نزل عند أبي ، فكان كثير المذاكرة له ، فسمعت أبي يوما يقول : ماصليت غير الفرض ، استأثرت بمذاكرة أبي زرعة على نوافلي (٢) .

وهذا يفيد بأن مذاكرة العلم والاشتغال به أفضل من نوافل العبادة والمقصود بذلك النوافل المطلقة ، أما المقيدة بأوقات محددة فلا ينبغي تركها ، وإنما كان الاشتغال بالعلم أفضل من نوافل العبادة المطلقة لأن العلم يتعدى نفعه للمسلمين بخلاف نوافل العبادة فإن نفعها يقتصر على فاعلها ، والمقصود بالعبادة هنا المعنى الاصطلاحي الشائع وهو

(١) سير أعلام النبلاء ١٨/١١ .

(٢) تاريخ بغداد ٣٢٧/١٠ .

إطلاق ذلك على الشعائر التعبدية وإلا فإن العبادة تشمل جميع الأعمال الصالحة .

وقد يغلب على العلماء خاطر الاشتغال بالعلم فيشغلهم حتى عن نوافل الوقت المحددة كما جاء في خبر عن الحافظ إسحاق بن راهويه قال : كنا عند عبد الرزاق أنا وأحمد بن حنبل، فمضينا معه إلى المصلّى يوم عيد فلم يكبر هو ولا أنا ولا أحمد، فقال لنا: رأيتُ معمرًا والثوريّ في هذا اليوم كبرًا وإني رأيتكما لم تكبرا فلم أكبر فلم لم تكبرا ؟ قلنا: نحن نرى التكبير ولكن شُخِّلنا بأي شيء نبتدئ من الكتب (١) .

وكون هذين الإمامين العابدين شغلا عن التكبير بالتفكير في العلم دليل على عظمة اهتمامهما بالسنة النبوية .

ولقد كانوا يروون الحديث الواحد من عدة طرق فلا يكتفون بإسناد واحد ، وقد كان هذا من أسباب ضبط السنة لأنه إذا اخطأ راو أو أكثر في بعض الحديث فيمكن تصحيحه من الطرق الأخرى ، وفي بيان ذلك يقول الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى : نحن كتبنا الحديث من ستة وجوه وسبعة لم نضبطه ، فكيف يضبطه من كتبه من وجه واحد ؟!

وقال عبد الله بن أحمد : قال لي أبو زرعة : أبوك يحفظ ألف ألف حديث ، فقيل : وما يدريك ؟ قال : ذاكرته فأخذت عليه الأبواب (٢) .

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ١٩٣ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١١/ ١٨٧ .

فهذا مثال لاهتمام العلماء برواية السنة حيث يروونها من طرق متعددة ، وكثيرا مارحلوا مسافات طويلة من أجل زيادة هذه الطرق ، وإن من مزايا ذلك ضبط ألفاظ الأحاديث وتقوية أسانيدھا ، وقد يقتصر العالم عند تدوين السنة على طريق أو أكثر ويحذف بعض الطرق على سبيل الاختصار أو لكونها لا تخلوا من ضعف .

والمقصود بقول الحافظ أبي زرعة : « أبوك يحفظ ألف ألف حديث » الأسانيد وليس المتون ، فالحديث الواحد الذي يردُّ بعدة أسانيد يُحسب بعددها ، وقد كانوا يعدُّون الأحاديث بالأسانيد لشدة اهتمامهم بجمع الطرق الكثيرة للحديث الواحد .

ومن ذلك ما رواه الحافظ عبد الرحمن بن أبي حاتم قال : وسمعت أبي يقول : رأيت أحمد في المنام ^(١) ، فرأيتُه أضخم مما كان وأحسن وجهها وسَحَنًا ^(٢) مما كان ، فجعلت أسأله عن الحديث ^(٣) .

ففي هذا الخبر بيان اهتمام العلماء بدراسة السنة النبوية ، حيث يتذكرون في الحديث حتى في رؤَى المنام ، فهذا يدل على أن هذا العلم هو أهم شيء عندهم .

ومن ذلك ما روي عن صالح بن الإمام أحمد قال : عزم أبي علي الخروج إلى مكة ليقضي حجة الإسلام ، ورافق يحيى بن معين ، فقال : نمضي إن شاء الله فنقضي حجتنا ونمضي إلى عبد الرزاق إلى

(١) يعني الإمام أحمد بن حنبل .

(٢) يعني الهيئة واللون .

(٣) سير أعلام النبلاء ١١ / ٣٤٥ .

صنعاء نسمع منه ، وكان يحيى بن معين يعرف عبد الرزاق وقد سمع منه [قال: يحيى بن معين] فوردنا مكة وطفنا طواف الورد، فإذا عبد الرزاق في الطواف يطوف ، فطاف وخرج إلى المقام فصلى ركعتين وجلس ، فتممنا طوافنا أنا وأحمد وجئنا وعبد الرزاق جالس عند المقام ، فقلت لأحمد : هذا عبد الرزاق قد أراحك الله من مسيرة شهر ذاهباً وجائياً ومن النفقة ، فقال : ما كان الله يراني وقد نويت له نية أفسدها ولا أتمها (١) .

فهذا الخبر مثل من الحرص الشديد على العمل الصالح ، فقد كان الإمام أحمد قد نوى السفر إلى اليمن للسمع من الإمام عبد الرزاق الصنعائي فأحب أن يتم على نيته ولم يكتف ببقاء عبد الرزاق في مكة ليكتب الله تعالى له ذلك العمل الصالح الذي نواه ، وحينما تدخل النية الصالحة في طلب العلم فإن الله جل وعلا يبارك في أي جهد يبذله المتعلم ، إضافة إلى تحول طلب العلم والسفر من أجله إلى عمل صالح يُرفع لصاحبه .

ومن أخبار العلماء في الشوق إلى العلم ماروي عن عبد الله بن الإمام أحمد قال : سمعت أبي يقول : لما قدمت صنعاء اليمن - أنا ويحيى بن معين - في وقت صلاة العصر، فسألنا عن منزل عبد الرزاق فقل لنا : بقرية يقال لها الرمادة ، فمضيت لشهوتي للقاءه ، وتخلف يحيى بن معين ، وبينها وبين صنعاء قريب ، حتى إذا سألت عن منزله قيل لي : هذا منزله ، فلما ذهبت أدق الباب قال لي بقال تجاه داره ،

(١) طبقات الحنابلة ١/ ١٧٥ .

مَهْ ، لَاتَدُقْ فَإِنَّ الشَّيْخَ مَهُوبٌ ، فَجَلَسْتُ حَتَّى إِذَا كَانَ قَبْلَ صَلَاةِ الْمَغْرَبِ خَرَجَ لِلصَّلَاةِ فَوُثِّبَ إِلَيْهِ وَفِي يَدَيَّ أَحَادِيثٌ قَدْ انْتَقَيْتُهَا ، فَقُلْتُ لَهُ : سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ، تَحْدِثْنِي بِهَذِهِ رَحِمَكَ اللَّهُ فَإِنِّي رَجُلٌ غَرِيبٌ ، فَقَالَ لِي : وَمَنْ أَنْتَ ؟ قُلْتُ : أَنَا أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ ، فَتَقَاصَرَ وَرَجَعَ وَضَمَنِي إِلَيْهِ وَقَالَ : بِاللَّهِ أَنْتَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ؟ ثُمَّ أَخَذَ الْأَحَادِيثَ فَلَمْ يَزَلْ يَقْرُؤُهَا حَتَّى أَشْكَلَ عَلَيْهِ الظَّلَامُ ، فَقَالَ لِلْبَقَالِ : هَلُمَّ بِالصَّبَاحِ ، حَتَّى خَرَجَ وَقْتُ صَلَاةِ الْمَغْرَبِ (١) وَكَانَ يُؤَخِّرُهَا .

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ : فَكَانَ أَبِي إِذَا ذَكَرَ أَنَّهُ نُؤِيَ بِاسْمِهِ عِنْدَ عَبْدِ الرَّزَاقِ بَكَى (٢) .

فَهَذَا الْخَبَرُ فِيهِ مِثْلٌ مِنْ حِرْصِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ عَلَى الْعِلْمِ ، فَمِنْذَ أَنْ وَصَلَ إِلَى الْيَمَنِ بَادَرَ إِلَى سَمَاعِ الْأَحَادِيثِ مِنَ الْإِمَامِ عَبْدِ الرَّزَاقِ الصَّنْعَانِيِّ وَلَمْ يَنْتَظِرْ حَتَّى يَسْتَرِيحَ .

وَفِي الْخَبَرِ مِثْلٌ مِنْ تَقْدِيرِ أَهْلِ الْفَضْلِ وَالتَّقَدُّمِ فِي الْعِلْمِ وَالِدِينِ ، فَمِنْذَ أَنْ عَرَفَ عَبْدَ الرَّزَاقِ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ ضَمَّهُ وَأَكْرَمَهُ وَتَوَاضَعَ لَهُ .

وَأَخِيرًا مِثْلٌ مِنَ الْخَشْيَةِ وَالْخَوْفِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى حَيْثُ كَانَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ يَبْكِي كُلَّمَا ذَكَرَ حِفَاوَةَ عَبْدِ الرَّزَاقِ الصَّنْعَانِيِّ بِهِ ، الْمُبْنِيَّةَ عَلَى سَبْقِ شَهْرَتِهِ إِلَيْهِ .

وَمِنْ أَمْثَلَةٍ مَارَوْي عَنْ الْحَافِظِ أَبِي رَزْعَةَ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْكَرِيمِ

(١) أَيِ خَرَجَ أَوَّلَ وَقْتِهَا .

(٢) طَبَقَاتُ الْخُنَابَلَةِ ١/ ١٨١ - ١٨٢ - .

الرازي رحمه الله تعالى أنه قال: كل شيء قال الحسن [يعني البصري] قال رسول الله ﷺ وجدت له أصلاً إلا أربعة أحاديث (١).

وهكذا فليكن العلم ! فقد قام أبو زرعة بحصر مرسلات الحسن البصري رحمه الله تعالى فوجد لها أصلاً موصولاً ماعداً أربعة أحاديث، وبهذا وأمثاله استحق أبو زرعة أن يكون من أبرز حفاظ زمانه، وجدير بهذا العالم الحافظ الناقد أن يحكم على الأحاديث وأن يعمل العلماء بحكمه.

ولقد كان رحمه الله تعالى محتفظاً بحفظه حتى وهو يعاني من سكرات الموت كما قال أبو جعفر محمد بن علي وراق أبي زرعة: حضرنا أبا زرعة بـ « ماشهران » وهو في السوق (٢) وعنده أبو حاتم وابن وارة والمنذر بن شاذان وغيرهم ، فذكروا حديث التلقين « لَقُّنُوا موتاكم لا إله إلا الله » واستحيوا من أبي زرعة أن يلقنوه فقالوا : تعالوا نذكر الحديث، فقال ابن واره: حدثنا أبو عاصم حدثنا عبد الحميد ابن جعفر عن صالح ، ولم يجاوز، والباقون سكتوا، فقال أبو زرعة وهو في السوق : حدثنا بNDAR حدثنا أبو عاصم حدثنا عبد الحميد عن صالح بن أبي عَريب عن كثير بن مرة عن معاذ بن جبل قال قال رسول الله ﷺ : « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة » ، وتوفي رحمه الله تعالى (٣).

(١) سير أعلام النبلاء ٦٩/١٣ .

(٢) يعني قد حضره الموت .

(٣) سير أعلام النبلاء ٧٧/١٣ ، تاريخ بغداد ٣٣٥/١٠ .

وهكذا كان أبو زرعة حافظاً للأحاديث وهو في النزح الأخير مما يدل على أن علم السنة قد خالط روحه وهيمن على تفكيره، وكذلك كان الحفاظ الكبار رحمهم الله تعالى .

موقف للأصمعي رحمه الله :

ومن المواقف المذكورة في بيان أهمية علم النحو ما جاء عن أبي داود السنجي قال : سمعت الأصمعي^(١) يقول: إن أخوف ما أخاف على طالب العلم إذا لم يعرف النحو أن يدخل في جملة قوله عليه السلام « من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار »^(٢) .

فالأصمعي رحمه الله تعالى يبين أهمية تعلم اللغة العربية وخاصة في رواية الحديث النبوي ، فالحديث لا يكون مشكولاً كالقرآن غالباً، فإذا نسب روايته إلى رسول الله ﷺ ولحن فيه يكون كأنما نسب اللحن إلى رسول الله ﷺ ، فيكون كأنما كذب عليه حيث نسب إليه قولاً لم يَقُلْهُ على نفس الوجه الذي أورده وإنما قاله باللغة العربية الفصحى .

ويكون الخطبُ أعظم حينما يخطئ القارئ خطأ يحيل المعنى لأنه بهذا يلبس الأمر على السامع ويوصله في الفهم إلى خلاف مقصود الحديث .

ولاشك أن هناك خطأ مشتركاً في عدم العناية بالسنة النبوية من هذا الجانب، فدور النشر لا تهتم كثيراً بتشكيل الأحاديث النبوية،

(١) هو العلامة الأديب أبو سعيد عبد الملك بن قُريب ، وهذا لقب أبيه عاصم .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٧٨/١٠ .

والقراء لايهتمون بتعلم اللغة العربية، فيحصل بسبب ذلك اللحن البسيط واللحن الفاحش في رواية السنة، وخاصة من بعض الوعاظ الذين لم يتمكنوا من تعلم اللغة العربية .
موقف لأبي بكر أحمد الرمادي رحمه الله :

لقد بلغ من شدة اهتمام العلماء بحديث رسول الله ﷺ أنهم كانوا يستشفون بسماعه من المرض كماروي عن الإمام أبي بكر أحمد ابن منصور الرمادي أنه كان إذا مرض يَستشفِي بأن يسمعو عليه الحديث (١) .

فهل سمع طلاب العلم بأعجب وأجمل من هذا ؟
متى كان الاشتغال بالعلم شفاء من الأمراض !
إنه كذلك بالنسبة لهؤلاء العظماء الذين كان العلم هو قضيتهم الكبرى وشغلهم الشاغل في حياتهم .

إن أعراض المرض تظهر على الجسم فتسبب أنواعاً من الآلام، ولكن حينما يُشغل الفكر شغلاً كاملاً بشيء مَّا إلى حد الهيام به فإن تأثير ذلك على الأعصاب يكون أقوى من تأثير أعراض المرض، فينسى المريض تلك الآلام لأنه شُغل بشيء أكبر، كالمجاهد الذي يُجرح أو يقطع عضو من أعضائه فلا يحسّ بذلك كثيراً بل يستمر في الجهاد وينسى آلام الجراح حتى تهدأ المعركة فتعود بعد ذلك الآلام .

(١) سير أعلام النبلاء ١٢ / ٣٩٠ .

من مواقف محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله :

من ذلك ما روي عن الإمام أبي عبد الله البخاري أنه قال :
ما وضعت في كتابي « الصحيح » حديثاً إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت
ركعتين (١) .

فهذا تعظيم من هذا الإمام لحديث رسول الله ﷺ ، وكونه يلتزم
بأمر غير لازم شرعاً دليل على مكانة السنة النبوية في قلبه ، وعلى قدر
هذا التعظيم يضع الله تعالى القبول للعمل في الأرض ، وهكذا تبوأ
صحيح الإمام البخاري أعلى منزلة بين كتب السنة .

فكم اغتسل هذا الإمام وصلى من ركعات من أجل تدوين هذا
السفر العظيم ! وكم أفاده ذلك من عمل صالح رائد على ثواب العمل
العلمي الكبير الذي قام به !

وكان لغزارة علمه ودقة فهمه يجتمع في درسه آلاف التلاميذ كما
روى الحافظ الخطيب البغدادي من خبر محمد بن يوسف بن عاصم
قال : رأيت لمحمد بن إسماعيل ثلاثة مستملين ببغداد ، وكان اجتمع
في مجلسه زيادة على عشرين ألف رجل (٢) .

ومن أمثلة شهرة العلماء بكثرة الروايات ما ذكره محمد بن أبي
حاتم وراق الإمام البخاري حيث يقول عن البخاري : سمعته يقول :
دخلت بلخ فسألوني أن أملي عليهم لكل من كتبت عنه حديثاً فأملت
ألف حديث لألف رجل ممن كتبت عنهم .

(١) سير أعلام النبلاء ٤٠٢/١٢ ، تاريخ بغداد ٩/٢ .

(٢) تاريخ بغداد ٢٠/٢ .

قال : وسمعتة قبل موته بشهر يقول : كتبت عن ألف وثمانين شيخا ليس فيهم إلا صاحب حديث، كانوا يقولون الإيمان قول وعمل يزيد وينقص (١) .

فهذان مثالان على توسع الإمام البخاري في الأخذ عن الشيوخ وهذا يدل على كثرة مروياته .

وقوله « كانوا يقولون الإيمان قول وعمل » أراد بذلك الرد على المرجئة الذين يقولون الإيمان اعتقاد فقط ، وهذا مثل من اهتمام الإمام البخاري بأمور العقيدة .

وقد ورد عنه أنه انتخب كتابه الجامع الصحيح من ستمائة ألف حديث ، وهذه الأحاديث كلها من مروياته .

وهذه نماذج يسيرة من أمثلة كثيرة تدل على توسع علماء الحديث في الرواية ، وأصحاب المئين عددهم كبير في مختلف العصور ، فكم هو الجهد الذي بذله هؤلاء العلماء في جمع هذه الروايات وتحريرها وحفظها أو حفظ بعضها !

ومن أمثلة اهتمام الإمام البخاري بتدوين السنة النبوية ما ذكره الإمام الذهبي عن محمد بن يوسف البخاري قال: كنت مع محمد بن إسماعيل - يعني الإمام البخاري - بمنزله ذات ليلة فأحصيت عليه أنه قام وأسرج - يعني أضاء السراج - يستذكر أشياء يعلقها في ليلة ثمان عشرة مرة (٢) .

(١) سير أعلام النبلاء ٣٩٥/١٢ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٤٠٤/١٢ .

فهذا دليل على اهتمام الإمام البخاري بالعلم حيث لا يكاد ينام إلا ويوقظه تفكيراً في مسائل علمية فينهض لتسجيلها، وبهذا التفكير المتواصل بالعلم كان الإمام البخاري أحفظ أهل زمانه ، وعلى قدر اهتمام الإنسان بالعلم يكون حفظه واستيعابه والإبداع فيه .

ومن ذلك ما ذكره هانئ بن النضر قال : كنا عند يوسف الفريابي بالشام، وكنا ننتزه فعل الشباب في أكل الفرساد ونحوه^(١) ، وكان محمد بن إسماعيل معنا وكان لا يزاحمنا في شيء مما نحن فيه ويكبُّ على العلم^(٢) .

فهذا مثل للاهتمام بالعلم ، لأن التسلي بالأشياء المذكورة مضيعة للوقت ، والوقت عند أبي عبد الله البخاري ونحوه من أكابر العلماء أغلى من جميع جواهر الدنيا، وبهذا الجد والعمل الدائب صار عمر الواحد منهم كأعمار عدد من الذين يضيعون بعض أوقاتهم .
من مواقف عبد الرحمن بن أبي حاتم وزملائه رحمهم الله :

ومن الأمثلة الرائعة لحفظ العلماء لأوقاتهم ما رواه علي بن أحمد الخوارزمي قال : سمعت عبد الرحمن بن أبي حاتم يقول : كنا بمصر سبعة أشهر لم نأكل فيها مرقة ، كل نهارنا مقسم لمجالس الشيوخ، وبالليل : النسخ والمقابلة، قال : فأتينا يوماً أنا ورفيق لي شيخاً، فقالوا: هو عليل، فرأينا في طريقنا سمكة أعجبتنا فاشتريناه، فلما صرنا إلى البيت حضر وقت مجلس ، فلم يمكننا إصلاحه ومضيئنا إلى المجلس ،

(١) يعني ما يتسلى به عادة كحب البطيخ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٤٠٥/١٢ .

فلم نزل حتى أتى عليه ثلاثة أيام ، وكاد أن يتغير فأكلناه نيئًا ، لم يكن لنا فراغ أن نعطيه من يشويه ، ثم قال : لا يُستطاع العلم براحة الجسد (١) .

فهذا مثل بليغ في الاجتهاد في طلب العلم وحفظ الوقت ، فالأكل من الضرورات ومع ذلك لم يتركوا وقتا لإعداده لاشتغالهم طوال الوقت بالسماع على الشيوخ والنسخ من الكتب .
من مواقف مسلم بن الحجاج رحمه الله :

ومن أمثلة اهتمام العلماء بالعلم مارواه الخطيب البغدادي من حديث أحمد بن سلمة قال : عُدَّ لأبي الحسين مسلم بن الحجاج مجلسٌ للمذاكرة ، فذُكِرَ له حديثٌ لم يعرفه ، فانصرف إلى منزله وأوقد السراج وقال لمن في الدار : لا يدخلنَّ أحد منكم هذا البيت ، فقليل له : أُهديتُ لنا سلة فيها تمر ، فقال : قدّموها لي ، فقدموها إليه ، فكان يطلب الحديث ويأخذ ثمرة تمر يمضغها ، فأصبح وقد فني التمر ووجد الحديث (٢) .

فهذا اهتمام كبير من الإمام مسلم بمعرفة السنة ، فقد شغله البحث عن هذا الحديث الذي لم يعرفه عن أموره الأخرى ليلة كاملة حتى وجده .

وبهذه الهمة العالية كان أثر هذا العالم الجليل وأمثاله واضحًا في حفظ السنة النبوية وتدوينها .

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٦٦ ، تذكرة الحفاظ ٣/ ٨٣٠ .

(٢) تاريخ بغداد ١٣/ ١٠٣ .

من مواقف أبي مسلم الكجّي رحمه الله :

من ذلك ما أخرجه الخطيب البغدادي من خبر أبي بكر أحمد بن جعفر بن سلم قال : لما قدم علينا أبو مسلم الكجّي (١) أملئ الحديث في رحبة غسان ، وكان في مجلسه سبعة مستملين يبلغ كل واحد منهم صاحبه الذي يليه ، وكتب الناس عنه قياماً بأيديهم المحابر ، وحُسب من حضر بِمَحَبَرَةٍ فبلغ ذلك نيفاً وأربعين ألف محبرة سوى النظارة (٢).

وذكرها الإمام الذهبي وقال : إسنادها صحيح (٣) .

وهذا عدد كبير يدل على عزة العلماء ومكانتهم وشدة إقبال الطلاب عليهم ، ولو تمت المقارنة مع الدراسة في هذا العصر لكان هؤلاء الطلاب الذين يجتمعون في درس واحد يعادلون طلاب جامعة من أكبر الجامعات .

موقف لأبي حاتم الرازي رحمه الله :

كان العلماء يتدرجون في العلم ، فالقرآن أولاً ، ثم السنة ثم العلوم الأخرى ، ومن أمثلة ذلك ماروي عن عبد الرحمن بن أبي حاتم قال : لم يدعني أبي أشتغل في الحديث حتى قرأت القرآن على الفضل بن شاذان الرازي ، ثم كتبت الحديث (٤) .

(١) هو الإمام الحافظ إبراهيم بن عبد الله الكجّي صاحب السنن .

(٢) تاريخ بغداد ٦/ ١٢١ - ١٢٢ .

(٣) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٤٢٤ .

(٤) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٦٥ .

فهذا الحافظ عبد الرحمن بن الحافظ أبي حاتم الرازي أراد التوجه إلى تلقّي الحديث وحفظه من صغره ، وذلك لشهرة هذا العلم آنذاك ، ولكن أباه منعه من ذلك حتى يتقن القرآن الكريم على الشيوخ .

ويشبه اندفاع ابن أبي حاتم نحو علم الحديث ما يتوجه إليه بعض المبتدئين في هذا العصر من طلب دراسة مصطلح الحديث ، وبعضهم لا يحسن قراءة القرآن ، وإن أحسنوا ذلك فإنهم قد أهملوا المرحلة الثانية وهي قراءة كتب السنة على الشيوخ .

فهؤلاء المبتدؤون الذين يتوجهون أولاً لدراسة مصطلح الحديث إن كان هدفهم من هذه الدراسة أن يجعلوا من أنفسهم حكاما يحكمون على الأحاديث ويخطئون العلماء فليعلموا أنهم ليسوا على منهج صحيح ، وليدخلوا البيوت من أبوابها ، وليتدرجوا في التعلم كما سلك أهل العلم من قبلهم .

من مواقف علي بن أبي طاهر رحمه الله :

من الاهتمام بالعلم العناية بالكتب العلمية ، ومن أمثلة عنايتهم بذلك ماروي عن سليمان بن يزيد : أن علي بن أبي طاهر لما رحل إلى الشام وكتب الحديث جعل كتبه في صندوق وقيره (١) وركب البحر ، فاضطربت السفينة وماجت فألقى الصندوق في البحر ، ثم سكنت السفينة ، فلما خرج منها أقام على الساحل ثلاثا يدعو الله ، ثم سجد في الليلة الثالثة وقال : إن كان طلبي ذلك لوجهك وحب رسولك فأعطني برد ذلك ، فرفع رأسه فإذا الصندوق ملقى عنده ، فقدم وأقام برهة ، ثم قصدوه لسماع الحديث فامتنع منه .

(١) يعني طلاه بالقار حتى لا يصل إليه الماء .

قال : فرأيت النبي ﷺ في منامي ومعه علي رضي الله عنه ، فقال النبي ﷺ : يا علي (١) من عامل الله بما عاملك به على شط البحر؟ ! لا تمتنع من رواية أحاديثي ، قال : فقلت : قد تبت إلى الله ، فدعا لي وحثني على الرواية (٢) .

فهذا مثل من العناية بكتب العلم حيث حفظها علي بن أبي طاهر من وصول الماء إليها، وكان حفظه لها متقناً حيث بقيت مدة في البحر ولم يتسرب الماء إليها ، وهو بهذا قد أخذ بجانب الحذر والاحتياط ولم يغتر بجانب السلامة التي هي الغالب وهذا دليل على الحزم وبعد النظر .

وقد حصل له بفقد كتبه حزن شديد جعله ينفرد من قافلته ويبقى على شط البحر ثلاثة أيام يدعو الله تعالى أن يمنَّ عليه بعودة صندوق كتبه، وكان في حال تلهف ورجاء بالغ ولم ييأس من رحمة الله تعالى، فأكرمه سبحانه واستجاب دعاءه وردَّ عليه كتبه سليمة لم يؤثر عليها البحر .

ولكنه رحمه الله تعالى غفل عن أهم مجال من مجالات شكر المنعم تبارك وتعالى على تلك النعمة ، حيث امتنع عن نشر العلم، فتداركه الله سبحانه برحمته وهياً له تلك الرؤيا الصالحة التي غير بسببها منهجه واهتم بنشر العلم .

من مواقف أبي بكر الإسماعيلي رحمه الله :

ومن أمثلة حرص العلماء الشديد على طلب العلم حتى في سُرِّ

(١) يعني علي بن أبي طاهر .

(٢) سير أعلام النبلاء ٨٨ / ١٤ .

مبكرة ماروي عن أبي بكر الإسماعيلي أنه قال : لما ورد نعي محمد بن أيوب الرازي بكيت وصرخت ومزقت القميص ووضعت التراب على رأسي ، فاجتمع عليَّ أهلي وقالوا : ما أصابك ؟ قلت : نُعي إليَّ محمد بن أيوب ، منعموني الارتحال إليه ، فسلّوني وأذنوا لي في الخروج إلى « نسا » إلى الحسن بن سفيان ، ولم يكن هاهنا شعرة - وأشار إلى وجهه - (١) .

فهذا مثل من الشوق البالغ والتلهف على لقاء الشيوخ ، فقد كان أبو بكر الإسماعيلي يستأذن أهله ويلحُّ عليهم في السفر إلى محمد بن أيوب ويأبون عليه ، ولما مات ابن أيوب اعتبر موته مصيبة كبرى حلت به حتى أفزع من حوله بصياحه عليه ، وقد كان هذا المنظر المؤثر شافعا له ليأذن له أهله في السفر إلى الحسن بن سفيان ، وقد كان كما ذكر الذهبي أقل من محمد بن أيوب الرازي في علو الإسناد ، وكان أهل العلم يهتمون بذلك ، لأنه كلما قل رجال الإسناد كان أكثر مظنة للسلامة .

وكون هذا الشوق الكبير يصدر من طلاب العلم وهم في أول سن الشباب دليل على ارتفاع مستوى التعليم في تلك العصور وسمو الأهداف عندهم ، حيث إن المظنون في من كانوا في تلك السن الميل نحو متاع الدنيا ولهوها .

من مواقف محمد بن يعقوب السناني رحمه الله :

قال أبو عبد الله الحاكم : سمعت الأصم (٢) وقد خرج وهجن في

(١) سير أعلام النبلاء ١٦ / ٢٩٥ - ٢٩٦ .

(٢) هو الإمام محمد بن يعقوب السناني النيسابوري .

مسجده ، وقد امتلأت السكة من الناس في ربيع الأول سنة أربع وأربعين وثلاثمائة ، وكان يملي عشية كل يوم اثنين من أصوله ، فلما نظر إلى كثرة الناس والغرباء وقد قاموا يُطَرِّقُون له ، ويحملونه على عواتقهم من باب داره إلى مسجده ، فجلس على جدار المسجد ، وبكى طويلا ، ثم نظر إلى المستملي فقال : اكتب : سمعت محمد بن إسحاق الصَّغَانِي يقول : سمعت الأشَّجَّ ، سمعت عبد الله بن إدريس يقول : أتيت يوما باب الأعمش بعد موته فدققت الباب ، فأجابني جارية عرفتني : هاي هاي ، تبكي : يا عبد الله ، ما فعل جماهير العرب التي كانت تأتي هذا الباب ؟ ثم بكى الكثير ، ثم قال : كائي بهذه السكة لا يدخلها أحد منكم ، فإني لأسمع وقد ضعف البصر ، وحان الرحيل وانقضى الأجل (١) .

ففي هذا الخبر مثل على كثرة طلاب العلم وازدحامهم حول بيوت الشيوخ ومساجدهم ، كما أنه شاهد على ما كان يقوم به طلاب العلم من احترام العلماء وإعزازهم .

وماذا يريد ذلك الجرم الغفير من الحافظ محمد بن يعقوب ؟ هل لديه مال يعطيون منه ؟ أو جاءه دنيوي يتوصلون به إلى ما يريدون من مناصب الدنيا ؟

بلى ، إن لديه كنز الدنيا والآخرة .

إن لديه ميراث النبي ﷺ ، فلا عجب أن ازدحم حول بيته ومسجده طلاب العلم الوافدون من الآفاق .

(١) سير أعلام النبلاء ٤٥٨/١٥ - ٤٥٩ .

من مواقف أبي علي النيسابوري رحمه الله :

ومن ذلك ما روي عن أبي علي الحسين بن علي النيسابوري قال :
قدمت بغداد على الفريابي وقد قطع الرواية فبكيت بن يديه ، فما
حدثني ، ورأيت حسة (١) .

فهذا مثل من الاهتمام العالي بالعلم إلى الحد الذي يصل إلى حد
البكاء حسة على فواته .

إن بكاء الرجال ليس بالأمر اليسير ، وإنما يدفع إليه في مثل هذه
الأحوال تأثر نفسي ضاغط من الأسى والحزن على فوات شيء
محبوب ، وهذا دليل واضح على أهمية تحصيل العلم عند هذا العالم
الجليل .

من مواقف أبي نعيم الأصبهاني رحمه الله :

ومن ذلك ما ذكره أحمد بن محمد بن مردويه عن الحافظ أبي نعيم
الأصبهاني (٢) قال : كان أبو نعيم في وقته مرحولا إليه ، ولم يكن
في أفق من الآفاق أسند ولا أحفظ منه ، كان حُفَّاء الدنيا قد اجتمعوا
عنده ، فكان كل يوم نوبة واحد منهم ، يقرأ ما يريد به إلى قريب
الظهر ، فإذا قام إلى داره ربما كان يُقرأ عليه في الطريق جزء ، وكان
لا يضجر ، لم يكن له غداء سوى التصنيف والتسميع (٣) .

فهذا مثل من العز الذي كان فيه العلماء ، وإنما نالوا ذلك العز

(١) سير أعلام النبلاء ٥٦/١٦ .

(٢) هو الحافظ أحمد بن عبد الله الأصبهاني .

(٣) سير أعلام النبلاء ٤٥٩/١٧ .

وأقبل طلاب العلم عليهم ذلك الإقبال الشديد لقيامهم بخدمة سنة رسول الله ﷺ تعلموا وحفظوا وتدوينا وتعلّما، وكلما تأخرت وفاة العالم كان أكثر عزا وأقبل عليه الكبار والصغار لعلو إسناده، وقد جاء في رواية عن حمزة بن العباس العلوي قال: كان أصحاب الحديث يقولون: بقي أبو نعيم أربع عشرة سنة بلا نظير لا يوجد شرقا ولا غربا أعلى منه إسنادا ولا أحفظ منه (١) .

وبهذا الحفظ القوي المتقن لدى العلماء حتى مع تقدم السن، وبالرغبة الشديدة في السماع من الشيوخ حُفِظَت السنة النبوية، وأصبحت حية ماثلة في أفكار طلاب العلم، لمداومة التعلم والمذاكرة والتعليم .

من مواقف أبي الفضل محمد بن طاهر رحمه الله :

ومن الأخبار الجيدة في بيان شوق طلاب العلم وحرصهم الشديد على التحصيل العلمي ماروي عن الإمام أبي الفضل محمد بن طاهر قال: كنت يوما أقرأ على أبي إسحاق الحبال جزءاً فجاءني رجل من أهل بلدي وأسرَّ إليّ كلاما قال فيه : إن أخاك قد وصل من الشام، وذلك بعد دخول الترك بيت المقدس وقتل الناس بها، فأخذت في القراءة فاختلطت عليّ السطور ولم يمكنني أن أقرأ، فقال أبو إسحاق: مالك؟ قلت: خير، قال: لا بد أن تخبرني، فأخبرته، فقال: وكم لك لم تر أخاك؟ قلت: سنين، قال: ولم لا تذهب إليه؟ قلت: حتى أتم الجزء، قال: ما أعظم حرصكم يا أهل الحديث! قد تمَّ

(٢) سير أعلام النبلاء ٤٥٩/١٧ .

المجلس، وصلى الله على محمد، وانصرف (١).

فهذا مثل من حرص طلاب العلم الشديد على العلم، فابن طاهر قد غلبت عليه الفرحة بقدوم أخيه الذي كائماً ولد من جديد، بسلامته من الحروب التي جرت آنذاك في الشام بين المسلمين وأعدائهم، وكان في شوق بالغ للقاءه فغلب عليه ذلك حتى خلط في قراءته، ومع ذلك استمر في الدرس، وهذه الصورة الحية من الصور التي تبين لنا سبب تفوق طلاب العلم الظاهر في العصور السابقة في الحفظ والفهم، فهم غير مجبورين على التعلم، ولا مسوقين إليه بحكم العادة أو خوف الملامة من الأهل والأقارب بتركه، وإنما أقبلوا عليه بشغف بالغ وشوق قاهر غلب على مشاعرهم حتى نَحَوَ والديهم وأقاربهم أحياناً، فأنتجوا تلك المؤلفات العظيمة، وعمرُوا عصورهم بالعلم الزاهر الحى.

وكان ابن طاهر كثير الرحلة في طلب الحديث حتى إنه سافر من أجل سماع حديث واحد كما قال عن نفسه : رحلت من طوس إلى أصبهان لأجل حديث أبي زرعة الرازي الذي أخرجه مسلم عنه، ذاكرني به بعض الرحالة بالليل، فلما أصبحت سرت إلى أصبهان ولم أحلل عني حتى دخلت على الشيخ أبي عمرو، فقرأته عليه عن أبيه عن القطان عن أبي زرعة، ودفع إلي ثلاثة أرغفة وكُمثراتين، فما كان لي قوت تلك الليلة غيره، ثم لزمته إلى أن حصلت ما أريد، ثم خرجت إلى بغداد فلما عدت كان قد توفي (٢).

(١) سير أعلام النبلاء ٣٦٧/١٩.

(٢) سير أعلام النبلاء ٣٦٦/١٩، والحديث المذكور هو قول رسول الله ﷺ « اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك، وتحول عافيتك، وفجاءة نقمتك، وجميع سخطك » كما ذكر محقق الكتاب.

من مواقف أبي عبد الله محمد الحميدي رحمه الله :

من أمثلة اجتهاد العلماء في تدوين السنة مذكره يحيى البناء قال :
كان الحميدي من اجتهاده ينسخ بالليل في الحر ، فكان يجلس في
إِجَانَةٍ (١) في ماء يتبرد به (٢) .

فهذا العالم الجليل أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي
يكتب العلم في شدة الحر ويَتَّقِي الحر بالجلوس في الماء ، فكيف بأهل
العلم اليوم الذين سَخَّرَتْ لهم الوسائل التي تحيل الصيف ربيعاً ! ومع
توفر هذه الوسائل وحصول الراحة الكبيرة فإن إنتاج علماء اليوم أقل
بكثير من إنتاج علماء العصور السابقة ، فلا بد من دراسة الأسباب التي
سببت انخفاض الإنتاج العلمي في هذا العصر .

موقف لأبي عبد الله محمد المازري رحمه الله :

مما يستحق الإعجاب والثناء ما قام به الإمام أبو عبد الله محمد بن
علي المازري من دراسة علم الطب إلى جانب تفوقه في العلوم
الدينية ، قال الإمام الذهبي : قيل إنه مرض مَرَضَةً فلم يَجِدْ من يعالجه
إلا يهودي ، فلما عوفي على يده قال : لولا التزامي بحفظ صناعتي
لأَعْدَمْتُكَ المسلمين ، فأثّر هذا عند المازري فأقبل على تعلم الطب
حتى فاق فيه ، وكان ممن يفتي فيه كما يفتي في الفقه (٣) .

وهذا الخبر يصور لنا حقد الأعداء على المسلمين وخاصة على

(١) الإِجَانَةُ بتشديد الجيم إناء يغسل فيه الثياب .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٢٢/١٩ .

(٣) سير أعلام النبلاء ١٠٥/٢٠ - ١٠٦ .

علماء الدين الذين يعتقدون أنهم سبب قوة المسلمين ، وامتداد حيويتهم ووعيتهم على مر الأجيال .

فمن منطلق هذا الحقد الدفين صرح ذلك الطبيب اليهودي أنه يود قتل ذلك العالم الجليل حتى يضر بقتله المسلمين .

وقد دفع ذلك هذا العالم إلى أن تعلم الطب حتى فاق فيه وأصبح مرجعاً للأطباء ، وقد قيل عنه إنه أحد الأذكىاء الموصوفين فساعده ذكاؤه على تعلم الطب والبراعة فيه ، مع انشغاله بالعلوم الأخرى .

وإن في هذا الخبر درساً بليغاً للمسلمين كي يصلوا إلى كفاية أنفسهم في مختلف العلوم حتى لا يحتاجوا إلى غيرهم ، بل إن المفترض فيهم أن يكونوا أئمة وهداة في كل علم نافع ، وأن يسخرُوا علمهم للدعوة إلى دينهم .

من مواقف أبي بكر محمد بن موسى الحازمي رحمه الله :

ومن أمثلة الاهتمام بالعلم ماروي عن ابن النجار قال : سمعت أبا القاسم المقرئ جارنا يقول - وكان صالحاً - : كان الحازمي رحمه الله في رباط البديع فكان يدخل بيته في كل ليلة ويطلع ويكتب إلى طلوع الفجر ، فقال البديع للخادم : لاتدفع إليه الليلة بزرّاً للسراج^(١) لعله يستريح الليلة .

قال : فلما جنّ الليل اعتذر إليه الخادم لأجل انقطاع البزر ،

(١) يعني الوقود .

فدخل بيته وصف قدميه يصلي ويتلو إلى أن طلع الفجر، وكان الشيخ قد خرج ليعرف خبره فوجده يصلي (١) .

ففي هذا الخبر مثل من الاهتمام بالعلم وحفظ الوقت وعدم شغله إلا بالأمور الجدية ، فهذا العالم الجليل مشغول طول الليل بالكتابة في العلم ، ولما فقد المصباح لم يسترح في فراشه بل عدل إلى العبادة بالصلاة ، وكان يرى أن الاشتغال بالعلم أفضل لأن ذلك مما يتعدى نفعه للآخرين ، فلما حيل بينه وبين الكتابة عدل إلى صلاة الليل ، وكل ذلك عبادة وعمل صالح ، وإنما تتفاوت درجات العمل بمقدار كثرة نفعه وإخلاص فاعله .

إن النفوس السامية التي شغلها الهم بالمطالب العالية لاتهنأ بلزيد النوم ، ولا تجد سعادتها في الراحة ، وإنما تجد سعادتها في مواصلة العمل الذي يدفع بها نحو الوصول إلى أهدافها العليا .

من مواقف أبي الوفاء ابن عقيل رحمه الله :

من ذلك ما ذكره الحافظ ابن رجب أن أبا الوفاء علي بن عقيل قال في فنونه : قال حنبلي-يعني نفسه -أنا أقصرُ بغاية جهدي أوقات أكلي حتى أختار سَفَّ الكعك وَتَحْسِيَّه بالماء على الخبز لأجل ما بينهما من تفاوت المضغ توفراً على مطالعةٍ أو تسطير فائدة لم أدركها فيه (٢) .

فهذا مثل بليغ في حفظ الوقت وشغله بما ينفع، وإذا كان هذا العالم وأمثاله يفكرون في اختصار وقت الأكل فإنهم لن يضيعوا

(١) سير أعلام النبلاء ١٦٩/٢١ .

(٢) نطبقات الحنابلة ١٤٦/٣ .

أوقاتهم الأخرى بما لافائدة فيه ولا حاجة إليه من نوم أو كلام أو كسل .

من مواقف شيخ الإسلام ابن تيمية :

اشتهر شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية بقوة الحفظ وسرعة التذكر ، فكان وهو يتحدث كأنما يقرأ من عدد من الكتب ، وكان يكتب النقول في كثير من مؤلفاته من ذاكرته .

وفي ذلك يقول الحافظ ابن رجب فيما نقله عن الحافظ الذهبي :
وقد كتب الذهبي في تاريخه الكبير للشيخ ترجمة مطولة ، وقال فيها :
وله خبرة تامة بالرجال ، وجرحهم وتعديلهم ، وطبقاتهم ، ومعرفة
بفنون الحديث ، وبالعالي والنازل ، والصحيح والسقيم ، مع حفظه
لمتونه ، الذي انفرد به ، فلا يبلغ أحد في العصر رتبته ، ولا يقاربه ،
وهو عجيب في استحضاره ، واستخراج الحجج منه ، وإليه المنتهى في
عزوه إلى الكتب الستة ، والمسند ، بحيث يصدق عليه أن يقال : كل
حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث .

وقال : ولما كان معتقلاً بالإسكندرية التمس منه صاحب سبته أن
يجيز لأولاده ، فكتب لهم في ذلك نحواً من ستمائة سطر ، منها سبعة
أحاديث بأسانيدها ، والكلام على صحتها ومعانيها ، وبحث وعمل
ما إذا نظر فيه المحدث خضع له من صناعة الحديث . وذكر أسانيده في
عدة كتب . ونَبَّه على العوالي . عمل ذلك كله من حفظه ، من غير أن
يكون عنده ثَبَّت أو من يراجعه .

ولقد كان عجبياً في معرفة علم الحديث . فأما حفظه متون

الصحيح وغالب متون السنن والمسند : فمارأيت من يُدانيه في ذلك أصلاً .

قال : وأما التفسير فمسلّم إليه . وله من استحضر الآيات من القرآن - وقت إقامة الدليل بها على المسألة - قوة عجيبة . وإذا رآه المقرئ تحير فيه . ولفرط إمامته في التفسير وعظم اطلاعه يبين خطأ كثير من أقوال المفسرين . ويُوهِى أقوالاً عديدة . وينصر قولاً واحداً ، موافقاً لما دل عليه القرآن والحديث . ويكتب في اليوم والليلة من التفسير ، أو من الفقه ، أو من الأصولين ، أو من الرد على الفلاسفة والأوائل نحواً من أربعة كراريس أو أزيد .

قلت : وقد كتب « الحموية » في قعدة واحدة . وهي أزيد من ذلك . وكتب في بعض الأحيان في اليوم ما يبيض منه مجلد (١) .

* * *

(١) ذيل طبقات الحنابلة ٤ / ٣٩١ .

مواقف وعبد

في

بذل الجهد في حفظ السنة

لقد حظيت السنة النبوية بجهود ضخمة من علماء الإسلام في حفظ متونها و أسانيدها على مرّ العصور، وقد دوّن علماء التراجم أخبار أولئك العلماء في قوة الحفظ وسرعة التذكر .

والمقصود من عرض هذه الأخبار أمران :

الأول : الإشادة بالجهود الضخمة التي بذلها أولئك العلماء في الحفظ ، حيث يحتاج ذلك إلى وقت طويل ، وإجتهاد فكري ، ثم يحتاج الأمر إلى جهد متواصل في التذكر والمذاكرة حتى يستطيعوا الاحتفاظ بتلك الكمية الكبيرة من النصوص في ذاكرتهم .

والثاني : إبراز نماذج من عباقرة الأمة الإسلامية الذين ضربوا أروع الأمثال في التفوق العلمي المبني على حدة الذكاء وقوة الحافظة وسرعة المذاكرة .

وإن من أهم ما يدفع إلى عرض هذه النماذج ما يوجد في بعض الأوساط العلمية من التمثيل للأذكاء والعباقرة بمفكري بلاد الغرب .

وإن من الدوافع التي دفعت هؤلاء الكتاب إلى الاستشهاد بمفكري الغرب كونهم يجدون أسماءهم مدونة في الكتب المؤلفة في هذا الموضوع ، ويرجعون إليها بسهولة لما حظيت به من خدمة وتسهيل ، بينما لا يجدون ذلك بسهولة في الكتب الإسلامية .

وإنه ينبغي أن نستفتح هذه النماذج بذكر أمثلة من تفوق الصحابة رضي الله عنهم وعلماء القرون المفضلة بقوة الحافظة وسرعة التذكر .

من أخبار عائشة رضي الله عنها :

من ذلك ماروي عن هشام بن عروة بن الزبير رحمه الله وأباه
ورضي عن جده قال : لقد صحبت عائشة فمارأيت أحدا قط كان أعلم
بآية نزلت ، ولا بفريضة ولا بسنة ولا بشعر ، ولا أروى له ولا يوم من
أيام العرب ولا ينسب ولا بكذا ولا بكذا ، ولا بقضاء ولا طب منها ،
فقلت لها : ياخاله الطبُّ من أين عَلمته؟ فقالت : كنت أُمَرَضُ
فَيُنْعَت لي الشيء ، ويُمرَضُ المريض فينْعَت له ، وأسمع الناس يَنْعَت
بعضهم لبعض فأحفظه (١) .

وكذلك قال عروة عنها : ربما روت عائشة القصيدة ستين بيتا
والمائة بيت (٢) .

ولهذا فإنه ليس غريبا أن تكون أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها
من المكثرين من رواية الحديث النبوي بإتقان وضبط .
من أخبار زيد بن ثابت رضي الله عنه :

ومن أمثلة تفوق الصحابة رضي الله عنهم في هذا المجال
ما أخرجه أبو عبد الله الحاكم من حديث خارجة بن زيد قال قال زيد
ابن ثابت رضي الله عنه : أمرني رسول الله ﷺ فتعلمت له كتابة
اليهود ، وقال : إني والله ما آمن يهود على كتابي ، فتعلمته ، فلم يمر
بي نصف شهر حتى حدقته ، قال : إني كنت أكتب له إذا كتب وأقرأ
له إذا كُتِب إليه .

(١) سير أعلام النبلاء ١٨٣/٢ .

(٢) طبقات ابن سعد ٧٢/٨ - ٧٣ .

وقال الحاكم هذا حديث صحيح وأقره الذهبي (١) .

وقد أخرج هذا الحديث الإمام البخاري تعليقا (٢) .

وهذا الخبر يدل على حدة ذكاء زيد بن ثابت وقوة حافظته حيث تعلم لغة اليهود في نصف شهر .

ومن مواقفه رضي الله عنه في ذلك قيامه بجمع القرآن في المصحف بعد أن كان متفرقا، كما جاء في رواية الإمام البخاري من حديث عبيد بن السبّاق « أن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: أرسل إليّ أبو بكر الصديق مقتلاً أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر رضي الله عنه : إن عمر بن الخطاب أتاني فقال: إن القتل قد استحرّ يوم اليمامة بقراء القرآن ، وإنني أخشى أن يستحرّ القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن، وإنني أرى أن تأمر بجمع القرآن، قلت لعمر: كيف نفعل شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال عمر : هذا والله خير ، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر .

قال زيد قال أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ ، فتتبع القرآن فاجمعه [قال:] فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن، قلت : كيف تفعلون شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال : هو والله خير ، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله

(١) المستدرک ١/ ٧٥ .

(٢) صحيح البخاري ، الأحكام رقم ٧١٩٥ (١٣/ ١٨٥) .

صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ،
فتبعت القرآن أجمعه من العُسب واللُّخاف وصدور الرجال » (١) .

وجمّع القرآن الكريم في مصحف كان من أعظم الأعمال
الإسلامية التي تمت في عهد أبي بكر رضي الله عنه بأمره ، وقد
اشترك في هذا الموقف الكبير عمر بن الخطاب الذي أشار على أبي
بكر بذلك وألح عليه فيه وزيد بن ثابت الذي قام بهذا العمل رضي
الله عنهم أجمعين .

وفي قول أبي بكر لزيد : إنك رجل شاب عاقل لانتهمك وقد
كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ أربعة أمور ترشح زيدا لهذا
التكليف الكبير : الأول أنه رجل شاب ، وسنُّ الشباب أفضل مراحل
العمر فيما يتعلق بالحفظ وقوة الذاكرة ، وهذا هو المؤهل الأكبر لجمع
القرآن ، وإن كان سنُّ الكهولة والشيخوخة أفضل فيما يتعلق بالفكر
والتخطيط والإدارة .

الثاني : أنه عاقل ، وكمال العقل مؤهل مهم لجميع الأعمال
الكبيرة .

الثالث : الأمانة وهي شرط أساسي لنجاح أي عامل وقد ذكر
ذلك بقوله « لانتهمك » .

الرابع : الكفاءة والخبرة وهي أيضا شرط أساسي ، وقد ذكرها

(١) صحيح البخاري / فضائل القرآن / ب٣ (عمدة القاري ١٦/٢٠) ، والعُسب جريد
النخل والمراد الجزء العريض منه واللُّخاف الحجارة الرقيقة وفي رواية أخرى للبخاري
والرقاع وهي تكون من الورق أو الجلد ونحوه .

بقوله « وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ » يعني أنه خبير بذلك ، وقد ذكر الله سبحانه هذين الأمرين على لسان ابنة شبيب حينما وصفت موسى عليه السلام بذلك بقولها ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبْتَ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ [القصص: ٢٦] فالكفاءة في ذلك العمل تعني قوة البدن وقد توفرت في موسى عليه السلام مع اتصافه بالأمانة ، كما ذكرهما الله سبحانه على لسان يوسف عليه السلام حين قال لملك مصر ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٥] فالحفظ هو الأمانة ، والعلم هو الكفاءة والخبرة .

من أخبار أبي هريرة رضي الله عنه :

إن أبرز حفاظ الإسلام أبو هريرة الدوسي رضي الله عنه محدث الأمة الأكبر وحافظها الأول ، حيث قد فرغ وقته لملازمة رسول الله ﷺ وحفظ أحاديثه ، ولم يشغل عن ذلك بمتابعة أمور الدنيا ، بل كان يكتفي من الطعام بلقيمات يُقْمَنُ صُلْبُهُ ، وفضل أن يبقى في الصفة مع المساكين ليتفرغ لملازمة النبي ﷺ واستيعاب أكبر قدر من أحاديثه ، فكان بذلك أكثر الصحابة حفظاً للسنة النبوية ولم يقاربه في ذلك أحد ، وبلغ عدد تلاميذه الذين رَوَوْا عنه أكثر من ثمانمائة .

ومع كثرة روايته فإنه كان حافظاً متقناً لم تتغير روايته على مرّ السنين ، ومن أدلة ذلك ما روي عن أبي الزعيزعة كاتب مروان بن الحكم : أن مروان أرسل إلى أبي هريرة فجعل يسأله ، قال : وأجلسني خلف السرير وأنا أكتب ، حتى إذا كان رأس الحول دعا به ، فأقعده من

وراء الحجاب ، فجعل يسأله عن ذلك الكتاب فمازاد ولا نقص ولا قدم ولا آخر .

ذكره الإمام الذهبي وقال : هكذا فليكن الحفظ (١) .

وإذا كان كذلك فلا عجب في أن يكون قد حفظ أكثر من خمسة آلاف حديث بمجرد سماعها ، واحتفظ بها في ذاكرته إلى أن وافاه الأجل ، مادام الله تعالى قد وهبه هذا الحفظ القوي وسرعة التذكر .

وكانت له مقدرة فائقة على سرد الأحاديث النبوية مما يدل على قوة حفظه وتمكنه من مروياته ، ومن أمثلة ذلك ما رواه مكحول الشامي قال : تواعد الناس ليلة إلى قبة من قباب معاوية ، فاجتمعوا فيها فقام فيهم أبو هريرة يحدثهم عن رسول الله ﷺ حتى أصبح (٢) .

وقد كان لكثرة أحاديثه مثار إعجاب الصحابة والتابعين ، وإن كان بعض التابعين يستنكر كونه أكثر رواية من كبار الصحابة ، ولقد دافع عنه في ذلك بعض كبار الصحابة ، كما جاء في خبر رواه ابن إسحاق عن محمد بن إبراهيم عن أبي أنس مالك بن عامر قال : كنت عند طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه فدخل عليه رجل فقال : يا أبا محمد والله ما ندري هذا اليماني أعلم برسول الله ﷺ أم أنتم ؟ أم هو يقول على رسول الله ﷺ ما لم يقل ؟ - يعني أبا هريرة - فقال طلحة : والله ما نشك أنه سمع من رسول الله ﷺ ما لم نسمع وعلم ما لم نعلم ، إنا كنا قوما أغنياء لنا بيوت وأهلون ، كنا نأتي نبي الله ﷺ

(١) سير أعلام النبلاء ٥٩٨/٢ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٥٩٩/٢ .

طرفي النهار ثم نرجع ، وكان أبو هريرة رضي الله عنه مسكينا لا مال له ولا أهل ولا ولد ، إنما كانت يده مع يد النبي ﷺ وكان يدور معه حيث دار ، ولأنشك أنه قد علم ما لم نعلم وسمع ما لم نسمع ، ولم يتهمه أحد منا أنه تقوّل على رسول الله ﷺ ما لم يقل .

أخرجه أبو عبد الله الحاكم وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي (١) .

ولقد اعترف له بعض الصحابة بأنه أعلم الناس بالسنة كما جاء في خبر رواه الوليد بن عبد الرحمن عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه مرّ بأبي هريرة رضي الله عنه وهو يحدث أن رسول الله ﷺ قال : « من تبع جنازة فله قيراط » فقال : انظر ما تحدث عن رسول الله ﷺ ، فقام أبو هريرة فأخذ بيده إلى عائشة رضي الله عنها فقال لها : أنشدك الله هل سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من تبع جنازة . . . » الحديث فقالت : اللهم نعم .

فقال أبو هريرة : لم يكن يشغلني عن رسول الله ﷺ غرس الودّي (٢) ولا صفق بالأسواق ، وإنما كنت أطلب من رسول الله ﷺ كلمة يعلمنيها أو أكلة يطعمنيها .

فقال ابن عمر : كنت ألزمنا لرسول الله ﷺ وأعلمنا بحديثه .

ذكره الإمام الذهبي وقال : رواه ثقات (٣) .

(١) المستدرک ٥١٢/٣ .

(٢) يعني فواخ النخل .

(٣) سير أعلام النبلاء ٦١٦/٢ .

فعبد الله بن عمر استغرب منه ذلك الحديث الذي لم يسمعه من غيره من الصحابة فأراد أن يتثبت منه ولم يكن في شك من حفظ أبي هريرة ولا أمانته ، فلما أيّدته في سماع ذلك الحديث عائشة اعترف لأبي هريرة بأنه أعلم الصحابة بالسنة .

ولقد جرت له قصة مع بعض مشيخة الصحابة دلّت على سعة علمه وقوة حفظه وذاكرته ، وذلك فيما روى محمد بن عمار بن عمرو بن حزم أنه قعد في مجلس فيه أبو هريرة وفيه مشيخة من أصحاب رسول الله ﷺ ، بضعة عشر رجلا ، فجعل أبو هريرة يحدثهم عن النبي ﷺ بالحديث فلا يعرفه بعضهم ، ثم يتراجعون فيه ، فيعرفه بعضهم ، ثم يحدثهم بالحديث فلا يعرفه بعضهم ثم يعرفه ، حتى فعل ذلك مرارا .

قال : فعرفت يومئذ أنه أحفظ الناس عن رسول الله ﷺ (١) .

ولقد كان حفظ أبي هريرة القوي وذاكرته الجيدة من بركة رسول الله ﷺ كما أخرج الإمام البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله إني سمعت منك حديثا كثيرا فأنساه ، قال : أبسط رداءك ، فبسطته فغرف بيده فيه ثم قال : ضمه ، فضممته فما نسيت حديثا بعد (٢) .

من أخبار عبد الله بن عباس رضي الله عنهما :

ومن أخبار الصحابة رضي الله عنهم في سعة العلم وقوة الحفظ

(١) سير أعلام النبلاء ٦١٧/٢ .

(٢) صحيح البخاري رقم ٣٦٤٨ ، المناقب (٦/٦٣٣) .

مارواه الحافظ أبو نعيم من حديث أبي صالح قال : لقد رأيت من ابن عباس مجلساً لو أن جميع قريش فخرت به لكان لها فخراً ، لقد رأيت الناس اجتمعوا حتى ضاق بهم الطريق ، فما كان أحد يقدر على أن يجيء ولا أن يذهب ، قال : فدخلت عليه فأخبرته بمكانهم على بابه ، فقال لي : ضع لي وضوءاً ، قال : فتوضأ وجلس وقال : اخرج وقل لهم : من كان يريد أن يسأل عن القرآن وحروفه وما أراد منه فليدخل . قال : فخرجت فأذنتهم ، فدخلوا حتى ملؤوا البيت والحجرة ، فما سألوهم عن شيء إلا أخبرهم به ، وزادهم مثل ما سألوهم عنه أو أكثر ، ثم قال : إخوانكم ، فخرجوا .

ثم قال : اخرج قل : من أراد أن يسأل عن تفسير القرآن وتأويله فليدخل ، قال : فخرجت فأذنتهم ، فدخلوا حتى ملؤوا البيت والحجرة ، فما سألوهم عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مثل ما سألوهم أو أكثر ، ثم قال : إخوانكم ، فخرجوا .

ثم قال : اخرج فقل : من أراد أن يسأل عن الحلال والحرام والفقهاء فليدخل ، فخرجت فقلت لهم ، قال : فدخلوا حتى ملؤوا البيت والحجرة ، فما سألوهم عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مثله ، ثم قال : إخوانكم ، فخرجوا .

ثم قال : اخرج فقل : من أراد أن يسأل عن الفرائض وما أشبهها فليدخل ، قال : فخرجت فأذنتهم فدخلوا حتى ملؤوا البيت والحجرة ، فما سألوهم عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مثله ، ثم قال : إخوانكم ، فخرجوا .

ثم قال : اخرج فقل : من أراد أن يسأل عن العريية والشعر والغريب من الكلام فليدخل ، قال : فدخلوا حتى ملؤوا البيت والحجرة ، فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مثله ، قال أبو صالح : فلو أن قريشا كلها فخرت بذلك لكان فخرا ، فما رأيت هذا لأحد من الناس (١) .

فهذا حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما الذي جمع بين هذه العلوم المتنوعة وتفوق فيها كلها ، مما يدل قوة حافظته وحدة ذكائه .

ومن شواهد سعة علمه ما أخرجه الحاكم من حديث أبي وائل قال : حججت أنا وصاحب لي ، وابن عباس على الحج [يعني أميرا] فجعل يقرأ سورة النور ويفسرها فقال صاحبي : ياسبحان الله ماذا يخرج من رأس هذا الرجل ، لو سمعت هذا الترك لاسلمت . قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبي (٢) .

ومع سعة علمه فإنه كان غواصا على دقائق المسائل ولطائف المعاني ، ومن شواهد ذلك ما أخرجه الإمام البخاري من حديث عكرمة أن عليا رضي الله عنه حرق قوما فبلغ ابن عباس فقال : لو كنت أنا لم أحرقهم لأن النبي ﷺ قال : « لا تُعذبوا بعذاب الله » ولقتلتهم كما قال النبي ﷺ « من بدل دينه فاقتلوه » (٣) .

(١) حلية الأولياء ١/ ٣٢٠ - ٣٢١ ، البداية والنهاية ٨/ ٣٠٢ .

(٢) المستدرک ٣/ ٥٣٧ .

(٣) صحيح البخاري / الجهاد رقم ٣٠١٧ .

وذكره الإمام الذهبي من طريق آخر عن عكرمة وزاد فيه : فبلغ ذلك علياً فقال : ويح ابن أم الفضل ، إنه لغواص على الهنات (١) .

وهذه كلمة تدل على إعجاب علي بدقة علم ابن عباس وعمقه ، حيث يغوص على النوادر والغرائب من العلم .

ومما يشهد لغزارة علم ابن عباس ما روي عن طاووس قال : أدركت نحواً من خمسمائة من الصحابة إذا ذكروا ابن عباس فخالقوه لم يزل يقرّرهم حتى ينتهوا إلى قوله (٢) .

ولقد أشاد العلماء بعلم ابن عباس ، ومن ذلك كلمات صدرت من أحد كبار العلماء في المدينة وهو عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود حيث يقول : كان ابن عباس قد فات الناس بخصال ، بعلم ماسبق ، وفقه فيما احتيج إليه من رأيه ، وحلم ونسب ونائل ، وما رأيت أحداً أعلم بما سبقه من حديث رسول الله ﷺ ، ولا بقضاء أبي بكر وعمر وعثمان منه ، ولا أعلم بما مضى ، ولا أثقب رأياً فيما احتيج إليه منه ، ولقد كنا نحضر عنده فيحدثنا العشيّة كلها في المغازي ، والعشيّة كلها في النسب ، والعشيّة كلها في الشعر (٣) .

من أخبار ابن شهاب الزهري رحمه الله :

قال الإمام الليث بن سعد عن الإمام الزهري : كان ابن شهاب يقول : ما استودعت قلبي شيئاً قط فنسيته (٤) .

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٤٦

(٢) سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٥١ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٥ .

(٤) سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٣٢ .

وكذلك مارواه الإمام مالك قال : حدثنا الزهري بحديث طويل فلم أحفظه فسألته عنه ، فقال : أليس قد حدثتكم به ؟ قلنا : بلى ، قلت : كنت تكتب ؟ قال : لا ، قلت : أما كنت تستعيد ؟ قال : لا (١) .
وعن معمر بن راشد أن الزهري قال : ما قلت لأحد قط أعد علي (٢) .

ومن ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير من رواية الحافظ ابن عساكر عن الإمام الزهري أنه قال : أصاب أهل المدينة جهد شديد فارتحلت إلى دمشق ، وكان عندي عيال كثيرة ، فجئت جامعها فجلست في أعظم حلقة ، فإذا رجل قد خرج من عند أمير المؤمنين عبد الملك فقال : إنه قد نزل بأمير المؤمنين مسألة ، وكان قد سمع من سعيد بن المسيب فيها شيئاً وقد شذ عنه في أمهات الأولاد يرويه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقلت : إني أحفظ عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب ، فأخذني فأدخلني على عبد الملك ، فسألني ممن أنت ؟ فانتسبت له وذكرت له حاجتي وعيالي ، فسألني ، هل تحفظ القرآن ؟ قلت : نعم والفرائض والسنن ، فسألني عن ذلك كله فأجبته ، فقضى ديني وأمر لي بجائزة ، قال لي : اطلب العلم فإني أرى لك عينا حافظة وقلبا ذكيا ، قال : فرجعت إلى المدينة أطلب العلم وأتبعه (٣) .

(١) سير أعلام النبلاء ٣٣٣/٥ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٣٣٣/٥ .

(٣) البداية والنهاية ٣٥٤/٩ .

وهكذا رأينا أن العلم قد أعز الله تعالى به أهله ورفعهم إلى منازل عالية ، فقد أوصل العلم الإمام الزهري وهو في شبابه إلى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ونال عنده وعند الخلفاء من بعده مكانة رفيعة .

وكان الزهري قوي الحافظة سريع التذكر ، ومن أخباره في ذلك ما ذكره الحافظ عبد الرحمن بن مهدي قال : سمعت مالكا يقول : حدث الزهري يوما بحديث فلما قام أخذت بلجام دابته فاستفهمته فقال : أتستفهمني ؟ ما استفهمت عالما قط ولا رددت على عالم قط ، قال ابن مهدي : فتلك الطوال وتلك المغازي (١) .

وروى يعقوب بن سفيان بإسناده عن سعيد بن عبد العزيز : أن هشام بن عبد الملك سأل الزهري أن يكتب لبيه شيئا من حديثه ، فأملى على كاتبه أربعمئة حديث ، ثم خرج على أهل الحديث فحدثهم بها ، ثم إن هشاما قال للزهري : إن ذلك الكتاب ضاع ، فقال : لا عليك ، فأملى عليهم تلك الأحاديث ، فأخرج هشام الكتاب الأول فإذا هو لم يغادر حرفا واحدا ، وإنما أراد هشام امتحان حفظه (٢) .

فهذا الخبر وأمثاله فيها شاهد على قوة حفظ الإمام الزهري ودقته في الرواية ، وهذا يكسب مروياته ثقة وطمأنينه عند الرواة . وكان شديد الاهتمام بالمذاكرة والتعليم وفي ذلك يقول : الحافظ

(١) البداية والنهاية ٣٥٦/٩ .

(٢) البداية والنهاية ٣٥٦/٩ .

ابن كثير : وكان ابن شهاب ينزل بالأعراب يعلمهم لئلا ينسى العلم^(١).

وذكر عن أبي إسحاق قال : كان الزهري يرجع من عند عروة - يعني ابن الزبير - فيقول لجارية عنده فيها لكنة : حدثنا عروة حدثنا فلان ، ويسرد عليها ماسمعه منه ، فتقول له الجارية : والله ما أدري ماتقول ، فيقول لها : اسكتي لكاع^(٢) ، فإني لا أريدك إنما أريد نفسي^(٣).

فهذا مثل من اهتمام الإمام الزهري باستذكار العلم وتأکید الحفظ ، فإن أبلغ الوسائل في ذلك تعليم العلم ، وحيث إن الزهري آنذاك حديث السن ولم يجتمع حوله طلاب يأخذون عنه العلم فإنه صار يحاول تثبيت حفظه بإلقائه على جاريته .

ولقد أثنى العلماء عليه في حفظه وشدة اهتمامه بالعلم ، فمن ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير من خبر الإمام الليث بن سعد قال : مارأيت عالما قط أجمع من ابن شهاب ، ولو سمعته يحدث في الترغيب والترهيب لقلت ما يحسن غير هذا ، وإن حدث عن الأنبياء وأهل الكتاب قلت لا يحسن إلا هذا ، وإن حدث عن الأعراب والأنساب قلت لا يحسن إلا هذا ، وإن حدث عن القرآن والسنة كان حديثه بدعا جامعا^(٤) .

(١) البداية والنهاية ٣٥٦/٩ .

(٢) أي يالئمة .

(٣) البداية والنهاية ٣٥٥/٩ .

(٤) البداية والنهاية ٣٥٦/٩ .

وقال عنه أيضاً الإمام الليث ابن سعد : وَضَعَ الطست بين يدي ابن شهاب فتذكر حديثاً فلم تزل يده في الطست حتى طلع الفجر وصححه (١) .

وهذا يدل على استغراق فكره بالعلم إلى الحد الذي يُنسيه ماحوله ، وبهذا الاهتمام الكبير حوى فكره علماً عظيماً .

ويقول الإمام الزهري عن نفسه في بيان شدة ملازمته العلماء : خدمت عبيد الله بن عتبة (٢) حتى إن كان خادمه ليخرج فيقول : من بالباب ؟ فتقول الجارية : غلامك الأعيمش ، فتظن أنني غلامه ، وإن كنت لأخدمه حتى أستقي له وضوءه (٣) .

من أخبار قتادة السدوسي رحمه الله :

من ذلك مارواه معمر في قوة حفظ الحافظ قتادة بن دعامة السدوسي ، قال : سمعت قتادة يقول : مافي القرآن آية إلا وقد سمعت فيها شيئاً ، وقال : ماسمعت شيئاً إلا وحفظته (٤) .

وكذلك مارواه معمر في ذلك قال : قال قتادة لسعيد بن المسيب : يا أبا النضر : خذ المصحف فعرض عليه سورة البقرة فلم يُخطِ فيها حرفاً ، فقال : يا أبا النضر أحكمتُ ؟ قال : نعم ، قال : لأننا لصحيفة

(١) البداية والنهاية ٣٥٨/٩ .

(٢) هو الإمام عبيد الله بن عتبة بن مسعود ابن أخي عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وكان من أئمة التابعين .

(٣) البداية والنهاية ٣٥٨/٩ .

(٤) سير أعلام النبلاء ٢٧١/٥ .

جابر أحفظ مني لسورة البقرة ، قال : وكانت قرئت عليه الصحيفة التي يرويها سليمان الإشكري عن جابر (١) .

وروى الحافظ معمر عن قتادة قال : تكرير الحديث في المجلس يذهب نوره ، وما قلت لأحد قط : أعد عليّ (٢) .

من أخبار وكيع بن الجراح رحمه الله :

من الحفاظ الكبار الذين يحفظون آلاف الأحاديث عن ظهر قلب الإمام الحافظ وكيع بن الجراح الرؤاسي ، قال عن نفسه : ما نظرت في كتاب قط منذ خمس عشرة سنة إلا في صحيفة يومًا ، فقال له ابن عمار : عدُّوا عليك بالبصرة أربعة أحاديث غلطت فيها ، قال : وحدثتهم بعبادان بنحو من ألف وخمسمائة ، أربعة أحاديث ليست بكثيرة في ذلك (٣) .

وقال عنه الإمام أحمد بن حنبل : كان وكيع حافظًا حافظًا ، مارأيت مثله (٤) .

وقال علي بن خشرم : مارأيت بيد وكيع كتابًا قط ، إنما هو حفظ ، فسألته عن أدوية الحفظ فقال : إن علمتك الدواء استعملته؟ قلت : إي والله ، قال : ترك المعاصي ، ماجربت مثله قط (٥) .

(١) سير أعلام النبلاء ٢٧٢/٥ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٧٤/٥ .

(٣) سير أعلام النبلاء ١٤٦/٩ .

(٤) سير أعلام النبلاء ١٤٧/٩ .

(٥) سير أعلام النبلاء ١٥١/٩ .

وكذلك أرشد وكيعُ الإمام الشافعي إلى ذلك كما سجله الشافعي
في شعره المشهور :

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي
وقال : اعلم بأن العلم نور ونور الله لا يُؤتاه عاصي
وهكذا ألهم الله تعالى هذا الإمام الحافظ وكيعَ بن الجراح إلى
هذا الجواب السديد الذي كان عن علم وتجربة ، فالمعاصي ظلمة في
القلب ومشغلة للفكر ، فالمؤمن إذا صدرت منه المعصية يؤنبه ضميره
المتيقظ بنور الإيمان ، ويحاسب نفسه ، ويشغل قسطاً من تفكيره في
هذا المجال ، مما يؤثر على درجة حفظه للعلم ، وأهم من ذلك أن
العلم النافع توفيق وتسديد من الله تعالى ونور منه ، كما قال وكيع ،
والله تعالى لا يمنح نوره إلا للطائعين ، وهم الذين يوفقه الله جل
وعلا للتقدم في الحفظ ، والتفوق في العلم .
من أخبار أحمد بن حنبل رحمه الله :

هذا ومن الحفاظ الكبار الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى ،
يقول الحافظ أبو زرعة : حضرت كتب أحمد يوم مات فبلغت اثني
عشر حملاً وعدلاً ، ما كان على ظهر كتاب منها « حديث فلان » ولا
في بطنه « حدثنا فلان » كل ذلك كان يحفظه (١) .

وقال حسن بن منبه : سمعت أبا زرعة يقول : أخرج إلي أبو عبد
الله أجزاء كلها سفيان سفيان ، ليس على حديث منها « حدثنا فلان » ،
فطننتها عن رجل واحد ، فانتخبت منها ، فلما قرأ ذلك عليّ جعل

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ١٨٨ .

يقول: حدثنا وكيع ويحيى، حدثنا فلان، فعجبت ولم أقدر أنا على هذا (١).

وقال عبد الله بن أحمد : قال لي أبي : خذ أي كتاب شئت من كتب وكيع من المصنف ، فإن شئت أن تسألني عن الكلام حتى أخبرك بالإسناد ، وإن شئت بالإسناد حتى أخبرك أنا بالكلام (٢) .

فهذه أمثلة من سعة علم أبي عبد الله الإمام أحمد بن حنبل وقوة حافظته وجودة ذاكرته .

وهذه الكمية الضخمة من المحفوظ لم تتم إلا بعد جهد كبير من التذكر المتواصل والمذاكرة مع الشيوخ والأقران .
من أخبار شعبة بن الحجاج رحمه الله :

كان بعض العلماء يمنعون طلابهم الذين وهبهم الله تعالى قوة في الحفظ من الكتابة كما جاء عن الإمام أبي الوليد الطيالسي أنه قال :
بينما أنا أكتب عند شعبة إذ بَصُرُ بي فقال : وتكتب ؟ فوضعت الألواح وجعلت أنظر إليه .

قال الإمام الذهبي: كأنه كره الكتابة لأنه كان قادراً على أن يحفظ (٣).

وهذا توجيه شديد من الحافظ شعبة بن الحجاج لأن الحفظ ثم التذكر ومذاكرة العلماء أقرب إلى فهم السنة والتأثر بها ثم العمل بها،

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ١٨٨ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١١/ ١٨٦ .

(٣) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٣٤٣ .

فالنصوص التي تُكتب ولا تحفظ يقل تذكرها ومذاكرتها مع العلماء .

من أخبار علي بن المديني رحمه الله :

من ذلك ما أخرجه الخطيب البغدادي من طريق يعقوب بن سفيان الفسوي قال : حدثني أبو بشر بكر بن خلف قال : قدمت مكة وبها شاب حافظ فكان يذاكرني المسند بطُرُقَه ، فقلت له : من أين لك هذا؟ قال : أُخْبِرُكَ ، طُلبت إلى علي (١) أيام سفيان أن يحدثني بالمسند (٢) فقال : قد عرفتُ أنك إنما تريد بما تطلب المذاكرة فإن ضمنتَ لي أنك تذاكر ولا تسميني فعلت ، قال : فضمنت له واختلفت إليه ، فجعل يحدثني بذا الذي أذاكرك به حفظاً .

قال أبو يوسف يعقوب : فذكرت هذا لبعض ولد جويرية بن أسماء ممن كان يلزم علياً فقال : سمعت علياً يقول : غبت عن البصرة في مخرجي إلى اليمن - أظنه ذكر ثلاث سنين - وأمي حية ، قال : فلما قدمت عليها جعلت تقول : يا بُنيَّ فلان لك صديق وفلان لك عدو ، فقلت لها : من أين علمت يا أمه ؟ قالت : كان فلان وفلان - فذكرت فيهم يحيى بن سعيد - يجيئون مسلّمين فيعزوني ويقولون : اصبري فلو قد قدم عليك سرّك الله بما ترين ، فعلمت أن هؤلاء محبوبك وأصدقائك ، وفلان وفلان إذا جاؤوا يقولون لي : اكتبني إليه وضيّقي عليه وحرّجي عليه ليقدم عليك .

قال : فأخبرني العباس بن عبد العظيم ، أو هذا الذي من ولد

(١) يعني الإمام علي بن المديني .

(٢) هو مسند علي بن المديني كما يتبين من آخر هذا الخبر .

جويرية قال قال لي علي : كنت صنفنت المسند على الطُّرق مستقصى ، وكتبته في قراطيس وصيرته في قمطر كبيرة ، وخلفته في المنزل وغبت هذه الغيبة ، فلما قدمت ذهبت يوما لأطالع ماكنت كتبت ، قال : فحركت القمطر فإذا هي ثقيلة رينة بخلاف ماكانت ففتحتها فإذا الأرضة قد خالطت الكتب فصارت طينا فلم أنشط بعدُ لجمعه (١) .

ففي هذا الخبر بيان قوة حفظ الإمام علي بن المديني وجودة ذاكرته ، حيث ألف مسندا في حديث رسول الله ﷺ وكتبه على الأوراق في الوقت الذي وعاه في ذاكرته ، فلما سافر وأكلت دابة الأرض كتابه لم يفقد مسنده لأنه قد اختزنه في ذاكرته ، وقام بمذاكرة ذلك الشاب من حفظه ، وهذا يبين لنا الجهد الكبير الذي بذله في حفظ ذلك المسند والاحتفاظ به في ذاكرته ، حيث يحتاج ذلك إلى مراجعة دائمة .

وفي هذا الخبر مواقف :

أولاً : ماكان من الإمام علي بن المديني حينما اشترط على الشاب الذي طلب منه المذاكرة أن لا يذكر اسمه ، وهذا مثل في التواضع والتجرد من حظ النفس والبعد عن الرياء ، حيث إن الحفظ القوي مزلة قدم نحو الإعجاب بالنفس والرياء .

ثانياً : موقف جليل لأصحاب علي بن المديني الذين كانوا يعزُّون أمه في حال غيبته ويُشيدون بهدفة من تلك الرحلة ويبشرونها بالعاقبة الحسنی من سفره ، ومنهم الإمام يحيى بن سعيد القطان رحمهم الله

(١) تاريخ بغداد ٤٦٢/١١ .

تعالى ، وهذا هو المظنون بالعلماء المتقين الذين يعملون بمقاصد علمهم .

ثالثًا : صبر جميل من تلك المرأة الصالحة والدة الإمام علي بن المديني ، حيث صبرت على فراق ولدها تلك المدة الطويلة ، وفهم ثاقب منها حيث قدمت مصلحة ابنها ومصلحة المسلمين على مشاعرها وعواطفها نحو ابنها ، وذلك حيث فهمت أن الذين يعزونها في سفر ابنها بما سيحصل عليه من العلم النافع هم الأصدقاء المخلصون لولدها ، وأن الذين يضخمون مصيبتها ويحثونها على استقدام ولدها ليسوا له بأصدقاء وإن أظهروا النصيح والإخلاص .

من أخبار إسحاق بن راهويه رحمه الله :

ومن العلماء الذين اشتهروا بجودة الحفظ وسرعة التذكر الإمام الحافظ إسحاق بن إبراهيم بن مَخْلَد الحنظلي التميمي المروزي المشهور بابن راهويه (١) .

ذكر الإمام الذهبي عن أبي داود الخفاف أنه قال : سمعت إسحاق ابن راهويه يقول : لكأنني أنظر إلى مئة ألف حديث في كتيبي ، وثلاثين ألفًا أسردها ، قال : وأملئ علينا إسحاق أحد عشر ألف حديث من حفظه ، ثم قرأها علينا ، فما زاد حرفًا ولا نقص حرفًا .

قال الذهبي : هذه الحكاية رواها الحافظ ابن عدي عن يحيى بن زكريا بن حيويه ، سمع أبا داود فذكرها ، فهذا والله الحفظ (٢) .

(١) لُقِّبَ بذلك لأن أباه ولد في طريق مكة فقالت المراورة راهويه لأنه ولد في الطريق .

(٢) سير أعلام النبلاء ٣٧٣/١١ .

من أخبار أبي عبد الله البخاري رحمه الله :

من الحفاظ الذين قل أن يوجد لهم نظير الإمام أبو عبد الله البخاري رحمه الله تعالى ، ومن أخباره في ذلك ما رواه الحافظ الخطيب البغدادي من حديث أبي جعفر محمد بن أبي حاتم الوراق النحوي قال قلت لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري : كيف كان بدء أمرك في طلب الحديث ؟ قال : أُلِّهْتُ حفظ الحديث وأنا في الكُتَّاب ، قال : وكم أتى عليك إذ ذاك ؟ قال : عشر سنين أو أقل ، ثم خرجت من الكتاب بعد العشر فجعلت أختلف إلى الداخلي وغيره ، وقال يوما فيما يقرأ للناس : سفيان عن أبي الزبير عن إبراهيم ، فقلت له : يا أبا فلان إن أبا الزبير لم يرو عن إبراهيم ، فانتهرني فقلت له : ارجع إلى الأصل إن كان عندك ، فدخل ونظر فيه ثم خرج فقال لي : كيف هو يا غلام ؟ قلت : هو الزبير بن عدي عن إبراهيم ، فأخذ القلم مني وأحكم كتابه ، فقال : صدقت ، فقال له بعض أصحابه : ابن كم كنت إذ رددت عليه ؟ فقال : ابن إحدى عشرة ، فلما طعنت في ست عشرة سنة حفظت كتب ابن المبارك ووكيع ، وعرفت كلام هؤلاء (١) ، ثم خرجت مع أمي وأخي أحمد إلى مكة ، فلما حججت رجع أخي بها وتخلفت في طلب الحديث ، فلما طعنت في ثماني عشرة جعلت أصنف قضايا الصحابة والتابعين وأقاولهم ، وذلك أيام عييد الله بن موسى ، قال : وصنفت كتاب التاريخ إذ ذاك عند قبر الرسول ﷺ في الليالي المقمرة ، وقال : قل

(١) قال الحافظ ابن حجر : يعني أصحاب الرأي مقدمة الفتح / ٤٧٩ .

إسم في التاريخ إلا وله عندي قصة إلا أنني كرهت تطويل الكتاب^(١).
ففي هذا الخبر بيان لعدد من مواقف أبي عبد الله البخاري العلمية
وذلك في خدمة سنة رسول الله ﷺ .

ومما يبين قوة حفظه ودقة فهمه ما رواه الخطيب البغدادي من خبر
أبي أحمد بن عدي قال : سمعت عدة مشايخ يحكون أن محمد بن
إسماعيل البخاري قدم بغداد فسمع به أصحاب الحديث فاجتمعوا
وعمدوا إلى مائة حديث فقلبوا متونها وأسانيدها وجعلوا متن هذا
الإسناد لإسناد آخر وإسناد هذا المتن لمتن آخر ، ودفعوا إلى عشرة
أنفس إلى كل رجل عشرة أحاديث وأمروهم إذا حضروا المجلس أن
يلقوا ذلك على البخاري ، وأخذوا الموعد للمجلس ، فحضر المجلس
جماعة أصحاب الحديث من الغرباء من أهل خراسان وغيرها ومن
البغداديين ، فلما اطمأن المجلس بأهله انتدب إليه رجل من العشرة
فسأله عن حديث من تلك الأحاديث فقال البخاري : لأعرفه ، فسأله
عن آخر فقال : لأعرفه ، فما زال يلقي عليه واحداً بعد واحد حتى
فرغ من عشرته ، والبخاري يقول : لأعرفه ، فكان الفقهاء ممن
حضر المجلس يلتفت بعضهم إلى بعض ويقولون : الرجل فهم ، ومن
كان منهم غير ذلك يقضي على البخاري بالعجز والتقصير وقلة
الفهم .

ثم انتدب رجل آخر من العشرة فسأله عن حديث من تلك
الأحاديث المقلوبة فقال البخاري : لأعرفه ، فسأله عن آخر فقال :

(١) تاريخ بغداد ٦/٢ - ٧

لأعرفه ، فلم يزل يلى عليه واحدا بعد آخر حتى فرغ من عشرته ،
والبخاري يقول : لأعرفه .

ثم انتدب إليه الثالث والرابع إلى تمام العشرة حتى فرغوا كلهم
من الأحاديث المقلوبة ، والبخاري لايزيدهم على : لأعرفه ، فلما
علم البخاري أنهم قد فرغوا التفت إلى الأول منهم فقال : أما
حديثك الأول فهو كذا وحديثك الثاني فهو كذا والثالث والرابع على
الولاء حتى أتم على تمام العشرة ، فرد كل متن إلى إسناده وكل إسناد
إلى متنه ، وفعل بالآخرين مثل ذلك ، ورد متون الأحاديث كلها إلى
أسانيدھا ، وأسانيدھا إلى متونها ، فأقر الناس له بالحفظ وأذعنوا له
بالفضل ، وكان ابن صاعد إذا ذكر محمد بن إسماعيل يقول :
الكبش النطّاح (١) .

ومن المواقف التي تبين تفوق الإمام البخاري في الحفظ والفهم
ماأخرجه الخطيب البغدادي من خبر حاشد بن إسماعيل قال : كان أبو
عبد الله محمد بن إسماعيل يختلف معنا إلى مشايخ البصرة وهو
غلام فلا يكتب ، حتى أتى على ذلك أيام ، وكنا نقول له : إنك
تختلف معنا ولا تكتب فما معنك فيما تصنع ؟ فقال لنا بعد ستة عشر
يوما : إنكما قد أكثرتما علي وألححتما فاعرضا علي ماكتبتما ،
فأخرجنا ماكان عندنا فزاد على خمسة عشر ألف حديث ، فقرأها كلها
عن ظهر قلب ، حتى جعلنا نُحْكِمُ كُتُبَنَا على حفظه ، ثم قال : أترون
أني أختلف هدرًا وأضيع أيامي ؟ فعرفنا أنه لايتقدمه أحد .

(١) تاريخ بغداد ٢/ ٢٠ - ٢١ ، سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٠٨ - ٤٠٩ .

قال : وكان أهل المعرفة من أهل البصرة يَعِدُون خلفه في طلب الحديث وهو شاب حتى يغلبوه على نفسه ويجلسوه في بعض الطريق فيجتمع عليه ألوف أكثرهم ممن يكتب عنه ، قال : وكان أبو عبد الله عند ذلك شاباً لم يخرج وجهه (١) .

فهذا حافظ الدنيا وإمام أهل الحديث في عصره الإمام البخاري يحفظ في أيام قلائل خمسة عشر ألف حديث ، ولقد كان إلى جانب ما وهبه الله سبحانه من قوة الحافظة وسرعة التذكر يشغل ليله ونهاره في استذكار الأحاديث كما جاء في رواية أخرجهما الحافظ الخطيب البغدادي من خبر محمد بن يوسف الفريزي قال : كنت عند محمد ابن إسماعيل البخاري بمنزله ذات ليلة فأحصيت عليه أنه قام وأسرج ، يستذكر أشياء يعلقها في ليلة ثمان عشرة مرة (٢) .

وقد ذكر أبو عبد الله في رواية عنه أفضل طريقة للحفظ وذلك فيما رواه محمد بن أبي حاتم عن النجم بن الفضيل أنه قال للإمام البخاري : هل من دواء يشربه الرجل فينتفع به للحفظ ؟ فقال : لا أعلم ، ثم أقبل عليّ وقال : لا أعلم شيئاً أنفع للحفظ من نهمة الرجل ومداومة النظر .

قال : وذاك أنّي كنت بنيسابور مقيماً فكان تردُّ إليّ من بخارى كُتُبٌ ، وكنّ قراباتٌ لي يُقرئَن سلامهن في الكتب فكنت أكتب كتاباً إلى بخارى وأردت أن أقرئهن سلامي فذهب عليّ أساميهن حين كتبت

(١) تاريخ بغداد ١٤/٢ - ١٥ ، سير أعلام النبلاء ٤٠٨/١٢ .

(٢) تاريخ بغداد ١٤/٢ ، سير أعلام النبلاء ٤٠٤/١٢ .

كتابي ولم أقرئهن سلامي ، وما أقل ما يذهب عني العلم (١) .

فقد تبين من كلام الإمام البخاري أن أهم أسباب النجاح في العلم أن يتوجه المتعلم إليه بكلية فيكون هو الذي يشغل باله فيفكر فيه حتى وهو على فراش النوم ، فبذلك يثبت في الذاكرة ، ويتفتق الفكر عن المعاني الكثيرة التي ترد على الذهن من تركيز الفكر على القضايا العلمية .

وفي حفظ الإمام محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله تعالى يقول أبو بكر الكلؤذاني : مارأيت مثل محمد بن إسماعيل ، كان يأخذ الكتاب من العلماء فيطلع اطلاعة فيحفظ عامة أطراف الأحاديث بمرة (٢) .

وقال سليم بن مجاهد : سمعت أبا الأزهري يقول : كان بسمرقند أربع مئة ممن يطلبون الحديث ، فاجتمعوا سبعة أيام وأحبوا مغالطة محمد بن إسماعيل ، فأدخلوا إسناده الشام في إسناده العراق وإسناده اليمن في إسناده الحرمين ، فما تعلقوا منه بسقطة لافي الإسناد ولا في المتن (٣) .

وهكذا فليكن العلم والحفظ ، وإلى علم هذا الإمام وأمثاله يرجع المحققون .

وأخرج الخطيب البغدادي بإسناده عن سليم بن مجاهد قال : كنت

(١) سير أعلام النبلاء ٤٠٦/١٢ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٤١٦/١٢ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٤١١/١٢ .

عند محمد بن سلام البيكندي فقال لي : لو جئت قبلُ لرأيت صبيًا يحفظ سبعين ألف حديث قال : فخرجت في طلبه حتى لقيته فقلت : أنت الذي تقول : أنا أحفظ سبعين ألف حديث ؟ قال : نعم وأكثر منه ، ولا أجيتك بحديث من الصحابة أو التابعين إلا عرفت مولد أكثرهم ووفاتهم ومساكنهم ، ولست أروي حديثًا من حديث الصحابة أو التابعين إلا ولي في ذلك أصل أحفظه حفظًا من كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم (١).

وقال محمد بن أبي حاتم : سمعت محمد بن إسماعيل يقول : قال لي محمد بن سلام : انظر في كتبي فما وجدت فيها من خطأ فاضرب عليه ، كي لأرويه ، ففعلت ذلك .

وكان محمد بن سلام كتب عند الأحاديث التي أحكمها محمد ابن إسماعيل : رضي الفتى ، وفي الأحاديث الضعيفة ، لم يرض الفتى ، فقال له بعض أصحابه : من هذا الفتى ؟ فقال : هو الذي ليس مثله ، محمد بن إسماعيل (٢) .

من أخبار أبي بكر الأثرم رحمه الله :

من ذلك ما ذكر عنه أنه كان قوي الحفظ سريع التذكر ، قال الخلال : وأخبرني أبو بكر بن صدقة : سمعت أبا القاسم بن الخثلي قال : قام رجل فقال : أريد من يكتب لي من كتاب الصلاة ما ليس في كتب أبي بكر بن أبي شيبة ، فقلنا له : ليس لك إلا أبو بكر الأثرم ،

(١) تاريخ بغداد ٢/ ٢٤ - ٢٥ .

(٢) تاريخ بغداد ٢/ ٢٤ .

قال : فوجَّهوا إليه ورقا ، فكتب ستمائة ورقة من كتاب الصلاة ،
قال : فنظرنا فإذا ليس في كتاب ابن أبي شيبة منه شيء (١) .

فهذا مثل على البراعة الفائقة في الحفظ والتذكر ، حيث حفظ
الإمام أبوبكر أحمد بن محمد الأثرم هذه الكمية الكثيرة من الأحاديث
في كتاب الصلاة وميزها عما رواه شيخه أبو بكر ابن أبي شيبة .

من أخبار إسحاق بن بهلول رحمه الله :

ومن الحفاظ الكبار الحافظ أبويقوب إسحاق بن بهلول ومن أخبار
حفظه ما ذكر الخطيب البغدادي عن ابن الأزرقي قال : حدثني القاضي
أبوطالب محمد بن أحمد بن إسحاق بن البهلول ، قال : تذاكرت يوما
أنا وأبومحمد بن صاعد ما حدث به جدِّي ببغداد - من حفظه - بأربعين
ألف حديث ، فقال لي أبومحمد بن صاعد : لا يدري أنيس ما قال : حدث
إسحاق بن البهلول من حفظه ببغداد بأكثر من خمسين ألف حديث .

وقد ذكر في خبر آخر سبب ذلك وهو أنه لما خاف من الأتراك أن
يكبسوا الأنبار انحدر إلى بغداد عَجَلًا ولم يحمل معه شيئًا من كتبه ،
فطالبه محمد بن عبد الله بن طاهر أن يحدث ، فحدث ببغداد من
حفظه بخمسين ألف حديث لم يخطئ في شيء منها (٢) .

فهذا مثل من الحفظ القوي والذاكرة الجيدة ، فقد ألزم هذا الإمام
الحافظ أن يحدث بعيدا عن كتبه فحدث بخمسين ألف حديث من
حفظه لم يخطئ في شيء منها .

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/٦٢٥ .

(٢) تاريخ بغداد ٦/٣٦٨ .

من أخبار أبي عيسى الترمذي رحمه الله :

من الحفاظ الكبار الإمام أبو عيسى محمد بن عيسى السلمي الترمذي ، مصنف « الجامع » أحد الكتب الستة .

قال الحافظ الذهبي : نقل أبو سعد الإدريسي بإسناد له أن أبا عيسى قال : كنت في طريق مكة فكتبت جزأين من حديث شيخ ، فوجدته فسألته وأنا أظن أن الجزأين معي ، فسألته فأجابني فإذا معي جزآن بياض ، فبقي يقرأ عليّ من لفظه ، فنظر فرأى في يدي ورقا بياضا ، فقال : أما تستحي مني ؟ فأعلمته بأمرى وقلت : أحفظه كله ، قال : اقرأ ، فقرأته عليه فلم يصدقني وقال : استظهرت قبل أن تجيء ، فقلت : حدثني بغيره ، قال : فحدثني بأربعين حديثا ، ثم قال : هات ، فأعدتها عليه ما أخطأت في حرف (١) .

وقال أبو سعد الإدريسي : كان أبو عيسى يضرب به المثل في الحفظ .

وقال الحاكم : سمعت عمر بن علك يقول : مات البخاري فلم يخلف بخراسان مثلاً أبي عيسى في العلم والحفظ والورع والزهد وبكى حتى عمي ، وبقي ضريراً سنين (٢) .

وإذا علمنا ما كان عليه الإمام الحافظ أبو عيسى الترمذي من هذا المستوى الرفيع من الحفظ فليس بمستغرب منه أن يؤلف كتابا في الحديث حاز على إعجاب علماء الحديث حتى جعلوه من الكتب الستة

(١) سير أعلام النبلاء ٢٧٣/١٣ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٧٣/١٣ .

الأمهات في هذا العلم ، وأن يؤلف كتاباً مهماً في أعقد باب من أبواب علوم الحديث ، ألا وهو علل الحديث .

من أخبار الحسن بن سفيان رحمه الله :

ممن اشتهر بالحفظ الإمام الحافظ الحسن بن سفيان الشيباني ، ومن أخبار ذكائه وحفظه الجيد ما ذكره أبو عبد الله الحاكم قال : سمعت محمد بن داود بن سليمان يقول : كنا عند الحسن بن سفيان فدخل ابن خزيمة وأبو عمرو الحيري وأحمد بن علي الرازي ، وهم متوجهون إلى فُراوة ، فقال الرازي : كتبت هذا الطبق من حديثك ، قال : هات ، فقرأ عليه ، ثم أدخل إسناداً في إسناد ، فردّه الحسن ، ثم بعد قليل فعل ذلك فردّه الحسن ، فلما كان في الثالثة قال له الحسن : ماهذا ؟! قد احتملتك مرتين وأنا ابن تسعين سنة فاتق الله في المشايخ وربما استجيبَتْ فيك دعوة ، فقال له ابن خزيمة : مه ، لا تؤذ الشيخ ، قال : إنما أردت أن تعلم أن أبا العباس يعرف حديثه (١) .

من أخبار الحسين النيسابوري وأحمد بن جوصا رحمهما الله :

لقد اشتهر العلماء الحفاظ لقوة حافظتهم وجودة ذاكرتهم يعمرهم مجالسهم بالمذاكرة من الذاكرة ، ومن أمثلة ذلك ما ذكر أبو عمرو النيسابوري الصغير قال : نزلنا خاناً بدمشق العصر ، ونحن على أن نبكر إلى ابن جوصا (٢) ، فإذا الخاني يصيح : أين أبو علي الحافظ ؟ (٣)

(١) سير أعلام النبلاء ١٥٩/١٤ .

(٢) هو الإمام الحافظ أبو الحسن أحمد بن عمير بن يوسف ابن جوصا ، محدث الشام .

(٣) يعني الإمام الحافظ أبا علي الحسين بن علي النيسابوري .

فقلت : هاهنا ، قال : قد حضره الشيخ زائراً ، فإذا بأبي الحسن بن جوصا على بغلة فنزل عنها ، ثم صعد إلى غرفتنا وسلم على أبي علي ورحب به ، وأخذ في المذاكرة معه إلى قرب العتمة ^(١) ، ثم قال : ياأبا علي جمعتَ حديثَ عبد الله بن دينار ؟ قال : نعم ، قال : أخرجه إلي ، فأخرجه فأخذه الشيخ في كفه وقام .

فلما أصبحنا جاءنا رسوله وحملنا إلى منزله فذاكره أبو علي وانتخب عليه إلى المساء ، ثم انصرفنا إلى رحلنا ، وجماعةٌ من الرحالة ينتظرون أبا علي فسلموا عليه ، ثم ذكروا شأن ابن جوصا ومانقموا عليه من الأحاديث التي أنكروها ، وأبو علي يسكتهم ويقول : لاتفعلوا ، هذا إمام من أئمة المسلمين ، وقد جاز القنطرة ^(٢) .

فهذا اجتماع علمي مهم بين حافظين كبيرين ، ولاشك أن هذا الاجتماع وأمثاله يَتَّبِعُ عنه تثبيت المعلومات وإضافة معلومات جديدة .

ولقد كان اعتماد العلماء في تلك العصور على الحفظ عاملاً في حصر الشهرة العلمية في النواخ ، الذين يشتهرون بقوة الحفظ وسرعة التذكر ، كما كان عاملاً على توجه المتفوقين في الذكاء نحو هذا العلم .

ونظراً لكون العلماء يعتمدون على الحفظ والذاكرة كانت مجالسهم معمورة بالعلم الذي يُستخرج بالذاكرة ، أما الذين يعتمدون على التدوين فقط فإنهم لا يستطيعون أن يعمرُوا مجالس المذاكرة .

(١) أي صلاة العشاء .

(٢) سر أعلام النبلاء ١٧/١٥ .

من أخبار عبد الرحمن ابن الخُتلي رحمه الله :

ومن العلماء المشهورين بقوة الحفظ وجودة الذاكرة الإمام الحافظ أبو عبد الله عبد الرحمن بن أحمد البغدادي ابن الخُتلي ، قال عن حفظه علي بن المحسن التنوخي : أخبرني أبي قال : دخل إلينا أبو عبد الله الخُتلي إلى البصرة ، وهو صاحب حديث جلد ، وكان مشهوراً بالحفظ ، فجاء وليس معه شيء من كتبه فحدث شهوراً إلى أن لحقته كتبه ، فسمعتة يقول : حدثت بخمسين ألف حديث من حفظي إلى أن لحقتني كتبي (١) .

من أخبار محمد العقيلي رحمه الله :

ومن الحفاظ المشهورين الإمام الحافظ أبو جعفر محمد بن عمرو العقيلي ، يقول عن حفظه مسلمة بن القاسم الأندلسي : كان العقيلي جليل القدر عظيم الخطر ، مارأيت مثله ، وكان كثير التصانيف ، فكان من أتاه من المحدثين قال : اقرأ من كتابك ولا يخرج أصله ، قال : فتكلمنا في ذلك وقلنا : إما أن يكون من أحفظ الناس وإما أن يكون من أكذب الناس ، فاجتمعنا فاتفقنا على أن نكتب له أحاديث من روايته ونزيد فيها وننقص ، فأتيناه لנمتحنه فقال لي : اقرأ فقرأتها عليه ، فلما أتيت بالزيادة والنقص فطن لذلك فأخذ مني الكتاب وأخذ القلم فأصلحها من حفظه ، فانصرفنا عنه وقد طابت نفوسنا ، وعلمنا أنه من أحفظ الناس (٢) .

(١) تاريخ بغداد ١٠ / ٢٩٠ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٥ / ٢٣٧ .

فهذا مثل من اهتمام طلاب العلم بضبط مايروونه من سنة رسول الله ﷺ ، وقد دفعهم ذلك الاهتمام إلى الجرأة على اختبار الحافظ الناقد أبي جعفر العقيلي فظهر من هذا الاختبار جودة حفظه وإتقانه ، وبهذا الحفظ القوي المتقن بلغ مابلغه من الشهرة العلمية في حظ السنة إلى جانب علمه الدقيق في رواية الحديث .

من أخبار محمد بن المظفر رحمه الله :

ومن الحفاظ المشهورين الحافظ أبو الحسن محمد بن المظفر قال أبو ذر الهروي : سمعت ابن أبي الفوارس يقول : سألت ابن المظفر عن حديث عن الباغندي عن ابن زيد المُنادي عن عمرو بن عاصم عن شعبة ، فقال : ليس هو عندي ، قلت : لعله عندك ؟ قال : لو كان عندي كنت أحفظه ، وعندي عن الباغندي مائة ألف حديث ليس عندي هذا (١) .

فهذا مثال على كثرة الحفظ والإتقان ، فالحافظ ابن المظفر يحفظ عن الباغندي مائة ألف حديث وهي معلومة لديه بدون رجوع إلى كتابه ، فقد أنكر نسبة ذلك الحديث إليه عن الباغندي ويبيّن أنه ليس من جملة مروياته عنه ، وهذا دليل على القدرة الفائقة على الحفظ والتذكر .

من أخبار أحمد ابن جوصا رحمه الله :

من الحفاظ محدث الشام أبو الحسن أحمد بن عمير ابن جوصا ، قال عنه أبو ذر الهروي : سمعت أبا مسعود الدمشقي يقول : جاء

(١) سير أعلام النبلاء ٤١٩/١٦ .

رجل ببغدادى يحفظ إلى ابن جوصا (١) ، فقال له ابن جوصا: كلما أغربت على حديثاً من حديث الشاميين أعطيتك درهماً ، فلم يزل الرجل يلقي عليه ماشاء الله ولا يغرب عليه ، فاغتم ، فقال للرجل: لا تجزع ، وأعطاه لكل حديث ذكره به درهماً ، وكان ابن جوصا ذا مال كثير (٢) .

وهكذا كان الحافظ ابن جوصا يتمتع بالحفظ القوي والذاكرة السيالة والكرم البالغ ، فقد كانت كل تلك الأحاديث التي ألقاها ذلك العالم البغدادي معروفة عند الحافظ ابن جوصا ، فلم يكن البغدادي يستحق شيئاً مما وعده به ، ولكن كرم ابن جوصا الفياض أبى عليه أن يرد ذلك البغدادي منكسر النفس ، فأعطاه من الدراهم بعدد ما ذكره به من الأحاديث .

من أخبار علي بن عمر الدارقطني رحمه الله :

ومن الحفاظ الكبار الإمام أبو الحسن علي بن عمر الدارقطني صاحب المؤلفات النافعة في السنة ، ومن أخبار حفظه مذكر الخطيب البغدادي عن الأزهري قال : بلغني أن الدارقطني حضر في حديثه مجلس إسماعيل الصفار ، فجلس ينسخ جزءاً كان معه وإسماعيل يُملي ، فقال له بعض الحاضرين : لا يصح سماعك وأنت تنسخ ، فقال له الدارقطني : فهمي للإملاء خلاف فهمك ، ثم قال: تحفظ كم أُملى الشيخ من حديث إلى الآن ؟ فقال: لا ، فقال الدارقطني:

(١) هو أبو الحسين أحمد بن عمر بن يوسف ابن جوصا .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٦/١٥ .

أملى ثمانية عشر حديثاً ، فعُدَّت الأحاديث فَوُجِدَتْ كما قال : ثم قال أبو الحسن : الحديث الأول منها عن فلان عن فلان ، ومثته كذا ، والحديث الثاني عن فلان عن فلان ، ومثته كذا ، ولم يزل يذكر أسانيد الأحاديث ومتونها في الإملاء حتى أتى على آخرها (١) .

وهكذا كان حفظ هذا العالم الكبير الذي أصبح من أعلام علماء السنة ، فقد كان مشهوراً بقوة الحفظ وجودة الذاكرة ، وقد ذكر أبو بكر البرقاني أنه أملى عليه كتاب « العلل » من حفظه .

ذكره الإمام الذهبي وقال : إن كان كتاب « العلل » الموجود قد أملاه الدارقطني من حفظه كما دلت عليه هذه الحكاية فهذا أمر عظيم يُقضى به للدارقطني أنه أحفظ أهل الدنيا ، وإن كان قد أملى بعضه من حفظه فهذا ممكن (٢) .

خبر الحاكم مع بديع الزمان الهمداني رحمهما الله :

هذا وإن حفظ الأحاديث بأسانيد المتعددة ليس بالأمر اليسير بل هو من أشق المواد وأصعبها ، ومما يبين صعوبة هذه المادة ما ذكره الحافظ الذهبي عن سعد بن علي الزنجاني أنه سمع أبا نصر الوائلي يقول : لما ورد أبو الفضل الهمداني نيسابور تعصبوا له ولقبوه بديع الزمان ، فأعجب بنفسه إذ كان يحفظ المائة بيت إذا أنشدت مرة ، وينشدها من آخرها إلى أولها مقلوبة ، فأنكر على الناس قولهم : فلان الحافظ في الحديث ، ثم قال : وحفظُ الحديث مما يُذكر !؟ فسمع به الحاكم ابن

(١) تاريخ بغداد ٣٦/٢ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٤٥٥/١٦ .

البيع (١) فوجه إليه بجزء ، وأجل له جمعة في حفظه ، فردَّ إليه الجزء بعد الجمعة وقال : من يحفظ هذا ؟ محمد بن فلان وجعفر بن فلان عن فلان ؟ أسامي مختلفة وألفاظ متباينة ؟ فقال له الحاكم : فاعرف نفسك واعلم أن هذا الحديث أصعب مما أنت فيه (٢) .

فهذا دليل على أن حفظ الأسانيد صعب للغاية ، ولا يماثله شيء في الصعوبة ، فبديع الزمان الهمداني الذي يحفظ القصيدة المكوَّنة من مائة بيت بسماعها أول مرة ويعيدها مقلوبة لم يستطع أن يحفظ جزءاً في الحديث مع إمهال أبي عبد الله الحاكم له مدة أسبوع ، ولقد كان الحاكم خبيراً بهذا العلم حينما تحدى ذلك الأديب الذي استهان بحفظ الأحاديث ، فأعلن بعد ذلك عجزه عن حفظ الأسانيد ، وإذا كان قد عجز عن حفظ جزء واحد ، والجزء كما هو معروف في الغالب عشرون ورقة ، فكيف بالعلماء الذين يحفظون مئات الأجزاء ومئات الألوف من الأحاديث ؟!

ولاشك أن حفظ الأحاديث بأسانيدها في غاية الصعوبة ، ولكنه يسهل على طالب العلم بمعونة الله تعالى مع إخلاص النية وصدق التوجه نحو العلم .

من أخبار أبي نصر علي ابن ماکولا رحمه الله :

ومن الحفاظ الكبار الذين لهم إسهام في التأليف في علوم الحديث الأمير الحافظ أبو نصر علي بن هبة الله ابن ماکولا وقد ذكر في حفظه

(١) هو أبو عبد الله الحاكم صاحب المستدرک .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٧/ ١٧٣ .

هبة الله بن المبارك بن الدّواتي قال : اجتمعتُ بالأُمير ابن ماکولا فقال لي : خذ جزأين من الحديث فاجعل متون هذا لأسانيد هذا ومتون الثاني لأسانيد الأول ، حتى أردّها إلى الحالة الأولى (١) .
وهذا دليل على التمكن في الحفظ وسرعة التذكر .

من أخبار القاسم الشاطبي رحمه الله :

ومن كبار الحفاظ الذين اشتهروا بالتأليف في العلوم الإسلامية المتنوعة الإمام سيد القراء القاسم الشاطبي وقد ذكروا من قوة حفظه وجودة ذاكرته أنه إذا قرئ عليه « الموطأ » و« الصحيحان » يصحح النسخ من حفظه ، حتى كان يقال : إنه يحفظ وقر بعير من العلوم (٢) .
من أخبار أبي زرعة الرازي وسليمان الشاذكوني رحمهما الله :

من ذلك ما أخرجه الخطيب البغدادي من حديث أبي عثمان سعيد ابن عمرو قال : سمعت أبا زرعة الرازي يقول : دخلت البصرة فصرت إلى سليمان الشاذكوني يوم الجمعة وهو يحدث ، وهو أول مجلس جلست إليه ، فقال : حدثنا يزيد بن زريع عن محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد عن جابر عن النبي ﷺ « مامن رجل يموت له ثلاثة من الولد فتمسه النار إلا تحلة القسم » فقلت للمستملي : ليس هذا من حديث عاصم بن عمر ، إنما هذا رواه محمد بن إبراهيم ، فقال له ، فرجع إلى محمد بن إبراهيم .

(١) سير أعلام النبلاء ٥٧٥ / ١٨ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٦٤ / ٢١ .

قال : وذكر في هذا المجلس أيضا فقال : حدثنا ابن أبي غنية عن أبيه عن سعد بن إبراهيم عن نافع بن جبير عن أبيه أنه قال : « لاحلف في الإسلام » قال : فقلت : هذا وهم ، وهم فيه إسحاق بن سليمان ، وإنما هو سعد بن إبراهيم عن أبيه عن جبير ، قال : فغضب ثم قال لي : ماتقول فيمن جعل الأذان مكان الإقامة ؟ قلت : يعيد ، قال : من قال هذا ؟ قلت : الشعبي ، قال : من عن الشعبي ؟ قلت : حدثنا قبيصة عن سفيان عن جابر عن الشعبي ، قال : ومن غير هذا ؟ قلت : إبراهيم ، قال : من عن إبراهيم ؟ قلت : حدثنا أبو نعيم حدثنا منصور بن أبي الأسود عن مغيرة عن إبراهيم ، قال : أخطأت ، قلت : حدثنا أبو نعيم حدثنا جعفر الأحمر عن مغيرة عن إبراهيم ، قال : أخطأت ، قلت : حدثنا أبو نعيم حدثنا أبو كدينة عن مغيرة عن إبراهيم ، قال : أصبت .

قال أبو زرعة : كتبت هذه الأحاديث الثلاثة عن أبي نعيم فما طالعته منذ كتبتها فاشتبه عليّ ، ثم قال : وأي شيء غير هذا ؟ قلت : معاذ بن هشام عن أشعث عن الحسن ، قال : هذا سرقة مني - وصدق - كان ذاكرني به رجل ببغداد فحفظته عنه (١) .

فهذا مثال على غزارة العلم وقوة الحفظ ، وسرعة استحضار المعلومات عند البارزين من علماء السلف ، فقد كانوا يحفظون متون الأحاديث بأسانيد المتعددة فإذا سمع الحافظ منهم المحدث وأخطأ في اسم راو من الرواة أدرك ذلك حالاً واستدركه عليه ، وعلى هذا جرت

(١) تاريخ بغداد ١٠ / ٢٢٩ - ٢٣٠ .

هذه المحاور العلمية بين هذين الحافظين أبي زرعة الرازي وسليمان الشاذكوني .

إن حفظ المتون وحدها يحتاج إلى جهد في الحفظ والاستذكار ، فكيف بحفظ الأسانيد التي تتشابه كثيرا .

وبهذا الجهد العظيم حفظ العلماء رحمهم الله تعالى سنة رسول الله ﷺ وسيرته .

من أخبار محمد بن يحيى الذهلي رحمه الله :

من ذلك ما ذكره أبو العباس الدَّغُولي سمعت صالح بن محمد الحافظ يقول: دخلت الري ، وكان فَضْلُكَ^(١) يذاكرني حديث شعبة ، فألقى عليّ لشعبة عن عبد الله بن صُبَيْح عن ابن سيرين عن أنس قال قال رسول الله ﷺ : « هذا خالي فليُرني امرؤ خاله »^(٢) ، فلم أحفظ^(٣) ، فقال فضلك: أنا أفيدكه ، إذا دخلت نيسابور ترى شيخا حسن الشيب حسن الوجه راكبا حمارا مصريا حسن اللباس فإذا رأيته فاعلم أنه محمد بن يحيى فسَلِّه عن هذا ، فهو عنده عن سعيد بن

(١) هو فضلك الصائغ واسمه الفضل بن العباس الرازي .

(٢) أخرجه الإمام الترمذي من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : أقبل سعد فقال النبي ﷺ : « هذا خالي فليُرني امرؤ خاله » وقال : حديث حسن غريب لانعرفه إلا من حديث مجالد - سنن الترمذي ، المناقب ، مناقب سعد بن أبي وقاص ، رقم (٣٧٥٢) وقال الترمذي : وكان سعد بن أبي وقاص من بني زهرة ، وكانت أم النبي ﷺ من بني زهرة ، ولذلك قال النبي ﷺ : « هذا خالي » .

وأخرجه الحاكم من حديث جابر رضي الله عنه وصححه وأقره الذهبي - المستدرک ٣/ ٤٩٨ - .

(٣) يعني لم يحفظ إسناده .

واصل عن شعبة ، فلما دخلت نيسابور استقبلني شيخ بهذا الوصف ،
فقلت : يشبه أن يكون ، فسألت عنه فقالوا : هو محمد بن يحيى
فتبعته إلى أن نزل فسلمت عليه وأخبرته بقصدي إياه ، فنزلت في
مسجده وكتبت مجلساً من أصوله ، فلما خرج وصلى قرأته عليه ، ثم
قلت : حدثكم سعيد بن عامر عن شعبة ، فذكرت الحديث فقال لي :
يا فتى من ينتخب هذا الانتخاب ويقرأ هذه القراءة يعلم أن سعيد بن
عامر لا يحدث عن شعبة بمثل هذا الحديث ، فقلت : نعم أيها الشيخ
حدثكم سعيد بن واصل ؟ فقال : نعم (١) .

فهذا مثال على حفظ الإمام محمد بن يحيى الذهلي ومعرفته
برجال الحديث ، فقد أدرك ذلك الخطأ في إسناد الحديث . كما أورده
السائل .

وهكذا فليكن الحفظ والعلم .

وفي هذا الخبر بيان حرص طلاب العلم على حفظ الأحاديث
بأسانيدها العالية ، فقد رحل صالح بن محمد الحافظ إلى نيسابور من
أجل أن يسمع هذا الحديث عالياً عن محمد بن يحيى .
من أخبار عبد الله بن بكير رحمه الله :

ومن ذلك ما أخرجه الخطيب البغدادي من حديث أبي القاسم
الأزهري قال : كنت أحضر عند عبد الله بن بكير وبين يديه أجزاء
كبار قد خرج فيها أحاديث ، فأنظر في بعضها ، فيقول لي : أيما
أحب إليك تذكر لي متن ماتريد من هذه الأحاديث حتى أخبرك

(١) سير أعلام النبلاء ٢٧٧/١٢ .

بإسناده أو تذكر إسناده حتى أخبرك بمثنه ؟ فكنت أذكر له المتون فيحدثني بالأسانيد من حفظه كما هي في كتابه ، وفعلت هذا معه مرارا كثيرة .

قال إسحاق بن يسار النصيبي : وقال لي الأزهري : كان أبو عبدالله بن بكير ثقة فحسدوه فتكلموا فيه (١) .

فهذا الخبر يدل على قوة حفظ الحافظ عبد الله بن بكير وجودة ذاكرته .

خبر في بيان أهمية المذاكرة :

ومن أسباب تمتع بعض العلماء بحفظهم واستمساكهم بما في ذاكرتهم كثرة مذاكرة العلم وتذكره ، وفي ذلك يقول الحافظ أبو زرعة : إذا مرضت شهراً أو شهرين تبين عليّ في حفظ القرآن ، وأما الحديث فإذا تركت أياماً تبين عليك ، ثم قال أبو زرعة : نرى أقواماً من أصحابنا كتبوا الحديث تركوا المجالسة منذ عشرين سنة أو أقل ، إذا جلسوا اليوم مع الأحداث كأنهم لا يعرفون أولاً يحسنون الحديث (٢) .

فهذا خبر مهم في بيان سبب حفظ العلماء لعدد كبير من الأحاديث واحتفاظهم به طول عمرهم ، فقد كانوا يتعاهدون حفظهم للسنة كما يتعاهدون حفظهم للقرآن ، وإذا تصورنا أن الواحد من هؤلاء الحفاظ يحفظ عشرات الألوف من الأحاديث مع القرآن فأى جهد كانوا يبذلونه في الحفظ والاستذكار لتثبيت حفظهم !

(١) تاريخ بغداد ٨/ ١٣-١٤ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٧٩ .

من أخبار أبي بكر الأنباري رحمه الله :

من أخبار سياسة العلماء أنفسهم بالخزم والجد حتى يبقوا على قوة الحفظ وجودة الذاكرة مذكروه القاضي أبو يعلى عن محمد بن جعفر التميمي النحوي قال : قال أبو الحسن العروضي : اجتمعت أنا وأبو بكر بن الأنباري^(١) عند الرازي على الطعام، وكان قد عرف الطباخ ما يأكل أبو بكر فكان يسوي له قلية يابسة، قال : فأكلنا نحن من ألوان الطعام وأطاييه وهو يعالج تلك القلية، ثم فرغنا وأتينا بحلواء فلم يأكل منها شيئاً ، وقام وقمنا إلى الحيس، وقمنا إلى حيس ماء نشربه، ولم يشرب إلى العصر فلما كان من العصر قال للغلام : الوظيفة، فجاءه بماء من الحب^(٢)، وترك الماء المزمّل بالثلج، فغاضني أمره فصحت صيحة ، فأمر أمير المؤمنين بإحضاري وقال : ما قصتك ؟ فأخبرته وقلت : هذا يأمر المؤمنين يحتاج إلى أن يحال بينه وبين تدبير نفسه لأنه يقتلها ولا يحسن عشرتها، قال : فضحك وقال : له في هذا لذة وقد جرت به العادة فصار إلفاً فلن يضره، ثم قلت : يا أبا بكر لم تفعل هذا بنفسك ؟ قال : أبقى على حفظي، فقلت له : قد أكثر الناس في حفظك فكم تحفظ ؟ قال : أحفظ ثلاثة عشر صندوقاً، قال محمد ابن جعفر التميمي النحوي : وهذا مالا يحفظ لأحد قبله ولا بعده ، وكان أحفظ الناس للغة ونحو وشعر وتفسير وقرآن، فحدث أنه كان يحفظ عشرين ومائة تفسير من تفاسير القرآن بأسانيد^(٣)ها .

(١) هو محمد بن القاسم بن محمد الأنباري .

(٢) الحب إناء من الفخار يبرد به الماء .

(٣) طبقات الحنابلة ٧٠ / ٢ .

ففي هذا الخبر دلالة على اهتمام العلماء بحفظ العلم والاحتفاظ به في الذاكرة ، وإذا تعارض ذلك - في نظرهم - مع التمتع بأنواع الطعام فإنهم يقللون من الطعام من أجل الاحتفاظ بقوة الحفظ وجودة الذاكرة ، فهذا ابن الأنباري يتجنب أطيب الطعام والماء المثلج ليحتفظ بحفظه ، وهذه النتيجة التي استظهرها من تصرفه هذا قد تكون مما نصح به بعض الأطباء وقد تكون مما عرفه العلماء بتجاربههم .

من أخبار أبي بكر بن أبي داود رحمه الله :

من ذلك ما أخرجه الخطيب البغدادي عن أبي القاسم الأزهري قال : سمعت أحمد بن إبراهيم بن شاذان يقول - في المذاكرة - : خرج أبو بكر بن أبي داود إلى سجستان في أيام عمرو بن الليث ، فاجتمع إليه أصحاب الحديث ، وسألوه أن يحدثهم فأبى وقال : ليس معي كتاب ، فقالوا له : ابن أبي داود وكتاب ؟ قال أبو بكر : فأثاروني ، فأملت عليهم ثلاثين ألف حديث من حفظي ، فلما قدمت بغداد قال البغداديون : مضى ابن أبي داود إلى سجستان ولعب بالناس ، ثم فيجوا فيجاً (١) أكثره ستة دنائير إلى سجستان ليكتب لهم النسخة فكتب ، وجئ بها إلى بغداد وعُرضت على الحفاظ بها فخطئوني في ستة أحاديث ، منها ثلاثة حدثت بها كما حدثت وثلاثة أحاديث أخطأت فيها (٢) .

فهذا مثل من الحفظ القوي والذاكرة الحية ، فقد ألجئ هذا الحافظ

(١) أي أرسلوا جماعة من الناس .

(٢) تاريخ بغداد ٩/ ٤٦٦ .

أبو بكر بن أبي داود إلى التحديث من حفظه فحدث بثلاثين ألف حديث، جاءت على الصواب ماعدا ثلاثة أحاديث أخطأ فيها وخالف كتابه .

وإذا نسبنا ثلاثة أحاديث إلى ثلاثين ألف حديث فإنها تعتبر لاشيء .

وما جاء في هذا الخبر من اهتمام الحفاظ ببغداد بهذا الأمر يدل على يقظة علماء الحديث وتحريهم البالغ للإتقان في أداء السنة النبوية، ورقابتهم الشديدة على معاصريهم حتى لا يكون هناك تهاون في الأداء يحمل على كثرة الوقوع في الخطأ ، فقد بذل هؤلاء العلماء من أموالهم ، وأرسلوا وفدا من طلاب العلم لينسخوا الأحاديث التي أملاها الحافظ ابن أبي داود من حفظه حتى يعرضوها على كتابه الأصلي فيصححوا الخطأ للناس إن وجد ، ولكن لم يوجد خطأ منه إلا في هذا العدد القليل جدا مع كثرة ماروى من حفظه ، ونجح في الاختبار الصعب الذي فرضه عليه علماء الحديث .

إن هذا الاهتمام البالغ في ضمان الدقة في أداء الحديث النبوي يجعل ضعف الإيمان يحجمون عن الدخول فيما لا يحسنون ، والتقول بلا علم ، أو التهاون في ضبط ما علموا ، وهذا من أسباب ضبط السنة النبوية على مر العصور .

من أخبار أحمد بن عقدة رحمه الله :

من الحفاظ المشهورين الحافظ أبو العباس أحمد بن محمد ابن

عقدة الكوفي ، أخرج الخطيب البغدادي بإسناده عن أبي إسحاق الطبري قال : سمعت ابن الجعابي يقول : دخل ابن عقدة بغداد ثلاث دفعات ، فسمع في الدفعة الأولى من إسماعيل القاضي ونحوه ، ودخل الثانية في حياة ابن منيع ، وطلب مني شيئاً من حديث يحيى ابن صاعد وسألته أن يدفع إليّ شيئاً من حديثه لأحمله لابن عقدة ، فدفع إليّ مسند علي بن أبي طالب ، فتعجبت من ذلك وقلت في نفسي : كيف دفع إليّ هذا وابن عقدة أعرف الناس به مع اتساعه في حديث الكوفيين !

وحملته إلى ابن عقدة فنظر فيه ثم رده عليّ ، فقلت : أيها الشيخ هل فيه شيء يُستغرب ؟ فقال : نعم فيه حديث خطأ ، فقلت : أخبرني به ، فقال : والله لأُعرفنَّك ذلك حتى أجاوز قنطرة الياسرية ، وكان يخاف من أصحاب ابن صاعد ، فطالت عليّ الأيام انتظاراً لوعده ، فلما خرج إلى الكوفة سرت معه ، فلما أردت مفارقتة قلت : وعدك؟ فقال : نعم الحديث عن أبي سعيد الأشج عن يحيى بن زكريا بن أبي زائدة ، ومتى سمع منه ؟ وإنما وُلد أبو سعيد في الليلة التي مات فيها يحيى بن زكريا بن أبي زائدة ، فودعته وجئت إلى ابن صاعد فقلت له : وُلد أبو سعيد الأشج في الليلة التي مات فيها يحيى بن زكريا بن أبي زائدة ؟ فقال : كذا يقولون : فقلت له : في كتابك حديث عن الأشج عنه فما حاله ؟ فقال : عرفك ذلك ابن عقده ؟ فقلت : نعم .

قال : ثم رجع يحيى إلى الأصول فوجد الحديث عنده على الصواب ، أو كما قال (١) .

(١) تاريخ بغداد ١٨/٥ - ١٩ .

فهذا مثل على قوة الحفظ وسرعة التذكر والخبرة الدقيقة في تاريخ الرجال وعلل الأسانيد، فالإسناد الذي انتقده ابن عقدة فيه علة خفية وهي استحالة سماع أبي سعيد الأشج من يحيى بن زكريا لكونه وُلد في الليلة التي توفي فيها يحيى ، ومثل هذه العلة الخفية لا يدركها على البديهة إلا أفذاذ العلماء .

ولقد استفاد يحيى بن صاعد من هذا النقد الجيد فأصلح كتابه، وكملَّ النقص الذي كان في الإسناد .

ومما ذكر من أخبار حفظ ابن عقدة ما أخرجه الخطيب البغدادي من حديث القاضي أبي القاسم علي بن المحسن التنوخي - من حفظه - قال : سمعت أبا الحسن محمد بن عمر العلوي يقول : كانت الرئاسة بالكوفة في بني القَدَّان قبلنا ، ثم فشت رئاسة بني عبيد الله ، فعزم أبي على قتالهم وجمع الجموع ، فدخل إليه أبو العباس بن عقدة وقد جمع جزءاً فيه ست وثلاثون ورقة ، فيها حديث كثير لا أحفظ قدره في صلة الرحم عن النبي ﷺ وعن أهل البيت وعن أصحاب الحديث ، فاستعظم أبي ذلك واستنكره ، فقال له : يا أبا العباس بلغني من حفظك للحديث ما استنكرته واستكثرته فكم تحفظ ؟ فقال له : أنا أحفظ منسّقاً من الحديث بالأسانيد والمتون خمسين ومائتي ألف حديث ، وأذاكر بالأسانيد وبعض المتون والمراسيل والمقاطع ستمائة ألف حديث (١) .

فهذا مثال على قوة الحفظ وسعته ، وقد قارب ابن عقدة كبار

(١) تاريخ بغداد ١٧/٥ .

الحفاظ المشهورين من أمثال سفيان الثوري وأحمد بن حنبل والبخاري وإسحاق بن راهويه .

وقد استفاد هذا الحافظ من سعة حفظه وأفاد طلاب العلم كثيراً ، وكان ممن استفاد منه رئيس العلويين بالكوفة في زمنه ، حيث كان عازماً على قتال الطائفة الذين نازعوهم رئاسة الكوفة ، فتأثر بسماع الأحاديث والآثار الكثيرة التي أوردها عليه ابن عقدة في موضوع صلة الرحم ، فكف عن عزمه ذلك وحقق دماء المسلمين .

وهكذا ينبغي للعالم أن يكون عنده في كل موضوع مادة كثيرة ، وأن يحسن عرضها على من أراد دعوته ، فإن في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ الشفاء من جميع أمراض القلوب .

من أخبار محمد بن عبد الواحد رحمه الله :

ممن اشتهروا بجودة الحفظ والذاكرة العلامة اللغوي المحدث أبو عمر محمد بن عبد الواحد الزاهد ، ومن أخباره في ذلك ما ذكر الخطيب البغدادي : أن أبا عمر الزاهد كان يؤدب ولد القاضي أبي عمر محمد بن يوسف ، فأملى يوماً على الغلام نحواً من ثلاثين مسألةً في اللغة وذكر غريبها وختمها بيتين من الشعر ، وحضر أبو بكر بن دريد وأبو بكر بن الأنباري ، وأبو بكر بن مقسم عند أبي عمر القاضي ، فعرض عليهم تلك المسائل فما عرفوا منها شيئاً وأنكروا الشعر فقال لهم القاضي : ماتقولون فيها ؟ فقال له ابن الأنباري : أنا مشغول بتصنيف مشكل القرآن ولست أقول شيئاً ، وقال ابن مقسم في ذلك ، واحتج باشتغاله بالقراءات ، وقال ابن دريد : هذه المسائل من

موضوعات أبي عمر ولا أصل لشيء منها في اللغة ، وانصرفوا .

وبلغ أبا عمر ذلك فاجتمع مع القاضي وسأله إحضار دواوين جماعة من قدماء الشعراء عيّنهم له ، ففتح القاضي خزائنه وأخرج له تلك الدواوين ، فلم يزل أبو عمر يعمد إلى كل مسألة ويخرج لها شاهداً من بعض تلك الدواوين ، ويعرضه على القاضي حتى استوفى جميعها ، ثم قال : وهذان البيتان أنشدناهما ثعلب بحضرة القاضي وكتبهما القاضي بخطه على ظهر الكتاب الفلاني ، فأحضر القاضي الكتاب فوجد البيتين على ظهره بخطه كما ذكر أبو عمر ، فانتهت القصة إلى ابن دريد فلم يذكر أبا عمر بلفظة حتى مات (١) .

فهذا الخبر يدل على عمق أبي عمر الزاهد في اللغة والأدب وسرعة استحضار المعلومات ، ومع ذلك لم يشتهر في التاريخ ! فما أكثر العظماء في مختلف الفنون الذين طواهم التاريخ فلم يكن لهم ذكر إلا في عصرهم .

من أخبار الحافظين أبي عبد الله الحاكم والخليل بن عبد الله رحمهما الله :

من الحوار الجيد الذي يدل على اتساع المعرفة لدى الشيوخ والتلاميذ الحوار الذي جرى بين أبي عبد الله الحاكم وتلميذه الخليل بن عبد الله الحافظ ، قال الخليل بن عبد الله : وسألني - يعني شيخه الحاكم - في اليوم الثاني لما دخلت عليه ، ويُقرأ عليه في فوائد العراقيين فقال : سفيان الثوري عن أبي سلمة عن الزهري عن سهل . . . حديث الاستئذان ! فقال لي : من أبو سلمة هذا ؟ فقلت

(١) تاريخ بغداد ٢/ ٣٥٨ .

من وقتي : المغيرة بن مسلم السراج ، قال : وكيف يروي المغيرة عن الزهري ؟ فبقيت (١) ، ثم قال لي : قد أمهلتك أسبوعا حتى تتفكر فيه ، قال : فتفكرت ليلتي حتى بقيت أكرر التفكير ، فلما وقعت إلى أصحاب الجزيرة من أصحاب الزهري تذكرت محمد بن أبي حفصة فإذا كنيته أبو سلمة ، فلما أصبحت حضرت مجلسه ، ولم أذكر شيئا حتى قرأت عليه نحو مائة حديث ، قال : هل تفكرت فيما جرى ؟ فقلت : نعم هو محمد بن أبي حفصة ، فتعجب وقال لي : نظرت في حديث سفيان لأبي عمرو البحيري ؟ فقلت : لا ، وذكرت له ماأمت في ذلك ، فتحير وأثنى علي (٢) .

فهذا الخبر يدل على علم أبي عبد الله الحاكم بالرواة ، وفيه تعليم جيد لتلميذه الخليل بن عبد الله حيث جرى الحوار بينهما في اسم أبي سلمة الراوي عن الزهري ، فأمله أسبوعا ليعرفه بالدراسة والتأمل ، وقد عرفه الخليل بن عبد الله بطريقة تدل على ذكاء وخبرة علمية ، حيث بحث عن مواطن الشيوخ فحصر أسماء الرواة الذين يروون عن الإمام الزهري من أهل الجزيرة فوجد محمد بن أبي حفصة هو الذي يكنى بأبي سلمة فأخبر به شيخه الحاكم ، وتعجب شيخه من مقدرته العلمية ، حيث عرف اسم الراوي بدون رجوع إلى الكتب التي صرحت باسم صاحب الكنية ، وإنما عرف ذلك بتتبع أسماء تلاميذ الزهري من أصحاب الجزيرة حتى عثر على من يكنى بهذه الكنية ، وكان ذلك باستعراض الذاكرة ، كما يفهم من الخبر .

(١) أي انقطعت عن الكلام .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٦٦/١٧ - ١٦٧ .

من أخبار عبد الغني المقدسي رحمه الله :

ولقد كان العلماء حريصين على حفظ السنة النبوية ومعرفة محتويات كتبها ، ومن أخبارهم في ذلك ما ذكره الحافظ ضياء الدين المقدسي في ترجمة الحافظ عبد الغني المقدسي قال : وسمعت شيخنا الحافظ عبد الغني يقول : كنت يوماً بأصبهان عند الحافظ أبي موسى^(١) فجرى بيني وبين بعض الحاضرين منازعة في حديث فقال : هو في صحيح البخاري فقلت : ليس هو فيه ، قال : فكتب الحديث في رقعة ورفعها إلى الحافظ أبي موسى يسأله عنه ، قال : فناولني الحافظ الرقعة وقال : ماتقول هل هذا الحديث في البخاري أم لا ، قلت : لا ، قال : فخجل الرجل وسكت^(٢) .

فهذا مثل لحفظ السنة والخبرة بكتبها، كما أنه مثل على تواضع العلماء لأهل العلم وإن كانوا بمنزلة التلاميذ، فالحافظ أبو موسى المديني لم يستنكف من أن يسأل تلميذه الحافظ عبد الغني عن الحديث المذكور، وفي سؤاله إياه أمام الناس رفع من شأن أهل التقدم في العلم، وقد كان يعلم تفوق الحافظ عبد الغني المقدسي في حفظ السنة .

ولقد كان الحافظ عبد الغني المقدسي يحفظ الأحاديث بأسانيدھا ومتونها ، قال عنه الضياء المقدسي : وشاهدت الحافظ غير مرة بجامع دمشق يسأله بعض الحاضرين وهو على المنبر : اقرأ لنا أحاديث من غير أجزاء فيقرأ الأحاديث بأسانيدھا عن ظهر قلبه .

(١) يعني الحافظ المديني .

(٢) ذكره الحافظ ابن رجب في طبقات الحنابلة ٧/٤ .

قال : وسمعت أبا طاهر ابن إسماعيل بن ظفر النابلسي يقول :
جاء رجل إلى الحافظ - يعني عبد الغني - فقال : رجل حلف
بالبطلاق أنك تحفظ مائة ألف حديث ، قال : لو قال أكثر لصدق^(١).

وكان يحدث أحياناً من حفظه، وأحياناً يحدث من كتابه تورعا
خشية مداخله العجب لنفسه ، قال ابنه عبد الرحمن : سمعت بعض
أهلنا يقول : إن الحافظ سئل : لم لا تقرأ من غير كتاب ؟ قال : أخاف
العجب^(٢).

وهذا مثل من الحزم الرشيد في سياسة النفس وصيانتها عن
مواطن الزلل ، فإن الإعجاب بالنفس والتطلع إلى الجاه العلمي الرفيع
والسمعة العالية مرض وييل يحيل العمل من الصلاح إلى الفساد،
فكان هذا الإمام حصيف الرأي سديد الفكر حينما التزم بالقراءة من
كتابه مع كونه يحفظ مافيه .

من أخبار محمد اليونيني رحمه الله :

ومن أمثلة استيعابهم دقائق مافي كتب السنة مذكره الحافظ ابن
رجب نقلا عن الحافظ الذهبي قال : ولما قدم الملك الكامل على أخيه
الأشرف جعل الأشرف يذكر للكامل محاسن الشيخ الفقيه^(٣) فقال :
أشتهي أن أراه ، فأرسل إليه إلى بعلبك بطاقة فاستحضره ، فوصل إلى

(١) طبقات الخنابلة ٧/٤ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٤٤٩/٢١ .

(٣) هو أبو عبد الله تقي الدين محمد بن أحمد السيوني ، والكامل هو محمد بن محمد
الأيوبي ، والأشرف هو موسى بن محمد الأيوبي .

دمشق، فنزل الكامل إليه وتحادثا بدار السعادة وتذاكرا شيئاً من العلم .
فذكروا مسألة القتل بالمثل ، وجرى ذكر حديث الجارية التي
قتلها اليهودي فرضاً رأسها بين حجرين فأمر رسول الله ﷺ بقتله ،
فقال الملك الكامل : إنه لم يعترف ، فقال الشيخ الفقيه : في صحيح
مسلم « فاعترف » فقال الكامل : أنا اختصرت صحيح مسلم ولم
أجد هذا فيه ، فقال : بلى ، فأرسل الكامل فأحضر اختصاره لمسلم
في خمسة مجلدات ، فأخذ الكامل مجلداً والأشرف آخر وعماد
الدين بن موسك آخر ، وأخذ الشيخ الفقيه مجلداً ، فأول ما فتحه
وجد الحديث كما قال : فتعجب الكامل من سرعة استحضاره وسرعة
كشفه ، وأراد أن يأخذه معه إلى الديار المصرية ، فأرسله الأشرف
سريعاً إلى بعلبك ، فقال الكامل : إنه لا يؤثر بعلبك شيئاً ، فأرسل
الكامل إليه ذهباً كثيراً (١) .

فهذا مثال على اهتمام العلماء الكبير بالسنة ، فقد كانوا يعلمون
محتويات كتبها ومواضع الأحاديث فيها لكثرة اشتغالهم بها .
وموقف يُذكر للأمير الكامل وأخيه الأشرف لاهتمامهما بالعلماء ،
كما يُذكر للكامل اهتمامه بالسنة الذي دفعه إلى اختصار صحيح مسلم
مما يدل على صلاحه .

* * *

(١) طبقات الحنابلة ٢٧١/٤ .

مواقف وعبد

في

معاناة المشقة

هذا الموضوع يدور حول عرض صور من مواقف العلماء رحمهم الله تعالى في الصبر الجميل على ألوان الشدة والمعاناة التي واجهوها في أثناء طلب العلم .

موقف للحافظ أبي حاتم رحمه الله :

من ذلك ما ذكره الحافظ عبد الرحمن بن أبي حاتم قال : سمعت أبي يقول : بقيتُ بالبصرة في سنة أربع وعشرين ومائتين ثمانية أشهر ، وكان في نفسي أن أقيم سنة ، فانقطعتُ نفقتي فجعلت أبيع ثياب بدني شيئاً بعد شيء حتى بقيت بلا نفقة ، ومضيت أطوف مع صديق لي إلى المشيخة ، وأسمع منها إلى المساء ، فانصرف رفيقي ورجعت إلى بيت خال ، فجعلت أشرب الماء من الجوع ، ثم أصبحت من الغد وغدا عليّ رفيقي فجعلت أطوف معه في سماع الحديث على جوع شديد ، فانصرف عني وانصرفت جائعا ، فلما كان من الغد غدا عليّ فقال : مُرُّ بنا إلى المشايخ ، قلت : أنا ضعيف لا يمكنني ، قال : ماضعفك ؟ قلت : لا أكتمك أمري قد مضى عليّ يومان ما طعمت فيهما شيئاً ، فقال لي : قد بقي معي دينار فأنا أواسيك بنصفه ونجعل النصف الآخر في الكراء ، فخرجنا من البصرة ، وقبضت منه النصف دينار (١) .

ففي هذا الخبر نجد أن الحافظ أبا حاتم محمد بن إدريس الرازي يصبر على حر الجوع من أجل طلب العلم ، وقد كان بإمكانه أن

(١) الجرح والتعديل ١/ ٣٦٣ - ٣٦٤ .

يعمل بعض الوقت في طلب الرزق ولكنه لا يريد أن يصرف شيئاً من وقته في غير العلم .

ولنجِد في هذا الخبر صورة من التراحم والتعاطف والأخوة الصادقة بين طلاب العلم ، فقد كان صاحبه لا يملك غير دينار واحد فأعطاه نصفه وجعل النصف الآخر لأجرة انتقالهما إلى بغداد .

موقف آخر لأبي حاتم وصاحبيه رحمهما الله :

ومن صور هذه المعاناة ماذكر أيضاً عن عبد الرحمن بن أبي حاتم قال : سمعت أبي يقول : لما خرجنا من المدينة من عند داود الجعفري صرنا إلى الجار ^(١) وركبنا البحر وكنا ثلاثة أنفس ، أبوزهير المُرُورُودي - شيخ - وآخر نيسابوري ، فركبنا البحر وكانت الرياح في وجوهنا فبقينا في البحر ثلاثة أشهر ، وضائق صدورنا ، وفني ماكان معنا من الزاد ، وبقيت بقية ، فخرجنا إلى البر فجعلنا نمشي أياماً حتى فني ماكان معنا من الزاد والماء ، فمشينا يوماً وليلة لم يأكل أحد منا شيئاً ولا شربنا ، واليوم الثاني كمثل ، واليوم الثالث ، كل يوم نمشي إلى الليل فإذا جاء المساء صلينا وألقينا بأنفسنا حيث كنا ، وقد ضعفتُ أبداننا من الجوع والعطش والعياء ، فلما أصبحنا اليوم الثالث جعلنا نمشي على قدر طاقتنا ، فسقط الشيخ مغشياً عليه ، فجئنا نحركه وهو لا يعقل فتركناه ومشينا أنا وصاحبي النيسابوري قدر فرسخ أو فرسخين فضعفتُ وسقطتُ مغشياً علي ، ومضى صاحبي وتركني ، فلم يزل هو يمشي إذ بصر من بعيد قوما قد قربوا سفيتهم من البر ، ونزلوا

(١) يعني ما قرب من المنازل من الساحل (اللسان) .

على بئر موسى ﷺ ، فلما عاينهم لَوْحٌ بثوبه إليهم فجاءوه معهم الماء في إداوة فسقوه وأخذوا بيده فقال لهم : الحقوا رفيقين لي قد ألقيا بأنفسهما مغشيا عليهما .

فما شعرت إلا برجل يصب الماء على وجهي ففتحت عيني ، فقلت : اسقني فصب من الماء في ركوة أو مشربة شيئاً يسيراً فشربت ورجعتُ إلي نفسي ولم يُروني ذلك القدر ، فقلت : اسقني فسقاني شيئاً يسيراً وأخذ بيدي ، فقلت : ورائي شيخ مُلَقَى ، قال : قد ذهب إلى ذاك جماعة ، فأخذ بيدي وأنا أمشي أجر رجلي ، ويسقيني شيئاً بعد شيء ، حتى إذا بلغت إلى عند سفينتهم وأتوا برفيقي الثالث الشيخ ، وأحسنوا إلينا ، فبقينا أياماً حتى رجعت إلينا أنفسنا .

ثم كتبوا لنا كتاباً إلى مدينة يقال لها « رايه » إلى واليهم ، وزودونا من الكعك والسويق والماء ، فلم نزل نمشي حتى نفذ ماكان معنا من الماء والسويق والكعك ، فجعلنا نمشي جياعاً عطاشاً على شط البحر ، حتى وقعنا إلى سلحفاة قد رمى بها البحر مثل الترس ، فعمدنا إلى حجر كبير فضربنا على ظهر السلحفاة فانفلق ظهرها ، وإذا فيها مثل صفرة البيض ، فأخذنا من بعض الأصداف الملقى على شط البحر ، فجعلنا نغترف من ذلك الأصفر فنتحسّاه حتى سكن عنا الجوع والعطش .

إلى أن ذكر وصولهم إلى مدينة الراية ، وإكرام عاملها إياهم ثم وصولهم إلى مصر (١) .

(١) الجرح والتعديل ١/ ٣٦٤ - ٣٦٦ .

وهكذا تعرّض أبو حاتم وصاحباؤه للموت مرتين وتحملوا تلك الشدائد والأهوال من أجل طلب العلم ، وإن علماً يحصل بسببه هذا البلاء الكبير لابد أن يرسخ في الأذهان ، وأن يهتمّ به أصحابه اهتماماً بالغاً ، فقد كان ثمنه باهظاً ، بخلاف العلم الذي تُيسر أسبابه فقد يهون على أصحابه .

موقف لمحمد بن طاهر رحمه الله :

ومن أخبار المعاناة في طلب العلم ما روي عن الإمام محمد بن طاهر أنه قال : أقمت بتّيس مدة على أبي محمد بن الحداد ونظرائه^(١) فضاق بي فلم يبق معي غير درهم ، وكنت أحتاج إلى خبز وكاغد^(٢) ، فترددت في صرفه في الخبز أو الكاغد أو الخبز ، ومضى على هذا ثلاثة أيام لم أطعم فيها ، فلما كان بكرة اليوم الرابع قلت في نفسي : لو كان لي اليوم كاغد لم يمكنني أن أكتب من الجوع ، فجعلت الدرهم في فمي وخرجت لأشتري خبزا فبلعته ، ووقع عليّ الضحك ، فلقيني صديق وأنا أضحك ، فقال : ما أضحكك ؟ قلت : خير ، فألح عليّ وأبيت أن أخبره ، فحلف بالطلاق لتصدقني ، فأخبرته فأدخلني منزله وتكلف أطعمة ، فلما خرجنا لصلاة الظهر اجتمع به بعض وكلاء عامل تّيس ابن قادوس ، فسأله عني ، فقال : هو هذا ، فقال : إن صاحبي منذ شهر أمر بي أن أوصل إليك كل يوم عشرة دراهم قيمتها ربع دينار ، وسهوت عنه ، فأخذ منه ثلاثمائة وجاء بها^(٣) .

(١) يعني ليتعلم منهم العلم .

(٢) أي ورق .

(٣) سير أعلام النبلاء ٣٦٧/١٩ .

فهذا مثل من المعاناة الشديدة من أجل مواصلة التعلم ، وصورة مشرقة من التكافل بين الإخوة ، والشعور البالغ بمشاعر الأصدقاء والإسراع في نجدة المعوزين ممن أخذ العلم كل أوقاتهم وحال بينهم . وبين القوت الضروري فضلا عن لذيد العيش . وفيه صورة من صور الفرج بعد الشدة ، ومأحلى وقع ذلك على نفس المهموم الذي تنازع قلبه طموح مهيمن نحو بلوغ الكمال في العلم ، وضرورة ملحة نحو تلبية الاحتياجات الضرورية .

موقف للإمام أبي القاسم الطبراني رحمه الله :

ومن أمثلة المعاناة التي مر بها العلماء أثناء طلب العلم ما ذكره أبو بكر بن أبي علي قال : سأل أبي أبا القاسم الطبراني عن كثرة حديثه فقال : كنت أنام على البواري ثلاثين سنة (١) .

وهكذا يكون طلب العلم ، ثلاثون سنة ينال الإمام أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني على الحُصْر الصلابة بدون فراش ، ويجتزئ بالقليل من الطعام كما هو المعتاد في حياتهم .

وبهذا الصبر الطويل نالوا تلك الدرجة من الحفظ والإتقان والعلم الغزير .

من مواقف الحافظ ابن منده رحمه الله :

ومن الصعوبات التي كان يواجهها أهل العلم مشقة نقل كتبهم من بلد لآخر، ومما روي في هذا الموضوع ما ذكره الحافظ يحيى بن عبد الوهاب قال: كنت مع عمي عبيد الله في طريق نيسابور، فلما بلغنا بئر

(١) سير أعلام النبلاء ١٢٢/١٦ ، والبواري هي الحصر المنسوجة من القصب .

مَجَنَّةً قال عمي : كنت ههنا مرة فعرض لي شيخ جَمَّال ، فقال : كنت قافلا من خراسان مع أبي فلما وصلنا إلى هاهنا إذا نحن بأربعين وقرا من الأحمال، فظننا أنها منسوج الثياب، وإذا خيمة صغيرة فيها شيخ فإذا هو والدك^(١)، فسأله بعضنا عن تلك الأحمال، فقال: هذا متاع قل من يرغب فيه في هذا الزمان هذا حديث رسول الله ﷺ^(٢).

وهكذا كان العلماء في كل زمن يتكلفون حمل كتبهم من بلد لآخر، وإن مما يضاعف مسئوليتهم أن بضاعتهم ثقيلة المحمل، وتحتاج إلى صيانة دائمة من الماء والآفات .

ولقد كان غالب ما يحمله العلماء هو من كتبهم التي جمعوا مادتها ورتبوها ، وليست من الكتب التي اقتنوها فقط كما هو الحال في العصور المتأخرة التي شغف بعض أهل العلم فيها بجمع الكتب واقتنائها ، وقلما يستوعبون القليل منها .

موقف للإمام أبي المظفر السمعاني رحمه الله :

ومن ذلك ما روي عن الإمام أبي المظفر السمعاني أنه حج على البرية أيام انقطع الركب ، فأخذ هو وجماعة ، فصبر إلى أن خلصه الله من الأعراب ، وحج وصحب الزنجاني ، كان يقول : أسرونا، فكنت أرعى جمالهم فاتفق أن أميرهم أراد أن يزوج بنته فقالوا: نحتاج إلى أن نرحل إلى الحضر لأجل من يعقد لنا ، فقال رجل منا: هذا الذي يرعى جمالكم فقيه خراسان ، فسألوني عن أشياء فأجبتهم

(١) يعني الحافظ محمد بن إسحاق ابن منده والد عبد الوهاب وعبيد الله .

(٢) سير أعلام النبلاء ٣٧/١٧ .

وكلمتهم بالعربية فخرجوا واعتذروا ، فعقدت لهم العقد وقلت الخطبة
ففرحوا ، وسألوني أن أقبل منهم شيئاً فامتنعت ، فحملوني إلى مكة
وسط العام (١) .

وهكذا تكون الأحوال العجيبة ، فأناس يهبون أنفسهم لنفع الأمة
وإصلاحها بجمع العلم النافع ونشره . . وأناس يعتدون على هؤلاء
المصلحين فيسترقونهم ويحولونهم إلى خدم لهم ، ويحولون بينهم وبين
إكمال رسالة الإصلاح التي وهبوا أنفسهم لها وتحملوا من أجلها
المشاق والأخطار والمهالك . . ولله في خلقه شؤون .

ويشاء الله تعالى أن يُخرج أولئك الأعراب إلى فقيه يعقد لهم
الزواج . . ويكتشفون أن من ولّوه رعي جمالهم هو فقيه خراسان أبو
المظفر منصور بن محمد السمعاني ويكون ذلك سبب خلاصه منهم
بعدما صيروه عبداً لهم وصبر واحتسب أجره عند الله تعالى .

موقف للإمام أبي عبد الله البخاري رحمه الله :

ومن هذه الأمثلة ما ذكره محمد بن أبي حاتم قال : سمعت
البخاري يقول : خرجت إلى آدم بن أبي إياس فتخلفت عني نفقتي
حتى جعلت أتناول الحشيش ، ولا أخبر بذلك أحداً ، فلما كان اليوم
الثالث أتاني آتٍ لم أعرفه فناولني صرة دنانير ، وقال : أنفق على
نفسك (٢) .

لقد كان بإمكان أبي عبد الله البخاري أن يشغل نفسه بأمور

(١) سير أعلام النبلاء ١١٥/١٩ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٤٤٨/١٢ .

الدنيا ، ولو فعل ذلك لبلغ فيها حد التفوق لفرط ذكائه وقوة حافظته ، ولم يضطر نفسه إلى أكل طعام البهائم لتفرغه لطلب العلم .
ولقد منَّ الله تعالى عليه بَمَنْ واساه من غير أن يعلم من هو ، وهو خير ساقه الله سبحانه إليه ليستمر في طلب العلم .
من مواقف الإمام محمد بن يحيى الذهلي رحمه الله :

ولقد كان أهل اليسار من طلاب العلم ينفقون أموالا كثيرة على طلب العلم ، يقول الإمام محمد بن يحيى الذهلي حافظ خراسان :
ارتحلت ثلاث رحلات ، وأنفقت على العلم مائة وخمسين ألفا (١) .
وهكذا كانوا ينفقون أموالهم في طلب العلم لأنهم يعلمون أنهم -
وهم في طلب العلم - في عمل صالح إذا صلحت النية ، ثم يستمرون في اكتساب العمل الصالح عند نشر العلم .
من مواقف حجاج بن يوسف رحمه الله :

ومن أمثلة اكتفائهم بالقليل من الطعام والتفرغ لطلب العلم ما روي عن حجاج بن يوسف المعروف بابن الشاعر أنه قال : جمعت لي أمة مائة رغيف فجعلتها في جراب ، وانحدرت إلى " شبابة " بالمداين فأقمت ببابه مائة يوم ، كل يوم أجيء برغيف فأغمسه في دجلة فأكله ، فلما نفذ خرجت (٢) .

فهذا الخبر يحكي لنا صورة من التقشف والزهد الذي كان فيه طلاب العلم في العصور الأولى ، فهذا العالم كان طوال تلك المدة

(١) سير أعلام النبلاء ١٢ / ٢٨٣ .

(٢) تاريخ بغداد ٨ / ٢٤٠ .

التي كان يأخذ فيها الحديث في المدائن ليس له زاد إلا ذلك الخبز الذي يكتفي منه بمرة واحدة في اليوم ، وليس له إدام إلا ماء نهر دجلة .

إن هذا اللون من الزهد هو الذي منح أولئك العظماء فراغ البال وصفاء الذهن والاستعداد الجيد للاستيعاب وسرعة التذكر ، فالواحد منهم لا يفكر في أمر المعاش وإنما يحصر فكره كاملاً فيما يتلقاه من علم .

وبهذا الفراغ الذهني الكبير حصل عظماء العلماء على ما حصلوا عليه من العلم الواسع والفهم الثاقب .

خبر المحمدين الأربعة في مصر رحمهم الله :

ومن الأمثلة الرائعة لصبر طلاب العلم على الشدائد ماروي عن أبي العباس البكري قال : جمعت الرحلة بين محمد بن جرير ، ومحمد بن إسحاق بن خزيمة ، ومحمد بن نصر المروزي ، ومحمد بن هارون الروياني بمصر ، فأرملوا ولم يبق عندهم ما يقوتهم ، وأضر بهم الجوع ، فاجتمعوا ليلة في منزل كانوا يأوون إليه ، فاتفق رأيهم على أن يستهيموا ويضربوا القرعة ، فمن خرجت عليه القرعة سأل لأصحابه الطعام ، فخرجت القرعة على محمد بن إسحاق بن خزيمة ، فقال لأصحابه : أمهلوني حتى أتوضأ وأصلي صلاة الخيرة ، قال : فاندفع في الصلاة فإذا هم بالشموع ، وخَصِيٍّ من قبل والي مصر يدق الباب ، ففتحوا الباب فنزل عن دابته ، فقال : أيكم محمد بن نصر؟ فقيل : هو هذا ، فأخرج صرة فيها خمسون دينارا فدفعها إليه ، ثم قال : أيكم محمد بن جرير ؟ فقالوا : هو ذا ، فأخرج صرة فيها خمسون دينارا

فدفعها إليه ، ثم قال : أيكم محمد بن هارون ؟ فقالوا : هو ذا ، فأخرج صرة فيها خمسون ديناراً فدفعها إليه ، ثم قال : أيكم محمد ابن إسحاق بن خزيمة ؟ فقالوا : هو ذا يصلي ، فلما فرغ دفع إليه الصرة وفيها خمسون ديناراً .

ثم قال : إن الأمير كان قاتلاً بالأمس فرأى في المنام خيلاً قال : إن المحامد طَوْراً كَشَحَّهم جِيعاً ، فأنفذ إليكم هذه الصُّرارَ ، وأقسَمَ عليكم : إذا نفدت فابعثوا إليَّ أمدَّكم (١) .

وهكذا كانت حياة هؤلاء العلماء الكبار أيام الطلب ، يجوعون مرة ويشبعون أخرى ، ويكون آخر همهم الطعام ، ولذلك لم يكونوا يدخرون منه ما يكفيهم لمدة طويلة .

ولقد كان اجتماع همهم على العلم من أكبر العوامل المساعدة في حصولهم على ذلك الكم الكبير من المرويات في العلم مع الإتقان .

ولقد اشتمل هذا الخبر على كرامة من الله تعالى لأولئك العلماء الأولياء حيث رأى أمير مصر في المنام من يخبره بشأنهم .

موقف لأبي الفضل العجلي رحمه الله :

ومن أمثلة ذلك ما ذكره الخلال قال : كان أبو الفضل (٢) في طريق ومعه خبز وفانيذ (٣) فأراد قُطَّاع الطريق أخذه منه فدفعهم بعصاه ، فقبل له في ذلك ، فقال : لأنه كان حلالاً وربما كنت لأجد مثله .

(١) تاريخ بغداد ٢/ ١٦٤ - ١٦٥ .

(٢) يعني الإمام عبد الرحمن بن أحمد العجلي (ابن بندار) .

(٣) نوع من الحلواء يعمل بالنشاء .

ودخل « كرمـان » في هيئة رثة وعليه أخلاق وأسمال^(١)، فحُمِلَ إلى الملك ، وقالوا : جاسوس ، فقال الملك : ما الخبر ؟ قال : تسألني عن خبر الأرض أو خبر السماء ؟ فإن كنت تسألني عن خبر السماء ف﴿ كل يوم هو في شأن ﴾ [الرحمن: ٢٦] وإن كنت تسألني عن خبر الأرض ف﴿ كل من عليها فان ﴾ [الرحمن: ٢٦] فتعجب الملك من كلامه وأكرمه وعرض عليه مالا فلم يقبله (٢) .

وهكذا تعرض أبو الفضل العجلي رحمه الله تعالى لهجوم اللصوص فدافع عما معه من الطعام خشية أن لا يجد طعاما خاليا من الشبهات ، وكانوا عادة يتزودون بالخبز اليابس من بلادهم ، وهذا دليل على ورعه البالغ ، وقد لامه بعض من علم بذلك لأن دفاعه عن ذلك الطعام قد يوهم اللصوص بأنه شيء غالي الثمن، وربما لو علم اللصوص بحقيقة ذلك لزهّدوا فيه كثيرا، ولكن هؤلاء جميعا لا يدركون المعنى الكبير الذي أحال ذلك الطعام الذي لا يلفت انتباههم إلى شيء ذا قيمة كبرى عند الشيخ وفي غاية الأهمية .

وقد جلب عليه زهده في اللباس بعض المتاعب، حيث اتُّهم بالجاسوسية وقُبض عليه، وتعرض لمساءلة ذلك الملك الذي كان عاقلا أربيا فعرف منزلة الشيخ فأكرمه .

وموقف أخير في العفة والقناعة حيث لم يقبل هذا الشيخ هبة ذلك الملك ، فأبان له ولغيره أن بساطة مظهره ليست لفقره وإنما هي لزهده في الدنيا .

(١) الأخلاق هنا الثياب القديمة ، والأسمال الثياب البالية .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٣٨/١٨ .

من مواقف الحافظ ابن عساكر رحمه الله :

ومن أمثلة الجد والدأب في طلب العلم وتحصيله ما ذكره ابن القزويني عن والده مدرس النظمية قال: حكى لنا الفراوي^١ قال: قدم علينا ابن عساكر فقرأ عليّ في ثلاثة أيام فأكثر فأضجرتني وآليت أن أغلق بابي وأمتنع ، جرى هذا خاطر لي بالليل ، فقدم من الغد شخص فقال : أنا رسول رسول الله ﷺ إليك ، رأيته في النوم فقال: امض إلى الفراوي وقل له : إن قَدِمَ بلدكم رجل من أهل الشام أسمر يطلب حديثي فلا يأخذك منه ضجر ولا ملل ، قال: فما كان الفراوي يقوم حتى يقوم الحافظ أولا (١) .

فهذا مثل على جد الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن ابن عساكر واجتهاده في تحصيل العلم وجمعه من أقطار الدنيا، فهو لا يمل ولا يسأم من طلب العلم وتدوينه لأنه وهب نفسه للعلم وجعله قضيته الكبرى التي تشغل باله ووقته ، فهو لا يستريح إلا إذا قرأ أو سمع أو كتب .

ولقد كانت تلك الرؤيا الصالحة أقوى مساعد لهذا الحافظ الكبير على استخراج ما عند شيخه الفراوي ، فما أعظم قدر الحافظ ابن عساكر الذي يوصي به رسول الله ﷺ !

وكان عظيم الفرح بإنتاجه العلمي في خدمة سنة رسول الله ﷺ وآثار السلف الصالح ، يقول ولده أبو محمد القاسم بعد أن ذكر رحلات أبيه ورحلات زملائه الذين اعتمد عليهم في تحصيل ما لم يستطع الرحلة إليه . . يقول ولده : وأقبل على تلك الكتب فنسخ

(١) سير أعلام النبلاء ٥٦٥/٢٠ .

واستنسخ وقابل ، وبقي من مسموعاته أجزاء نحو الثلاثمائة فأعانه عليها أبو سعد السمعاني ، فنقل إليه منها جملة حتى لم يبق عليه أكثر من عشرين جزءاً ، وكان كلما حصل له جزء منها كأنه قد حصل على ملك الدنيا (١) .

وهكذا تكون فرحة العالم بالحصول على مايريده من العلم ومايقدمه من إنتاج علمي .

لقد ظل هذا العالم الجليل أكثر عمره يجمع العلم حتى استطاع أن يحدث به وأن يدونه في كتبه التي أبرزها « تاريخ دمشق » الذي يعتبر من أعظم دواوين الإسلام .
موقف حنبل بن عبد الله رحمه الله :

ومن أمثلة تضحيات العلماء في سبيل العلم ابتغاء وجه الله تعالى ماذكره ابن الأَثير من أنه لما سمع مسند الإمام أحمد من الشيخ حنبل بن عبد الله أشار عليه (٢) بالسفر إلى الشام وقال له : يحصل لك مال ويُقبل عليك وجوه الناس ورؤساؤهم ، فقال : دعني ، فوالله ماأسافر لأجلهم ولا لما يحصل منهم ، وإنما أسافر خدمة لرسول الله ﷺ أروي أحاديثه في بلد لا تُروى فيه .

وكان حنبل فقيراً جداً كما ذكر أبو شامة (٣) .

وهكذا أبدى هذا العالم الجليل استعدادَه للسفر من العراق إلى

(١) سير أعلام النبلاء ٥٦٦/٢٠ .

(٢) أي أشار ابن الأَثير على حنبل .

(٣) سير أعلام النبلاء ٤٣٢/ ٢١ - ٤٣٣ .

الشام من أجل رواية سنة رسول الله ﷺ وهو لا يريد من وراء ذلك مالا ولا جاها مع شدة فقره ، وإن هذا لهو شرف الدنيا والآخرة .

وكان حنبل قد سمع مسند الإمام أحمد كاملا ، يقول عن نفسه : لما وُلِدْتُ مضى أبي إلى الشيخ عبد القادر الجيلي وقال له : قد ولد لي ابن ما أسميه ؟ قال : سمّه حنبل ، وإذا كبر سمّعه مسند أحمد بن حنبل ، قال : فسمّاني كما أمره ، فلما كبرت سمّني المسند وكان هذا من بركة مشورة الشيخ (١) .

ومن هذا نستفيد أنه ينبغي إعداد الأبناء منذ صغرهم للطموح نحو معالي الأمور ، والإيحاء إليهم بذلك شيئا فشيئا حتى يستقر ذلك في أذهانهم .

فهذا عبد الله والد حنبل قد أخذ بمشورة العالم الرباني عبد القادر الجيلاني فسمى ابنه حنبلا ، وحمل في ذهنه الرصيدة الثانية وهي أن يسمّعه إذا كبر مسند الإمام أحمد بن حنبل .

ومن الطبيعي أنه كلما سئل عن سبب التسمية ذكر ذلك حتى استقر في ذهن الغلام ومن حوله أنه سيصل إلى ذلك الشرف الكبير ، وقد كان ذلك دافعا قويا له للوصول إلى هذا الهدف العالي .

ومما هو غني عن البيان أن الوصول إلى هذا الهدف يحتاج إلى المقدمات المعروفة من إتقان القرآن واللغة العربية ، والدخول في سلك أهل العلم والتخلق بأخلاقهم .

وهكذا ينبغي اختيار التسمية بأسماء العظماء المشاهير ، وتركيز

(١) سير أعلام النبلاء ٢١ / ٤٣٢ .

التربية من الصغر على الاقتداء بهم ، ومحاولة القيام بوجوه الإصلاح التي قاموا بها .

من مواقف أبي الوقت عبد الأول السجزي رحمه الله :

من ذلك ما ذكره يوسف بن أحمد الشيرازي قال : لما رحلت إلى شيخنا رَحَلَةَ الدنيا (١) ومُسْنَدِ العصر أبي الوقت (٢) قَدَّرَ الله لي الوصول إليه في آخر بلاد كرمان فسلمت عليه وقبَّلته وجلست بين يديه ، فقال لي : ما أقدمك هذه البلاد ؟ قلت : كان قصدي إليك ، ومُعَوَّلِي بعد الله عليك وقد كتبت ما وقع إليَّ من حديثك بقلمي ، وسعيت إليك بقدمي لأدرك بركة أنفاسك ، وأُحْظَى بعلو إسنادك .

فقال : وفقك الله وإيانا لمرضاته وجعل سعينا له وقصدنا إليه ، لو كنتَ عرفتني حق معرفتي لما سلَّمت عليَّ ، ولا جلست بين يدي ، ثم بكى بكاء طويلا ، وأبكى من حضر ، ثم قال : اللهم استرنا بسترِكَ الجميل ، واجعل تحت الستر ما ترضى به عنا ، يا ولدي تَعَلَّمْ أَنِّي رحلت أيضا لسماع الصحيح ماشيا مع والدي من " هراة " إلى الداوودي ببوشنج ولي دون عشر سنين ، فكان والدي يضع على يدي حجرتين ، ويقول : احملهما ، فكنت من خوفه أحفظهما بيدي ، وأمشي وهو يتأملني فإذا رآني قد عييت أمرني أن ألقى حجرا واحدا ، فألقي ويخف عني ، فأمشي إلى أن يتبين له تعبني فيقول لي : هل عييت ؟ فأخافه وأقول : لا ، فيقول : لِمَ تقصِّر في المشي ؟ فأسرع بين يديه

(١) يعني كثير الرحلات .

(٢) هو الإمام الزاهد عبد الأول بن المحدث أبي عبد الله عيسى السجزي .

ساعة ثم أعجز ، فيأخذ الآخر فيلقيه ، فأمشي حتى أعطب ، فحينئذ كان يأخذني ويحملني ، وكنا نلتقي جماعة الفلاحين وغيرهم فيقولون : ياشيخ عيسى ادفع إلينا هذا الطفل نركبه وإياك إلى بوشنج ، فيقول : معاذ الله أن نركب في طلب أحاديث رسول الله ﷺ ، بل نمشي وإذا عجز أركبته على رأسي إجلالا لحديث رسول الله ﷺ ورجاء ثوابه ، فكان ثمرة ذلك من حسن نيته أنني انتفعت بسماع هذا الكتاب وغيره ، ولم يبق من أقراني أحد سواي حتى صارت الوفود ترحل إلي من الأمصار .

ثم أشار إلى صاحبنا عبد الباقي بن عبد الجبار الهروي أن يُقدم لي حلواء فقلت : ياسيدي قراءتي لجزء أبي الجهم أحب إليّ من أكل الحلواء ، فتبسم وقال : إذا دخل الطعام خرج الكلام وقدم لنا صحنا فيه حلواء الفانيذ ، فأكلنا .

وأخرجت الجزء وسألته إحضار الأصل فأحضره وقال : لا تخف ولا تحرص فإنني قد قبرتُ ممن سمع عليّ خلقًا كثيرًا ، فسل الله السلامة ، فقرأت الجزء وسررت به ، ويسر الله سماع الصحيح وغيره مرارا ، ولم أزل في صحبته وخدمته إلى أن توفي ببغداد في ليلة الثلاثاء من ذي الحجة ودفناه بالشونيزية ، قال لي : تدفني تحت أقدام مشايخنا بالشونيزية .

ولما احتضر سنده إلى صدري وكان مُسْتَهْتَرًا بالذكر (١) فدخل عليه محمد بن القاسم الصوفي ، وأكبَّ عليه وقال : ياسيدي قال

(١) أي مولعًا به .

النبي ﷺ « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة » فرفع طرفه إليه وتلا ﴿ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿ [يس: ٢٦، ٢٧] فدهش إليه هو ومن حضر من الأصحاب ، ولم يزل يقرأ حتى ختم السورة ، وقال : الله الله الله ، وتوفي وهو جالس على السجادة (١) .

في هذا الخبر الجليل مواقف :

أولها : ذلك الإحساس المرهف من هذا العالم الرباني ، فحينما أثنى عليه يوسف الشيرازي وأظهر له الاحترام البالغ والتقدير الكبير بكى من خشية الله تعالى وأظهر التواضع بلوم النفس وتحقيرها .

إن العبد الذي يرزقه الله تعالى البصيرة واليقين يتذكر حال سماع الثناء عليه ورؤية مظاهر احترامه عظمة الله سبحانه ، ووقوف العباد بين يديه يوم القيامة ، وعرض الأعمال عليه ، فيتجسم في خاطره ما يُخِيلُ إليه أنه جنوح نحو معصية أو تقصير في طاعة ، وتتضاءل لديه كل أعماله الصالحة ، فيعبر عن ذلك بالبكاء الذي يعتبر مظهرًا للضغوط الداخلية ، التي مبعثها الخوف من الله تعالى وخشيته .

وهكذا بكى هذا الشيخ الجليل وأبكى من حوله ، وأعطى ببكائه درساً بليغاً في التواضع واتهام النفس وحضور القلب مع الله تعالى وتعظيمه وتقديره حق قدره .

وقد ذكر أبو الوقت شيئاً مما مر عليه من المعاناة أثناء طلب العلم ، وكيف كان أبوه يأخذه بذلك التدريب الرياضي الصعب ، وقد كان أبوه

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/٣٠٧ - ٣٠٩ .

الشيخ عيسى السجزي مربيا حكيما صارما في تربيته ، وكان من آثار تلك التربية الرياضية الصارمة أن أبنه تعود من صغره على الخشونة وتحمل الشدائد ، كما أنه قد شعر بأهمية ذلك الأمر العظيم الذي توجه إليه ، ألا وهو تعلم السنة النبوية ، لأنه إنما حمل هذه السنة الشريفة بألوان من المشقة والمعاناة ، وما يحصل للإنسان بصعوبة بالغة فإنه جديرٌ به أن يحتفظ به ، حتى لو كان من أمر الدنيا ، فكيف به وهو من أمر الآخرة .

ولفته كريمة من الشيخ عيسى السجزي حيث استعاذ بالله تعالى من أن يركب وهو ذاهب لسماع حديث رسول الله ﷺ ، وهذا يدل على اهتمامه البالغ بتعظيم السنة النبوية وتقدير قيمتها ، وبهذا الشعور القوي استفاد هو أمثاله من السنة النبوية فوائد عظيمة ، في سلامة الفكر والاستقامة في العمل .

من مواقف ابن طاهر القيسراني رحمه الله :

ومن أمثلة المعاناة في طلب العلم ما ذكره أبو مسعود عبد الرحيم الحاجي قال : سمعت ابن طاهر يقول : بُلْتُ الدَّم في طلب الحديث مرتين ، مرةً ببغداد ومرةً بمكة ، كنت أمشي حافيا في الحر فلحقني ذلك ، وماركبتُ دابةً قط في طلب الحديث وكنت أحمل كتبي على ظهري ، وما سألت في حال الطلب أحداً ، كنت أعيش على ما يأتي (١) .

فهذا مثل من التضحية بالراحة وأخذ النفس بركوب الصعاب

(١) تذكرة الحفاظ ص ١٢٤٣ ج ٤ .

وتحمل الشدائد من أجل طلب العلم ، وعلى قدر أهل العزم تأتي
العزائم .

فلقد أصبح محمد بن طاهر ابن القيسراني من كبار العلماء
المحدثين .

من مواقف الإمام عبد القادر الجيلاني رحمه الله :

ومن أخبار المعاناة التي مر بها العلماء في مرحلة طلب العلم
ما ذكره ابن النجار قال : قرأت بخط أبي بكر عبد الله بن نصر بن
حمزة التيمي : سمعت الشيخ عبد القادر ^(١) يقول : بلغت بي
الضائقة في الغلاء إلى أن بقيت أياما لا أكل طعاما ، بل اتبع
المنبذات ، فخرجت يوما إلى الشط فوجدت قد سبقني الفقراء ،
فضعفت وعجزت عن التماسك فدخلت مسجدا وقعدت وكدت
أصافح الموت ، ودخل شاب أعجمي ومعه خبز وشواء وجلس يأكل ،
فكنت أكاد كلما رفع لقمة أن أفتح فمي ، فالتفت فرآني فقال : بسم
الله ، فأبيت ، فأقسم علي ، فأكلت مقصّرا ، وأخذ يسألني ،
ما شغلك ومن أين أنت ؟ فقلت : متفقه من جيلان ، قال : وأنا من
جيلان ، فهل تعرف لي شابا جيلانيا اسمه عبد القادر يُعرف بسبط أبي
عبد الله الصومعي الزاهد ؟ فقلت : أنا هو ، فاضطرب لذلك وتغير
وجهه ، وقال : والله يا أخي لقد وصلت إلى بغداد ومعني بقية نفقة
لي ، فسألت عنك فلم يرشدني أحد إلى أن نفدت نفقتي ، وبقيت
بعدها ثلاثة أيام لا أجد ثمن قوتي إلا من مالك ، فلما كان هذا اليوم

(١) هو الإمام أبو محمد عبد القادر الجيلاني .

الرابع قلت : قد تجاوزتني ثلاثة أيام وحلَّت لي الميَّة ، فأخذت من وديعتك ثم هذا الخبز والشواء ، فكل طيبا فإنما هو لك وأنا ضيفك الآن، فقلت: وماذا؟ قال : أمك وجهَّتْ معي ثمانية دنانير والله ماخنتك فيها إلى اليوم ، فسكَّنته وطَيَّبْتُ نفسه ، ودفعت إليه شيئا منها (١) .

وهكذا تعرَّض هذا العالم الرباني للجوع الشديد أثناء طلب العلم، وحصلتْ له هذه القصة العجيبة مع ذلك الشاب الجيلاني الذي ساقه الله تعالى إليه في وقت اشتداد الأزمة ، وكان ذلك الشاب أمينا حينما صبر على الجوع ثلاثة أيام ولم ينفق من الأمانة التي معه، كما كان الشيخ عبد القادر الجيلاني كريما سمحا حينما طيَّب نفس ذلك الشاب الذي حمل له تلك الأمانة وأعطاه منها .

وفي هذا الخبر مثل من لطف الله تعالى بعباده الصالحين حيث قدَّر وصول ذلك المبلغ بعدما أشرف صاحبه على الموت من غير أن يعلم به ولا أن يبحث عنه .

* * *

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/٤٤٤ - ٤٤٥ .

مواقف وعبد
في
الأدب العلمي

لقد بلغ علماء الإسلام القمة في الأدب العلمي ، وذلك في
المعاملة بين العلماء أنفسهم ، وبين العلماء وتلاميذهم .
ولقد كان الصحابة رضي الله عنهم قدوة الأمة في هذا الجانب
وغيره من معالي الأمور .

من مواقف عبد الله بن عباس رضي الله عنهما :

من مواقف الصحابة رضي الله عنهم في الأدب العلمي ما كان من
حبر الأمة وعالمها المدقق المفسر الفقيه المحدث عبد الله بن عباس رضي
الله عنهما ، وذلك في موقفه مع النبي ﷺ حينما صلى خلفه في
الليل ، يقول رضي الله عنه : صليت خلف النبي ﷺ من آخر الليل ،
فجعلني حذاءه ، فلما انصرف قلت : وينبغي لأحد أن يصلي حذاءك
وأنت رسول الله ؟ فدعا الله أن يزيدني فهما وعلماً (١) .

وهذا مثل من الأدب الذي كان يتصف به ابن عباس ، حيث
وصل بهذا الأدب إلى مراحل عالية من العلم بعد ذلك .

من أخبار طلاب العلم من التابعين رحمهم الله :

وكان العلماء يحافظون على آداب العلم ويهتمون بالتربية الخلقية ،
فكانوا يعلمون العلم والتربية في وقت واحد ، فكان طلاب العلم
آنذاك في غاية الأدب والأخلاق الحميدة .
ومن الأخبار في ذلك ما روي عن أبي حازم الأعرج سلمة بن

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٣٨ .

دينار المدني قال : لقد رأيتنا في مجلس زيد بن أسلم أربعين فقيها ،
أدنى خصلة فينا التواصي بما في أيدينا ، ومارأيت في مجلسه متمارين
ولامتنازعين في حديث لاينفعا (١) .

وإذا كان أدنى خصلة في هؤلاء الفقهاء أنهم قد ترفعوا عن الدنيا
فأصبحوا متواسين بما في أيديهم منها فكيف بالخصال التي هي أعلى
من هذه الخصلة العظيمة ؟
إنها ثمرات العلم النافع تظهر في التربية القويمة على الأخلاق
الحميدة .

من مواقف القاسم بن محمد رحمه الله :

من ذلك ماروى يونس بن بكير عن ابن إسحاق قال : رأيت
القاسم بن محمد يصلي فجاء أعرابي فقال : أيما أعلم أنت أم سالم ؟ (٢)
فقال : سبحان الله كل سيخبرك بما علم ، فقال : أيكما أعلم ؟
قال : سبحان الله ، فأعاد ، فقال : ذاك سالم ، انطلق فسأله ، فقام
عنه ، قال ابن إسحاق : كره أن يقول : أنا أعلم ، فيكون تزكية ،
وكره أن يقول : سالم أعلم مني فيكذب ، وكان القاسم أعلمهما (٣) .
والقاسم هو ابن محمد بن أبي بكر الصديق من أكابر العلماء في
عصره ، وأحد الفقهاء السبعة في المدينة .

(١) سير أعلام النبلاء ٣١٦/٥ .

(٢) يعني سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما أحد الفقهاء السبعة في
المدينة .

(٣) سير أعلام النبلاء ٥٦/٥ .

وهذا الخبر يدل على ورعه وتواضعه وأدبه العلمي رحمه الله تعالى .

من مواقف الإمام مالك رحمه الله :

فالإمام مالك بن أنس رحمه الله على عظمته وشهرته الواسعة في العلم يرفض ما عرضه عليه أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور من حمل الناس على مذهبه ، وفي ذلك يقول محمد بن عمر الواقدي رحمه الله : سمعت مالكا يقول : لما حج المنصور دعاني فدخلت عليه فحدثته ، وسألني فأجبته ، فقال : عزمت على أن آمر بكتبك هذه - يعني الموطأ - فتتسخ نسخا ، ثم أبعث إلى كل مصر من أمصار المسلمين بنسخة ، وأمرهم أن يعملوا بما فيها ويدعوا ماسوى ذلك من العلم المحدث ، فإني رأيت أن أصل العلم رواية أهل المدينة وعلمهم ، قلت : يا أمير المؤمنين لاتفعل فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل وسمعوا أحاديث ، ورووا روايات ، وأخذ كل قوم بما سيق إليهم ، وعملوا به ودانوا به ، من اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم ، وإن ردهم عما اعتقدوه شديد ، فدع الناس وماهم عليه وما اختار أهل كل بلد لأنفسهم ، فقال : لعمري لو طأعتني لأمرت بذلك (١) .

وهذا دليل على فقه مالك الدقيق ومعرفته البالغة بطبائع النفوس وما جبلت عليه من القناعة بما نشأت عليه من المفاهيم العلمية ، كما يدل على سعة نظره في تقدير آراء العلماء الاجتهادية وإن خالفت ماتقرر عنده .

(١) سير أعلام النبلاء ٧٠ / ٨ .

ولسعة إدراكه وتجرده من حظ النفس لم يسارع إلى اغتنام فرصة إقبال السلطان عليه ليحمل الناس على مذهبه، بل أبدى العذر لمخالفه بما سبق من اختلاف الصحابة رضي الله عنهم في الاجتهاد وانتشار فتاويهم في بلاد الإسلام .

ومن الوصايا النافعة في آداب العلم مارواه ابن وهب رحمه الله تعالى قال : سمعت مالكا يقول : حق على من طلب العلم أن يكون له وقار وسكينة وخشية، والعلم حسن لمن رزق خيره، وهو قسّم من الله تعالى ، ولكن انظر ما يلزمك حين تصبح إلى حين تسمي فالزمه ، ولا تمكّن الناس من نفسك ، فإن من سعادة المرء أن يوفّق للخير، وإن من شقوة المرء أن لا يزال يخطئ، وذل وإهانة للعلم أن يتكلم الرجل بالعلم عند من لا يطيعه (١) .

وهذا تنبيه من الإمام مالك إلى ثمرة العلم في الدنيا، وهي أن يكون طالب العلم متميزا بسلوكه القويم الذي يقوم على خشية الله تعالى في السر والعلن، ويظهر في تعامله مع الناس بمظهر الوقار والسكينة . . يتكلم حينما يحتاج الناس إلى كلامه ، ويزن كلماته قبل أن ينطق بها ، ويصمت حينما يكون الخير في الصمت، لا يتسرع مع المتسرعين ، ولا تستهويه الإشاعات والغرائب، إذا سمع خبرا وزنه بميزان علمه الذي تعلمه قبل أن يشيعه أو يبنّي عليه الأحكام التي تلابسه، وأصبح بثمرات علمه نورا يهتدي به أفراد مجتمعه ممن لم يبلغوا علمه .

(١) سير أعلام النبلاء ٩٦/٨ ، ترتيب المدارك ١٨٥/١ .

فالعالم خير لمن رُزق الإخلاص لله تعالى ، وأصبح مدركاً أن العلم نور يضيئ لصاحبه دربه في هذه الحياة ، ويقوده لسعادة الآخرة .

والمرء العاقل قد يخطئ ، ولكن الوقوع في الخطأ يدفعه إلى الندامة ، وأخذ العبرة ، وتلمس مواقع الخطو قبل أن يخطو على الطريق ، ولكنه حينما يتابع الخطأ ولا يعتبر فإن ذلك من علامات الشقاء .

ومن كلام الإمام مالك يتبين لنا أن من الأدب العلمي إظهار عزة العلم ، وذلك بأن لا يضعه صاحبه إلا عند من يقدره ويستفيد منه .
فهذه كلمات رصينة ، وتوجيهات حكيمة من هذا الإمام الجليل ، ولله در مصعب بن عبد الله حينما قال في الإمام مالك :

يدعُ الجواب فلا يراجع هيبه والسائلون نواكس الأذقان
عزُّ الوقار ونور سلطان التقي فهو المهيب وليس ذا سلطان^(١)
موقف للإمام ابن عيينة رحمه الله :

ومن أمثلة الأدب العلمي الرفيع ما روي عن سفيان بن عيينة رحمه الله أنه ذكر له حديث فقالوا : يخالفك فيه مالك ، قال : أقرنني بمالك؟ ما أنا وهو إلا كما قال جرير :

وابن اللبون إذا مالز في قرنٍ لم يستطع صولة البزل القناعيس^(٢)

(١) سير أعلام النبلاء ٨ / ١٠١ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٨ / ٦٦ .

يعني أنه ليس بمنزلة مالك في العلم كما أن البعير الصغير إذا قرن
بالجمل الكبير الشديد القوة فلن يستطيع مسايرته .

موقف للحافظ يحيى بن معين رحمه الله :

ومن مواقف العلماء العلمية تواضعهم لمن يروونه أعلم منهم ، ومن
أمثلة ذلك مارواه أحمد بن أبي الحواري قال : سمعت يحيى بن معين
يقول : مارأيت منذ خرجت من بلادي أحداً أشبه بالمشيخة الذين
أدركت من أبي مسهر ، والذي يحدث وفي البلاد من هو أولى
بالتحديث منه فهو أحمق (١) .

فهذا مثال على التواضع والأدب المتبادل بين العلماء ، حيث بين
يحيى بن معين أن من الأدب تقديم من هو أولى بالتعليم في البلد
وعدم التقدم عليه .

ولابد أن يقيد ذلك فيما إذا لم تدع الحاجة إلى مشاركة أكثر من
عالم في التعليم ، أو كان لدى بعض العلماء من العلم ما ليس عند
الآخرين الذين هم أقدم منهم في علوم أخرى ، فإنه والحالة هذه لابد
من تعدد المعلمين ، وإن كان بعضهم أقل علماً ، ولكن مع مراعاة
الأدب مع العلماء الكبار والتواضع لهم وأخذ رأيهم في الأمور المشككة
أو الجديدة .

موقف لأبي عبيد بن سلام رحمه الله :

ومن أمثلة اهتمام العلماء بالآداب والفوائد العلمية مارواه أبو بكر
ابن أبي الدنيا قال قال أبو عبيد القاسم بن سلام : زرت أحمد بن

(١) الجرح والتعديل ٢٩/٦ ، تاريخ بغداد ٧٤/١١ .

حنبل فلما دخلت عليه بيته قام فاعتنقني وأجلسني في صدر مجلسه ،
فقلت : يا أبا عبد الله أليس يقال : صاحب البيت - أو المجلس -
أحق بصدر بيته - أو مجلسه - ؟ قال : نعم يقعدُ ويقعد من يريد ،
قال : فقلت في نفسي : خذ إليك أبا عبيد فائدة ، ثم قلت : يا أبا
عبد الله لو كنتُ آتيك على حق ماتستحق لأتيتك كل يوم ، فقال :
لا تقل ذاك فإن لي إخوانا ما ألقاهم في كل سنة إلا مرة ، أنا أوثق في
مودتهم ممن ألقى كل يوم ، قال : قلت : هذه أخرى يا أبا عبيد ، فلما
أردت القيام قام معي ، قلت : لاتفعل يا أبا عبد الله ، قال فقال : قال
الشعبي : من تمام زيارة الزائر أن يُمشى معه إلى باب الدار ويؤخذ
بركابه ، قال قلت : يا أبا عبد الله من عن الشعبي ؟ قال : ابن أبي
زائدة عن مجالد عن الشعبي ، قال قلت : يا أبا عبيد هذه الثالثة (١) .

فهذا مثل من الآداب المرعية عند العلماء والاحترام المتبادل بينهم ،
وحرصهم على الفوائد العلمية والتربوية .

من مواقف الإمامين عبد الله الأنصاري وناصر المروزي رحمهما الله :

ومن ذلك ما روي عن الإمام أبي إسماعيل عبد الله الأنصاري
قال : دخلت على الإمام ناصر المروزي بنيسابور ، وكان مجلسه غاصا
بتلامذته ، واحتفَّ به الفقهاء وكان يُدرس ويقول : روي عن أبي بكر
الصدِّيق رضي الله عنه أنه كان يقرأ في الركعة الثالثة من صلاة
المغرب ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ
إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤] - قال : فقلت - أيد الله

(١) طبقات الحنابلة ٢٥٩/١ .

الشيخ الإمام - أحدث عهد أنت بهذا الحديث وهو على ذُكرِكَ ؟
فقال : لا ، فقلت : كان يقرأ في الركعة الثالثة من صلاة المغرب
﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ
الْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٨] ، فقال : صدقت ورجع إلى قولي ، وحث
القوم على إثباته وتعليقه ، ثم بكرت إليه من غد هذا اليوم فرحب بي
وأعلى محلّي ، وأجلسني فوق جماعة زهاء سبعين ، كنت بالأمس
جالساً دونهم ، ومدحته بقصيدة ، وواظبت على الاختلاف إليه
وأخذت الفقه عنه مدة (١) .

ففي هذا الخبر مثل من الأدب العلمي يقدمه الإمام أبو إسماعيل
الأنصاري يوم أن كان طالبا ، فحينما أنكر على شيخه ذلك الأثر
تلطف في تنبيهه بهذا الأسلوب المذهب .

وفي هذا الخبر تواضع جليل من شيخه الإمام ناصر المروزي حيث
رجع إلى كلام تلميذه ولم يتعصب لرأيه ، وهذا مثل من صلاح
الشيوخ والتلاميذ ودليل على سمو التربية التي كانوا يتلقونها في أيام
دراستهم .

من مواقف الإمامين عبد الله بن المبارك وحماد بن زيد رحمهما الله :

من ذلك مارواه إسماعيل الخطيب قال : بلغني عن ابن المبارك أنه
حضر عند حماد بن زيد ، فقال أصحاب الحديث لحما : سل أبا
عبد الرحمن أن يحدثنا ، فقال : يا أبا عبد الرحمن ، تحدثهم فإنهم قد
سألوني قال : سبحان الله يا أبا إسماعيل أحدث وأنت حاضر؟ قال :

(١) طبقات الحنابلة ٣/ ٦١ - ٦٢ .

أقسمت عليك لتفعلنّ ، فقال : خذوا ، حدثنا أبو إسماعيل حماد بن زيد ، فما حدث بحرف إلا عن حماد (١) .

فهذا مثل من أمثلة الأدب العلمي الرفيع بين الشيوخ والتلاميذ حيث يحترم التلاميذ شيوخهم ويستصغرون أنفسهم أمامهم وإن بلغوا مرتبة عالية من العلم .

موقف للإمام عطاء بن أبي رباح رحمه الله :

ومن آداب علماء السلف التي كانوا يراعونها الإنصات إلى المحدث وإن كان أصغر من السامع ، وفي ذلك يقول عطاء بن أبي رباح رحمه الله تعالى : إن الرجل ليحدثني بالحديث فأنصت له كأني لم أسمعه وقد سمعته قبل أن يولد (٢) .

* * *

(١) سير أعلام النبلاء ٣٣٩/٨ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٨٦/٥ .

مواقف وعبد

في

النقد العلمي

النقد العلمي فنٌ رفيع لا ينبغي الإقدام عليه إلا من المتقدمين في العلم ، لأن الناقد يتعرض بفكره لفكر الآخرين لنصر قضايا وإبطال قضايا أخرى ، فإذا لم يكن متمكناً في العلم فشل في أثناء الطريق وأحدث آثاراً سيئة في الحياة العلمية ، لكنه إذا كان متمكناً في العلم مخلصاً في مقصده وأحسن العرض في نصر القضية التي يريد نجاحها فإنه يسهم في تصحيح المفاهيم الفكرية التي قد يداخلها شيء من الخطأ ، وبالتالي يسهم في تقويم التوجهات السياسية والاجتماعية .

وإن من أهم مجالات النقد العلمي مجال المناظرات، ولقد كان للمناظرات أثر كبير في تقريب وجهات النظر بين المختلفين، وإقرار الصواب وإزالة الخطأ، ونصر الحق وخذلان الباطل، لأنها مواجهة صريحة أمام الملأ، فلا يمكن معها استغفال العقول ولا تلبيس الحق بالباطل .

من مواقف حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما :

إن من أبرز المناظرات في المجال العلمي والسياسي ما قام به حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما من مناظرة الخوارج، وقد أخرج خبر ذلك الإمام عبد الرزاق الصنعاني عن عكرمة بن عمار قال: حدثنا أبو رميل الحنفي قال: حدثنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: لما اعتزلت الحرورية ^(١) فكانوا في دار على حديثهم قلت

(١) الحرورية هم الخوارج الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي رضي الله عنه .

لعلي : يا أمير المؤمنين أبرِدْ عن الصلاة (١) لعلي آتي هؤلاء القوم فأكلهم ، قال : إني أتخوفهم عليك ، قلت : كلا إن شاء الله .

قال : فلبست أحسن ما أقدر عليه من هذه اليمانية ، قال : ثم دخلت عليهم وهم قائلون في نحر الظهيرة ، قال : فدخلت على قوم لم أر قط أشد اجتهادا منهم ، أيديهم كأنها ثفن الإبل (٢) ووجوههم معلّمة من آثار السجود .

قال : فدخلت فقالوا : مرحبا بك يا ابن عباس : ما جاء بك؟ قلت : جئت أحدثكم عن أصحاب رسول الله ﷺ ، عليهم نزل الوحي ، وهم أعلم بتأويله ، فقال بعضهم : لا تحدثوه ، وقال بعضهم : والله لنحدثه .

قال : قلت : أخبروني ماتنقمون على ابن عم رسول الله ﷺ وختنه (٣) وأول من آمن به ، وأصحاب رسول الله ﷺ معه ؟ قالوا : ننقم عليه ثلاثا ، قال : قلت وما هن؟ قالوا : أولهن أنه حكّم الرجال في دين الله وقد قال الله ﴿إِنَّ الْحَكْمَ لِلَّهِ﴾ (٤) قال : قلت وماذا ؟ قالوا : وقاتل ولم يسب ولم يغنم ، لئن كانوا كفارا لقد حلّت له أموالهم ، ولئن كانوا مؤمنين لقد حرمت عليه دماؤهم ، قال : قلت وماذا ؟ قالوا : محّا نفسه من أمير المؤمنين ، فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين .

(١) أي آخر صلاة الظهر .

(٢) أي كأنها ركب الإبل من الخشونة .

(٣) أي روج بنته .

(٤) الأنعام / ٥٧ ، يوسف / ٤٠ ، ٦٧ .

قال : قلت : أرأيتم إن قرأت عليكم من كتاب الله المحكم ،
وحدثكم من سنة نبيه ﷺ ما لاتنكرون أترجعون ؟ قالوا : نعم .

قال قلت : أما قولكم حكم الرجال في دين الله فإن الله تعالى
يقول ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حَرَّمَ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ
مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ
الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِ عَفَا
اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾ (١)
وقال في المرأة وزوجها ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ
أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يَرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنْ اللَّهُ كَانَ
عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ (٢) أنشدكم الله أحكم الرجال في حقن دمائهم
وأنفسهم وإصلاح ذات بينهم أحق أم في أرنب ثمنها ربع درهم ؟
قالوا : اللهم بل في حقن دمائهم وإصلاح ذات بينهم ، قال :
أَخْرَجْتُ مِنْ هَذِهِ ؟ قالوا : اللهم نعم .

قال : وأما قولكم إنه قاتل ولم يَسْب ولم يغنم ، أَتَسْبُونَ أَمْكُمْ
عائشة ؟ أم تستحلون منها ما تستحلون من غيرها فقد كفرتكم ؟ وإن
زعمتم أنها ليست أم المؤمنين فقد كفرتم وخبرجتم من الإسلام ، إن
الله يقول ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ (٣)
فأنتم مترددون بين ضلالتين فاخترأوا أيتهما شئتم ، أَخْرَجْتُ مِنْ هَذِهِ ؟
قالوا : اللهم نعم .

(١) المائدة / ٩٥ .

(٢) النساء / ٣٥ .

(٣) الأحزاب / ٦ .

قال : وأما قولكم مَحًا نفسه من أمير المؤمنين فإن رسول الله ﷺ دعا قريشا يوم الحديبية على أن يكتب بينه وبينهم كتابًا ، فقال : اكتب هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ، فقالوا : والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ، ولكن اكتب محمد بن عبد الله ، فقال : والله إني لرسول الله حقا وإن كذبتُموني ، اكتب يا علي محمد بن عبد الله « فرسول الله ﷺ كان أفضل من علي رضي الله عنه ، أخرجت من هذه ؟ قالوا : اللهم نعم ، فرجع منهم عشرون ألفا وبقي منهم أربعة آلاف فقتلوا (١) .

فهذا الخبر العظيم يدل أولا على جرأة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما الفائقة وشجاعته الفذة ، فقد أقدم على الخروج إلى الخوارج ومناظرتهم وحده ، مع أن هناك احتمال أن يعتدوا عليه بالقتل أو بما دون ذلك ، ولقد بلغ منتهى الشجاعة والإقدام حينما وصفهم أثناء المناظرة بالضلال .

ثم إن هذا الخبر دليل على غزارة علم ابن عباس وعمق فهمه ، فقد أدرك من عرض الخوارج لعقيدتهم أنهم على ضلال ، واستحضر حالا من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ ما ينقض قولهم ، ويبطل

(١) مصنف عبد الرزاق ١٥٧/١٠ رقم ١٨٦٧٨ ، وقال الهيثمي : رواه الطبراني وأحمد ببعضه ورجالهما رجال الصحيح - مجمع الزوائد ٢٣٩/٦ - . وما جاء في هذا الخبر من أن عددهم أربعة وعشرون ألفا فيه مبالغة ، والصواب ما جاء في روايات أخرى من أن عددهم كان أربعة آلاف ثم زادوا حتى صاروا ستة آلاف أو ثمانية آلاف كما تقدم في موضوع الخوارج .

رأيهم ، وكان موفقا في عرض تلك الأدلة وإلزام المخاصمين بما يترتب عليها من أحكام .

ولما كان ابن عباس يعرض الحق الذي لا يمكن نقضه فإن المخدوعين من الخوارج الذين كانوا يظنون أنهم على الحق وليس لهم هوى في الشذوذ والانحراف لما سمعوا ذلك الحق رجعوا إليه وعرفوا أنهم على باطل ، وكان عددهم كبيرا حيث بلغوا عشرين ألفا ، ولعل هذا الرقم هو أكبر عدد استطاع فرد واحد أن يحولهم عن معتقدهم في جلسة واحدة ، فله در حبر الأمة ما أبلغ حجته ، وما أنصع بيانه ، وما أقوى جنانته !!

وبهذا الحوار الناجح رجع أكثر الخوارج ولم يبق منهم إلا أربعة آلاف وهم الذين قتلوا يوم النهروان ، وكانوا بقيادة عبد الله بن وهب الراسبي .

فكم وفر ابن عباس على الأمة من جهد ! وكم حقن لها من دماء ! إن أولئك العشرين ألفا لو ظلوا على ضلالهم وعلى تبعية رؤسائهم لتسلط على الأمة عشرون ألف سيف ، وإن قتل هؤلاء أو هزيمتهم لابد أن يقدم فيها أهل الحق عددا كبيرا من الشهداء ، إضافة إلى أن هلاكهم وهم على ضلالتهم يقدمهم إلى النار ، فبذلك يكون ابن عباس سببا في إنقاذهم من النار ، وفي إنقاذ الأمة من شرهم وبلائهم .

ولقد كانت محاوره ابن عباس مع قاداتهم ، لأنه لن يتمكن من حوار أربعة وعشرين ألفا ، ولقد انقسم قاداتهم على أنفسهم قبل بدء

الحوار فتميز أصحاب السهوى المنحرف بمشورتهم على بقية القادة أن لا يحاوروه ، وتميز المضللون الذين يريدون اتباع الحق واخطئوا طريقه بإصرارهم على الحوار ، فكان مجرد وصول ابن عباس إليهم سببا في تفرق رأيهم ، مما يدل على ضحالة معتقدتهم وغلبة العواطف عليهم .

ومن براعة ابن عباس التي ظهرت في ذلك الحوار أنه لم يُجب على كل سؤال لهم بمفرده ، بل استوعب اعتراضاتهم الثلاثة ، ثم قام بنقضها ، ولو أنه أجاب على الاعتراض الأول لربما توقفوا وأمسكوا عن بيان الاعتراضين الآخرين ، ولم يتوصل إلى إقناعهم بما يريد .

وهكذا كان دور العلم بارزا ورائدا في ذلك الصراع الذي نشب بين الخوارج من جهة والخليفة الرابع علي بن أبي طالب رضي الله عنه من جهة أخرى ، فكان العلم النافع الذي حملة ابن عباس ومثله أبلغ تمثيل أمضى في الأعداء من جميع الأسلحة ، وأهدى للحيارى المخدوعين من طلاس الجهل وشعارات أنصاف المتعلمين .

ومن مواقف عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في سداد الرأي والنظر إلى النتائج مارواه يزيد بن الأصم عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : قدم على عمر رجل فجعل عمر يسأله عن الناس ، فقال : يا أمير المؤمنين قد قرأ القرآن منهم كذا وكذا ، فقلت : والله ما أحب أن يتسارعوا يومهم هذا في القرآن هذه المسارعة .

قال : فزبرني عمر (١) ، ثم قال : مه ، فانطلقت إلى منزلي مكتئبا حزينا ، فيقلت : قد كنت نزلت من هذا الرجل منزلة ،

(١) يعني نهرني .

فلأراني إلا قد سقطت من نفسه ، قال : فرجعت إلى منزلي فاضطجعت على فراشي حتى عادني نسوة أهلي ومابي وجع وماهو إلا الذي تقبّلني به عمر .

قال : فبينما أنا على ذلك أتاني رجل فقال : أجب أمير المؤمنين ، قال : فخرجت فإذا هو قائم ينتظرني ، قال : فأخذ بيدي ، ثم خلا بي فقال : ما الذي كرهت مما قال الرجل آنفا ؟ قال : فقلت : يا أمير المؤمنين إن كنت أسأت فإني استغفر الله وأتوب إليه وأنزل حيث أحببت ، قال : لتحدثني بالذي كرهت مما قال الرجل : فقلت : يا أمير المؤمنين متى تسارعوا هذه المسارعة يحيفوا ومتى مايحيفوا يختصموا ، ومتى مايختصموا يختلفوا ، ومتى مايختلفوا يقتتلوا ، فقال عمر : لله أبوك لقد كنت أكاتمها الناس حتى جئت بها (١) .

ففي هذا الخبر بيان دقة فقه ابن عباس وسداد رأيه حيث وافق رأيه ماكان يجول في خاطر أمير المؤمنين عمر وهو الرجل الملهم ، فإن مسارعة الناس في أخذ القرآن من غير تفهم لأحكامه ولاتأثر بمواعظه وعبره يبعث على التنافس في مبلغ ما حفظوه من القرآن من غير تدبر ولاوعي بمقاصده ، فينمو في أفكارهم مقدار الحفظ بسرعة بينما ينمو في قلوبهم مقدار الإيمان والتقوى ببطء ، فعند ذلك تبرز حظوظ النفس ويكثر التفاخر ، وتتعدد الآراء التي لاترتبط بأصول من الكتاب والسنة ، فيقع الاختلاف لكثرة الآراء وقلة الورع مما قد يؤدي إلى حدوث القتال بين طلاب العلم .

(١) مصنف عبد الرزاق ١١ رقم ٢٠٣٦٨ .

أما أهل الفقه الذين يسرون على الأصول المرعية في أخذ القرآن فإنهم كانوا لا يتجاوزون آية في الحفظ حتى يفقهوا مقاصدها كما قال أبو عبد الرحمن السلمي : حدثنا الذين كانوا يعلموننا القرآن أنهم ما كانوا يتجاوزون عشر آيات حتى يفقهوا معانيها ويعملوا بها ، قال : فتعلمنا العلم والعمل ، أو كما قال : وكما جاء عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه بقي في حفظ سورة البقرة عدة سنوات ، وإنما ظل هذه المدة الطويلة لاشتغاله بفهم مقاصد القرآن وتطبيق أحكامه ومواعظه .

من مواقف الإمام الشافعي رحمه الله :

من ذلك ما رواه أبو العباس الأصم عن الربيع بن سليمان قال : دخلت على الشافعي وهو مريض فسألني عن أصحابنا ، فقلت : إنهم يتكلمون ، فقال : مانظرت أحداً على الغلبة ، وبودّي أن جميع الخلق تعلموا هذا الكتاب - يعني كتبه - على أن لا يُنسب إليّ منه شيء (١) .

فهذا مثال لما كان يتصف به الإمام الشافعي من الإخلاص لله تعالى والتجرد من حظ النفس ، والعمل من أجل الوصول إلى الحق وخدمة الإسلام ، فهو حينما يناظر مخالفه لا يحمل في فكره حب الغلبة والانتصار عليهم ، وإنما الذي يكون ماثلاً أمامه هو الرغبة في ظهور الحق سواء كان معه أو مع مخالفه .

ولاشك أن هذا الإخلاص والتجرد كان له الأثر البالغ في تفوقه في مجال المناظرة ، لأنه قد أحضر قلبه مع الله تعالى ، واستصحب

(١) سير أعلام النبلاء ٧٦/١٠ .

رقابته عليه ، فهو بذلك يكون مؤيداً بتوفيق الله سبحانه وإلهامه .

وأبلغ من ذلك ماروي عنه أنه قال : « ماناظرت أحداً إلا أحببت أن تكون الحجة معه » فإن هذا يبين تجرده الكامل للحق ورغبته في الوصول إليه ولو على لسان المخالفين ، فهو قد بذل وسعه في معرفة الحق عن طريق العلم ، والمناظرات طريق من طرق العلم ، فإذا أوصلته إلى معرفة الحق الذي كان يجهله فهذا عنده مكسب كبير .

فهذا الفرق كبير بين من يناظر ليعرف الحق ثم يلزمه سواء كان معه أو مع مخالفه ، ومن يناظر للانتصار لرأيه أو رأي إمامه أو مذهبه سواء كان ذلك صواباً أو خطأ .

وفي بيان آداب المناظرة يقول يونس الصدفي : مارأيت أعقل من الشافعي ، ناظرته يوما في مسألة ، ثم افترقنا ولقيني فأخذ بيدي ثم قال : ياأبا موسى ألا يستقيم أن نكون إخواناً وإن لم نتفق في مسألة؟!

ذكره الذهبي وقال : هذا يدل على كمال عقل هذا الإمام وفقه نفسه ، فمازال النظراء يختلفون (١) .

ففي هذا الخبر يبين لنا الإمام الشافعي أمراً مهماً ، وهو أن لا يكون الخلاف في الرأي والمناظرة على ذلك سبباً في إضعاف الأخوة الإسلامية بين المختلفين ، فالأخوة الإسلامية ثابتة بأدلتها الشرعية ، ولايجوز أن يؤثر عليها الخلاف في القضايا العلمية ، فالدافع إلى الخلاف هو الاجتهاد للوصول إلى الصواب ، فإذا كان كل واحد من

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/ ١٦ .

المتناظرين يريد حقا الوصول إلى الصواب ، فإن عثوره على ذلك عن طريق مُناظرِهِ يزيده حُبًّا له ، وبالتالي فإن الأخوة الإسلامية لا تتأثر مع الخلاف والمناظرة إلا إذا كان المختلفون أو بعضهم من أصحاب الهوى المنحرف .

موقف للحافظ يحيى القطان رحمه الله :

إن من المواقف العلمية ما كان في مجال النقد الهادف الذي يدل على سعة العلم وإرادة تنقية سنة رسول الله ﷺ من الخطأ والتحريف .

فمن ذلك ما كان بين عفان بن مسلم ويحيى بن سعيد القطان وقد أخرج خبر ذلك محمد بن الحسن بن علي بن بحر قال : حدثنا الفلاس قال : رأيت يحيى يوما حدث بحديث فقال له عفان : ليس هو هكذا ، فلما كان من الغد أتيت يحيى ، فقال : هو كما قال عفان ، ولقد سألت الله أن لا يكون عندي على خلاف ما قال عفان .

قال الإمام الذهبي : قلت : هكذا كان العلماء فاذنلر يامسكين كيف أنت عنهم بمعزل (١) :

فهذا موقف جليل من يحيى القطان يدل على تجرده من حظ النفس وتخلقه بخلق الإيثار ، فالإيثار كما أنه يكون في المال ومتاع الدنيا فإنه يكون في السمعة والجاه ، وقد يسخو الإنسان بالمال ويؤثر به على نفسه ، ولكنه لا يسخو بالجاه ولا يؤثر غيره به على نفسه ، لأن تعلق نفوس البارزين به أقوى من تعلقهم بالمال .

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/٢٤٨ - ٢٤٩ ، تاريخ بغداد ١٢/٢٧٥ .

وفي هذا الخبر نجد يحيى القطان قد آثر الحفاظ على جاه عفان بن مسلم أن يُخدش وعلى سمعته العلمية أن تُثلم ، فسأل الله تعالى أن يكون الحديث المختلف عليه على ماقاله عفان ، فكان على ماأحب يحيى ، وحصل بذلك على أجر هذه النية الصادقة والإيثار الجميل .

ولقد كان إعجاب الإمام الذهبي بهذا الخبر كبيرا حيث قال : «هكذا كان العلماء فانظر يامسكين كيف أنت عنهم بمعزل» وهو بهذا يُنحي باللائمة على من لم يبلغوا هذا المستوى الرفيع من العلماء الذين يخالفون الصواب وقد يلبسون الحق حفاظاً على سمعتهم العلمية وجاههم المكتسب من العلم .

من مواقف يحيى بن معين ونعيم بن حماد رحمهما الله :

من ذلك ما رواه الحسين بن عُلَيْل قال : حدثنا يحيى بن معين قال : أخطأ عفان في نيف وعشرين حديثاً ، ماأعلمت بها أحداً وأعلمته سراً . وكذلك قال : مارأيت على رجل خطأ إلا سترته وأحببت أن أزين أمره ، وما استقبلت رجلاً في وجهه بأمر يكرهه ولكن أبين له خطأه فيما بيني وبينه فإن قبل ذلك وإلا تركته (١) .

فهذا دليل على غزارة علم يحيى بن معين ، فهو قد أحصى مرويات شيخه عفان بن مسلم فصوبه فيها ماعدا عشرين موضعاً خطأه فيها ، فكيف بإحاطته بمرويات الشيوخ الآخرين !

ثم إن هذا الخبر مثل من أمثلة الأخلاق النبيلة ، فقد أعلم يحيى بن معين شيخه بتلك الأخطاء سرا ولم ينشرها على الناس وكذلك في

(١) سير أعلام النبلاء ٨٣/١١ .

نقده الشيوخ الآخرين كما ذكر ، وهذا دليل على إخلاصه ، وأنه لم يُرد الجاه والسمعة العلمية ، وإنما أراد وجه الله تعالى ، ولعله قال هذا الكلام بعد موت شيخه عفان رحمهما الله تعالى .

ولكن يحيى بن معين قد ينتقد بعض الشيوخ علناً ، وذلك فيما إذا كان في حلقة علمية والطلاب يكتبون عن الشيخ فإنه والحال هذه يكون مضطراً إلى إعلان النقد حتى لا يكتب التلاميذ خطأ ، ومن أمثلة ذلك ما ذكره الحافظ الذهبي من رواية ابن عباس الدوري قال : حدثنا يحيى بن معين قال : حضرت نعيم بن حماد بمصر ، فجعل يقرأ كتاباً صنّفه ، فقال : حدثنا ابن المبارك عن ابن عون ، وذكر أحاديث ، فقلت : ليس ذا عن ابن المبارك ، فغضب وقال : تردُّ عليّ؟ قلت : إي والله أريد زينك ، فأبى أن يرجع ، فلما رأيت أنه لا يرجع قلت : لا والله ماسمعت هذه من ابن المبارك ولا سمعها هو من ابن عون : فغضب وغضب من كان عنده ، وقام فدخل ، فأخرج صحائف فجعل يقول وهي في يده : أين الذين يزعمون أن يحيى بن معين ليس بأمرير المؤمنين في الحديث ؟ نعم يا أبا زكريا غلطت ، وإنما هذا الأحاديث عن غير ابن المبارك عن ابن عون (١) .

وهذا الخبر يعتبر مثلاً على علم يحيى بن معين وخبرته بالأسانيد فقد ردَّ على البديهة على نعيم بن حماد وخطأه في تلك الأسانيد وكان واثقاً من علمه كثيراً ، فلهذا أقسم على أن تلك الأحاديث لم يروها نعيم عن ابن المبارك ولا رواها ابن المبارك عن ابن عون .

(١) سير أعلام النبلاء ٨٩/١١ - ٩٠ .

وموقف جليل من نعيم بن حماد لما رجع إلى أصوله فأعلن خطأه وصواب ابن معين على الملاء ، وأشاد بابن معين بإنكاره على من لم يعترف له بالإمارة في الحديث .

من مواقف الحافظين أبي حاتم وأبي زرعة رحمهما الله :

من المواقف العلمية الرائعة التي تبين عمق البارزين من علماء الحديث ومقدرتهم الفائقة على الحكم على النصوص وتمييز مقبولها من مردودها ما أخرجه الحافظ عبد الرحمن بن أبي حاتم قال : سمعت أبي رحمه الله يقول : جاءني رجل من جلة أصحاب الرأي^(١) من أهل الفهم منهم ، ومعه دفتر فعرضه علي فقلت في بعضها : هذا حديث خطأ قد دخل لصاحبه حديث في حديث ، وقلت في بعضه : هذا حديث باطل ، وقلت في بعضه : هذا حديث منكر ، وقلت في بعضه : هذا حديث كذب ، وسائر ذلك صحيح ، فقال لي : من أين علمت أن هذا خطأ وأن هذا باطل وأن هذا كذب ؟ أخبرك راوي هذا الكتاب بأني غلطت وأني كذبت في حديث كذا ؟ فقلت : لا ، ما أدري هذا الجزء من رواية من هو ؟ غير أنني أعلم أن هذا خطأ وأن هذا باطل ، وأن هذا الحديث كذب ، فقال : تدعي الغيب ؟ قال قلت : ما هذا ادعاء الغيب ، قال : فما الدليل على ما تقول ؟ قلت : سل عما قلت من يحسن مثلما أحسن ، فإن اتفقنا علمت أنا لم نجازف ولم نقله إلا بفهم .

قال : من هو الذي يحسن مثلما تحسن ؟ قلت : أبو زرعة ،

(١) يعني من الفقهاء الذين ليس لهم اهتمام برواية الحديث وكانوا يسمونهم أهل الرأي .

قال: ويقول أبو زرعة مثلما قلت ؟ قلت : نعم ، قال : هذا عجب ، فأخذ فكتب في كاغد ألفاظي في تلك الأحاديث ثم رجع إليّ وقد كتب ألفاظ ماتكلم به أبو زرعة : هو كذب قلت : الكذب والباطل واحد ، وما قلت أنه كذب قال أبو زرعة : إنه باطل ، وما قلت إنه منكر قال أبو زرعة : هو منكر كما قلت ، وما قلت إنه صحاح قال أبو زرعة : هو صحاح .

فقال : ما أعجب هذا تتفقان من غير مواطاة فيما بينكما ، فقلت : فقد عملتَ عند ذلك أنا لم نجازف وإنما قلناه بعلم ومعرفة قد أوتيناها ، والدليل على صحة ما نقوله أن ديناراً بهرجاً يُحمل إلى الناقد فيقول : هذا دينار بهرج ، ويقول لدينار : هو جيد ، فإن قيل له من أين قلت إن هذا بهرج ؟ هل كنت حاضراً حين بهرج هذا الدينار ؟ قال : لا ، فإن قيل له : فأخبرك الرجل الذي بهرجه أنني بهرجت هذا الدينار ؟ قال : لا ، قيل : فمن أين قلت إن هذا بهرج ؟ قال : علماً رُزقت ، وكذلك نحن رزقنا معرفة ذلك .

وقلت له : فتحمل فص ياقوت إلى واحد من البصرياء من الجوهريين فيقول : هذا زجاج ، ويقول لمثله : هذا ياقوت ، فإن قيل له : من أين علمت أن هذا زجاج وهذا ياقوت ؟ هل حضرت الموضع الذي صنع فيه هذا الزجاج ؟ قال : لا ، قيل له : فهل أعلمك الذي صاغه بأنه صاغ هذا زجاجاً ؟ قال : لا ، قال : فمن أين علمت ؟ قال : هذا علم رُزقت ، وكذلك نحن رزقنا علماً ، لا يتهيأ لنا أن نخبرك كيف علمنا بأن هذا الحديث كذب وهذا منكر إلا بما نعرفه .

قال أبو محمد - يعني ابن أبي حاتم - : تعرف جودة الدينار بالقياس إلى غيره فإن تخلف عنه في الحمرة والصفاء علم أنه مغشوش، ويُعلم جنس الجوهر بالقياس إلى غيره فإن خالفه في الماء والصلابة علم أنه رجاج ، ويقاس صحة الحديث بعدالة ناقله ، وأن يكون كلاما يصلح أن يكون من كلام النبوة ، ويُعلم سقمه وإنكاره بتفرد من لم تصح عدالته بروايته والله أعلم (١) .

فهذا الحوار العلمي الرفيع يدل على تفوق البارزين من علماء الحديث في معرفة الأحاديث ، أسانيد وامتون ، والحكم عليها ، فهذان الحافظان أبو حاتم وأبو زرعة يحكمان على مجموعة من الأحاديث على البديهة ثم يتفق حكمهما ، وهذه النتيجة كما أذهلت ذلك العالم الفقيه فإنها تذهل الكثيرين ممن لم يخبروا هذا العلم ، لكنها نتيجة طبيعية عند أرباب هذا الشأن .

وقد بين ابن أبي حاتم أن النقد يكون للإسناد ويكون للمتن ، فيكون للإسناد بمعرفة عدالة ناقله وتفردهم بروايته ، ويكون في المتن بعدم صلاحيته أن يكون من كلام النبوة ، وهذا هو الذي يحكمون عليه بالنكارة في المتن .

وأمثال هؤلاء العلماء المتبحرين في هذا العلم هم الذين يستحقون حقا أهلية الحكم على الأحاديث ، وإذا حكموا على حديث فلا ينبغي لمن جاء بعدهم أن يخالفهم إلا إذا كان في مستواهم العلمي وحصل له بالدراسة علم رائد عما عندهم .

(١) الجرح والتعديل ١/ ٣٤٩ - ٣٥١ ، سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٥٣ - ٢٥٤ .

ومن النماذج الجيدة التي جرت بين هذين الحافظين الكبيرين أبي حاتم وأبي زرعة ما أخرجه ابن أبي حاتم قال : سمعت أبي يقول : جرى بيني وبين أبي زرعة يوماً تمييز الحديث ومعرفته فجعل يذكر أحاديث ويذكر عللها ، وكذلك كنت أذكر أحاديث خطأ وعللها وخطأ الشيوخ ، فقال لي : يا أبا حاتم قل من يفهم هذا ، ما أعز هذا ، إذا رفعت هذا من واحد أو اثنين فما أقل من تجد من يحسن هذا ، وربما أشك في شيء أو يتخالفني شيء في حديث فإلى أن ألتقي معك لا أجد من يشفيني منه ، قال أبي : وكذلك كان أمري (١) .

فهذا مثال على ندرة المتأهلين للحكم على الأحاديث مع كثرة الحفاظ في ذلك الزمن ، وإذا كان المتأهلون للحكم على الأحاديث قليلاً في ذلك الزمن الذي بلغ فيه الاتجاه نحو جمع السنة ودراساتها أقصى حد بلغه فكيف بالعصور المتأخرة التي ضعف نشاط طلاب العلم فيها في مجال جمع السنة ودراساتها !

وإن في هذا المثل مع الأمثلة السابقة بيان خطورة الإقدام على الحكم على الأحاديث ، وأن ذلك ليس من شأن الطلاب المبتدئين في هذا العلم ، وإنما هو من اختصاص العلماء المنتهين الذين جمعوا أكبر قدر ممكن من السنة وأحاطوا بطرق الروايات المتعددة ، وعرفوا مرويات الرواة الذين اتهموا بالخطأ والوهم بحيث يميزون بين رواياتهم السليمة ورواياتهم المنتقدة ، وأدركوا علل الأحاديث التي بينها جهابذة العلماء ، فليخش الله تعالى طلاب العلم الذين اتجهوا لدراسة علوم

(١) الجرح والتعديل ٢٥٦/١ ، سير أعلام النبلاء ٢٥٢/١٣ .

الحديث وليعرفوا قدرهم ، وليقتصروا على الموازنة بين حكم العلماء على الأحاديث لا على رجال الأسانيد ، وليتركوا الحكم على الأحاديث المبني على دراسة الأسانيد حتى يصلوا من العلم إلى مستوى أولئك العلماء الجهابذة المتبحرين في هذا العلم .

من مواقف الإمامين أحمد بن حنبل وأحمد بن صالح رحمهما الله :

من النماذج الجيدة في الحوار العلمي ما أخرجه الخطيب البغدادي عن عبد الله بن محمد بن عبد العزيز قال : سمعت أبا بكر بن زنجويه يقول : قدمت مصر وأتيت أحمد بن صالح ، فسألني من أين أنت ؟ قلت : من بغداد ، قال : منزلك من منزل أحمد بن حنبل ؟ قلت . أنا من أصحابه . قال : تكتب لي موضع منزلك فإني أريد أوافي العراق حتى تجمع بيني وبين أحمد بن حنبل : فكتبت له فوافي أحمد بن صالح سنة اثنتي عشرة إلى عفا فسال عني ، فلقيني . فقال : الموعد الذي بيني وبينك ؟

فذهبت به إلى أحمد بن حنبل واستأذنت له فقلت : أحمد بن صالح بالباب ، فأذن له ، فقام إليه ورحب به وقربه وقال له : بلغني أنك جمعت حديث الزهري ، فتعال نذاكر ما روى الزهري عن أصحاب رسول الله ﷺ ، فجعلنا يتذاكران ولا يغرب أحدهما عن الآخر حتى فرغا ، قال ومارأيت أحسن من مذاكرتهما . ثم قال أحمد ابن حنبل لأحمد بن صالح : تعال حتى نذاكر ما روى الزهري عن أولاد أصحاب رسول الله ﷺ ، فجعلنا يتذاكران أحدهما على الآخر إلى أن قال أحمد بن حنبل لأحمد بن صالح : عند الزهري عن

محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن عبد الرحمن بن عوف قال
النبي ﷺ : « مايسرني أن لي حُمْر النعم وأن لي حلف المطيِّين » (١) .
فقال أحمد بن صالح لأحمد بن حنبل : أنت الأستاذ وتذكر مثل
هذا؟ فجعل أحمد بن حنبل يبتسم ويقول : رواه عن الزهري رجل
مقبول ، أو صالح - عبد الرحمن بن إسحاق - فقال : من رواه عن
عبد الرحمن ؟ فقال : حدثناه رجلان تقيان - إسماعيل بن عليّة ،
وبشر بن الفضل - فقال أحمد بن صالح لأحمد بن حنبل : سألتك
بالله إلا أملتته عليّ ، فقال أحمد من الكتاب ، فقام ودخل وأخرج
الكتاب وأملى عليه ، فقال أحمد بن صالح لأحمد بن حنبل : لو لم
أستفد بالعراق إلا هذا الحديث كان كثيرا ، ثم ودعه وخرج (٢) .

فهذا مجلس علمي مفيد بين الإمامين أحمد بن حنبل وأحمد بن
صالح المقرئ ، تذاكرا فيه أحاديث كثيرة من أحاديث الإمام الزهري ، وفي
هذا الخبر تظهر فرحة أحمد بن صالح لما استفاد حديثا ليس عنده بذلك
السند الذي رصيه أحمد بن حنبل فطلب في الحال أن يحدثه به .

وفيه موقف من مواقف الورع والاحتياط للدين ، فحينما كانا
يتذاكران كانت المذاكرة من حفظهما ، ولما أراد الإمام أحمد بن حنبل
أن يحدث حديثا يكتب عنه قام وجاء بكتابه .

ومن ذلك ما روي عن الحسين بن إسماعيل عن أبيه قال : كان

(١) هو حلف تحالف فيه بعض قریش على التناصر والأخذ للمظلوم من الظالم وسمي

بذلك لأنهم غمسوا أيديهم في جفنة فيها طيب .

(٢) تاريخ بغداد ٤ / ١٩٧ .

يجتمع في مجلس أحمد (١) زهاء خمسة آلاف أو يزيدون ، نحو خمسمائة يكتبون والباقون يتعلمون منه حسن الأدب والسمت (٢) .

ويقول أبو بكر بن المَطَّوعِي : اختلفت إلى أبي عبد الله ثنتي عشرة سنة وهو يقرأ المسند على أولاده فما كتبت عنه حديثا واحدا ، إنما كنت انظر إلى هديه وأخلاقه (٣) .

في هذين الخبرين مثل من اهتمام أهل العلم بتعلم الأخلاق والأدب ، وتلقي التربية الدينية من العلماء الربانيين .

وهكذا ينبغي لطلاب العلم أن يهتموا بتعلم الأدب ومكارم الأخلاق من العلماء كاهتمامهم بجمع العلم وتحصيله .
من مواقف ابن المنادي رحمه الله :

من أخبار العلماء في المجال التربوي مذكره القاضي أبو يعلى في ترجمة أبي الحسين أحمد بن جعفر بن المنادي حيث ذكر عن أبي الفضل عبد الله بن أحمد الصيرفي قال : وقال لي أبو الحسين بن الصلت : كنا نمضي مع ابن قاج الوراق إلى ابن المنادي لنسمع منه ، فإذا وقفنا ببابه خرجت إلينا جارية له وقالت : كم أنتم ؟ فنخبرها بعددنا ويؤذن لنا في الدخول فيحدثنا ، فدخل معنا مرة إنسان علوي و غلام له ، فلما استأذنا قالت الجارية : كم أنتم ؟ فقلنا : نحو ثلاثة عشر ، وما كنا حسبنا العلوي ولا غلامه في العدد ، فدخلنا عليه ، فلما

(١) يعني الإمام أحمد بن حنبل .

(٢) سير أعلام النبلاء ٣١٦/١١ .

(٣) المصدر السابق ٣١٦/١ .

رأنا خمسة عشر نفسا قال : انصرفوا اليوم فلست أحدثكم ، فانصرفنا وظننا أنه عرض له شغل ، ثم عدنا إليه مجلسا ثانيا فصرَفنا ولم يحدثنا ، فسألناه بعد ذلك عن السبب الذي أوجب ترك الحديث لنا فقال : كنتم تذكرون عددكم في كل مرة للجارية وتصدقون ، ثم كذبتُم في المرة الأخيرة ، ومن كذب في هذا المقدار لم يؤمن من أن يكذب فيما هو أكبر منه ، فاعتذرنا إليه وقلنا : نحن نتحفظ فيما بعد ، فحدثنا ، أو كما قال (١) .

فهذا مثل من حرص العلماء على تقويم أخلاق طلابهم وحملهم على الالتزام بالسلوك القويم والأخلاق الكريمة ، فحينما لاحظ هذا الشيخ اختلاف كلام أولئك التلاميذ عن واقعهم الفعلي رفض أن يحدثهم لأن من يستهين بالكذب في الأمور الصغيرة يُخشى منه أن يكذب فيما هو أكبر من ذلك ، ومن أجل هذا المنهج التربوي الجاد أصبح مجتمع العلماء يكاد يكون نزيها من النفعيين والفساق .

موقف للحافظ الخطيب البغدادي رحمه الله :

للحافظ أحمد بن علي الخطيب البغدادي موقف علمي جيد رد فيه تزييف بعض اليهود ، وذلك فيما ذكره محمد بن عبد الملك الهمداني في تاريخه قال : وأظهر بعض اليهود كتابا ادَّعى أنه كتاب رسول الله ﷺ بإسقاط الجزية عن أهل خيبر ، وفيه شهادة الصحابة رضي الله عنهم ، وذكروا أنه خط علي رضي الله عنه ، وحُمِل الكتاب إلى رئيس الرؤساء فعرضه على الخطيب فتأمله وقال : هذا

(١) طبقات الحنابلة ٢/٣ - ٤ .

مزور ، قيل : من أين قلت ؟ قال : فيه شهادة معاوية وهو أسلم عام
الفتح وُقِّتَتْ خيبر سنة سبع ، وفيه شهادة سعد بن معاذ ومات يوم
بني قريظة قبل خيبر بستين ، فاستُحْسِنَ ذلك منه (١) .

فهذا مثل من غزارة علم الحافظ الخطيب البغدادي ومعرفته
بالتاريخ الإسلامي حيث أبطل ذلك الكتاب المزور بمعرفته الدقيقة
بتاريخ إسلام الصحابة رضي الله عنهم وتاريخ وفياتهم .
موقف للإمام موفق الدين بن قدامة رحمه الله :

ومن أمثلة اهتمام العلماء بأمر العدالة والحفاظ على سمعة العلماء
ماجرى من الإمام موفق الدين ابن قدامة وهو يجيب على أحد العلماء
الذين ردوا عليه حيث قال : إلى أن رأيت له فتاوى غيره فيها أسدُّ
جواباً وأكثر صواباً ، وظننت أنه ابتلي بذلك لمحبتة تخطئة الناس
واتباعه عيوبهم ولا يبعد أن يعاقب الله العبد بجنس ذنبه . . . ثم قال
عن هذا العالم : وقد شغل كثيرا من زمانه بالرد على الناس في
تصانيفهم وكشف ما استتر من خطاياهم ومحبة بيان سقطاتهم ،
ولا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يحب للناس ما يحب لنفسه ، أفترأه
يحب لنفسه بعد موته من ينتصب لكشف سقطاته وعيب تصانيفه
وإظهار أخطائه ؟ وكما لا يحب ذلك لنفسه ينبغي له أن لا يحبه لغيره ،
سيما الأئمة المتقدمين والعلماء المبرزين (٢) .

(١) سير أعلام النبلاء ١٨ / ٢٨٠ .

(٢) طبقات الحنابلة ٤ / ١٩٥ - ١٩٦ .

فهذه الكلمات من الإمام الموفق تحتوي على توجيه جيد نحو ما ينبغي أن يتحلى به أهل العلم من الأدب العلمي ، فليس من الأدب أن يسارع أهل العلم في نقد العلماء ، ولا أن يجعلوا ذلك من مقاصدهم التي يهتمون بها .

والمراد بهذا النقد المذموم ما قُصِدَ به النقد لذاته ، أما إذا كان المقصود منه بيان الحق ولم يتمكن الناقد من البيان بغير ذلك فهو من النصيحة للمسلمين وليس من النقد المذموم .

من مواقف الشيخ محمد بن محمد الطيب المالكي رحمه الله :

قال عنه الشيخ محمد خليل المرادي وُلد بالمغرب الأقصى وحفظ القرآن وهو ابن ثمان سنين ، ثم اشتغل في حفظ المتون على والده وقرأ عليه الآجرومية وعلى الشيخ محمد السعديّ الجزائريّ السنوسية ومنظومة في العبادات مختصة في المسائل الفقهية ، ودرس السنوسية للطلاب قبل أوان الاحتلال ورحل من بلاده في البر إلى طرابلس الغرب وما وجبت عليه صلاة ولاصيام ، ومن طرابلس ركب البحر إلى الجامع الأزهر فطلب العلم بمصر سنتين وثمانية أشهر .

ثم سافر لزيارة والدته في البحر فأسره الفرنج وذهبوا به إلى مالطة مركز الكفر ثم نجاه الله تعالى بعد سنتين وأيام وناظرته رهبان النصراني مناظرة واسعة وكان فيهم راهب له دراية بالمسائل المنطقية والعربية ويزعم أن همته بارعة وكانت مدة المناظرة نحو ثمانية أيام فأخرسهم الله وأكبتهم ووقعوا في حيّص بيّص ، فمن جملة

مناظرتهم معه في ألوهية عيسى أن قال كبيرهم يامحمديّ : إن حقيقة عيسى امتزجت مع حقيقة الإله فصارتا حقيقة واحدة .

قال : فقلت له : لا يخلو الأمر فيهما قبل امتزاجهما أن تكونا قديمتين أو حادثتين أو إحداهما قديمة والأخرى حادثة وكل الاحتمالات باطلة فالامتزاج على كل الاحتمالات باطل أما على الأول فإن الامتزاج مُفْضٍ للحدوث قطعاً لأنه تركيب بعد أفراد وكل تركيب كذلك لا محالة حادث والحادث لا يصلح للألوهية ، وأما الثاني فظاهر البطلان ، وأما الثالث بوجهيه فباطل أيضاً لأن القديمة منهما بعد الامتزاج يلزم حدوثها والحادثة منهما بعده يلزم قدمها فيؤدي إلى قلب الحقائق وقلبها محال ، ويلزم أيضاً اجتماع الضدين وهو باطل باتفاق العقول .

ولما سَقَطَ في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا في هذا الطريق قال لي كبيرهم : عقولنا لاتصل لهذا الأمر الدقيق فقلت له : هذا عندنا من علوم أهل البداية لا من علوم أهل النهاية فبهت الذي كفر وعبس واكفهر ، قلت لكبيرهم : بالله عليك : أعيسى كان يعبد الصليب ؟ قال : لا وإنما ظهر الصليب بعد قتله - على رعمهم - ونحن نعبد شبيه الإله فقلت له : بالله عليك أله شبيهه ؟ قال : لا ، فقلت له : يجب عليكم حرق هذه الصلبان بالزفت والقطران فاستشاط غيظاً وقال لي : كنت أوقعك في المهالك وأجعلك عبرة لكن الله أمرنا بحب الأعداء ، فقلت له : لكن الله أمرنا ببغض الأعداء ، فقال لي : إذاً شريعتنا كاملة فقلت له على طريقة الاستهزاء : شريعتكم كاملة لأنها تعبد

الأصنام والصلبان وشريعتنا ناقصة لأنها تعبد الله وحده لا شريك له فاشتد غضبه حتى كاد أن يبطش بي ولكن الله سلم لمزيد اللطف بي .

ثم إن كبيرهم قال لي : يا محمديّ إني رأيت في كتبكم الحديثة أن نبيكم انشق له القمر نصفين فدخل نصفه من كم والنصفه من الكم الآخر وخرج تاماً من جيب صدره ومساحة البدر مثل الدنيا ثلاث مرات وثلاث وهي ثلاثمائة وثلاث وثلاثون سنة وثلاث فما هذه الخرافات؟ فقلت له : أما ورد أن إبليس جاء لسيدنا إدريس وهو يخطئ بالإبرة ويده قشرة بيضة وقال له : أيقدر ربك أن يجعل الدنيا في قشرة هذه البيضة؟ فقال لي : نعم ورد ذلك ، فقلت له : كيف يقدر؟ فقال : إما أن يكبر القشرة أو يصغر الدنيا ، فقلت له : سبحان الله تحلونه عاماً وتحرمونه عاماً وإذا سلمت هذا فلم لا تسلمه لنبينا فغص بريقه واصفر وعبسى وتولى فقتل كيف قدر ، وهذا الجواب مني من باب إرخاء العنان للإلزام وإلا فدخل نصفي البدر في الكمين باطل عند جميع المحدثين الأعلام لكن كبيرهم لا يعرف اصطلاح علمائنا ذوي المقام العالي فلو أجبت ببطلانه لقال لي : رأيت في كتبكم فلا يصغي لمقالي فلذلك دافعت بالبرهان القطعي العقلي لأنه لا يمثل بعد ما رآه للدليل النقلي .

ثم إن كبيرهم في ميدان البحث أنكر نبوة نبينا السيد الكامل وقال : إنه عندنا ملك عادل ، فقلت له : ما المانع من نبوته؟ فقال : نحن لا نقول بها وإنما نقول بشدة صولته ، فقلت له : أليس النبي الذي أتى بالمعجزات وأخبر بالمغيبات؟ فقال كبيرهم : أي معجزة أتى بها

وأَيّ مغيبات أخبر بها فسردت له بعض المعجزات وأعظمها القرآن وذكرته له بعض المغيبات ، فقال لي : رأيت البخاريّ من علمائكم ذكر بعضها، ثم قال لي : إنّما علّمه ذلك الغلام يشير لقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ﴾ (١) فقلت له : بالله عليك لسان ذلك الغلام ماذا؟ قال : أعجمي ، فقلت له : بالله عليك لسان نبينا ماذا؟ قال : عربيّ، قلت له : بالله عليك نبينا يقرأ ويكتب أم أمي؟ قال : أمي لا يقرأ ولا يكتب ، فقلت له : بالله عليك هل سمعت عربيّاً يتعلّم من عجمي ، قال : لا ، فأفحم في الجواب وانقطع عن الخطاب .

ثم قال لي : كيف يقول قرآنكم : ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ ؟ وبينه وبينها ألف من السنين؟ فقلت له : أنت أعجمي لا تعرف لغة العرب كيف مبناه، فقال لي : وكيف ذلك؟ فقلت له : يُطلق الأخ في لغتهم على الأخ النسبي وعلى الأخ الوصفيّ والبراد هنا الثاني ومعنى الآية يا أيتها المتصفة عندنا بالعفة والديانة والعبودية مثل هارون الموصوف بتلك الصفات الكاملة وهذا المعنى في لسان العرب شائع وفي مجاراتهم ومجاري أساليبهم ذائع ، فوقف حمار الشيخ في الطين .

ولما رأيته صغير السن وكان سني إذ ذاك نحو تسع عشرة سنة ، قال لي : تصلح أن تكون مثل ولد ولدي فمن أين جاءت هذه المعرفة التامة ؟ فقلت له : جميع ما سألتني عنه هو من علوم البداية ولو خضت معي في مقام النهاية لأسمعتك ما يصم أذنك وفي هذا القدر

(١) سورة النحل : الآية ١٠٣ .

كفاية ، فترك المناظرة ورجع القهقري ، وشاع صيتي في مالطة بين الرهبان والكبراء وكنت إذا مررت في السوق يحترمونني وماخدمت كافراً قط وكان سبب خلاصي رؤيا مبشرة ، من يومها ركبت سفينة النجاة متوجهاً لإسكندرية ثم منها لمصر القاهرة .

ثم سافرت للحجاز مراراً ودخلت اليمن وعمان البحرين والبصرة وحلب ودمشق وتوجهت للروم ثم ألقى عصا التسيار في بيت المقدس ، وجاءني الفتيا وأنا لها كاره . ومراسلاته وأشعاره كثيرة . وكانت وفاته في القدس سنة إحدى وتسعين ومائة وألف ، رحمه الله تعالى (١) .

فهذا الشاب الذي لم يبلغ العشرين من عمره جرت منه هذه المناظرة القوية العميقة ، وهي تدل على نبوغ مبكر ، كما تدل على قوة الحركة العلمية في ذلك العصر ، حيث إن هذه المقدرة العلمية الفائقة كانت نتاج المدارس الإسلامية المنتشرة آنذاك في المساجد ودور العلم .

لقد أعز هذا الشاب الصغير الإسلام ، ورفع من ذكر علماء المسلمين ، حيث أصبح أحبار النصارى حيارى مخذولين معه ، ولسان حالهم يقول : إذا كان هذا موقفنا مع هذا التلميذ فكيف لو ناظرنا شيوخه الذين تلقى عنهم العلم .

ولقد كان جريئاً حينما خاطبهم بذلك الأسلوب القوي الهجومي مع أنه كان في موقف الضعف وكانوا في موقف القوة ، وألغى التفكير

(١) المختار المصون للدكتور محمد بن حسن بن عقيل / ١٣٤٨ - ١٣٥١ نقلاً عن سلك الدرر للشيخ محمد المرادي .

في كل الاحتمالات الممكنة التي منها أن يتعرض للقتل من أجل إعزاز
الإسلام والدفاع عنه ، وهذا يدل على قوة إيمانه ورسوخ يقينه .

* * *

مواقف وعبد
في
إعزاز العلم وتكريم أهله

لقد كان لأعيان السلف - رحمهم الله تعالى - مواقف مشرفة في
إعزاز العلم وتكريم أهله ، سواء من العلماء أو الأمراء .
من مواقف عبد الله بن عباس رضي الله عنهما :

ذكر الإمام الذهبي من خبر أبي العالية قال : كان ابن عباس
رضي الله عنهما يرفعني على السرير وقريش أسفل من السرير ،
فتغامزت بي قريش فقال ابن عباس : هكذا العلم يزيد الشريف شرفاً
ويُجلس المملوك على الأسرة .

قال الإمام الذهبي : هذا كان سرير دار الإمرة لما كان ابن عباس
متوليها لعلي رضي الله عنهم (١) .

فهذا موقف كريم من عالم الأمة الكبير في تكريم حملة العلم
الشرعي ، وتكريم العلماء يعتبر إعزازاً للعلم .

فلقد كان أبو العالية رُفيع بن مهران الرياحي رحمه الله تعالى من
الموالي ، فاستكثر العرب من قريش أن يرفعه ابن عباس فوقهم وهم
أصحاب النسب الرفيع ، فأبان لهم أن مؤهل الكرامة والرفعة ليس في
شرف النسب ، وإنما هو في العلم الذي يوصل صاحبه إلى التقوى ،
وينفع الله به الأمة .

وعلى هذا المنهج ينبغي أن يسير المسلمون في تكريم أهل العلم
ورفع مكانتهم بغض النظر عن انسابهم ومواطنهم .

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠٨/٤ ، وذلك حينما كان ابن عباس أميراً على البصرة .

موقف من الإمام مكحول رحمه الله :

من ذلك مارواه الوليد بن مسلم عن ابن جابر قال : أقبل يزيد بن عبد الملك إلى " مكحول " في أصحابه ، فلما رأيناه هممنا بالتوسعة له ، فقال مكحول : دعوه يجلس حيث أدرك يتعلم التواضع (١) .

فهذه ملاحظة مهمة من أبي عبد الله مكحول الشامي رحمه الله في آداب التعلم ، فمن أهم آدابه التواضع ، وقد كان العلماء يحرصون على لزوم تحلي طالب العلم بالتواضع ، ويرون أن تميز بعض الطلاب بمزايا خاصة قد يفسدهم بما يتولد عن ذلك من اتصافهم بالكبرياء والغرور ، وقد يفسد بعض الطلاب الآخرين بما يتربى في نفوسهم من الحقد والضغينة على هؤلاء الطلاب المميزين ، كما أن ذلك يضعف من مكانة الشيخ عندهم ومن قوة ارتباطهم به ، وبالتالي يضعف المستوى العلمي عند هؤلاء وهؤلاء .

من مواقف الإمام مالك رحمه الله :

من أمثلة مواقف العلماء في إعزاز العلم مارواه عمر بن المحبر الرُّعَيْنِي قال : قدم المهدي المدينة فبعث إلى مالك فأتاه ، فقال له هارون وموسى (٢) : اسمعنا منه ، فبعث إليه فلم يجبهما ، فأعلما المهدي ، فكلمه فقال : يا أمير المؤمنين العلم يُؤْتَى أهله ، فقال : صدق مالك ، صبراً إليه ، فلما صاراً إليه قال له مؤدبهما : إقرأ علينا ، فقال : إن أهل المدينة يقرؤون على العالم كما يقرأ الصبيان على المعلم ، فإذا

(١) سير أعلام النبلاء ١٦٢/٥ .

(٢) يعني قال المهدي لابنيه هارون وموسى .

أخطأ أفتاهم ، فرجعوا إلى المهدي فبعث إلى مالك فكلمه ، فقال : سمعت ابن شهاب يقول : جمعنا هذا العلم في الروضة من رجال وهم يا أمير المؤمنين سعيد بن المسيب وأبو سلمة ، وعروة ، والقاسم ، وسالم ، وخارجة بن يزيد ، وسليمان بن يسار ، ونافع ، وابن هرمز . [قال مالك :] ومن بعدهم : أبو الزناد ، وربيعه ، ويحيى ابن سعيد ، وابن شهاب ، كل هؤلاء يُقرأ عليهم ولا يقرؤون ، فقال : في هؤلاء قدوة ، صيروا إليه فاقروا ، ففعلوا (١) .

وهكذا أصر الإمام مالك بن أنس على الالتزام بالمنهج التعليمي الذي تعلمه من شيوخه لأن هذا المنهج يحمل طالب العلم على التواضع للعلماء واحترام العلم ، فالعلم ليس مجرد معلومات يُحشَى بها الفكر والذاكرة ، وإنما هو منهج حياة وعمل صالح وسلوك قويم يترتب على العلم النافع ، فإذا أخذ العلم بالتعالى والترفع واعتبار المنزلة الاجتماعية فإنه يورث الكبر والغرور فيضر صاحبه أكثر مما ينفعه .

فالعلماء الربانيون كانوا يحرصون دائماً مع نشر العلم على تربية الطلاب وتقويم سلوكهم ، فإذا تهيأت الظروف المناسبة لطلب العلم عند الطالب قبلوه في حلقتهم لثقتهم بأن غرسهم الطيب سيؤتي بإذن الله تعالى ثمراته الطيبة ، أما إذا كانت بداية الطالب لاتناسب كونه طالب علم فإنهم يرفضونه من أول الأمر حتى لا يكون طلبه للعلم وبالأعلى عليه وعلى مجتمعه .

ونجد الإمام مالكا يركز على ملاحظة سلامة الآثار المترتبة على

(١) سير أعلام النبلاء ٦٣/٨ .

التعلم حيث يحرص على تهيئة الجو المناسب للانتفاع بالعلم قبل نشره، ومن أمثلة ذلك مارواه هارون بن موسى الفروي قال: سمعت مصعبا الزبيري يقول : سأل هارون الرشيد مالكا وهو في منزله ومعه بنوه أن يقرأ عليهم ، قال: ماقرأت على أحد منذ زمان وإنما يُقرأ عليّ، فقال : أخرج الناس حتى أقرأ أنا عليك، فقال: إذا مُنِع العام لبعض الخاص لم ينتفع الخاص ، وأمر معن بن عيسى فقرأ عليه^(١) .

فهذه كانت فرصة ثمينة أمام الإمام مالك ليقرأ على أمير المؤمنين وبنيه لعلهم يتأثرون بمواعظه، خاصة إذا اختار الموضوعات المناسبة للمقام ، ولكن مالكا كان يشدد على ضمان الانتفاع بهذا العلم ويرى أن التواضع بين يدي المعلم عامل أساسي في حصول هذا النفع، ويرى أن أهم أسباب هذا التواضع أن يقوم الطالب بالقراءة بين يدي الشيخ .

وفي كلامه مايدل على أن تميز بعض الطلاب بخصائص معينة يحرمهم من الاستفادة ، لأن التميز مدخل من مداخل الكبرياء وإذا دخل في النفس شيء من ذلك حرم الطالب من التوفيق إلى الانتفاع، لأن القلوب بيد الرحمن جل وعلا فإذا علم من عبده أن قلبه متجرد للعلم مشتاق إلى الانتفاع بما تعلم لِيَتَّبِعَهُ بالعمل الصالح وفقه إلى العلم النافع وسدد خطاه نحو العمل الصالح ، وإذا علم أن قلب عبده قد تسربت إليه اعتبارات أخرى دفعتة إلى التعلم حال بينه وبين العلم النافع ، فلم يثمر علمه عملا صالحا .

ومن ذلك ماروي عن الإمام مالك رحمه الله من تعظيمه حديث

(١) سير أعلام النبلاء ٦٦/٨ .

رسول الله ﷺ ، وفي ذلك يقول ابن أبي أويس : كان مالك إذا أراد أن يحدث توضأ وجلس على فراشه ، وسرح لحيته ، وتمكن من الجلوس بوقار وهيبة ، ثم حدث ، فقليل له في ذلك ، فقال : أحب أن أعظم حديث رسول الله ﷺ ، ولا أحدث به إلا على طهارة متمكنا ، وكان يكره أن يحدث في الطريق وهو قائم أو يستعجل ، فقال : أحب أن أتفهم ما أحدث به عن رسول الله ﷺ (١) .

فهذا مثل من تعظيم الإمام مالك لحديث رسول الله ﷺ واهتمامه به ، فهو لا يحدث به إلا على طهارة مع أن ذلك ليس واجبا عليه ، ويكون متمكنا من جلوسه بوقار وهيبة ، ولا يحدث به قائما أو ماشيا .

وهذا الاهتمام يدل على مبلغ توقيره لرسول الله ﷺ وتعظيمه للإسلام .

وقد ذكر من حكمة ذلك أن يكون مستجمعا لفكره حتى يحدث بفهم واستيعاب لما يحدث به ، ومن أجل ذلك نفع الله تعالى بعلمه ، وطار صيته في مشارق الأرض ومغاربها ، لأنه كان يحدث من قلبه ، فكل من سمعه وصل حديثه إلى قلبه .

وإذا تصورنا أنه يعيد الحديث الواحد عشرات المرات كلما جاءه من يطلب سماعه منه كما فعل في الموطأ ، وفي كل مرة يستجمع فكره ويتأمل معاني الأحاديث . . إذا تصورنا ذلك فما أعمق الفهم الذي سيخرج به ! وما أغزر العلم الذي سيستنبطه من تلك الأحاديث !

(١) حلية الأولياء ٣١٨/٦ .

من مواقف أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور رحمه الله :

من ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير في ترجمة أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور ، قال : وقد كان المنصور في شبابه يطلب العلم من مظانّه والحديث والفقه ، فنال جانبا جيدا وطرفا صالحا ، وقد قيل له يوما : يا أمير المؤمنين هل بقي شيء من اللذات لم تنلّه ؟ قال : شيء واحد ، قالوا : وما هو ؟ قال : قول المحدث للشيخ من ذكرتَ رحمك الله ، فاجتمع وزراؤه وكتّابه حوله وقالوا : ليملّ علينا أمير المؤمنين شيئا من الحديث ، قال : لستم بهم ، إنما هم الدنسة ثيابهم المشققة أرجلهم الطويلة شعورهم ، رُؤَاد الآفاق وقُطَاع المسافات ، تارة بالعراق وتارة بالحجاز ، وتارة بالشام وتارة باليمن ، فهؤلاء نقلة الحديث (١) .

فهذا تقدير عظيم من أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور للعلم وأهله ، ولا يقدرُ الأمور العظيمة إلا العظماء ، فهو يرى أن كل ما هو فيه من متاع الدنيا . . من المال والجاه والسلطان لا يعادل متعة الشيخ العالم حينما يقول له تلميذه : مَنْ ذَكَرْتَ رحمك الله . . وذلك لأن الاحترام الصادر من التلميذ لشيخه لا يعادله أي احترام من أحد لأحد .

وأبو جعفر المنصور كان يفكر بالاحترام القلبي من التلاميذ لشيخهم ، الذي تعبّر عنه قَسَمَاتُ وجوههم ونظرات التلهّف والشوق إلى المزيد من السماع منه ، فيرى أن هذا المشهد المؤثر لا يتكرر وجوده في غير ذلك الجو الروحي المحيط بحلقات العلم .

(١) البداية و النهاية ١٠ / ١٢٩ .

وحيثما عرض عليه وزراؤه وكتبابه أن يوفروا له هذه المتعة بتحوّلهم إلى طلاب علم وقيامه بتحديثهم أبان لهم أن هذه الصورة المصطنعة لا تُكوّن تلك المتعة الروحية لأن أبطال هذا الميدان ليسوا هم، وإنما هم طلاب العلم الحقيقيون الذين ذكر صفتهم .

موقف للقاضي شريك النخعي رحمه الله :

مما كان يلاحظه العلماء أن يكون الطالب على هيئة تضمن اتصافه بخلق التواضع وبعده تماما عن مداخل الكبر ، يدل على ذلك ما رواه حمدان بن الأصبهاني قال : كنت عند شريك فأتاه بعض ولد المهدي فاستند ، فسأله عن حديث فلم يلتفت إليه وأقبل علينا ، ثم أعاد فعاد بمثل ذلك ، فقال : كأنك تستخف بأولاد الخليفة ، قال : لا ولكن العلم أزين عند أهله من أن تضعوه ، قال : فجثا على ركبتيه ، ثم سأله ، فقال شريك : هكذا يطلب العلم (١) .

وهذه لفظة جليلة من القاضي شريك بن عبد الله النخعي رحمه الله تعالى ، يعلم بها طلاب العلم التواضع قبل أن يعلمهم العلم ، وذلك لضمان انتفاعهم بالعلم ، وعدم حصول القدوة السيئة بهم من الطلاب الآخرين .

موقف للإمام ابن المبارك رحمه الله :

من مواقف الإمام عبد الله بن المبارك ، ما رواه أحمد بن الحواري قال : جاء رجل من بني هاشم إلى عبد الله بن المبارك ليسمع منه ، فأبى أن يحدثه ، فقال الشريف لغلामه : قم فإن أبا عبد الله لا يرى

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠٧/٨ .

أن يحدثنا، فلما قام ليركب جاء ابن المبارك ليمسك بركابه، فقال: يا أبا عبد الرحمن تفعل هذا ولا ترى أن تحدثني ! فقال: أذل لك بدني ولا أذل لك الحديث (١) .

فهذا الرجل الشريف قد أتى بهيئة تتسم بالترفع والكبرياء فتخرج الإمام ابن المبارك من أن يحدثه وهو على تلك الحال حتى لا يُذل حديث رسول الله ﷺ .

وهذه النظرة الجليلة وأمثالها كان فيها حمايةً للعلم من أن يحمله من ليسوا من أهله ، ومع هذا فإن ابن المبارك كان داعية ناجحاً حينما تواضع لذلك الرجل وقام ليعلمه فأذل له نفسه في الوقت الذي أعز فيه علمه ، فله دره من إمام حكيم يضع الأمور في مواضعها .
من مواقف أمير المؤمنين المأمون رحمه الله :

من مواقف الخلفاء في تقدير العلماء واحترامهم ماروي عن المأمون أنه قد وكل الفراء يُلَقِّن ابنه النحو ، فلما كان يوماً أراد الفراء أن ينهض إلى بعض حوائجه فابتدرا إلى نعل الفراء يقدمانه له ، فتنازعا أيهما يقدمه ، ثم اصطلحا على أن يقدم كل واحد منهما فرداً، فقدماهما .

وكان المأمون له على كل شيء صاحب ، فرفع ذلك إليه الخبر، فوجه إلى الفراء فاستدعاه ، فلما دخل عليه قال له : من أعز الناس؟ قال: ما أعرف أعز من أمير المؤمنين ، قال : بلى من إذا نهض تقاتل على تقديم نعليه وليا عهد المسلمين ، حتى رضى كل واحد أن يقدم

(١) سير أعلام النبلاء ٤٠٤ / ٨ .

له فردا ، قال : ياأمير المؤمنين لقد أردت منعهما من ذلك ولكن خشيت أن أدفعهما عن مكرمة سبقا إليها ، أو أكسر نفوسهما عن شريفة حرصا عليها ، وقد رُوي عن ابن عباس أنه أمسك للحسن والحسين ركابهما حين خرجا من عنده، فقال له بعض من حضر: أتمسك لهذين الحداث ركابهما وأنت أسنُّ منهما ؟ قال له : اسكت ياجاهل ، لايعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذوو الفضل .

قال له المأمون : لو منعتهما عن ذلك لأوجعتك لوما وعتبا وألزمتك ذنبا ، وماوَضع مافعلاه من شرفهما ، بل رفع من قدرهما، وبَيَّن عن جوهرهما، وقد ثبتت لي مَخيلة الفراسة بفعلهما، فليس يكبر الرجل - وإن كان كبيرا - عن ثلاث : عن تواضعه لسلطانه، ووالده ، ومعلمه العلم ، وقد عوضتهما عما فعلاه عشرين ألف دينار، ولك عشرة آلاف درهم على حسن أدبك لهما (١) .

فهذا مثل من أدب التلاميذ مع المعلمين يقدمه ولدا الخليفة المأمون، وإن هذا السلوك العالي لا يأتي عفوا وإنما هو نتاج تربية قومية جادة تلقياها في البيت ، وهذا مثل على عقل المأمون وحزمه وأدبه حيث ربَّى أولاده هذه التربية ، وهو دليل على المستوى الرفيع الذي بلغه بعض الخلفاء في تربية أبنائهم على الأخلاق العالية ، وإذا كان أبناء الكبراء يتصفون بهذا الخلق الرفيع فإن من دونهم سيتأسَّون بهم، وبهذا يصلح أبناء الأمة ، ويتكوَّن منهم مستقبلاً المجتمعُ الصالح .

وجميل من أمير المؤمنين المأمون أن خاطب الفراء بذلك الخطاب

(١) تاريخ بغداد ١٤ / ١٥٠ - ١٥١ . والفراء هو يحيى بن زياد عالم اللغة .

الذي لفت انتباهه ، حيث أورد المسألة مورد المعاتبة وهو يريد في قرارة نفسه الإعزاز والإكبار ، فإن صياغة المسألة بقلب المعاتبة أنتجت ذلك الجواب التربوي الحكيم من الفراء ، الذي أبان به عدم ارتياحه نفسياً لما حدث من ولدي الخليفة ، ولكنه أقرهما على ذلك الاحترام مخافة أن يصدّهما عن فضيلة تنافسا عليها، وخليفة كريمة سابقا إليها .

وبراعة علمية من الفراء أن استحضر حالاً خبر ابن عباس مع الحسن والحسين رضي الله عنهم ، فإن ذلك الخبر يدل على أن تواضع الكبير الشهير بالعلم لمن هم دونه في السنّ والعلم لا يحط من قدره، بل يرفع من ذكره ويدل على رجاحة عقله ، فكذلك تواضع من نشأوا في بيوت العز والشرف وانتسبوا إلى أعلى مسئول في الأمة لمعلمهم لا يحط من قدرهم بل يُعلي من شأنهم ويدل على أصالة معدنهم .

وموقف تربوي رفيع للمأمون يدل على رجاحة عقله وحلمه وأدبه حيث أيدّ الفراء على سلوكه التربوي مع ولديه بأسلوب يدل على عمق تأثره وفرط إعجابه بما حدث ، ولا يقدر الفضائل إلا أهلها، ولا يعتز بالمكارم إلا من نشأ عليها .

موقفان للأميرين طاهر بن الحسين وابنه عبد الله رحمهما الله :

ومن مواقف الأمراء في تقدير العلماء وتكريمهم مارواه الخطيب البغدادي بإسناده عن محمد بن جعفر بن هارون التميمي النحوي قال : كان طاهر بن الحسين - حين مضى إلى خراسان - نزل بمرور فطلب رجلاً يحدثه ليلة ، فقليل : ماهنا إلا رجل مؤدب فأدخل عليه

أبو عبيد القاسم بن سلام فوجده أعلم الناس بأيام الناس والنحو واللغة والفقه ، فقال له : من المظالم تركت أنت بهذا البلد ، فدفع إليه ألف دينار ، وقال له : أنا متوجه إلى خراسان إلى حرب ، وليس أحب استصحابك شفقاً عليك ، فأنفق هذا إلى أن أعود إليك ، فألف أبو عبيد « غريب المصنف » إلى أن عاد طاهر بن الحسين من خراسان ، فحمله معه إلى « سر من رأى » وكان أبو عبيد دينا ورعا جوادا (١) .

وكذلك قام بإكرامه وتقديره الأمير عبد الله بن طاهر ، كما أخرج البغدادي من خبر حارث بن محمد بن أبي أسامة قال : حمّل غريب حديث أبي عبيد إلى عبد الله بن طاهر فلما نظر فيه قال : هذا رجل عاقل دقيق النظر ، فكتب إلى إسحاق بن إبراهيم بأن يجري عليه في كل شهر خمسمائة درهم (٢) .

ففي هذين الخبرين مثل من اهتمام الولاة بإكرام العلماء وتقديرهم ، وإن ما يُحظَى به العلماء من تقدير الأمراء وإكرامهم يعتبر أبلغ مشجع لهم على الإنتاج العلمي ونفع المسلمين ، فهذا العالم الجليل أبو عبيد القاسم بن سلام لما يسر الله له من وفرغه من طلب الرزق تفرغ لتأليف الكتب النافعة التي استفاد منها طلاب العلم قروناً عديدة .

وهذا التقدير من الأميرين طاهر بن الحسين وابنه عبد الله يدل على ارتفاع مستواهما في العلم والعقل والأدب .

(١) تاريخ بغداد ٤٠٥/١٢ - ٤٠٦ ، سير أعلام النبلاء ٤٩٣/١٠ .

(٢) تاريخ بغداد ٤٠٦/٢ ، سير أعلام النبلاء ٤٩٥/١٠ .

من مواقف الوزير يحيى بن هبيرة رحمه الله :

ومن ذلك ما ذكره الحافظ ابن رجب عن صاحب سيرة الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة قال : وكنا يوماً عنده والمجلس غاصُّ بؤلاة الدين والدنيا ، والأعيان الأماثل ، وابنُ شافع يقرأ عليه الحديث إذ فجأنا من باب الستر وراء ظهر الوزير صراخ بشع وصياح يرتفع ، فاضطرب المجلس وارتاع الحاضرون ، والوزير ساكن ساكت ، حتى أنهى ابن شافع قراءة الإسناد ومنتَه ، ثم أشار الوزير إلى الجماعة : على رسلكم ، ثم قام ودخل إلى الستر ولم يلبث أن خرج ، فجلس وتقدم بالقراءة ، فدعا له ابن شافع والحاضرون وقالوا : قد أزعجنا ذلك الصياح ، فإن رأى مولانا أن يعرفنا سببه ، فقال الوزير : حتى ينتهي المجلس ، وعاد ابن شافع إلى القراءة حتى غابت الشمس وقلوب الجماعة متعلقة بمعرفة الحال ، فعاودوه فقال : كان لي ابن صغير مات حين سمعتم الصياح ولولا تعيين الأمر بالمعروف في الإنكار عليهم ذلك الصياح لما قمت عن مجلس رسول الله ﷺ ، فعجب الحاضرون من صبره (١) .

فهذا مثل في الصبر القوي الجميل يقدمه الوزير ابن هبيرة ، فقد صبر على موت ابنه ولم يظهر منه شيء من الجزع ، وهذا يدل على قوة إيمانه بقضاء الله تعالى وقدره ، وصبره على بلائه .

وفي هذا الخبر موقف جليل لهذا الوزير في احترام السنة النبوية وتعظيمها ، فقد أبى أن يخبر الحاضرين بما حدث من موت ولده حتى

(١) طبقات الحنابلة ٣/ ٢٦٣ .

انتهى ذلك المجلس العلمي المخصص لأحاديث رسول الله ﷺ ، وفي ذلك إعزاز للعلم الشرعي واحترام كبير له .

* * *

مواقف وعبد

في

الحكمة والفراسة وسرعة البديهة

من مواقف أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه :

أخرج المؤرخ عمر بن شبة من خبر سعيد بن عبد العزيز: أن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه أغزى جيشاً فغزا فيهم فتى كانوا يدنو من عمر رضي الله عنه ويألفه، فأوصى به عمر صاحب البعث خيراً، فكان معه، فراودته جارية لصاحب الجيش أو لرفيق له عن نفسها فامتنع منها، فأخذت نفقةً لسيدها فجعلتها في عيبة الفتى، فافتقدها صاحبها فوجدتها في عيبة الفتى، فقطع يده، ثم أراد حسمها بالنار فامتنع عليهم فمات .

فلما قفل الجيش سأل عمر رضي الله عنه عن الفتى، فأخبروه بأمره، قال: ويبيد عمر رضي الله عنه عصا، فجعل ينكت بها الأرض ويقول: والله مازنى وماسرق، والله مازنى وماسرق! هل كانت معكم جارية؟ قالوا: نعم، قال: إيتوني بها، فأتوه بها فسألها فاعترفت، فأمر بها عمر رضي الله عنه فقتلت به .

قال سعيد: فمن يومئذ قال عمر رضي الله عنه: لا يقطع إلا إمام .

قال سعيد: وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من استعملناه منكم فليجعل الرفق - يعني العدل والأمانة - (١) .

فهذه فرائد صادقة من أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، حيث أدرك أولاً أن دين ذلك الفتى يمنعه من ارتكاب الفواحش، ثم أدرك ثانياً أنه قد وقع في حبائل امرأة شيطانة فكادت له حتى أوقعته في تهمة هو برئ منها .

(١) تاريخ المدينة المنورة / ٨٢٠ - ٨٢١ .

وهكذا ظهرت لنا صفة من صفات أمير المؤمنين عمر التي تميز بها، فكم هي الصفات السامية والأخلاق العالية التي تفوق فيها !!
ومن ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر الأحنف بن قيس قال: ماسمع الناس بمثل عمر بن الخطاب في باب الدين والدنيا، كان منور القلب فطنا بجميع الأمور، بيناه يطوف ذات ليلة سمع امرأة تقول في الطواف وهي تنشد :

فمنهن من يسقى بعذب مبرد نقاخ فتلكم عند ذلك قرّت
ومنهن من تسقى بأخضر آجن أجاج ولولا خشية الله فرّت
ففطن رحمه الله إلى ماتشكو، فبعث إلى زوجها، فقال لرجل:
استنكه فمه، فوجده متغير الفم فخيره بين خمسمائة درهم وجارية من
الفيء على أن يطلقها، فاختر خمسمائة والجارية فطلقها (١).

فهذا أسلوب بليغ في الشكوى من تلك المرأة، وفكر لماح وعاطفة
جياشة ونظرة رحيمة حانية من أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، فقد
فهم مشكلة تلك المرأة التي عبرت عنها بالتلميح، وحل مشكلتها بعدل
وحزم، وهكذا تكون سياسة العذل والرحمة والشعور بالمسؤولية .
مثل من حكمته في علاج المشكلات :

من مواقف أمير المؤمنين حُسن تصرفه في مواجهة المفاجآت
والنوائب، ومن أمثلة ذلك ما أخرجه الإمام البخاري ومسلم وغيرهما
من حديث ابن عباس رضي الله عنهما « أن عمر بن الخطاب رضي
الله عنه خرج إلى الشام، حتى إذا كان بسرغ لقيه أمراء الأجناد- أبو

(١) تاريخ دمشق ٣٥٥/٤٤ .

عبدة بن الجراح وأصحابه - فأخبروه أن الوباء قد وقع بأرض الشام، قال ابن عباس : فقال عمر: ادع لي المهاجرين الأولين- فدعاهم فاستشارهم وأخبرهم أن الوباء قد وقع في الشام، فاختلفوا فقال بعضهم: قد خرجنا لأمر ولانرى أن نرجع عنه، وقال بعضهم: معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ ولانرى أن تقدمهم على هذا الوباء، فقال: ارتفعوا عني، ثم قال: ادعوا لي الأنصار، فدعوتهم فاستشارهم فسلخوا سبيل المهاجرين واختلفوا كاختلافهم، فقال: ارتفعوا عني، ثم قال: ادع لي من كان ههنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح، فدعوتهم فلم يختلف منهم عليه رجلان: فقالوا: نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء، فنادى عمر في الناس: أني مصبح على ظهر فأصبحوا عليه، فقال أبو عبيدة بن الجراح: أفراراً من قدر الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت إن كانت لك إبل هبطت وادياً له عدوتان: إحداهما خصيبة والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصيبة رعيتها بقدر الله وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟ قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف- وكان متغيياً في بعض حاجته- فقال: إن عندي في هذا علماً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها فراراً منه.

قال : فحمد الله عمر ، ثم انصرف (١).

(١) صحيح البخاري ، كتاب الطب رقم ٥٧٢٩ (الفتح ١٠/ ١٧٩) .

صحيح مسلم ، كتاب السلام رقم ٢٢١٩ .

تاريخ الطبري ٥٧/٤ .

ويمكن تلخيص المواقف التي تتجلى في هذا النص فيما يلي :

١ - اهتمام عمر رضي الله عنه بتطبيق مبدأ الشورى في الأمور المهمة ، ونجد أنه بدأ بالمهاجرين الأولين، ثم بالأنصار ، ثم بالمهاجرين بعد فتح مكة، وذلك أن من كان في الإسلام أقدم كان به أعلم فهو أولى بأن يقدم في المشورة، فأمر الشورى في الإسلام يدور دائما على العلماء بهذا الدين .

وقد أخذ عمر رضي الله عنه برأي الكثرة من أهل الرأي، قال الحافظ ابن حجر في بيان فوائد الحديث: وفيه الترجيح بالأكثر عدداً والأكثر تجربة لرجوع عمر لقول مشيخة قريش مع ما انضم إليهم ممن وافق رأيهم من المهاجرين و الأنصار، فإن مجموع ذلك أكثر من عدد من خالفه من كل من المهاجرين والأنصار (١).

وهذا يفيد بأن الكثرة أمر ملحوظ في المشورة إذا كان المستشارون من أهل الدين والرأي السديد .

٢ - فقه عمر وسعة تفكيره حينما قال: أفرُّ من قدر الله إلى قدر الله، قال الحافظ ابن حجر في بيان كلام عمر هذا: وأطلق عليه فرارا لشبهه به في الصورة وإن كان ليس فراراً شرعياً، والمراد أن هجوم المرء على ما يهلكه منهي عنه، ولو فعل لكان من قدر الله، وتجنبه مايؤذيه مشروع وقد يقدر الله وقوعه فيما فرَّ منه فلو فعله أو تركه لكان من قدر الله، فهما مقامان : مقام التوكل ومقام التمسك بالأسباب (٢).

(١) الفتح ١٠ / ١٩٠ .

(٢) الفتح ١٠ / ١٨٥ .

وقد أكد عمر رضي الله عنه بيان اجتهاده هذا بضرب هذا المثل المقنع فيمن هبط بماشيته وادياً له عُدوتان، يعني جانبان مرتفعان، أحدهما خصيب والآخر جرد، فهو إن ساق ماشيته نحو الخصب ساقها بقدر الله، وإن ساقها نحو الجرد ساقها بقدر الله، وإذا كان راعي الماشية مسئولاً عن أن يرتاد لها ماينفعها وأن يحوزها عما يضرها فإن مسئولية الولاية في الأمة أعظم من ذلك بكثير .

وقد كان من تمام التوفيق أن وافق اجتهاد عمر وماعزم عليه من الرجوع أمر النبي ﷺ الذي كان محفوظاً عند عبد الرحمن بن عوف وهو قوله في هذا الوباء « إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه » .

أما بيان هذا الحديث فقد أفاض فيه الحافظ ابن حجر حيث نقل عن الإمام الطحاوي قوله : والذي يظهر والله أعلم أن حكمة النهي عن القدوم عليه لئلا يصيب من قدم عليه بتقدير الله فيقول : لولا أنني قدمت هذه الأرض لما أصابني، ولعله لو أقام في الموضع الذي كان فيه لأصابه، فأمر أن لا يقدم عليه حسماً للمادة، ونهي من وقع وهو بها أن يخرج من الأرض التي نزل بها لئلا يسلم فيقول مثلاً : لو أقمت في تلك الأرض لأصابني ما أصاب أهلها، ولعله لو كان أقام بها ما أصابه من ذلك شيء أ.هـ

قال الحافظ : ويؤيده ما أخرجه الهيثم بن كليب والطحاوي والبيهقي بسند حسن عن أبي موسى - يعني الأشعري رضي الله عنه - أنه قال : « إن هذا الطاعون قد وقع، فمن أراد أن يتنزه عنه فليفعل،

واحذروا اثنتين، أن يقول قائل: خرج خارج فسلم، وجلس جالس فأصيب فلو كنت خرجت لسلمت كما سلم فلان، أولو كنت جلست أُصبت كما أُصيب فلان» قال: لكن أبا موسى حمل النهي على من قصد الفرار محضاً، ولا شك أن الصور ثلاث، من خرج لقصد الفرار محضاً فهذا يتناوله النهي لامحالة، ومن خرج لحاجة متمحضة لا لقصد الفرار أصلاً، ويتصور ذلك فيمن تهيأ للرحيل من بلد كان بها إلى بلد إقامته مثلاً ولم يكن الطاعون وقع فاتفق وقوعه في أثناء تجهيزه فهذا لم يقصد الفرار أصلاً فلا يدخل في النهي، والثالث من عرضت له حاجة فأراد الخروج إليها وانضم إلى ذلك أنه قصد الراحة من الإقامة بالبلد التي وقع بها الطاعون فهذا محل النزاع، ومن جملة هذه الصورة الأخيرة أن تكون الأرض التي وقع بها وخمة، والأرض التي يريد التوجه إليها صحيحة فيتوجه بهذا القصد، فهذا جاء النقل فيه عن السلف مختلفاً، فمن منع نظر إلى صورة الفرار في الجملة، ومن أجاز نظر إلى أنه مستثنى من عموم الخروج فراراً لأنه لم يتمحض للفرار وإنما هو لقصد التداوي، وعلى ذلك يحمل ما وقع في أثر أبي موسى المذكور» أن عمر كتب إلى أبي عبيدة: إن لي إليك حاجة فلا تضع كتابي من يدك حتى تقبل إلي، فكتب إليه: إني قد عرفت حاجتك، وإني في جند من المسلمين لا أجد بنفسي رغبة عنهم، فكتب إليه: أما بعد فإنك نزلت بالمسلمين أرضاً غميقة فارفعهم إلى أرض نزهة، فدعا أبو عبيدة أبا موسى فقال: اخرج فارتد للمسلمين منزلاً حتى انتقل بهم .

قال: فذكر القصة في اشتغال أبي موسى بأهله [يعني لما أصيبت

بالتطاعون [ووقوع الطاعون بأبي عبيدة لما وضع رجله في الركاب متوجهاً، وأنه نزل بالناس في مكان آخر فارتفع الطاعون .

قال: وقوله « غميقة » أي قرية من المياه والنزور وذلك مما يفسد غالباً به الهواء لفساد المياه ، والنزهة الفسيحة البعيدة عن الوخم .

قال: فهذا يدل على أن عمر رأى أن النهي عن الخروج إنما هو لمن قصد الفرار متمحضاً، ولعله كانت له حاجة بأبي عبيدة في نفس الأمر فلذلك استدعاه، وظن أبو عبيدة أنه إنما طلبه ليسلم من وقوع الطاعون به فاعتذر عن إجابته لذلك، وقد كان أمر عمر لأبي عبيدة بذلك بعد سماعهما للحديث المذكور من عبد الرحمن بن عوف فتأول عمر فيه ماتأول، واستمر أبو عبيدة على الأخذ بظاهره .

قال: وأيد الطحاوي صنيع عمر بقصة العرنين فإن خروجهم من المدينة كان للعلاج لا للفرار (١).

هذا وقصة العرنين كانت في عهد النبي ﷺ وكانوا قد وفدوا إلى المدينة فاستوخموها فأمرهم أن يخرجوا خارج المدينة وأن يشربوا من ألبان الأبل وأبوالها، كما جاء في رواية الإمام البخاري (٢).

ونقل عن الشيخ تقي الدين بن دقيق العبد قوله: الذي يترجح عندي في الجمع بينهما- يعني عدم القدوم وعدم الخروج- أن في الإقدام عليه تعريض النفس للبلاء ولعلها لاتصبر عليه، وربما كان فيه ضرب من الدعوى لمقام الصبر أو التوكل فمُنِع ذلك حذراً من اغترار

(١) فتح الباري ١٨٩/١٠ - ١٩٠ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الطب رقم ٥٧٢٧ .

النفس ودعواها مالا تثبت عليه عند الاختبار، وأما الفرار فقد يكون داخلاً في التوغل في الأسباب بصورة من يحاول النجاة بما قدر عليه، فأمرنا الشارع بترك التكلف في الحالتين، ومن هذه المادة قوله ﷺ «لا تتمنوا لقاء العدو وإذا لقيتموهم فاصبروا» فأمر بترك التمني لما فيه من التعرض للبلاء وخوف اغترار النفس إذ لا يؤمن غدرها عند الوقوع، ثم أمرهم بالصبر عند الوقوع تسليماً لأمر الله تعالى (١).

عام الرمادة ومواقف لعمر رضي الله عنه :

من صفات أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه التي تميز بها مقدرته على الخروج من الشدائد، وسياسة الأمور في زمن النكبات والجوائح. ومن أبرز الأمثلة في ذلك ماجرى في عام الرمادة حيث كان في العام الثامن عشر جذب شديد عم أرض الحجاز .

قال الحافظ ابن كثير : وسميت - يعني تلك السنة - عام الرمادة لأن الأرض اسودت من قلة المطر حتى عاد لونها شبيها بالرماد وقيل : لأنها تسفي الرياح تراباً كالرماد ويمكن أن تكون سميت لكل منهما والله أعلم (٢).

وأخرج ابن جرير الطبري بإسناده عن عدد من الشيوخ قالوا : أصابت الناس في إمارة عمر رضي الله عنه سنة بالمدينة وماحولها، فكانت تسفي إذا ريحت (٣) تراباً كالرماد، فسمي ذلك العام عام

(١) فتح الباري ١٠ / ١٩٠ .

(٢) البداية والنهاية ٧ / ٩٠ .

(٣) ريحت : أصابتها الرياح .

الرمادة، فآلى عمر ألا يذوق سمناً ولا لبناً ولا لحمًا حتى يحيى الناس من أول الحيا، فكان بذلك حتى أحيا الناس من أول الحيا، فقدمت السوق عكة من سمن ووطب من لبن فاشتراهما غلام لعمر بأربعين، ثم أتى عمر، فقال: يا أمير المؤمنين، قد أبر الله يمينك، وعظم أجرك، قدم السوق وطب من لبن وعكة من سمن، فابتعتهم بأربعين، فقال عمر: أغليت بهما، فتصدق بهما، فإني أكره أن أكل إسرافًا. وقال عمر: كيف يعنيني شأن الرعية إذا لم يمسنني مامسهم! (١).

وأخرج محمد بن سعد من خبر عبد الله بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده قال: كان عمر يصوم الدهر (٢) قال: فكان زمان الرمادة إذا أمسى أتى بخبز قد ثرد بالزيت إلى أن نحروا يومًا من الأيام جزورًا فأطعمها الناس، وغرفوا له طيبها فأتي به فإذا فدر من سنام ومن كبدي، فقال: أنى هذا؟ قال: يا أمير المؤمنين من الجزور التي نحرنها اليوم، قال: بَخْ بَخْ بئس الوالي أنا إن أكلت طيبها وأطعمت الناس كراديسها، ارفع هذه الجفنة، هات لنا غير هذا الطعام. قال فأتي بخبز وزيت، قال فجعل يكسر بيده ويثرد ذلك الخبز ثم قال: ويحك يا يرفأ! احمل هذه الجفنة حتى تأتي بها أهل بيت بتمغ فإني لم آتهم منذ ثلاثة أيام، وأحسبهم مقفرين، فضعها بين أيديهم (٣).

كما أخرج أيضا من خبر عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال:

(١) تاريخ الطبري ٩٨/٤ .

(٢) صوم الدهر غير مشروع ولم يعرف هذا عن عمر، فلعل المراد أنه يكثر من سرد الصوم.

(٣) طبقات ابن سعد ٣/٣١٢ .

كان عمر بن الخطاب أحدث في زمان الرمادة أمراً ما كان يفعله ، لقد كان يصلي بالناس العشاء ثم يخرج حتى يدخل بيته فلا يزال يصلي حتى يكون آخر الليل ، ثم يخرج فيأتي الأنقاب فيطوف عليها وإنني لأسمعه ليلة في السحر وهو يقول : اللهم لاتجعل هلاك أمة محمد على يدي (١).

وأخرج الطبري من خبر عبد الرحمن بن كعب بن مالك قال : كانت في آخر سنة سبع عشرة وأول سنة ثمان عشرة ، وكانت الرمادة جوعاً أصاب الناس بالمدينة وماحولها فأهلكهم حتى جعلت الوحش تأوي إلى الأنس ، وحتى جعل الرجل يذبح الشاة فيعافها من قبحها وإنه لمقفر (٢).

وقال الحافظ ابن كثير : وقد روي أن عمر عسَّ المدينة ذات ليلة عام الرمادة فلم يجد أحداً يضحك ، ولا يتحدث الناس في منازلهم على العادة ، ولم ير سائلاً يسأل ، فسأل عن سبب ذلك ف قيل له : يا أمير المؤمنين إن السؤال سألوا فلم يعطوا فقطعوا السؤال ، والناس في هم وضيق فهم لا يتحدثون ولا يضحكون ، فكتب عمر إلى أبي موسى بالبصرة : أن ياغوثاه لأمة محمد ، وكتب إلى عمرو بن العاص بمصر : أن ياغوثاه لأمة محمد ، فبعث إليه كل واحد منهما بقافلة عظيمة تحمل البر وسائر الأطعمة ، ووصلت ميرة عمرو في البحر إلى جدة ومن جدة إلى مكة .

(١) طبقات ابن سعد ٣/ ٣١٢ .

(٢) تاريخ الطبري ٤/ ٩٨ .

قال الحافظ : وهذا الأثر جيد الإسناد ، لكن ذكر عمرو بن العاص في عام الرمادة مشكل ، فإن مصر لم تكن فتحت في سنة ثماني عشرة ، فإما أن يكون عام الرمادة بعد سنة ثماني عشرة ، أو يكون ذكر عمرو بن العاص في عام الرمادة وهما والله أعلم (١) .

وأخرج ابن جرير الطبري من خبر عبد الرحمن بن كعب قال : كان ذلك - يعني حادث الرمادة - وعمر كالمحصور عن أهل الأمصار (٢) ، حتى أقبل بلال بن الحارث المزني فاستأذن عليه فقال : أنا رسول رسول الله إليك ، يقول لك رسول الله ﷺ : لقد عهدتك كيسيًا ومازلت على ذلك (٣) فما شأنك ؟ فقال : متى رأيت هذا ؟ قال : البارحة ، فخرج فنادي في الناس فصلي بهم ركعتين ، ثم قام فقال : أيها الناس أنشدكم الله هل تعلمون مني أمراً غيره خير منه ؟ قالوا : اللهم لا ، قال : فإن بلال بن الحارث يزعم ذِيَّةً وذِيَّة - يعني كذا وكذا - قالوا : صدق بلال فاستغث بالله ثم بالمسلمين ، فبعث إليهم - وكان عمر عن ذلك محصوراً - فقال عمر : الله أكبر بلغ البلاء مدته فانكشف ، ماأذن لقوم في الطلب إلا وقد رفع عنهم البلاء ، فكتب إلى أمراء الأمصار : أغيثوا أهل المدينة ومن حولها ، فإنه قد بلغ جهدهم .

وأخرج الناس إلى الاستسقاء ، فخرج وخرج معه العباس ماشياً ،

(١) البداية ٩٠ / ٧ .

(٢) يعني أنه لم يطلب المدد منهم رجاء انكشاف الغمة .

(٣) جاء في الطبري : « ومازلت على رجل » والتصويب من البداية والنهاية .

فخطب فأوجز ثم صلى ، ثم جثا لركبتيه وقال : اللهم إياك نعبد وإياك نستعين ، اللهم اغفر لنا وارحمنا وارض عنا ، ثم انصرف ، فما بلغوا المنزل راجعين حتى خاضوا في الغدران (١) .

وجاء في رواية سيف بن عمر عن شيوخه قالوا : كتب عمر إلى أمراء الأمصار يستغيثهم لأهل المدينة ومن حولها ويستمدهم ، فكان أول من قدم عليه أبو عبيدة بن الجراح في أربعة آلاف راحلة من طعام ، فولاه قسمتها فيمن حول المدينة ، فلما فرغ ورجع إليه أمر له بأربعة آلاف درهم ، فقال : لا حاجة لي فيها يا أمير المؤمنين ، إنما أردت الله وما قبله ، فلا تدخل علي الدنيا ، فقال : خذها فلا بأس بذلك إذ لم تطلبه ، فأبى ، فقال : خذها فإنني قد وليت لرسول الله ﷺ مثل هذا فقال لي مثل ما قلت لك ، فقلت له كما قلت لي ، فأعطاني ، فقبل أبو عبيدة وانصرف إلى عمله (٢) .

وقد استمر هذا الحال بالناس تسعة أشهر ، ثم تحول الحال إلى الخصب والدعة ، وانشمر الناس عن المدينة إلى أماكنهم (٣) .

قال الإمام الشافعي : بلغني أن رجلا من العرب قال لعمر حين ترحلت الأحياء عن المدينة : لقد انجلت عنك ولأنك لابن حرة ، أي واسيت الناس وأنصفتهم وأحسنيت إليهم (٤) .

(١) تاريخ الطبري ٩٨/٤ - ٩٩ .

(٢) تاريخ الطبري ١٠٠/٤ .

(٣) البداية والنهاية ٩٠/٧ .

(٤) البداية والنهاية ٩٠/٧ .

وأخرج ابن سعد من خبر زيد بن أسلم عن أبيه قال: لما كان عام الرمادة تجلبت العرب من كل ناحية فقدموا المدينة فكان عمر بن الخطاب قد أمر رجالاً يقومون عليهم ويقسمون عليهم أطعمتهم وإدامهم فكان يزيد ابن أخت النمر، وكان المسور بن مخرمة، وكان عبد الرحمن بن عبد القاريّ، وكان عبد الله بن عتبة بن مسعود، فكانوا إذا أمسوا اجتمعوا عند عمر فيخبرونه بكل ماكانوا فيه، وكان كل رجل منهم على ناحية من المدينة، وكان الأعراب حلولاً فيما بين رأس الثنية إلى راتج إلى بني حارثة إلى بني عبد الأشهل إلى البقيع إلى بني قريظة، ومنهم طائفة بناحية بني سلمة هم مُحَدِّقُونَ بالمدينة، فسمعتُ عمر يقول ليلةً وقد تعشى الناس عنده: أحصوا من تعشى عندنا، فأحصوهم من القابلة فوجدوهم سبعة آلاف رجل، وقال: أحصوا العيالات الذين لا يأتون والمرضى والصبيان، فأحصوا فوجدوهم أربعين ألفاً . ثم مكثنا ليلي فزاد الناس فأمر بهم فأحصوا فوجدوا من تعشى عنده عشرة آلاف والآخرين خمسين ألفاً ، فما برحوا حتى أرسل الله السماء، فلما مطرت رأيتُ عمر قد وكل كل قوم من هؤلاء النفر بناحيّتهم يخرجونهم إلى البادية ويعطونهم قوتاً وحملاتاً إلى باديتهم (١).

كما أخرج من خبر نافع مولى الزبير قال: سمعت أبا هريرة يقول: يرحم الله ابن حنتمة (٢) لقد رأيتُه عام الرمادة وإنه ليحمل على

(١) طبقات ابن سعد ٣/ ٣١٦ - ٣١٧ .

(٢) يعني عمر بن الخطاب نسبة لأمه .

ظهره جرابين وعكة زيت في يده، وإنه ليعتقب هو وأسلم، فلما رأي قال: من أين يا أبا هريرة؟ قلت: قريباً، قال فأخذت أعقبه فحملناه حتى انتهينا إلى صرار فإذا صرم نحو من عشرين بيتاً من مُحارب فقال عمر: ما أقدمكم؟ قالوا: الجهد، قال: فأخرجوا لنا جلد الميتة مشويّاً كانوا يأكلونه ورمة العظام مسحوقة كانوا يسفونها فرأيت عمر طرح رداءه ثم اترز فما زال يطبخ لهم حتى شبعوا، وأرسل أسلم إلى المدينة فجاء بأبكرة فحملهم عليها حتى أنزلهم الجبانة، ثم كساهم. وكان يختلف إليهم وإلى غيرهم حتى رفع الله ذلك (١).

. ومن روائع أقوال أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه في ذلك العام ما أخرجه ابن سعد من خبر سليمان بن يسار قال: خطب عمر بن الخطاب الناس في زمان الرمادة فقال: أيها الناس اتقوا الله في أنفسكم وفيما غاب عن الناس من أمركم، فقد ابتليت بكم وابتليتم بي فما أدري السُّخْطَةُ عليّ دونكم أو عليكم دوني أو قد عمّتي وعمتكم، فاهلموا فندعُ الله يُصلح قلوبنا وأن يرحمنا وأن يرفع عنا المحل. قال فرئني عمر يومئذ رافعاً يديه يدعو الله، ودعا الناس وبكى وبكى الناس ملكياً، ثم نزل.

وذكر ابن سعد عدة أخبار في استسقاء عمر والمسلمين منها ما أخرجه من خبر عبد الله بن نيار الأسلمي عن أبيه قال: لما أجمع عمر على أن يستسقي ويخرج بالناس كتب إلى عمّاله أن يخرجوا يوم كذا وكذا وأن يتضرعوا إلى ربهم ويطلبوا إليه أن يرفع هذا المحل

(١) طبقات ابن سعد ٣/ ٣١٤.

عنهم، قال وخرج لذلك اليوم عليه بُرْدُ رسول الله ﷺ، حتى انتهى إلى المصلى فخطب الناس وتضرع، وجعل الناس يُلحون فما كان أكثر دعائه إلا الاستغفار حتى إذا قرب أن ينصرف رفع يديه مداً وحول رداءه وجعل اليمين على اليسار ثم اليسار على اليمين، ثم مدَّ يديه وجعل يُلح في الدعاء، وبكى عمر بكاءً طويلاً حتى أخضل لحيته (١).

وكذلك ما أخرجه من خبر السائب بن يزيد قال: نظرتُ إلى عمر ابن الخطاب يوماً في الرمادة غداً متبدلاً متضرعاً عليه برد لا يبلغ ركبتيه، يرفع صوته بالاستغفار وعينه تهرقان على خديه، وعن يمينه العباس بن عبد المطلب. فدعا يومئذ وهو مستقبل القبلة رافعاً يديه إلى السماء وعَجَّ إلى ربه، فدعا ودعا الناس معه، ثم أخذ بيد العباس فقال: اللهم إنا نستشفع بعمِّ رسولك إليك. فما زال العباس قائماً إلى جنبه ملياً والعباس يدعو وعينه تهملان (٢).

فهذه الأخبار فيها مواقف وعبر منها :

١ - ما قام به أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه من السياسة الحكيمة الحازمة في احتواء تلك الأزمة الكبيرة، حيث تولى الإنفاق على القبائل العربية التي لجأت إلى المدينة، ورتب لهذا الأمر رجالاً يحصون الناس ويقسمون الأرزاق بينهم .

ومع ما ذكر في الروايات المذكورة من شدة تلك الأزمة وضراوتها فإنه لم يذكر حدوث وفيات من الجوع، وذلك راجع إلى السياسة

(١) طبقات ابن سعد ٣/ ٣٢٠ - ٣٢١ .

(٢) المرجع السابق ٣/ ٣٢١ .

الحازمة الحكيمة من أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ، وإلى قوة الإيمان عند المسلمين آنذاك ، حيث ترتب عليه التراحم والمواساة بينهم .

وإن نجاح الصحابة بقيادة أمير المؤمنين رضي الله عنهم في علاج تلك الأزمة والخروج منها بنجاح ليعتبر درسا بليغا في الأعمال الإغاثية ، حيث تجمع في المدينة وماحولها ستون ألفا من العرب وبقوا عدة شهور ليس لهم طعام إلا مايقدم لهم من مالية الدولة ومن أهل المدينة ، إضافة إلى الأعراب الذين لم يصلوا إلى المدينة وكانت تصل إليهم الإمدادات .

٢ - أمثلة رائعة من زهد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ، ومواساته للفقراء من رعيته في المعيشة ، مع ماحصل له من ضرر في بدنه ، لكن أمر النظر إلى البدن عنده ثانوي ، فهو يريد أن يمسه مايمس الفقراء من الجوع وشظف العيش حتى يكون على ذكر دائم لهم ، وقد تأسى به المسلمون من أهل المدينة ، حيث اقتصروا على الطعام الضروري وانفقوا على إخوانهم القادمين .

٣ - مثل من تواضع أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ، حيث يحمل المؤونة على ظهره ليوصلها إلى الأعراب ، ثم لا يكتفي بذلك بل يتولى الطبخ لهم حتى يشبعوا ، ثم يتردد على القبائل العربية بنفسه يتفقد أحوالهم ، فما الذي دفع أعلى حاكم في الأرض آنذاك إلى أن يجعل من نفسه حمالا للمتاع طباخا للناس ؟!

إنه الإيمان القوي ، والعقل الكبير ، حيث كان يشعر بمسئوليته عن الأمة ويخشى أن لا تؤدي كما يريد إذا وكل غيره بذلك .

٤ - أمثلة من خشية الله تعالى، حيث كان عمر يقول: اللهم لاتجعل هلاك أمة محمد على يدي، وحيث يتساءل عن سبب البلاء الذي نزل بالمسلمين، فيخشى أن يكون عقوبة على تقصير منه أو من المسلمين، وهذا من العلم الراسخ بأسباب المصائب التي تصيب الأمم، وقد أمر المسلمين بدعاء الله تعالى أن يصلح قلوبهم لتنزل رحمته بهم فيرفع عنهم البلاء، وقد نفع الله تعالى المسلمين بعلم عمر والصحابة معه رضي الله عنهم ودعائهم لله تعالى بعد صلاح قلوبهم وأعمالهم، فارتفع عنهم البلاء .

وحين يكون في الأمة علماء راسخون ربانيون فإنهم يذكرون الناس بأن من أهم أسباب المصائب وقوع بعض أفراد الأمة بالمعاصي، كما جاء في قول الله تعالى ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ [الشورى : ٣٠] ، وإذا عرفت أسباب المصائب فإن انكشاف البلاء بها يكون بمعالجة أسبابها، وذلك بالاستقامة على طاعة الله تعالى واجتناب معاصيه، وشدة اللجوء إليه ودعائه ليكشف البلاء عن الأمة .

٥ - في قول عمر : أيها الناس أنشدكم الله هل تعلمون مني أمرا غيره خير منه؟ قالوا : اللهم لا . . في هذا شهادة عليا في العدل تصدر من قوم لا يعرفون النفاق ولا المداينة، وإنها لأعلى مثال لعاجل بشرى المؤمن وذلك بثناء الصالحين وتزكيتهم .

٦ - الإشادة بموقف أبي عبيدة بن الجراح الزاهد حيث رفض قبول المال الذي أعطاه إياه الخليفة عمر مقابل عمله في الدولة ولم

يقبل إلا بعد الإلحاح والاستشهاد بموقف النبي ﷺ مع عمر المشابه، وهذا نموذج فريد للعناصر الزكية من البشر التي ارتفعت عن ضغوط المطالب الدنيوية ، وتجردت للعمل الأخروي .

موقف لكعب بن سور الأسدي رضي الله عنه :

ذكر أبو الحسن الماوردي من رواية الزبير بن بكار عن إبراهيم الحرمي بن محمد بن معن الفغاري أن امرأة أتت عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقالت: ياأمير المؤمنين إن زوجي يصوم النهار ويقوم الليل وأنا أكره أن أشكوه وهو يعمل بطاعة الله، فقال لها: نعم الزوج زوجك، فجعلت تكرر عليه القول وهو يكرر عليها الجواب، فقال له كعب بن سور الأسدي : ياأمير المؤمنين هذه امرأة تشكو زوجها في مباحثته إياها في فراشه، فقال له عمر رضي الله عنه كما فهمت كلامها فاقض بينهما، فقال كعب: عليّ بزوجهما فأتي به، فقال: إن امرأتك تشكوك فقال أفي طعام أو شراب؟ قال لا في واحد منهما، فقالت المرأة :

يا أيها القاضي الحكيم رشده ألهى خليلي عن فراشي مسجده
رَهْدَه في مضجعي تعبده نهاره وليله ما يرقده
فلستُ في أمر النساء أحمدهُ فاقض القضا يا كعب لا تُردده
فقال الزوج :

زهدني في فرشها وفي الحجل أني امرؤ أذهلني ما قد نزل
في سورة النحل وفي السبع الطول وفي كتاب الله تخويف جلل

فقال كعب .

إن لها حقا عليك يارجل نصيبها في أربع لمن عقل
فأعطها ذاك ودع عنك العلل

ثم قال له : إن الله قد أحل لك من النساء مثنى وثلاث ورباع ،
فلك ثلاثة أيام ولياليهن تعبد فيهن ربك ولها يوم وليلة ، فقال عمر
لكعب رضي الله عنه : والله ما أدري من أي أمريك أعجب أمن فهمك
أمرهما ؟ أم من حكمك بينهما ؟ إذهب فقد وليتك القضاء بالبصرة^(١) .

ففي هذا الخبر فراسة جيدة من كعب بن سور الأسدي رضي الله
عنه ونباهة عالية ، حيث إن المرأة قد عرضت مشكلتها بأسلوب
الكناية ، وذلك من اللباقة وحسن الأدب ، ففهم مرادها لأن تلك
الأمور التي ذكرتها مما يمدح بها الرجال لا مما يعابون بها ، وقضى لها
بقضاء عادل بتكليف من أمير المؤمنين .

وعمر رضي الله عنه مشهور بالفراسة والنباهة ، وقد تقدم لنا
أمثلة على ذلك ، ولكن ربما كان فكره مشغولا بشيء من الأمور
العامة والمرأة تكلمه .

ولقد كان متجردا للحق بريئا من حظ النفس حينما أثنى على
كعب بن سور وولاه القضاء في تلك القضية .
من مواقف عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه :

من ذلك ما أخرجه أيضا المؤرخ ابن شبة النميري من خبر الليث

(١) الأحكام السلطانية / ١١٦ .

ابن سعد: أن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه خرج إلى العمرة في خلافة عثمان رضي الله عنه، فاشتكى عثمان بعده^(١) حتى خاف على نفسه، وأوصى ودعا مولاه حمران فكتب عهده في الناس، واستخلف عبد الرحمن بن عوف في عهده، وأمر حمران أن لا يذكر لبشر، فلم يرجع عبد الرحمن من العمرة حتى عوفي عثمان رضي الله عنه، فانطلق حمران إلى ابن عوف حين قدم فرحب به، ثم أخبره بالذي كان من استخلافه إياه على الأمة واستكتمه، فقال عبد الرحمن: ما يسعني أن أكتُم ذلك عنه، ومالي بُدُّ أن أخبره إياه ليحذرك، قال: أهلكتي، قال: إني لن أفعل حتى أستأمن لك منه، فأثاه عبد الرحمن مسلماً ودعا له فيما رزقه الله من العافية، ثم قال: إن لبعض الناس ذنباً لا إثم عليك في العفو عنه فهب ذلك لي، قال: ما أنا بفاعل حتى تخبرني ماهو، قال: ما أنا بمخبرك ولكن أعطني ذلك، فلم يزل به حتى فعل، فقال: قد عفوت عنه إذا كان شيئاً لا إثم فيه، فذكر له أمر حمران، فقال: أخبره في العقوبة أو فراقني، فقال حمران: أفشيت سري! قال: قد كان ذلك، قال: [يعني عثمان] فاختر أي ذلك شئت، إن شئت أن أجلك مائة سوط، وإن شئت أن تخرج فلا أراك ولا تراني، فاختر الخروج إلى العراق، فأصاب هناك - لمكانته من عثمان - مالا وولداً، فلهم بالعراق عدد وشرف وأموال^(٢).

(١) أي مرض .

(٢) تاريخ المدينة المنورة / ١٠٢٩ - ١٠٣٠ .

فهذا مثل من التصرف الحكيم من عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ، حيث لم يجامل حمران الذي أخبره بأمر كان يتوقع أنه يسره ، بل عزم على أن يخبر بذلك أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه ، ليكون على حذر من مولاه الذي أفشى سره ، لأن مصلحة الأمة الإسلامية وحماية دولتهم مما يجب تقديمه على المصالح الفردية ، ومع عزمه ذلك فإنه سعى لحماية حمران الذي ما أراد بعمله ذلك إلا خيرا ، حيث طلب من عثمان أن لا يعاقب حمران على ما قام به .

ولكن مع تدخل عبد الرحمن بن عوف ووساطته لحمران فإن أمير المؤمنين عثمان لم يعف عن مولاه الذي أفشى سره ، بل عاقبه وإن كان قد خفف عنه العقوبة ، وهذا مثل من حزم عثمان رضي الله عنه وحياطته الشديدة لأُمُور الأمة .

من مواقف المغيرة بن شعبة رضي الله عنه :

من ذلك ما روي عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر استعمل المغيرة ابن شعبة على البحرين ، فكرهوه ، فعزله عمر ، فخافوا أن يرده فقال دهقانهم (١) : إن فعلتم ما أمركم لم يردّه علينا ، قالوا : مُرْنَا ، قال : تجمعون مائة ألف حتى أذهب بها إلى عمر ، فأقول إن المغيرة اختان هذا فدفعه إليّ قال : فجمعوا له مائة ألف ، وأتى عمر ، فقال ذلك ، فدعا المغيرة فسأله ، قال : كذب أصلحك الله إنما كانت مئتي ألف ، قال : فما حملك على هذا ؟ قال : العيال والحاجة ، فقال عمر للعليج : ماتقول ؟ قال : لا والله لأصدقنك مادفع إليّ قليلا ولا كثيرا ،

(١) يعني رئيسهم والمقدم فيهم .

فقال عمر للمغيرة : ماأردت إلى هذا ؟ قال : الخبيث كذب علي فأحببت أن أخزيه (١) .

فهذا مثل على سرعة البديهة ، وحسن التخلص من المآرق ، فقد أراد أهل البحرين أن يوقعوا المغيرة في مشكلة مالية ليتخلصوا منه ، وهم يعلمون صرامة عمر وشدته في هذا الجانب ، ولكن المغيرة كان أدهى منهم ، مع أنهم قد خططوا لهذا الأمر وكان هو على البديهة .

وقد صدق في وصفه قبيصة بن جابر حينما قال : صحبت المغيرة ابن شعبة ، فلو أن مدينة لها ثمانية أبواب ، لأُخرج من باب منها إلا بمكر لخرج من أبوابها كلها (٢) .

من مواقف معاوية رضي الله عنه في سرعة البديهة :

من أخبار معاوية رضي الله عنه في الدهاء وحسن البديهة ، أنه لما قدم أمير المؤمنين عمر الشام تلقاه معاوية في موكب عظيم وهيئة ، فلما دنا منه قال : أنت صاحب الموكب العظيم ؟ قال : نعم ، قال : مع مابلغني عنك من طول وقوف ذوي الحاجات ببابك ، قال : نعم ، قال : ولم تفعل ذلك ؟ قال : نحن بأرضٍ جواسيسُ العدو بها كثير فيجب أن نُظهر لهم من عزِّ السلطان مايرهبهم ، فإذا نهيتني انتهيت ، قال : يامعاوية ، ماأسألك عن شيء إلا تركتني في مثل رواجب الضُّرس (٣) ، لئن كان ماقلت حقا ، إنه لرأي أريب ، وإن كان باطلا

(١) سير أعلام النبلاء ٢٦/٣ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٣٠/٣ .

(٣) الرواجب هي مفاصل أصول الأصابع ، والضُّرس الغضبان والصعب الخلق ، ويفهم من السياق أن المقصود أنه يتركه في حال من الغضب المبني على الحيرة في أمره .

فإنه لخدعة أديب ، قال : فمرني ، قال : لا أمرك ولا أنهاك ، فقل :
ياأمير المؤمنين ما أحسن ما صدر عما أوردته ، قال : لِحُسْنِ مصادره
وموارده جُشْمَنَاهُ ما جُشْمَنَاهُ (١) .

وهكذا كان معاوية بمجاروته لدولة عظمى آنذاك وهي دولة الروم
ولكون جواسيسها قد خالطوا مجتمع المسلمين في الشام ، فإنه رأى
في مظاهر الأبهة والعظمة ما يخدم المسلمين في حربهم مع الأعداء
حيث ينقل أولئك الجواسيس صورة عن المسلمين ترهب أعداءهم ،
ولذلك لم يُصِرَّ عمر على إنكاره عليه بل ترك الأمر لاختياره نظراً
لخبرته بأعدائه المجاورين له .

ويفهم من هذا الخبر وأخبار أخرى أن أمير المؤمنين عمر رضي
الله عنه كان معجباً بمعاوية رضي الله عنه ، وأهم شيء كان يقوم به
معاوية ويرى عمر أن أحدا لا يسد فيه مسدّه أنه كان درعا واقياً للأمة
الإسلامية من دولة الروم التي كانت ماتزال قوية ، وكان حكامها
ينتظرون أي فرصة ضعف في دولة الإسلام ليغيروا عليها ، فكانوا
بحاجة إلى أن يكون الوالي الذي يجاورهم داهية يقظاً ذا رأي سديد
وسياسة دقيقة وطاعة في جنده ، فكان عمر ينكر على معاوية بعض
الأمر التي تخالف سياسته كالظهور بشيء من الأبهة والمظاهر
السلطانية ، ولكنه كان يغض الطرف عن ذلك لعظم غنائه في دولة
الإسلام وعدم وجود من يجمع الصفات التي حازها مع الظهور بمظهر
الزهد والتواضع .

(١) سير أعلام النبلاء ٣ / ١٣٣ .

ومما يدل على أنه كان يسد باباً يشكّل خطراً على دولة الإسلام ماكان من ملك الروم حينما أراد غزو بلاد المسلمين في عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وفي ذلك يقول الحافظ ابن كثير : وطمع في معاوية ملك الروم بعد أن كان قد أخشاه وأذله وقهر جنده ودحاهم ، فلما رأى ملك الروم اشتغال معاوية بحرب علي تدانى إلى بعض البلاد في جنود عظيمة وطمع فيه ، فكتب معاوية إليه : والله لئن لم تنته وترجع إلى بلادك يالعين لأصطلحنّ أنا وابن عمي عليك ، ولأخرجنك من جميع بلادك ولأضيّقن عليك الأرض بما رحبت ، فعند ذلك خاف ملك الروم وانكفأ ، وبعث يطلب الهدنة (١) .

ومن أخبار معاوية رضي الله عنه في الحكمة وحسن التصرف ماأخرجه الخطيب البغدادي من خبر عن عبد الله بن عمار بن القداح . قال : كان ثابت بن قيس بن الخطيم ، شديد النفس ، وكان له بلاء مع علي بن أبي طالب ، واستعمله علي بن أبي طالب على المدائن ، فلم يزل عليها حتى قدم المغيرة بن شعبة الكوفة ، وكان معاوية ينتقي مكانه . انصرف ثابت بن قيس إلى منزله فيجد الأنصار مجتمعين في مسجد بني ظفر يريدون أن يكتبوا إلى معاوية في حقوقهم أول ما استخلف ، وذاك أنه حبسهم سنتين أو ثلاثاً لم يعطهم شيئاً . فقال : ماهذا ؟ فقالوا : نريد أن نكتب إلى معاوية . فقال : ماتصنعون أن يكتب إليه جماعة ؟! يكتب إليه رجل منا فإن كانت كائنة برجل منكم فهو خير من أن تقع بكم جميعاً وتقع أسماؤكم عنده .

(١) البداية والنهاية ١١٩/٨ .

فقالوا : فمن ذلك الذي يبذل نفسه لنا؟ قال : أنا. قالوا : فشأنك ، فكتب إليه وبدأ بنفسه فذكر أشياء منها : نصرة النبي ﷺ وغير ذلك . وقال : حبست حقوقنا ، واعتديت علينا وظلمتنا ، ومالنا إليك ذنب إلا نصرتنا للنبي ﷺ ، فلما قدم كتابه على معاوية دفعه إلى يزيد فقرأه ثم قال له : ما الرأي ، فقال : تبعث فتصلبه على بابه ، فدعا كبراء أهل الشام فاستشارهم ، فقالوا : تبعث إليه حتى تقدم به ههنا وتقفه لشيعتك ولأشراف الناس حتى يروه ، ثم تصلبه . فقال : هل عندكم غير هذا؟ قالوا : لا ، فكتب إليه : قد فهمت كتابك ، وما ذكرت النبي ﷺ ، وقد علمت أنها كانت ضجرة لشغلي وماكنت فيه من الفتنة التي شهرت فيها نفسك ، فأنظرنى ثلاثا ، فقدم كتابه على ثابت فقرأه على قومه ، وصحبهم العطاء في اليوم الرابع (١) .

وبعد فهذا الخبر فيه موقف كبير لأمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه في الحكمة والسياسة ، فهو بعد أن استشار ابنه يزيد وبعض وجهاء الشام لم يعجبه رأيهم ولم يوافقهم على أخذ الناس بالشدة والعنف والجبروت ، بل سارع إلى إرسال عطاء الأنصار رضي الله عنهم ، ولم يؤاخذ ثابت بن قيس رضي الله عنه على شدة اللهجة في كتابه إليه ، وهو بهذا التصرف الحكيم والسياسة الرشيدة لم يخسر شيئا بل كسب ولاء الأنصار له وولاء غيرهم ممن يطلع على خبره معهم ، ولو أنه أخذ بمشورة السذج المتجبرين فبطش بصاحب ذلك الكتاب لثار عليه الأنصار ، ولناصرهم طوائف من المسلمين لشهرتهم ومكانتهم في الإسلام .

(١) تاريخ بغداد ١/ ١٧٦ ، وثابت بن قيس بن الخطيم خزرجي أنصاري رضي الله عنه .

وفي هذا الخبر موقف يذكر لثابت بن قيس في الجرأة والتضحية، حيث فدى قومه بنفسه فيما إذا كان هناك ضرر عليهم، وهو وإن كان أمرا بعيداً من أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه فإنه أمر محتمل الوقوع، ومواقف الجرأة والفداء تدل على اتصاف صاحبها بالإيثار وتجرده من الأنانية، وتلك من أخلاق الكُمَّل من الرجال .

ومن أخبار معاوية رضي الله عنه أيضاً في الحكمة والمقدرة على الاقتناع ما أخرجه الخطيب البغدادي من خبر عروة بن الزبير: أن المسور ابن مخرمة أخبره أنه قدم وافداً على معاوية بن أبي سفيان فقضى حاجته، ثم دعاه فأخلاه فقال: يامسور ما فعل طعنك على الأئمة؟ فقال: المسور دعنا من هذا وأحسن فيما قدمنا له . قال: معاوية لا والله لتكلمن بذات نفسك، والذي تعيب عليّ . قال المسور: فلم أترك شيئاً أعيبه عليه إلا بينته له . قال معاوية : لا بريء من الذنب، فهل تعدُّ يامسور مالي من الإصلاح في أمر العامة، فإن الحسنة بعشر أمثالها؟ أم تعد الذنوب وتترك الحسنات . قال المسور: لا والله ما نذكر إلا ما ترى من هذه الذنوب . قال معاوية: فانا نعتزف لله بكل ذنب أذنبناه فهل لك يامسور ذنوب في خاصتك تخشى أن تهلكك إن لم يغفرها الله؟ قال مسور : نعم ! قال معاوية : فما يجعلك أحق أن ترجو المغفرة مني ؟ فوالله لما ألي من الإصلاح أكثر مما تلي ولكن والله لا أخير بين أمرين، بين الله وبين غيره إلا اخترت الله تعالى على ما سواه، وأنا على دين يقبل الله فيه العمل، ويجزي فيه بالحسنات، ويجزي فيه بالذنوب، إلا أن يعفو عمن يشاء ، فأنا أحسب كل حسنة عملتها بأضعافها ، وأوازي أموراً عظيماً لا أحصيها

ولا تحصيلها، مِنْ عَمَلِ الله في إقامة صلوات المسلمين، والجهاد في سبيل الله عز وجل، والحكم بما أنزل الله تعالى، والأمور التي لست تحصيلها وإن عددتها لك، فتفكر في ذلك. قال المسور: فعرفت أن معاوية قد خصمني حين ذكر لي ما ذكر.

قال عروة: فلم يُسمع المسور بعد ذلك يذكر معاوية إلا استغفر له (١).

في هذا الخبر مثل جيد في فن الإقناع، ومحاولة امتصاص غضب المخالفين وتحويل قناعاتهم، فقد استطاع أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه أن يقنع المسور بن مخرمة رضي الله عنه بسياسته التي يسير عليها، وعاد مادحا داعيا له بعدما كان منتقدا مهاجما له.

وفي هذا الخبر لفظة تربوية من معاوية حيث أبان بأن من العدل في الحكم على المسلم أن ينظر الحاكم عليه إلى حسناته وصوابه قبل أن ينظر إلى سيئاته وخطئه، ثم يوازن بين الجانبين، فلعل هذا المسلم الذي برزت أخطاؤه في ذهن من تصدى لنقده تكون له حسنات كثيرة جليلة قد لاتعد أخطاؤه إلى جانبها شيئا مذكورا.

موقف لأمر المؤمنين عبد الملك بن مروان رحمه الله :

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : ومن أحسن الفراسة فراسة عبد الملك بن مروان لما بعث الشعبي إلى ملك الروم فحسد المسلمين عليه، فبعث معه ورقة لطيفة إلى عبد الملك، فلما قرأها قال: تدري ما فيها ؟ قال : لا، قال: حسدني بك فأراد أني أقتلك، فقال

(١) تاريخ بغداد ٢٠٨/١ - ٢٠٩ .

الشعبي: لو رآك يا أمير المؤمنين ما استكثرتني، فبلغ ذلك ملك الروم فقال: والله ما أخطأ ما كان في نفسي (١).

وبهذا فوت أمير المؤمنين عبد الملك على ملك الروم مراده، وهكذا يكون الرجال العظماء الذين هم أهل لقيادة المسلمين وإدارة أمورهم .

من مواقف القاضي إياس رحمه الله :

ومن المشهورين بالحكمة وسرعة البديهة القاضي إياس بن معاوية رحمه الله تعالى قال الحافظ ابن كثير في ترجمته : وقال: بعضهم: سأل رجل إياسا عن النبيذ فقال : هو حرام، فقال الرجل : فأخبرني عن الماء ، فقال: حلال ، قال: فالكسور، قال: حلال ، قال: فالتمر، قال: حلال ، قال: فما باله إذا اجتمع حرم؟ فقال إياس: أرأيت لو رميتك بهذه الحفنة من التراب أتوجعك؟ قال: لا، قال: فهذه الحفنة من التبن؟ قال: لا توجعني ، قال: فهذه الغرفة من الماء؟ قال: لا توجعني شيئا ، قال: أفرأيت إن خلطت هذا بهذا وهذا بهذا حتى صار طينا ثم تركته حتى استحجر ثم رميتك أيوجعك؟ قال: إي والله وتقتلني ، قال: فكذلك تلك الأشياء إذا اجتمعت (٢).

وهذا تشبيه بليغ من القاضي إياس أقنع به ذلك الرجل المعارض، وماله لا يقتنع وقد مثل له بشيء يقتنع به جميع العقلاء وبهذا يكون القاضي إياس من الدعاة الموفقين إلى هداية الناس والتأثير عليهم

(١) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية / ٥٤ .

(٢) البداية والنهاية ٩ / ٣٥٠ .

بتوفيق الله تعالى ثم بذكائه الخارق وموهبته العالية وبلاغته الفائقة .

وذكر الحافظ ابن كثير أن رجلاً قال للقاضي إياس بن معاوية : إن فيك خصالاً لاتعجبني ، فقال : ماهي ؟ فقال : تحكم قبل أن تفهم ، ولا تجالس كل أحد ، وتلبس الثياب الغليظة ، فقال له : أيها أكثر الثلاثة أو الإثنين ؟ قال : الثلاثة ، فقال : ماأسرع مافهمت وأجبتُ ، فقال : أوَ يجهل هذا أحد ؟ فقال : وكذلك ماأحكم أنا به ، وأما عدم مجالستي لكل أحد فلأن أجلس مع من يعرف لي قدري أحب إليّ من أن أجلس مع من لايعرف لي قدري ، وأما الثياب الغلاظ فأنا ألبس منها ما يقيني لا ما أقيه أنا (١) .

فهذا الجواب من القاضي إياس يدل على عقل رصين ودين متين وسرعة بديهة .

قال الحافظ ابن كثير : قالوا وتحاكم إليه اثنان فادّعى أحدهما عند الآخر مالا وجحده الآخر ، فقال إياس للمودع : أين أودعته ؟ قال : عند شجرة في بستان ، فقال : انطلق إليها فقف عندها لعلك تتذكر ، وفي رواية أنه قال له : هل تستطيع أن تذهب إليها فتأتي بورق منها ؟ قال : نعم ، قال : فانطلق ، وجلس الآخر فجعل إياس يحكم بين الناس ويلاحظه ، ثم استدعاه فقال له : أوصل صاحبك بعدُ إلى المكان ؟ قال : لا بعدُ أصلحك الله ، فقال له : قم ياعدو الله فأدّ إليه حقه وإلا جعلتك نكالا ، وجاء ذلك فقام معه فدفع إليه وديعته بكمالها (٢) .

(١) البداية والنهاية ٣٥١/٩ .

(٢) البداية والنهاية ٣٥١/٩ .

وهكذا استخدم القاضي إياس ذكاءه الحاد وفراسته الدقيقة في كشف المعتدين الظالمين، والفراصة موهبة عالية يهبها الله تعالى لمن يشاء من عباده .

وقال الحافظ ابن كثير أيضا : وجاء آخر فقال له : إني أودعت عند فلان مالا وقد جحدني ، فقال له : اذهب الآن وائتني غدا، وبعث من فوره إلى ذلك الرجل الجاحد فقال له : إنه قد اجتمع عندنا ههنا مال فلم نَرَ له أمينا نضعه عنده إلا أنت ، فضعه عندك في مكان حرير ، فقال له : سمعا وطاعة ، فقال له : اذهب الآن وائتني غدا، وأصبح ذلك الرجل صاحب الحق فجاء فقال له : اذهب الآن إليه فقل له : أعطني حقي وإلا رفعتك إلى القاضي، فقال له ذلك فخاف أن لا يودع إذا سمع الحاكم خبره ، فدفع إليه ماله بكماله، فجاء إلى إياس فأعلمه ، ثم جاء ذلك الرجل من الغد رجاءً أن يودع عنده فانتهره إياس وطرده وقال له : أنت خائن (١) .

ففي هذا الخبر مقدرة فائقة من القاضي إياس على تخليص حقوق المسلمين بعضهم من بعض، وهذا مثل على ذكائه الحاد وسرعة بديهته . وللقاضي إياس أخبار أخرى في الذكاء وسرعة البديهة وقد انتشرت هذه الأخبار حتى أصبح يضرب به المثل في الذكاء، كما قال أبو تمام يمدح أمير المؤمنين المعتصم :
إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس

(١) البداية والنهاية ٣٥١/٩ .

يعني عمرو بن معد يكرب الزبيدي وحاتم الطائي والأحنف بن قيس التميمي وإياس بن معاوية .

من مواقف يحيى بن يحيى الليثي رحمه الله :

هو أبو محمد يحيى بن يحيى بن كثير الليثي المصمودي ، أحد علماء الأندلس الكبار ، من قبيلة مصمودة البربرية وينتسب إلى بني الليث بالولاء .

ذكره ابن خلكان وذكر أنه رحل إلى الإمام مالك بن أنس في المدينة النبوية وسمع منه الموطأ ، وشك في سماعه لأبواب في كتاب الاعتكاف فكان يرويها عن زياد بن عبد الرحمن اللخمي وكان سمع منه الموطأ قبل رحيله من الأندلس ، وهذا يعتبر من ورعه ودقة تحريه في نشر العلم .

وذكر أن الإمام مالكا كان يسميه عاقل الأندلس ، وسبب ذلك فيما روي أنه كان في مجلس مالك مع جماعة من أصحابه فقال قائل : قد حضر الفيل ، فخرج أصحاب مالك كلهم لينظروا إليه ولم يخرج يحيى فقال له مالك : مالك لا تخرج فتراه لأنه لا يكون بالأندلس ؟ فقال : إنما جئت من بلدي لأنظر إليك وأتعلم من هديك وعلمك ، ولم أجيء لأنظر إلى الفيل ، فأعجب به ما لك وسماه عاقل أهل الأندلس^(١) .

وهكذا حاز يحيى بن يحيى على هذا اللقب الكريم من كبير علماء الحجاز في عصره لإكباره للعلم والعلماء وعدم اشتغاله عن ذلك بشيء من أمور الدنيا .

(١) وفيات الأعيان ١٤٤/٦ .

ومن مواقفه العالية ما ذكره ابن خلكان من خبر أحمد بن أبي الفياض قال: كتب الأمير عبد الرحمن بن الحكم الأموي المعروف بالريضي صاحب الأندلس إلى الفقهاء يستدعيهم إليه، فأتوا إلى القصر، وكان عبد الرحمن المذكور قد نظر في شهر رمضان إلى جارية له كان يحبها حبا شديداً فعبث بها، ولم يملك نفسه أن وقع عليها، ثم ندم ندماً شديداً، فسأل الفقهاء عن توبته من ذلك وكفارته، فقال يحيى بن يحيى: تكفر ذلك بصوم شهرين، فلما بدر يحيى بهذه الفتيا سكت بقية الفقهاء حتى خرجوا من عنده، فقال بعضهم لبعض وقالوا ليحيى: مالك لم تفت به ذهب مالك فعنده أنه مخير بين العتق والطعام والصيام؟ فقال: لو فتحت له هذا الباب سهل عليه أن يطاء كل يوم ويعتق رقبة، ولكن حملته على أصعب الأمور لئلا يعود^(١).

فهذه نبأه من هذا العالم الجليل، حيث تنبه لملاحظة مقاصد التشريع، فإن من مقاصد شرعية الكفارات أن تكون روادع تمنع من الوقوع في المعاصي، وحيث إن العتق والإطعام سهلان ميسران للأغنياء فإن هذا العالم قد قصر ذلك الأمير في فتواه على الصيام لمشقته عليه، فبه وحده - والحال هذه - تحصل مقاصد التشريع، وهذا يعتبر من الفقه في الدين، فإن الفقيه لا ينبغي له أن يقتصر نظره على ظواهر النصوص، وإنما يقتضي منه الفقه أن ينظر إلى مقاصد التشريع.

وفي سكوت أولئك الفقهاء حينما تكلم يحيى بن يحيى مع إنكارهم فتواه حسن أدب منهم، وتقيد بآداب العلم المرعية، من

(١) وفيات الأعيان ٦/ ١٤٥ .

احترام كبار أهل العلم وعدم إظهار الاختلاف أمام غيرهم ، لأن ذلك يوهن من أحكامهم وفتاويهم .

وكان رحمه الله متواضعاً في خدمة شيوخه ، قال ابن خلكان : وحكي عنه أنه قال : أخذت ركاب الليث بن سعد ، فأراد غلامه أن يمنعني فقال : دعه ، ثم قال لي الليث : خذمك أهل العلم ، فلم تزل بي الأيام حتى رأيت ذلك (١) .

من مواقف أمير المؤمنين المنصور رحمه الله :

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : ومن دقيق الفراسة أن المنصور جاءه رجل فأخبره أنه خرج من تجارة فكسب مالا فدفعه إلى امرأته فذكرت أنه سرق من البيت ولم ير نقبا ولا أمارة ، فقال المنصور : منذ كم تزوجتها قال : منذ سنة قال : بكرةً أو ثنيا قال : ثنيا قال : فلها ولد من غيرك قال : لا فدعا له المنصور بقاروة طيب يتخذه حاداً الرائحة غريب النوع فدفعها إليه وقال له تطيب من هذا الطيب فإنه يذهب غمك ، فلما خرج الرجل من عنده قال المنصور لأربعة من ثقاته : ليقعد على كل باب من أبواب المدينة واحد منكم فمن شم منكم رائحة هذا الطيب من أحد فليأت به ، وخرج الرجل بالطيب فدفعه إلى امرأته فلما شمته بعثت منه إلى رجل كانت تحبه وقد كانت دفعت إليه المال فتطيب منه ومر مجتازاً ببعض أبواب المدينة فشتم الموكل بالباب رائحة طيبة فأتى به المنصور فسأله : من أين لك هذا الطيب فلجلج في كلامه فبعث به إلى والي الشرطة فقال : إن أحضر لك كذا

(١) وفيات الأعيان ١٤٦/٦ .

وكذا من المال فخل عنه وإلا فاضربه ألف سوط فلما جرد للضرب أحضر المال على هيئته، فدعا المنصور صاحب المال فقال: إن رددت إليك المال تحكمني في امرأتك قال: نعم قال: هذا مالك وقد طلقت المرأة منك (١) .

فهذا مثل للنباهة الدقيقة والتخطيط المحكم، وقد كان أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور مشهوراً بالذكاء الحاد والفطنة اللطيفة، ولقد قام في حل هذه القضية بدور القضاة مع شغله الكبير بإدارة شئون الدولة الإسلامية، مما يدل على تمتعه بطاقة قوية ومقدرة فكرية عالية .

من مواقف الأمير أحمد بن طولون رحمه الله (٢):

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: ومن عجيب الفراسة ما ذكر عن أحمد بن طولون أنه بينما هو في مجلس له يتنزّه فيه إذ رأى سائلاً في ثوب خلق فوضع دجاجة على رغيف وحلوى وأمر بعض الغلمان فدفعه إليه، فلما وقع في يده لم يهش له ولم يعبأ به فقال للغلام: جئني به، فلما وقف قدامه استنطقه فأحسن الجواب ولم يضطرب من هيئته فقال: هات الكتب التي معك واصدقني، من بعثك؟ فقد صح عندي أنك صاحب خبر، وأحضر السياط فاعترف فقال بعض جلسائه: هذا والله السحر قال: ما هو بسحر ولكن فراسة صادقة، رأيت سوء حاله فوجهت بطعام يشره بأكله الشبعان فما هش له ولا مد يده إليه،

(١) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية / ٥٤ .

(٢) هو أبو العباس أحمد بن طولون أمير الشام ثم مصر في عهد العباسيين توفي في عام سبعين ومائتين .

فأحضرته فتلقاني بقوة جأش، فلما رأيت وثاقة حاله وقوة جأشه علمت أنه صاحب خبر فكان كذلك .

قال : ورأى يوما حمالا يحمل صنًا^(١) وهو يضطرب تحته فقال : لو كان هذا الاضطراب من ثقل المحمول لغاصت عنق الحمال وأنا أرى عنقه بارزة وما أرى هذا الأمر إلا من خوف، فأمر بحط الصن فإذا فيه جارية مقتولة وقد قطعت فقال : اصدقني عن حالها، فقال : أربعة نفر في الدار الفلانية أعطوني هذه الدنانير وأمروني بحمل هذه المقتولة فضربه وقتل الأربعة .

قال : وكان يتفكر ويطوف يسمع قراءة الأئمة فدعا ثقتيه وقال : خذ هذه الدنانير وأعطها إمام مسجد كذا فإنه فقير مشغول القلب، ففعل وجلس معه وبأسطه فوجد زوجته قد ضربها الطلق وليس معه ما يحتاج إليه، فقال : صدق عرف شغل قلبه في كثرة غلظه في القراءة^(٢) .

فهذه ثلاثة مواقف في الفراسة للأمير أبي العباس أحمد بن طولون رحمه الله تعالى، وهي تدل على مهارة فائقة في إدراك حقائق الأمور من أماراتها وأطرافها .

والفراسة تجتمع في تكوينها أمور منها : أولاً توفيق الله تعالى، وذلك مبني على استقامة الإنسان وحيه للعدل والإصلاح .

(١) الصن كما جاء في القاموس شبه السلة المطبقة يجعل فيها الخبز .

(٢) الطرق الحكيمة في السياسة الشرعية / ٥٨ - ٥٩ .

ثانيا: موهبة ذاتية يهبها الله جل وعلا للإنسان كما يهبه الذكاء وقوة الحافظة .

ثالثًا : اهتمام دائم وتفكير متواصل بالقضايا التي يتوجه الإنسان إليها ، ولاشك أن من أعمل فكره في أمر من الأمور طويلا سيصل إلى نتائج لا يصل إليها خالي الذهن من ذلك الأمر .
من مواقف أمير المؤمنين المعتضد رحمه الله :

قال الحافظ الذهبي : قال أبو علي المحسن التنوخي : بلغني عن المعتضد (١) أنه كان جالسا في بيت يبنى له ، فرأى فيهم أسود منكر الخلقة يصعد السلالم درجتين درجتين ويحمل ضعُف ما يحمله غيره ، فأنكر ذلك وطلبه ، وسأله عن سبب ذلك فتلجلج ، فكلمه ابن حمدون فيه وقال : من هذا حتى صرفت فكرك إليه؟ قال : قد وقع في خلدي أمر ما أحسبه باطلا ، ثم أمر به فضرَب مئة ، وتهدده بالقتل ، ودعا بالنُّطع والسيف ، فقال : الأمان أنا أعمل في أتون الآجر ، فدخل من شهور رجل في وسطه هميان (٢) ، فأخرج دنائير ، فوثبت عليه وسددت فاه وكتفته وألقيته في الأتون ، والذهب معي يقوى به قلبي ، فاستحضرها ، فإذا على الهميان اسم صاحبه ، فنودي في البلد ، فجاءت امرأة فقالت : هو زوجي ولي منه طفل ، فسلم الذهب إليها وقتله (٣) .

(١) هو أمير المؤمنين أبو العباس أحمد بن محمد المعتضد بالله العباسي توفي عام تسعة وثمانين ومائتين .

(٢) الهميان حزام يشد في الوسط توضع به النقود .

(٣) سير أعلام النبلاء ١٣/٤٦٥ - ٤٦٦ .

فهذا مثل عجيب في الفراسة ، فقد قرأ المعتضد في وجه ذلك الرجل أنه له شأن ، وأنه قد ارتكب جريمة ، فهو حينما رأى المعتضد أدركه الخوف لِمَا شاع من قوة المعتضد وبطشه بالمجرمين ، فصار يسير بغير اتزان ، ويعمل بسرعة غير معتادة ، فلفت نظر المعتضد .

وهذه الفراسة التي تميز بها المعتضد عمن حوله قد وفقه الله تعالى إليها لما كان يتصف به من العدل والحرص الشديد على الأخذ على أيدي الظالمين ، إلى جانب أن الإنسان إذا فكر في شيء تفكيراً عميقاً فإنه يصل إلى اكتشاف متعلقات هذا الشيء إلى ما لا يصل إليه غيره ، ولما كان المعتضد مستغرق الفكر في معرفة المجرمين وإقرار العدل فإنه يكون عنده من الفراسة في الرجال ما لا يكون عند خالي الذهن من هذا الأمر .

ومن ذلك ما ذكره ابن القيم رحمه الله تعالى : أنه رُفِعَ إليه أن صياداً ألقى شبكته في دجلة فوقع فيها جراب فيه كف مخضوبة بحناء وأحضر بين يديه فهاله ذلك وأمر الصياد أن يعاود طرح الشبكة هنالك ، ففعل فأخرج جراباً آخر فيه رَجُلٌ فاغتم المعتضد ، وقال معي في البلد من يفعل هذا ولا أعرفه ، ثم أحضر ثقة له وأعطاه الجراب وقال : طف به على كل من يعمل الجرب ببغداد فإن عرفه أحد منهم فاسأله عمن باعه منه فإذا ذلك عليه فاسأل المشتري عن ذلك ونقّر عن خبره ، فغاب الرجل ثلاثة أيام ثم عاد فقال : لازلّت أسأل عن خبره حتى انتهى إلى فلان الهاشمي اشتراه مع عشرة جرب وشكى البائع شره وفساده ومن جملة ما قال أنه كان يعشق فلانة المغنية ، وأنه غيبها

فلا يُعرف لها خبر وادعى أنها هربت والجيران يقولون قتلها، فبعث المعتضد من كبس منزل الهاشمي وأحضره وأحضر اليد والرجل وأراه إياهما فلما رآهما انتقع لونه وأيقن الهلاك واعترف فأمر المعتضد بدفع ثمن الجارية إلى مولاها وحبس الهاشمي حتى مات في الحبس^(١).

في هذا الخبر بيان اهتمام أمير المؤمنين المعتضد بالله بأمور رعيته، حيث انزعج من تلك الجريمة التي اطلع عليها، وأبدى اهتمامه الشديد في الأمر وأعمل فكره من أجل الوصول إلى مصدر الجريمة، ولما وقع في يده خيط من خيوطها وهو الجراب بدأ البحث عن صاحب الجريمة، ومن طريق صانعي الجرب توصل إلى الرجل المتهم، فأجرى حكم العدالة عليه.

وهذه نبأهة قوية وفراصة جيدة حيث توصل بمعرفة طرف من القضية إلى إدراك حقيقتها .

موقف للقاضي أبي حازم رحمه الله (٢):

قال الإمام ابن القيم رحمه الله : قال مكرم بن أحمد كنت في مجلس القاضي أبي حازم فتقدم رجل شيخ ومعه غلام حدث فادعى الشيخ عليه ألف دينار ديناً فقال: ماتقول ؟ قال: نعم فقال القاضي للشيخ : ماتشاء ؟ قال: حبسه قال: لا فقال الشيخ : إن رأى القاضي أن يحبسه فهو أرجى لحصول مالي، فتفرس أبو حازم فيهما ساعة ثم

(١) الطرق الحكيمة في السياسة الشرعية / ٥٦ .

(٢) هو أبو حازم عبد الحميد بن عبد العزيز تولى القضاء في عهد المعتضد بالله العباسي وابنه المكتفي .

قال: تلازما حتى أنظر في أمركما في مجلس آخر فقلت: له لم أخبرت حبسه؟ فقال: ويحك إني أعرف في أكثر الأحوال في وجوه الخصوم وجه المحق من المبطل وقد صارت لي بذلك دراية لا تكاد تخطيء وقد وقع لي أن سماحة هذا بالإقرار عين كذبه ولعله ينكشف لي من أمرهما ما أكون معه على بصيرة، أما رأيت قلة تعاصيهما في المناكرة وقلة اختلافهما وسكون طباعهما مع عظم المال وما جرت عادة الأحداث بفرط التورع، حتى يقر مثل هذا طوعا عفلا منشرح الصدر على هذا المال، قال: فنحن كذلك نتحدث إذ أتى الآذن يستأذن على القاضي لبعض التجار فأذن له فلما دخل قال: أصلح الله القاضي إني بليت بولد لي حدث يتلف كل مال يظفر به من مالي في القيان عند فلان فإذا منعت احتال بحيل تضطرنني إلى التزام الغرم عنه وقد نصب اليوم صاحب القيان يطالب بألف دينار حالا وبلغني أنه تقدم إلى القاضي ليقر له فيسجنه وأقع مع أمه فيما ينكد عيشنا إلى أن أفضي عنه، فلما سمعت بذلك بادرت إلى القاضي لأشرح له أمره، فتبسم القاضي وقال له: كيف رأيت؟ فقلت: هذا من فضل الله على القاضي فقال عليّ بالغلام والشيخ فأرهب أبو حازم الشيخ ووعظ الغلام فأقر فأخذ الرجل ابنه وانصرفا (١).

فهذه فراسة جيدة من القاضي أبي حازم من ناحية قراءة مافي الوجوه من تأثرات وانفعالات، فلم يتسرع في الحكم بالظاهر المبني على إقرار المدعى عليه لينكشف له من أمور الباطن ما يهديه إلى

(١) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية / ٤٠ .

الوصول إلى الحق، وليس القاضي ملزماً بالحكم الفوري، فإذا كان في شك من القضية فإن في تأجيلها فسحة للتأمل والمقارنة، أو حصول أمر خارجي يكشف الوضع الحقيقي كما هو الحال في هذه القضية .
موقف لصاحب شرطة أمير المؤمنين المكتفي بالله رحمهما الله^(١) :

ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى أن اللصوص أخذوا في زمن المكتفي بالله مالا عظيماً فألزم المكتفي صاحب الشرطة بإخراج اللصوص أو غرامة المال، فكان يركب وحده ويطوف ليلاً ونهاراً إلى أن اجتاز يوماً في زقاق خال في بعض أطراف البلد فدخله مُنكراً ووجده لا ينفذ، فرأى على بعض أبوابه شوك سمك كثير وعظام الصلب، فقال لشخص: كم يقوم التقدير ثمن هذا السمك الذي هذا عظامه؟ قال: دينار، قال: أهل الزقاق لا تحتمل أحوالهم مشترى مثل هذا لأنه زقاق بين الاختلال إلى جانب الصحراء لا ينزله من معه شيء يخاف عليه أو له مال ينفق منه هذه النفقة، وماهي إلا بلية ينبغي أن يكشف عنها فاستبعد الرجل هذا وقال: هذا فكر بعيد فقال: اطلبوا لي امرأة من الدرب أكلمها فددق بابا غير الذي عليه الشوك واستسقى ماء فخرجت عجوز ضعيفة فما زال يطلب شربة بعد شربة وهي تسقيه وهو في خلال ذلك يسأل عن الدرب وأهله وهي تخبره غير عارفة بعواقب ذلك، إلى أن قال لها: وهذه الدار من يسكنها وأوماً إلى التي عليها عظام السمك؟ فقالت: فيها خمسة شبان أعفار^(٢) كأنهم تجار وقد نزلوا

(١) هو أمير المؤمنين علي بن أحمد العباسي وأبوه المعتضد بالله ولقبه المكتفي بالله توفي

في عام خمسة وتسعين ومائتين .

(٢) أي بيض الوجوه .

منذ شهر لانراهم نهارةً إلا في كل مدة طويلة، ونرى الواحد منهم يخرج في الحاجة ويعود سريعاً وهم في طول النهار يجتمعون فيأكلون ويشربون ويلعبون بالشطرنج والنرد ولهم صبي يخدمهم، فإذا كان الليل صعدوا إلى دار لهم بالكرخ ويدعون الصبي في الدار يحفظها، فإذا كان سحرا جاؤوا ونحن نيام لانشعر بهم فقال للرجل : هذه صفة لصوص أم لا؟ قال: بلى، فأنفذ في الحال فاستدعى عشرة من الشرط وأدخلهم إلى أسطحة الجيران ودق هو الباب فجاء الصبي ففتح فدخل الشرط معه فما فاته من القوم أحد فكانوا هم أصحاب الجناية بعينهم (١).

فهذا الخبر فيه موقفان : الأول موقف حزم وقوة وعدالة من أمير المؤمنين المكتفي بالله، حيث استعظم تلك السرقة الكبيرة فجعل رئيس الشرطة بين خيارين : العثور على اللصوص، أو غرامة ذلك المال المسروق، فكان هذا الحزم الشديد دافعا لرئيس الشرطة كي يبذل قصارى جهده في العثور على اللصوص .

والثاني : موقف لرئيس الشرطة حيث بذل جهده وأعمل فكره في البحث عن اللصوص إلى أن اهتدى إليهم بتوفيق الله تعالى ثم بدعائه ونباهته وحسن فراسته .

موقف للوزير محمد بن السَّلم رحمه الله :

من أخبار عبد الرحمن بن الحكم (٢) أنه تكررت الشكوى عليه

(١) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية / ٥٩ - ٦٠ .

(٢) هو أحد أمراء الأندلس .

بولاية المدينة واحد بعد واحد، فأقسم ألا يؤكّي المدينة رجلاً من أهل قرطبة فكشف عن من يستحق هذا من سكّان الكُور من مواليه فأشير له إلى محمد بن السلم، ووُصفَ عنده بالحجّ وحُسن العقل والتواضع فبعث فيه وولاه المدينة، فلما ركب أوّل يوم وُلّي فيه المدينة إلى القصر، قيل له قتل بالقصابين في شيرة^(١) فقال نُوتى به، فلما صار بين يديه أمر بانزال القتيل في الرصيف لعله يمرُّ به أحدٌ ممن يعرفه، وأمر بتقديم الشيرة إليه فنظر إلى شيرة جديدة فقال عليّ بالحصّارين كلهم، تجارهم وعمّال الأيدي. فلما أُتي بهم، قدّم إلى نفسه وجوهم فقال لهم: «عمل الشيرات والقفاف مشته أو يعرف بعضهم عمل بعض». فقالوا له: «بل يعرف بعضنا أعمال بعض، ونعرف أعمال أهل الكور من أعمالنا بقرطبة» فأمر بإبراز الشيرة إليهم فقالوا: «هذه من عمل فلان وهو في الجماعة واقف». فأمر بتقديمه فقدم إليه فقال: نعم هذه الشيرة اشتراها مني بالأمس فتى عليه هيئة خدمة السلطان ووصفه كذا، فقال الشرط والمشترون: هذه صفة فلان الأخرس الساكن برُصافة، فنهض إليه وفُتّش عليه فوجدت ثيابُ القتيل عنده فلما بلغ الخبر عبد الرحمن أمر بتوليته الوزارة مع المدينة، فلما دخل البيت صاروا له كلهم تبعاً في الرأي^(٢).

فهذا الأمير كان حاذقاً في معرفة صاحب الجريمة من متعلقاتها، فكان الخيط الذي عرف به القاتل ذلك الوعاء الذي وُضع فيه القتيل،

(١) الشيرة كالفقة وعاء توضع به الأشياء .

(٢) تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطيه / ١١٤ .

فقاذه ذلك إلى معرفة صانع الوعاء، ثم إلى معرفة من اشتراه حتى انكشفت الجريمة .

وفي الخبر موقف يذكر للأمير عبد الرحمن الحكم في حسن اختيار الولاية ، وتقدير أهل النبوغ والتفوق، فحينما نجح هذا الوالي في كشف تلك الجريمة الخفية كافأه الأمير عبد الرحمن بإسناد الوزارة إليه مع إمارة قرطبة .

موقف للقاضي ابن العديم رحمه الله تعالى :

ذكر الحافظ ابن حجر في ترجمة القاضي إبراهيم بن محمد بن عمر العقيلي ابن العديم: أن ابن العديم ادعى عنده مدعٍ على آخر بمبلغ فأنكر، فأخرج المدعي وثيقة فيها « أقر فلان بن فلان » فأنكر المدعى عليه أن الاسم المذكور في الوثيقة اسم أبيه، قال له: فما اسمك أنت ؟ قال: فلان، قال: واسم أبيك، قال: فلان، فسكت عنه القاضي وتشاغل بالحديث مع من كان عنده حتى طال ذلك، وكان القارئ يقرأ عليه في صحيح البخاري، فلما فرغ المجلس صاح القاضي: يا ابن فلان، فأجابه المدعى عليه مبادراً، فقال له: ادفع لغريمك حقه، فاستحسن من حضر هذه الحيلة التي استغفل بها المدعى عليه حتى التجأ إلى الاعتراف (١).

فهذا من فراسة القاضي ابن العديم ونباهته، فقد اضطر المدعى عليه إلى الاعتراف بالاسم الذي ذكره المدعي بالحيلة، ثم حكم عليه بإقراره، واختصر القضية التي قد تطول بسبب إنكار المدعى عليه .

(١) الدرر الكامنة ١/ ٦٤ - ٦٥ .

موقف للقاضي مصطفى التركي رحمه الله :

هو أحد القضاة في عهد الدولة العثمانية ويعرف « كوجك مصطفى» وقد تولى قضاء الشام سنة إحدى بعد الألف ، وقد سلك في قضائه مسلكا حسنا ، وكان يتحرى في أحكامه ويحررها خصوصا فيما يتعلق بالجند ومدائنتهم .

وكان يحط على المرايين ، وقد دخل عليه خصمان أحدهما جندي ، فحرر عليه ولم يسع الجندي إلا الترك لرباه ، ولما فاته ما يحصل له من الربا أنكر رهنا كان عنده للمدين ، فقال للراهن : أقم عليه البينة ، فقال : إنه لا يتجرأ أحد على الشهادة عليه ، فقال للجندي : ادن مني ، فدنا منه ، فأخذ خاتمه منه وأعطاه للمدعي عليه وقال له : خذ هذا الخاتم واذهب إلى بيت هذا الرجل وقل لهم : أعطوني الرهن الذي صفته كذا وكذا وخذوا هذا الخاتم أمانة ، فذهب وجاء بالرهن كما صفه الراهن فاعترف به .

وكان له من قبيل هذه الفراسة أشياء كثيرة فتهارع الناس إليه في طلب الحقوق ، وكان إذا مر في أسواق دمشق دعا له أهلها (١) .

وهكذا استخرج هذا القاضي القوي الفطن الرهن من ذلك الجندي الجاحد بهذه الحيلة الناجحة ، وبغير هذا التصرف فقد كان من الصعب استخراج الحق منه لعدم جرأة الناس على الشهادة عليه .

وكذلك يكون القضاة الذين نور الله تعالى بصائرهم ووفقهم لحل

(١) المختار المصون للدكتور محمد بن حسن موسى / ١١٦٢ عن خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر للشيخ فضل الله المحبي .

قضايا المسلمين، والفراسة نور يلقيه الله تعالى في قلب المؤمن فيكون
عوناً له على حل المشكلات وتجلية الأمور الخفية، ويساعد على ذلك
اهتمام الإنسان بهذا الأمر واستدامة التفكير فيه ، فإن من وجه تفكيره
لشيء برع فيه .

* * *

فهرس الجزأين السابع عشر والثامن عشر

الموضوع	الصفحة
المقدمة	
مواقف وعبر في الحلم والعفو	١٣
- مثل من حلم رسول الله ﷺ	١٥
- من مواقف أبي بكر وعمر رضي الله عنهما	١٩
- من مواقف عثمان رضي الله عنه	٢١
- من مواقف أبي هريرة رضي الله عنه	٢٣
- من مواقف معاوية رضي الله عنه	٢٣
- من مواقف الأحنف بن قيس	٣٠
- من مواقف هشام بن عبد الملك	٣٥
- من مواقف أبي جعفر المنصور	٣٥
- من مواقف يحيى بن هبيرة	٣٩
مواقف وعبر في التواضع والرحمة	٤١
- أمثلة من تواضع النبي ﷺ ورحمته	٤٣
- من مواقف أبي بكر وعمر رضي الله عنهما	٥٢
- من مواقف عمر رضي الله عنه	٥٣
- من مواقف عثمان رضي الله عنه	٦٢
- من مواقف علي رضي الله عنه	٦٢
- من مواقف أبي هريرة رضي الله عنه	٦٤

- ٦٤ - من مواقف عبد الله بن سلام رضي الله عنه
- ٦٥ - من مواقف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه
- ٦٦ - من مواقف المقداد بن عمرو رضي الله عنه
- ٦٧ - من مواقف حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما
- ٦٩ - من مواقف سلمان الفارسي رضي الله عنه
- ٧٤ - من مواقف عبد الله بن عمر رضي الله عنهما
- ٧٥ - من مواقف مُطَرِّف بن عبد الله
- ٧٥ - من مواقف محمد بن سيرين
- ٧٦ - من مواقف سليمان بن مهران
- ٧٦ - من مواقف سفيان الثوري
- ٧٧ - من مواقف عبد الله بن المبارك
- ٧٦ - من مواقف أمير المؤمنين المأمون
- ٧٩ - من مواقف يزيد بن هارون
- ٨٠ - موقف لإسماعيل بن عُلَيَّة
- ٨١ - موقف لقتيبة بن سعيد
- ٨١ - موقف لأحمد بن حنبل
- ٨٢ - من مواقف إسحاق بن راهويه وإسماعيل بن أبي إدريس
- ٨٢ - من مواقف أبي عبد الله البخاري
- ٨٣ - من مواقف ابن هبيرة

- موقف لأبي طلحة وأم سليم رضي الله عنهما ٩٧
- من مواقف سلمان الفارسي رضي الله عنه ١٠٠
- من مواقف عبد الله بن حذافه رضي الله عنه ١٠٨
- من مواقف عروة بن الزبير ١١٣
- من مواقف إبراهيم الحربي ١١٥
- من مواقف ابن تيمية ١١٦

١١٩ مواقف وعبر في مجال الكرم

- مثل من كرم رسول الله ﷺ ١٢١
- من أخبار طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه ١٢٣
- من أخبار عثمان بن عفان رضي الله عنه ١٢٥
- من أخبار علي بن أبي طالب رضي الله عنه ١٢٦
- من أخبار أبي طلحة رضي الله عنه ١٢٨
- من أخبار عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ١٣٠
- من أخبار الزبير بن العوام رضي الله عنه ١٣١
- من أخبار عمرو بن العاص رضي الله عنه ١٣١
- من أخبار عائشة رضي الله عنها ١٣٢
- من أخبار أبي هريرة رضي الله عنه ١٣٣
- من أخبار عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ١٣٤
- من أخبار عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ١٣٥
- من أخبار الحسن بن علي رضي الله عنهما ١٣٥
- من أخبار حارثة بن النعمان رضي الله عنه ١٣٧

- ١٣٧ - من أخبار معاذ بن الحارث رضي الله عنهما
- ١٣٩ - من أخبار سعد بن عبادة وابنه قيس رضي الله عنهما
- ١٤٠ - من أخبار عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما
- ١٤٥ - من أخبار حكيم بن حزام رضي الله عنه
- ١٤٦ - من أخبار سعيد بن العاص
- ١٥١ - من أخبار عبيد الله بن عباس
- ١٥٤ - من أخبار عرابة الأوسي
- ١٥٦ - من أخبار علي بن الحسن
- ١٥٧ - من أخبار الليث بن سعد
- ١٥٨ - من أخبار ابن شهاب الزهري
- ١٥٩ - من أخبار عبد الله بن المبارك
- ١٦١ - من أخبار أبي النجم الكردي
- ١٦٢ - من أخبار الأوزاعي
- ١٦٣ - من أخبار أمير المؤمنين المهدي
- ١٦٤ - من أخبار البخاري
- ١٦٧ - من أخبار الشافعي
- ١٧٠ - من أخبار الواقدي
- ١٧١ - من أخبار ابن مهدي
- ١٧٢ - من أخبار سوار صاحب المهدي
- ١٧٤ - من أخبار ابن أدهم
- ١٧٤ - من أخبار بقي بن مخلد
- ١٧٥ - من أخبار محمد بن عباد

الموضوع الصفحة

- من أخبار دعلج السجستاني ١٧٦
- من أخبار الوزير ابن هبيرة ١٧٧
- من أخبار الوزير علي بن عيسى بن الجراح ١٧٩
- من أخبار عبد الغني المقدسي ١٨١

١٨٣ مواقف وعبر في العدل والاهتمام بالمسئولية

- من مواقف أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ١٨٥
- اهتمام عمر بأهل الذمة ١٨٥
- محاسبته سعدا في بناء بيت له ١٨٩
- جوابه لمن أمره بالتقوى ١٩٣
- تحاكمه مع أبي بن كعب إلى زيد بن ثابت ١٩٣
- إعلانه الاستعداد لإنصاف الرعية ١٩٥
- اهتمامه بحراسة المسلمين في الليل ١٩٧
- مثل من تفقده أحوال المسلمين في الليل ٢٠١
- طلبه من سعد أن يقتص منه ٢٠٦
- محاسبته أهله وأبناءه ٢٠٧
- مثل من اهتمامه بأموال المسلمين ٢١٠
- تورعه في صرف مال المسلمين ٢١١
- محاسبته نفسه في رعيته ٢١٢
- خبره مع الخطيئة ٢١٥
- خبره مع سلمان حينما اعترض عليه ٢١٦
- خبره مع القبطي الذي ضربه ابن عمرو بن العاص ٢١٧

الموضوع	الصفحة
- اهتمامه بالمسئولية	٢١٩
- مثل من عدالة عمر في توزيع العطاء	٢٢٨
- سؤال عمر عن أمرائه	٢٢٩
- اهتمامه بتولية الأكفاء	٢٣٠
- بيان شيء من سياسته	٢٣٠
- من مواقف أمير المؤمنين معاوية	٢٣١
- موقف لأمر المؤمنين يزيد بن عبد الملك	٢٣١
- من مواقف أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور	٢٣٢
- من عدالة القاضي أبي يوسف	٢٣٣
- من مواقف القاضي حفص بن غياث	٢٣٤
- من مواقف أمير المؤمنين المأمون	٢٣٨
- من مواقف أمير المؤمنين المعتضد	٢٣٩
- من مواقف القاضي يوسف بن يعقوب	٢٤٨
- موقف للأمير بدر بن حسنويه	٢٤٩
- موقف للسلطان الحفصي	٢٥٠

٢٥٣	مواقف وعبر في تقدير أهل الفضل
٢٥٥	- تقدير النبي ﷺ لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما
٢٥٧	- من مواقف أبي بكر وعمر رضي الله عنهما
٢٦٧	- من مواقف علي بن أبي طالب رضي الله عنه
٢٧١	- من مواقف سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه
٢٧٢	- من مواقف كعب بن مالك رضي الله عنه

الموضوع	الصفحة
- من مواقف أبي الدرداء رضي الله عنه	٢٧٤
- من مواقف ابن عباس رضي الله عنهما	٢٧٥
- من مواقف معاوية رضي الله عنه	٢٧٦
- من مواقف أبي موسى الأشعري رضي الله عنه	٢٧٨
- من مواقف حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما	٢٧٩
- مواقف للشفاء بنت عبد الله	٢٨١
- من مواقف عمر بن عبد العزيز	٢٨٢
- من مواقف الحسن البصري	٢٨٣
- من مواقف محمد بن علي بن الحسين	٢٨٤
- موقف لابن حنبل وابن راهويه وأبي عبيد	٢٨٥
- موقف لعمر بن علي الفلاس	٢٨٩
- موقف لسهل بن عبد الله التستري	٢٩٠
- موقف لنوح بن نصر	٢٩١
- موقف لإسماعيل الساماني	٢٩٢
- موقف لمحمد بن يحيى الذهلي	٢٩٣
- موقف لطاهر بن عبد الله	٢٩٥
- موقف لمحمد بن بشار	٢٩٦
- موقف للحسين ابن فطيمه	٢٩٧
- موقفان لمحمد بن يوسف القاضي وأبيه	٢٩٩
- موقف لأبي مسلم الكجي	٣٠٠
- موقف لإبراهيم الحربي	٣٠١
- موقفان لابن المديني والبخاري	٣٠٢

٣٠٣

- موقف لإسماعيل بن أبي أويس

٣٠٧

مواقف وعبر في إخلاص النية

٣١١

- من مواقف أبي الدرداء رضي الله عنه

٣١١

- من مواقف أبي جعفر القارئ

٣١٢

- من مواقف سفيان الثوري وفضيل بن عياض

٣١٥

- من مواقف سفيان بن عيينة

٣١٦

- من مواقف هشام الدستوائي

٣١٦

- من مواقف الشافعي

٣١٩

مواقف وعبر في الاهتمام بالعلم

٣٢١

- من مواقف أبي هريرة رضي الله عنه

٣٢٢

- من مواقف تميم الداري رضي الله عنه

٣٢٢

- من مواقف أبي الدرداء رضي الله عنه

٣٢٣

- من مواقف عبد الله بن عباس رضي الله عنهما

٣٢٤

- من مواقف مكحول الدمشقي

٣٢٥

- من مواقف عكرمة مولى ابن عباس

٣٢٦

- من مواقف أبي الزناد

٣٢٦

- من مواقف ابن شهاب الزهري

٣٢٧

- من مواقف أبي بكر الباغندي

٣٢٨

- من مواقف ابن المسيب وقتادة

٣٢٩

- من مواقف أبي حنيفة النعمان

- ٣٢٩ - من مواقف عبد الملك بن جريج
- ٣٢٩ - من مواقف مالك بن أنس
- ٣٣٤ - موقف لعبد الله القعني
- ٣٣٤ - من مواقف أبي حنيفة وأبي يوسف
- ٣٣٦ - من مواقف هاشم السلمي وأبي شيبة
- ٣٣٧ - موقف لهشام بن عمار
- ٣٣٨ - من مواقف أبي يوسف الفسوي
- ٣٣٨ - من مواقف ابن المبارك وعلي بن الحسن بن شقيق
- ٣٣٩ - من مواقف إسماعيل بن عياش
- ٣٤٠ - من مواقف أبي جعفر المنصور مع أحد العلماء
- ٣٤٠ - من مواقف عاصم بن علي
- ٣٤٢ - من مواقف علي بن عاصم
- ٣٤٤ - موقف لعبد الله الخريبي
- ٣٤٤ - موقف لابن المديني
- ٣٤٥ - من مواقف أبي حاتم التميمي وزملائه
- ٣٤٦ - من مواقف سليمان بن حرب
- ٣٤٨ - من مواقف يحيى بن معين
- ٣٥١ - من مواقف علي الشقيقي
- ٣٥١ - من مواقف أبي رجاء قتبية
- ٣٥٢ - من مواقف ابن حنبل وأبي زرعة وابن راهويه
- ٣٥٨ - موقف لعبد الملك الأصمعي
- ٣٥٩ - موقف لأحمد الرمادي

- ٣٦٠ - من مواقف أبي عبد الله البخاري
- ٣٦٢ - من مواقف ابن أبي حاتم وزملائه
- ٣٦٣ - من مواقف مسلم بن الحجاج
- ٣٦٤ - من مواقف أبي مسلم الكجي
- ٣٦٤ - موقف لأبي حاتم الرازي
- ٣٦٥ - من مواقف علي بن أبي طاهر
- ٣٦٦ - من مواقف أبي بكر الإسماعيلي
- ٣٦٧ - من مواقف محمد السناني
- ٣٦٩ - من مواقف أبي علي النيسابوري
- ٣٦٩ - من مواقف أبي نعيم الأصبهاني
- ٣٧٠ - من مواقف محمد بن طاهر
- ٣٧٢ - من مواقف محمد الحميدي
- ٣٧٢ - موقف لمحمد المازري
- ٣٧٣ - من مواقف محمد الحازمي
- ٣٧٤ - من مواقف أبي الوفاء ابن عقيل
- ٣٧٥ - من مواقف ابن تيمية

٣٧٧

مواقف وعبر في بذل الجهد في حفظ السنة

- ٣٧٩ - المقصود من عرض أخبار الحفاظ
- ٣٨٠ - من أخبار عائشة رضي الله عنها
- ٣٨٠ - من أخبار زيد بن ثابت رضي الله عنه
- ٣٨٣ - من أخبار أبي هريرة رضي الله عنه

- ٣٨٦ - من أخبار عبد الله بن عباس رضي الله عنهما
- ٣٨٩ - من أخبار ابن شهاب الزهري
- ٣٩٣ - من أخبار قتادة السدوسي
- ٣٩٤ - من أخبار وكيع بن الجراح
- ٣٩٥ - من أخبار أحمد بن حنبل
- ٣٩٦ - من أخبار شعبة بن الحجاج
- ٣٩٧ - من أخبار علي بن المديني
- ٣٩٩ - من أخبار إسحاق بن راهويه
- ٤٠٠ - من أخبار أبي عبد الله البخاري
- ٤٠٥ - من أخبار أبي بكر الأثرم
- ٤٠٦ - من أخبار إسحاق بن بهلول
- ٤٠٧ - من أخبار أبي عيسى الترمذي
- ٤٠٨ - من أخبار الحسن بن سفيان
- ٤٠٨ - من أخبار الحسين النيسابوري وأحمد بن جوصا
- ٤١٠ - من أخبار عبد الرحمن بن الحُتلي
- ٤١٠ - من أخبار محمد العقيلي
- ٤١١ - من أخبار محمد بن المظفر
- ٤١١ - من أخبار ابن جوصا
- ٤١٢ - من أخبار أبي الحسن الدارقطني
- ٤١٣ - خبر الحاكم مع بديع الزمان الهمذاني
- ٤١٤ - من أخبار أبي نصر ابن ماکولا
- ٤١٥ - من أخبار القاسم الشاطبي

- ٤١٥ - من أخبار أبي زرعة والشاذكوني
- ٤١٧ - من أخبار محمد بن يحيى الذهلي
- ٤١٨ - من أخبار عبد الله بن بكير
- ٤١٩ - خبر في بيان أهمية الذاكرة
- ٤٢٠ - من أخبار أبي بكر الأنباري
- ٤٢١ - من أخبار أبي بكر بن أبي داود
- ٤٢٢ - من أخبار أحمد بن عقدة
- ٤٢٥ - من أخبار محمد بن عبد الواحد
- ٤٢٦ - من أخبار أبي عبد الله الحاكم والخليل بن عبد الله
- ٤٢٨ - من أخبار عبد الغني المقدسي
- ٤٢٩ - من أخبار محمد اليونيني

٤٣١

مواقف العلماء في معاناة المشقة

- ٤٣٣ - موقف لأبي حاتم الرازي
- ٤٣٤ - موقف آخر لأبي حاتم وصاحبيه
- ٤٣٦ - موقف لمحمد بن طاهر
- ٤٣٧ - موقف لأبي القاسم الطبراني
- ٤٣٧ - موقف لمحمد بن إسحاق ابن منده
- ٤٣٨ - موقف لأبي المظفر السمعاني
- ٤٣٩ - موقف لأبي عبد الله البخاري
- ٤٤٠ - موقف لمحمد بن يحيى الذهلي
- ٤٤٠ - من مواقف حجاج بن يوسف

الموضوع الصفحة

- ٤٤١ - خبر المحدثين الأربعة في مصر
- ٤٤٢ - موقف لأبي الفضل العجلي
- ٤٤٤ - من مواقف أبي القاسم ابن عساكر
- ٤٤٥ - موقف لحنبل بن عبد الله
- ٤٤٧ - من مواقف أبي الوقت السجزي
- ٤٥٠ - من مواقف ابن طاهر القيسراني
- ٤٥١ - من مواقف عبد القادر الجيلاني

٤٥٣ مواقف وعبر في الأدب العلمي

- ٤٥٥ - من مواقف عبد الله بن عباس رضي الله عنهما
- ٤٥٥ - من أخبار طلاب العلم من التابعين
- ٤٥٦ - من مواقف القاسم بن محمد
- ٤٥٧ - من مواقف مالك بن أنس
- ٤٥٩ - موقف لسفيان بن عيينة
- ٤٦٠ - موقف ليحيى بن معين
- ٤٦٠ - موقف للقاسم بن سلام
- ٤٦١ - من مواقف عبد الله الأنصاري وناصر المروزي
- ٤٦٢ - من مواقف ابن المبارك وحماد بن زيد
- ٤٦٣ - موقف لعطاء بن رباح

٤٦٥ مواقف وعبر في النقد العلمي

- ٤٦٧ - من مواقف عبد الله بن عباس رضي الله عنهما

- ٤٧٤ - من مواقف محمد بن إدريس الشافعي ..
- ٤٧٦ - موقف ليحيى القطان
- ٤٧٧ - من مواقف يحيى بن معين ونعيم بن حماد
- ٤٧٩ - من مواقف أبي حاتم وأبي زرعة
- ٤٨٣ - من مواقف ابن حنبل وأحمد بن صالح
- ٤٨٥ - من مواقف ابن المنادي
- ٤٨٦ - موقف للخطيب البغدادي
- ٤٨٧ - موقف لموفق الدين ابن قدامة
- ٤٨٨ - من مواقف محمد بن الطيب المالكي
- ٤٩٥ - **مواقف وعبر في إعزاز العلم وتكريم أهله**
- ٤٩٧ - من مواقف عبد الله بن عباس رضي الله عنهما
- ٤٩٨ - موقف لأبي عبد الله مكحول الشامي
- ٤٩٨ - من مواقف مالك بن أنس
- ٥٠٢ - من مواقف أبي جعفر المنصور
- ٥٠٣ - موقف للقاضي شريك النخعي
- ٥٠٣ - موقف لعبد الله بن المبارك
- ٥٠٤ - من مواقف المأمون
- ٥٠٦ - موقف لطاهر بن الحسين وابنه عبد الله
- ٥٠٨ - من مواقف يحيى بن هبيرة
- ٥١١ - **مواقف وعبر في الحكمة والفراسة وسرعة البديهة**
- ٥١٣ - من مواقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه

- ٥١٤ - مثل من حكمته في علاج المشكلات
- ٥٢٠ - عام الرمادة ومواقف لعمر رضي الله عنه
- ٥٣٠ - موقف لكعب بن سور رضي الله عنه
- ٥٣١ - من مواقف عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه
- ٥٣٣ - من مواقف المغيرة بن شعبة رضي الله عنه
- ٥٣٤ - من مواقف معاوية رضي الله عنه
- ٥٣٩ - موقف لعبد الملك بن مروان
- ٥٤٠ - من مواقف القاضي إياس
- ٥٤٣ - من مواقف يحيى الليثي
- ٥٤٥ - من مواقف المنصور العباسي
- ٥٤٦ - من مواقف أحمد بن طولون
- ٥٤٨ - من مواقف المعتضد العباسي
- ٥٥٠ - موقف للقاضي أبي حازم
- ٥٥٢ - موقف لصاحب شرطه المكتفي بالله
- ٥٥٣ - موقف لمحمد بن السَّلم
- ٥٥٥ - موقف للقاضي ابن العديم
- ٥٥٦ - موقف للقاضي مصطفى التركي